

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة وهران
Université d'Oran
www.univ-oran.dz

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
قسم التاريخ وعلم الآثار

نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي

تحت إشراف:أ.د(ة) فاطمة بلهواري

من إعداد الباحثة: نوال بلمداني

لجنة المناقشة:

.أ.د عبد القادر بوباية	جامعة وهران	رئيسا
أ.د(ة) فاطمة بلهواري	جامعة وهران	مقررا
أ.د عبيد بوداود	جامعة معسكر	مناقشا
أ.د خالد بلعربي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
د. غازي الشمري	جامعة وهران	مناقشا
د. بلبشير عمر	جامعة معسكر	مناقشا

السنة الجامعية: 1434-1435هـ/ 2013-2014م

ملخص الأطروحة

عرف الرعي وتربية الحيوانات انتشارا واسعا عبر العديد من مناطق المغرب الأوسط، وارتبط ارتباطا وثيقا بالظروف الطبيعية والعوامل البشرية، وكلها عوامل أثرت على النمط المعيشي لدى القبائل الرعوية خاصة الرحل منهم، اللذين اتخذوا من الترحال والتنقل عبر الفيافي وسيلة لتوفير حاجة مواشيهم من الماء والكلأ، داخل مجتمع أثبتت الدراسة المعنونة ب "**نظام الرعي في المغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/10-11م**" أنه رعوي بالدرجة الأولى، خاصة وأن أهم القبائل المستقرة به زناتية، مشهورة بطابعها الرعوي بنوعيه المستقر والمتنقل.

إنّ اهتمام الأفراد داخل المجتمع البدوي في المغرب الأوسط بالثروة الحيوانية من مواشي ودواب، شجع على ازدهار الأنشطة الاقتصادية المختلفة، إلى جانب ذلك شكلت هذه الثروة مصدرا هاما للمواد الأولية لتلبية حاجيات الأفراد، لذلك يعد الحفاظ عليها وتحسين أنواعها من الضروريات.

Traduction :

" L'élevage et le pâturage étaient répandus dans de nombreuses régions du Maghreb Central, et ont été associés de près aux conditions naturelles et humaines, qui ont à leur tour influencé le mode de vie des tribus pastorales, en particulier les nomades. Ces derniers parcouraient les déserts afin de fournir l'eau et les pâturages nécessaires à leurs troupeaux. L'étude que nous avons menée intitulée : **" Le l'organisation pastoral dans le Maghreb Central au cours des siècles 4-5 hégire / 10-11 de notre ère"**, a démontré que la société était principalement pastorale, d'autant plus que la plupart des tribus sédentaires appartenaient à la tribu des Zanata, célèbre par ses deux modes pastoraux : mobile et stable.

L'intérêt des individus au sein de la communauté bédouine pour l'élevage au Maghreb Central, a influencé les diverses activités économiques, de plus l'élevage a constitué une source importante de matières premières répondant aux besoins des individus, de sorte qu'il était impératif de maintenir et d'améliorer cette activité."



﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴿٥﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴿٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴿٧﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴿٨﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

سورة النحل، الآية٣- ٠٨.

كلمة شكر وتقدير

بعد بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم، أشكر الله مولاي وخالقي الذي منّ عليّ بإتمام هذا العمل.

اهدي هذا العمل إلى اللذين عاشوا من أجل أن أحيا، من أجل أن أصير، إلى أمي وأبي، إلى جميع أفراد أسرتي.

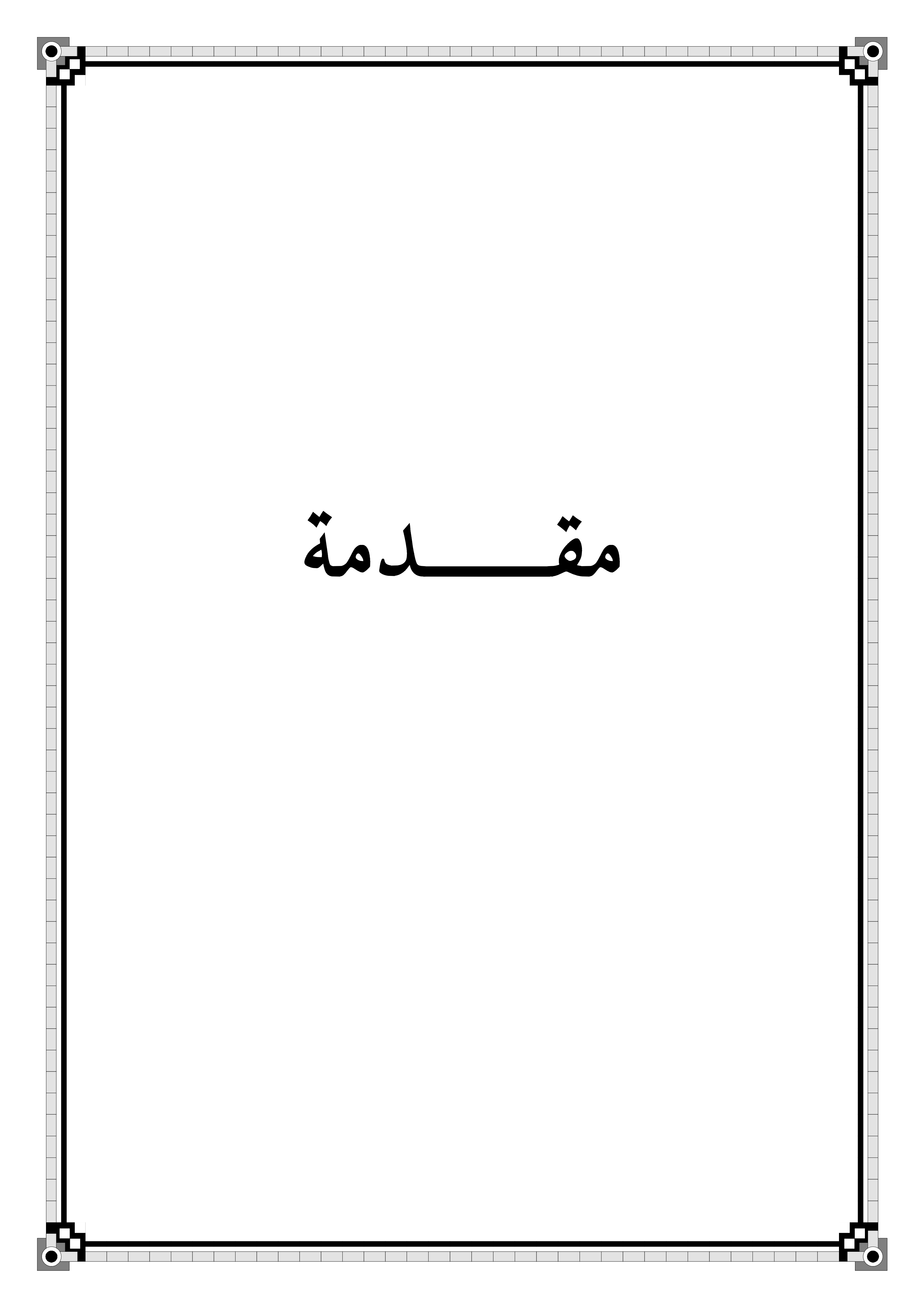
ومن باب الاعتراف بالجميل، أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان الكبير إلى الدكتوراه الأستاذة بلهواري فاطمة، التي تفضلت مشكورة بقبول الإشراف على هذا البحث، أحيى فيها روح البحث العلمي الصارم، بملاحظاتها السديدة، حيث كانت بمثابة الموجهة الناصحة والأستاذة، بتواضعها الرفيع وأخلاقها العالية، فلم تكن تبخل علي بتوجيهاتها الدقيقة، فجزاها الله عني أحسن الجزاء.

كما أتوجه بخالص الشكر إلى الأستاذ الدكتور الفاضل بوباية عبد القادر، الذي ساعدني، ووضع مكتبته رهن إشارتي، كما أجزل خالص الشكر للأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش على ما قدمه لي من توجيهات علمية سديدة من خلال الجلسات العلمية بجامعة مكناس.

كذلك أتقدم بالشكر الجزيل وبالغ الامتنان إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة لقبولهم المشاركة في مناقشة هذه الرسالة فلهم مني الاحترام والتقدير.

كما أتقدم بالعرفان والشكر الجزيل للزميلة الأستاذة بودالية تواتية لوقوفها بجانبي ومد يد العون لي والمساعدة في سبيل بلوغ رسالتي هاته ما بلغته داعية المولى عز وجل أن يكللها برعايته وحفظه.

وأخيرا أتقدم بكل الشكر الجزيل والتقدير والاحترام لكل من وقف بجانبي من قريب أو من بعيد في سبيل إتمام رسالتي، وأخص بالذكر الأساتذة الأفاضل: بلبشير عمر، بوشريط أمحمد، صندوق ستي، مقرانطة بختة.



مقـــــدمة

مثل الرعي حرفة أساسية عرفها الإنسان منذ القديم، ولا يكاد أي مجتمع يخلو من ثروة حيوانية، ساهمت وبصورة بارزة في توفير أشياء يَحفَظ بها الأفراد بقاءهم ووجودهم في الحياة لقوله عز وجل: ﴿**وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [1]؛ فالحيوانات كانت ولا تزال الرفيق الدائم للإنسان وشديدة الارتباط به، منها مأكله وتنقله وملبسه.

وبالرغم من أهمية هذه الحرفة، لاسيما خلال الفترة الوسيطية، إلاّ أن الكثير من الباحثين يعتقدون أنها تقتصر على خروج الرعاة وراء قطيع من الغنم أو الأبقار في المراعي، لكنها في الواقع جزء من الفلاحة، ولا يمكن لأي طرف الاستغناء عن الآخر، وفي نفس السياق احتلت تربية الحيوانات الرعوية مكانة هامة بالنسبة لمختلف الأنشطة الاقتصادية بما قدمته من مواد أولية وتوفير وسائل التنقل، كما تعد قطعان المواشي مصدرَ ثروةٍ للرعاة، وعليها تقوم حياتهم، وبالارتباط بها تدور تنظيماتهم الاجتماعية وخصائصهم الثقافية، لكن يبقى هذا الدور مجهولا بالنسبة للمغرب الأوسط، وعليه وباقتراح من الأستاذة المشرفة الدكتورة بلهواري فاطمة وتشجيعا منها على الخوض في مجال الدراسات الاقتصادية والاجتماعية المسكوت عنها تم اختيار موضوع بعنوان "**نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ / 10-11م**".

أطمح من خلال هذا العمل إلى اقتحام موضوع ظل إلى فترة قريبة حسب رأيي ومن خلال ما اطلعت عليه من أبحاث ودراسات مهملا، وكذلك الرغبة في الخروج عن الإطار الذي انحصرت فيه أغلب الدراسات الحديثة، والتي انصبت على الجانب السياسي أو الفكري، أما النشاط الرعوي وتنظيمه فلم أصادف له أي عمل منفرد ماعدا رسالة الماجستير التي قام بانجازها الباحث موسى هواري من جامعة الجزائر تحت عنوان "**تربية الحيوانات في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين**"، نوقشت الرسالة خلال السنة الجامعية (2008-2009م)، تحت إشراف د. بن عميرة محمد، والملاحظ أنها شغلت حيزا جغرافيا واسعا وفترة زمنية طويلة، مع إغفال جوانب هامة لها علاقة بنظام الرعي.

[1] -سورة النحل، الآية5.

إن إغفال مثل هذا المجال الهام بالنسبة لمجتمعنـا- المغـرب الأوسـط-، يجعـل فهمنـا لماضـينا ناقصا ومبتورا، كما يساعد هذا النوع من الموضوعات علـى تصـحيح بعـض المفـاهيم الخاطئـة، وسد بعض الثغرات، لما يطرقه من قضايا متنوعة تخص الفـرد والمجتمـع، وفي هـذا الإطـار تظهـر أهمية الموضوع، ومبررات الاختيار، كما أن غياب دراسات متخصصة فيه، كـان عـاملا مشـجعا للمضي في استقصاء أخبـاره، والخـوض في غمـار البحـث، وإثـارة الانتبـاه إلى هـذا النـوع مـن الدراسات.

لكن من خلال معالجتي للموضوع وجدت نفسي أمام عـدة تسـاؤلات شـكلت الأساسـية المحاور الأساسية في إشكالية الموضوع؛ هل انحصر الرعي ضمن فئة معينـة مـن المجتمـع؟ مـا هـي العوامل والظروف التي تحكمت في توزيع وتربية ثرواته الحيوانية؟ ما طبيعة العلاقة بـين الراعـي وصاحب الماشية، فيما يخص الأجـرة وقضـية التضـمين؟ كيـف نفسـر الحركيـة القبليـة وهجـرة الأفراد من مكان إلى آخر في ظل مجتمع رعوي تحكمت فيه مجموعة مـن العوامـل خـلال الفـترة الممتدة من القرن 4هـ/ 10م إلى غاية نهاية القرن 5هـ/ 11م؟ وما موقف السلطة الزمنية من كـل ذلك؟.

وانسجاما مع قضايا البحث المتعددة، والمناهج المعتمدة، فقد تم تقسيم الموضـوع إلى مقدمـة وأربعة فصول وخاتمة.

الفصل الأول

تناولت فيه العوامـل المتحكمـة في توزيـع وتربيـة الثـروة الحيوانيـة الرعويـة مـن مواشـي ودواب، وذلك بالتطرق لعامل التضاريس ومدى تأثيرها على باقي العناصر الأخرى مـن منـاخ ووفرة مياه وغطاء نباتي، لأن هذه العوامـل أساسـية في توزيـع الحيوانـات كـل حسـب شـروط عيشه، والمناطق المناسبة لها، ثم عرجت لتحديد العوامل المـؤثرة في تربيتهـا وقسـمتها إلى عوامـل طبيعية كالجفاف، والسيول وغيرها من المـؤثرات، وأخـرى بشـرية، ومـن أبـرز مظاهرهـا كثـرة الحروب والفتن وما رفق ذلك من اضطرابات أثرت بشكل جلي على حرفة الرعي.

الفصل الثاني

خصص للتعريف بأهم القبائل الرعوية بالمغرب الأوسط، وأهم مـواطن اسـتقرارها تحـت سلطات زمنية مختلفة، تضاربت مصالحها بالمنطقة مـن أجـل بسـط نفوذهـا أو مـن أجـل تحقيـق أطماع اقتصادية بالدرجة الأولى، وكذا التركيز على علاقة السلطة ومدى تحكمها في حركية هـذه القبائل، والآثار المترتبة عن ذلك، علما أن مجـال البحـث عـرف كغـيره مـن مجتمعـات المغـربين الأدنى والأقصى، قبائل مستقرة وأخرى متنقلة.

الفصل الثالث

تناولت من خلاله النشاط الرعوي، وأهم المناطق التي عرفت انتشارا واسعا للحرفة، هاته الأخيرة التي كان لها أهمية في إنعاش مختلفة الأنشطة الاقتصادية بـالمغرب الأوسـط، مـع التركيـز على العلاقة التي ربطت الرعاة بأصحاب الماشية، وأمور أخرى كثيرة لهـا علاقـة بـأجرة الراعـي وتضمينه في حالة تفريطه أو تعديه.

الفصل الرابع

تعرضت فيه إلى المجالات التي استغلت فيها الثروة الحيوانية في المغرب الأوسـط، وتناولـت فيه الكيفية التي تمت بها الاستفادة منها؛ فالزراعة مثلا تحتاج إلى حرث وتسميد وسـقي ودراس، وهذا العمل لا يقوم به الإنسان بمفرده بل بمساعدة الحيوان له، هذا الأخير الذي يحصل على مـا يحتاجه من أعلاف بما تجود به الأرض.

وخلصت في الأخير إلى خاتمة عامة ضمنتها مجموعة من الاستنتاجات التي توصلت إليها، ووضعت بعدها مجموعة من الملاحق ضمت في مجملها خريطـة بـأهم القبائـل الرعويـة بـالمغرب الأوسط، وثيقة بمفهوم الموتان عنـد ابـن خاتمـة، وثيقـة بـأهم القضـايا الفقهيـة الخاصـة بمـواطن تضمين الرعاة، وأضفت إليها ملحق يثبت استغلال زبول الحيوانات في إصلاح التربـة للزراعـة، وأخيرا ملحق ضم مسألة حول ما أفسدته الماشية من الزرع.

واعتمدت في ذلك كله على مـنهج المقاربـة فالمقارنـة ثـم التحليـل، لأن المرحلـة التاريخيـة للبحث تفتقر لأمهات المصادر الفقهية الخاصة بـالمغرب الأوسـط كمجـال جغـرافي، وفي الواقـع

تحمل أهم المصادر المعول عليها في هذا البحث حقائق عن مجتمع بلاد المغرب، ولإعطـاء صـورة واضحة عن خصائص حرفة الرعي بمجـال الدراسـة تم الاسـتعانة بهـذه المصـادر الفقهيـة، الـتي كانت في الغالب بعيدة مكانيا وزمنيا عن مكان وزمن الدراسـة، لكنهـا في الواقـع لا تخـرج عـن فتاوى المذهب المالكي السائد في كامل المغرب الإسلامي، أو عما نقله تلامـذة أنـس بـن مالـك، منهم "ابن القاسم"، ثم حاولت المقابلة بين مختلف الأحكام الصادرة، خاصة تلك المتعلقة بنظـام الرعي، والعلاقة الرابطة بين الراعي وصاحب الماشية، ومقارنتها، كما اعتمدت إلى جانـب ذلـك على بعض المصادر الإباضية لإعطاء صورة عن واقع مجتمـع المغـرب الأوسـط في مجـال الرعـي وتربية الحيوانات على رأسها كتاب "سير الوسياني" لصاحبه أبو الربيع الوسـياني، "الطبقـات" للدرجيني، و"السير" للشماخي.

أهم مصادر ووثائق الأطروحة

ولانجاز هذا العمل رجعت إلى كل ما قدمته المصـادر المعتمـدة مـن مضـامين تاريخيـة دون تغيب أي حدث أو نص كيفما كانت طبيعة المعلومة، لأن ما احتفظت به تلك المصـادر يبقـى لـه أهمية، ما دام تم ذكره ولو بصورة عفوية من قبـل الإخبـاري، وفي كـل الأحـوال أمـدتني كتـب الفلاحة، والمصادر الجغرافية الوسـيطية العربيـة، وكـذلك مصـادر التـاريخ الحـدثي، والمؤلفـات الفقهية، بمادة معرفية ساعدتني في إعطاء صورة عن تطور النشاط الرعوي بالمغرب الأوسط، مـن أهمها أذكر:

النصوص المخطوطة

من خلال إطلاعي على فهارس الخزانة العامة بالرباط وقفت على العديـد مـن النصـوص المخطوطة التي أمدتني بمعلومات، حاولت توظيفهـا حسـب أهميتهـا بالنسـبة لعناصـر الفصـول، ومن أهمها نص مخطوط توفي صاحبه سنة (529هـ/ 1135م)، وعنوانه **"نـوازل ابـن الحـاج"** تحت رقم ج55، بالرغم من أهمية المخطوط إلا أن رداءة الخط الذي كتب به، والخروم المتعـددة التي أصابته، شكلت عائقا في استغلاله على أحسن وجـه، لكـن حاولـت تجـاوز هـذه الصـعوبة

بالاعتماد على المؤلَفَات النوازلية التي استندت على فتاويه على رأسها "المعيار المعرب..." للونشريسي.

كما وقفت بمكتبة الحامة بالجزائر العاصمة على مخطوط هام بعنوان "**تحفة الرعاة ببعض مسائل الرعاة**" للملوي البويعقوبي، بالرغم من أن مؤلفه من المتأخرين إلا أن محتواه ذو قيمة تاريخية لاعتماد صاحبه على مصادر فقهية متقدمة، منها ما استطعت الحصول عليه وتوظيفه في الأطروحة، أما أهميته بالنسبة لموضوع رسالتي فنجده ضمن ديباجة المخطوط، والتي جاء فيها: "هذه فروع تتعلق بالرعاة اجتمعت عندي وخفت ضياعها فأردت جمعها في محل واحد لتحفظ وتسهل مراجعتها على القاضي، وسميتها تحفة القضاة ببعض مسائل الرعاة" [1].

وعليه، فمحتوى المخطوط له علاقة مباشرة بموضوع بحثي، كما أنه دليل على أهمية الرعي وما كان يعانيه القضاة من مشاكل بين أصحاب الماشية والرعاة وبين أصحاب الدواب والمستأجرين، خاصة في مجتمع البادية أين كان العرف هو الغالب، وهذا ما تشير إليه كتب النوازل الفقهية باستعمال عبارة "جرى عليه العرف"، والواضح من خلال نصوص المخطوط أنّ صاحبه ربط بين المرحلة الوسيطية والحديثة من خلال ما وظفه من نصوص لشيوخه وفقهاء عصره، وهذا دليل على استمرارية التعامل بالنصوص الفقهية التي كانت في الأساس تعتمد على مذهب مالك بن أنس، وكانت الأحكام التي أصدرها أساس الفتوى ببلاد المغرب عامة.

المصادر المطبوعة

أولا- كتب الأحكام والنوازل

تعتبر النوازل من الوثائق الهامة التي ساعدت على دراسة موضوع الرعي واكتشاف نظمه، فهي تزخر بإشارات مهمة حول العديد من القضايا، إلا أن هذا النوع من الكتابات يطرح مشكل الزمان والمكان، لأن فترة البحث انحصرت بين القرنين 4هـ- 5هـ/ 10م- 11م ضمن المغرب الأوسط كإطار جغرافي، كما تم توظيف النوازل القديمة في عرض حالات حديثة، وكثيرا

[1]- ضمن مجموع تحت رقم 071253، مكتبة الحامة، الجزائر، ورقة 12.

ما نقف على نازلة واحدة جمعت أقاويل مفتين ينتمون إلى مجالات وأزمنة مختلفة، خاصة بالنسبة لمسألة تضمين الراعي وأمام غياب نصوص نوازلية محلية- المغرب الأوسط-.

غير أن حرص أصحاب هذا النوع من المصادر على جمع القضايا وتبويبها وفق مرجعية فقهية معهودة، لا يمكن أن تكون مجرد عملية نقل لمن سبقها دون ارتباط بمجريات الواقع المعاش، وهذا ما يؤكده الباحث محمد حسن قائلا: "ثم أن اعتماد الونشريسي على موطأ أو مدونة سحنون لا يمكن أن يفقد نوازله كل دلالاتها التاريخية نظرا لشمولية الفكر العربي الإسلامي وتشابه نظم العيش في بلاد المغرب طوال عصور تمتاز بالرتابة التقنية والتطور البطيء" [1]، ومن هذا المنطلق وظفت النصوص الفقهية على واقع مجتمع المغرب الأوسط.

من أهم كتب الأحكام والنوازل التي أفادتني في إنجاز فصول هذا البحث:

*"**النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**" لابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (ت386هـ/ 996م) [2]، أخذ العلوم الشرعية عن جمع غفير من كبار الأئمة الأعلام من أهل القيروان، ترك ابن أبي زيد العديد من الكتب والمؤلفات التي تزيد على الأربعين، تنوعت بين الفقه والعقائد والأخلاق، ومن أهمها بالنسبة لموضوع بحثي "النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات"، والمطبوع في خمسة عشر مجلدا، أفادني في قضية التضمين وشروط الاسترعاء وعيوب الحيوانات، كما أن أهميته تكمن في كونه مصدرا عول عليه الكثير من فقهاء المالكية في إصدار أحكامهم.

*"**الأحكام**"، للشعبي، أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم المالقي (ت497هـ/ 1103م) [3]، عالم بالأحكام والنوازل انفرد ببلده برئاسة الفتوى نحوا من ستين سنة، بالرغم من أنّ المؤلف أندلسي الأصل إلاّ أنه من قضاة القرن 5هـ/ 11م الذين داع صيتهم بفضل جهودهم وفتواهم في مسائل المعاملات والأحوال الشخصية، وتكمن أهميته بالنسبة لموضوع

---

[1]- القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، دون طبعة، دون تاريخ، ص31.

[2]- تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

[3]- تحقيق الصادق الحلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م.

البحث في كونه معاصرا لفترة مهمة من الدراسة والتي تمثل المرحلة المرابطية، أما من حيث المـادة فقد عالج قضايا فيما يخص قضايا تضمين الرعاة وعلاقتهم بأرباب الماشية، مسألة الدِوَلة وكـراء الـدواب والشـركة، وتقريبـا كلـها مواضـيع وردت لـدى غـيره مـن المـؤلفين أمثـال البرزلـي والونشريسي.

كما يعود اعتمادي على هذا المصدر وتعميـم مسـائله علـى المغـرب الأوسـط إلى الأسـئلة الواردة من أهالي المنطقة على فقهاء وقضاة الأندلس؛ حيث يذكر صاحب كتاب الأحكام ثلاث قضايا من بجاية طرحت على فقهاء من الأندلس، إحداها السؤال الذي وجهه قاضي بجايـة "أبـو إسحاق" إلى ابن الشرفي (ت438هـ/ 1047م) بقرطبة حول "الصدقة على بعـض الأولاد دون البعض" [1]، لكن المؤلف لم يشر إلى أسئلة وجهت في باب الرعي.

***"جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام"**، للبرزلي، أبو القاسم محمـد بـن أحمـد البلوي القيرواني (ت841هـ/ 1439م) [2]، وهو من الكنوز الخطيـة، شـارك صـاحبها في حيـاة مجتمعه بعلمه وسلوكه القيم، عاصر أساتذة كبارا كابن مرزوق الخطيب (ت781هــ/ 1370م)، وغيره من الشيوخ الذين تمرَّس على أيديهم في الفتوى والفقه والأحكام، وتكمـن أهميـة كتـاب "جامع مسائل الأحكام..." في أن مُؤَلفه اعتمد على كتب الفتاوى السابقة عليـه، وقـد اسـتعنت بنوازله في القضايا المتعلقة بتضمين الرعاة وتعينهم والأجرة المتفق عليها.

***"الدرر المكنونة في نوازل مازونة"**، للمازوني، أبو زكريـا يحـي بـن موسـى بـن عيسـى المغيلي (ت883هـ/ 1478م)[3]، تولى المـازوني خطـة القضـاء بمازونـة وكـان مـن أكـابر فقهـاء عصره، يحتوي المُؤَلَّف على نوازل عديدة أفتى فيها فقهاء المغرب الأوسـط مـن بجايـة وتلمسـان ومناطق أخرى، وبهذا يتصدر الكتاب كل المصادر من حيث الأهمية الجغرافية بالنسبة لموضوعي بالرغم من فترته الزمنية المتأخرة، لكنه أفادني في مسائل عدة منها: قضـية اتخـاذ الكلـب لحراسـة

[1]- الشعبي، المصدر السابق، ص100.

[2]- تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م.

[3]- تحقيق حساني مختار، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، ط1، 2004م.

الماشية، مسألة الأعراب المعروفين بالسرقة ونهب أموال النـاس، والحكـم في شـراء المواشـي أو الدواب منهم، مع العلم أن السرقة صفة متوارثة لديهم من الأب إلى الابن.

***"المعيار المعرب والجامع المغـرب عـن فتـاوى علمـاء إفريقيـة والأنـدلس والمغـرب"**، للونشريسي، أحمد بن يحي (ت914هـ/ 1509م) [1]، أخذ صاحب هذا المؤلف عن شـيوخ بلـده تلمسان، أما كتاب المعيار فقد حوى مجموعة ضخمة مـن فتـاوى واجتهـادات فقهـاء القـيروان، وبجاية، وتلمسان، وقرطبة، وغرناطة، وسبتة، وفاس، ومـراكش، وغيرهـا مـن عواصـم الغـرب الإسلامي طوال ثمانية قرون، مما يـنم عـن إدراك عميـق لعلمـاء هـذه الـبلاد لمقاصـد الشـريعة الإسلامية، الأمر الذي مكّنهم من مواجهة جميع المشاكل التي اعترضتهم، وإيجاد الحلـول الملائمـة لما أشكل على الناس من أمور دينهم ودنياهم، أما فتاوى أهـل إفريقيـة وتلمسـان فاعتمـد فيهـا على فتاوى البرزلي والمازوني، وهي من المصادر التي استعنت بها من أجل انجاز هذه الرسالة.

كما أفادني المعيار في التعرف على بعض المسائل التي طرحـت علـى فقهـاء الأنـدلس مـن المغرب الأوسط [2]، ودوّن من جهته العديد من المسائل التي أفتى فيهـا قضـاة وشـيوخ مـن بجايـة وتلمسان، وحتى المسائل التي اختلفوا فيها قام بذكرها، وتمـت الاسـتعانة بـالنوازل ذات الصـلة المباشرة بالموضوع ومقارنتها بالمصادر المتقدمة القريبة من فترة البحث لإجراء مقاربـة فيمـا اتفِـق عليه من مسائل وما اختلف حولها، خاصة وأن جل المصادر النوازلية المعتمدة كان مؤلفوها على المذهب المالكي.

وصاحب المعيار في كلّ ذلك يُثبت أسماء المفتين، ونصوص الأسئلة، إلاّ في حـالات نـادرة يعتذر فيها عن عدم وقوفه على نص السؤال، ويأتي بنصوص الأسئلة علـى حالهـا دون تصـرّف في تحرير بعض الألفاظ والمصطلحات العامية، وهذا ما يضفي علـى نصـوص الكتـاب مصـداقية علمية كبيرة، وقد يستدعي الأمر أحيانا تكرّر الفتوى لاشتمالها على مسائل تتعلق بأبواب فقهيـة

[1]- تخريج محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
[2]- منها المسألة الواردة في ج9، ص167.

متعددة؛ فالونشريسي لم يكن جامعا فقط، وإنما هو ناقدٌ، يُرجّحُ، ويضعّف، وقد تطول أجوبته لتغطّي صفحات، وقد تقصر لسطرٍ أو سطور.

وما يلاحظ على كتب النوازل أنها لم تكتف بالاعتماد على القرآن والسنة والإجماع فحسب بل ارتكزت على العرف الجاري، لذا كثيرا ما نجد عبارة "جرى العرف أو العادة".

ثانيا- كتب العقود العدلية

تميز هذا النوع من المصنفات بطبيعته الفقهية- الاجتماعية، وارتباطه الوثيق بالواقع المعاش، لأن دواعي تأليفها تكمن في تلبية حاجات يومية من بيع وشراء واستئجار ومزارعة وغيرها، أي تلبية لضرورات أملتها مصالح تتجلى في حاجة الناس إليها في شؤون حياتهم اليومية، ومن ثم فهي انعكاس لمشكلات المجتمع وبنيته التحتية.

لكن يلاحظ أن الوثائق التي تضمها العقود العدلية غالبا ما تكون خالية من أطراف العقد حيث نجد كلمة "فلان"، كما أنها تخلو من ذكر تاريخ العقد ويستعمل من أجل ذلك عبارة "في شهر كذا من سنة كذا"، أما المكان أو المدينة التي انعقد فيها العقد فتقتصر على عبارة "في بلد كذا" أو "مدينة كذا"، لهذا فهي صالحة لكل مكان وزمان، ومن جملة المصادر التي اعتمدتها أذكر:

*"**الوثائق المختصرة**" لأبي إسحاق الغرناطي (ت579هـ/ 1183م)[1]، أفادني في معرفة أهم المعلومات التي يجب أن تكتب في عقد الإيجار بصفة عامة كتسمية المستأجرين، والمستأجر فيه، وصفته، ومدة الإجارة، وعدد الأجرة، وصفتها، ووقت وجوبها، والشروع في العمل، ووصفها بالصحة،وعقد الإشهاد عليهما، والتاريخ.

*"**الوثائق والسجلات**"، لابن العطار [2]، قدم لنا وثيقة هامة فيما يخص كراء الدواب، والأمور الواجب التركيز عليها في كتابة هذا النوع من الوثائق، كنوع الدابة ولونها، والمدة التي سيستأجرها فيها مع تحديد الوجهة، ونوع الحمولة.

---

[1]- إعداد مصطفى ناجي، مركز إحياء التراث المغربي، ط1، 1988م.

[2]- تحقيق ونشر ب. شالمتا، ف. كورينطي، المعهد الاسباني للثقافة، دون طبعة، دون تاريخ.

ثالثا- المصادر المناقبية

ألفت كتب المناقب خصيصا لذكر سيرة ومناقب أحد الأولياء والمتصوفة أو مجموعة منهم، مع عرض كراماتهم وسلوكهم وأدوارهم المتنوعة داخل مجتمعاتهم، وبين ثنيا هذه المصنفات تنبث إشارات ونصوص تاريخية هامة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية؛ فكتب المناقب تأتي لسد بعض الثغرات التي كثيرا ما تصادف الباحث في كتابة تاريخ أي منطقة، وهذا النوع من المصادر أساسي بالنسبة لهذه الدراسة، لأنها تكشف عن بعض الفئات التي مارست النشاط الرعوي رغم مكانتها العلمية، وأمور أخرى لها علاقة بمسائل الغصب والتعدي، من أهمها أذكر:

*"**المناقب المرزوقية**"، لابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد (ت781هـ/ 1379م) [1]، إن قيمة المناقب المرزوقية لا تقل قيمة عمّا ألف خلال القرن (8هـ/ 14م) لتاريخ المغرب الإسلامي، خاصة وأنّ ابن مرزوق يؤرخ لسلفه ومن عاصرهم من السلاطين والعلماء والأولياء مع الاستطراد في بعض التفاصيل والدقائق عن أسرته ومجتمعه، فهو يقدم مادة علمية جديدة عن التاريخ الاجتماعي والعادات اليومية والثقافة الصوفية لأعلام تلمسان، اعتمادا على مصادر مكتوبة وعلى روايات شفوية، وأهمية هذا المؤَلّف بالنسبة لموضوع البحث رغم بعده الزمني عن المرحلة المعالجة تكمن في تلك المعلومات الخاصة بممارسة أفراد الأسرة المرزوقية للنشاط الفلاحي إلى جانب تربية المواشي ببادية تلمسان، ضف إلى ذلك الإشارة إلى أهمية الصناعة النسيجية وسط المجتمع التلمساني، وشهرته بها، كما زودنا بمعلومات حول بعض الأطعمة المعروفة بهذا المجال الجغرافي.

رابعا- كتب الفلاحة

تعتبر كتب الفلاحة من أهم المصنفات المعتمد عليها في الرسالة، غير أنّ اهتمامها بالزراعة والغراسة والأساليب المتبعة في العمل الزراعي كان أكثر من اهتمامها بالحيوانات وكيفية الاعتناء

[1]- تحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2008م.

بها، لكنها أمدتني بمادة غزيرة فيما يخص فضـلات الحيوانـات وكيفيـة معالجتهـا واسـتغلالها مـن أجل تخصيب التربة للزراعة، أذكر منها:

*كتاب **"الفلاحة"**، لابن بصال، أبو عبد الله محمد بن إبـراهيم (ت498هــ/ 1105م) [1]، وهو من أشهر علماء الزراعة العرب في الأندلس لأنه مارس النشاط علمـا وعمـلا، وخـاض في التجارب بنفسه، والجزء المعتمد في بحثي يضم ستة عشـر بابـا، وكـان البـاب الثالـث أهـم بـاب بالنسبة للدراسة؛ إذ يذكر من خلاله السماد وأنواعه وطبائعه وطريقة استعمال كل نـوع، ويهـتم المؤلف ببيان طبيعة كل نوع من الأسمدة من حيث رطوبته وجفافه وحرارته وبرودتـه وملوحتـه ولزوجته، ويهتم كثيرا بدرجة نضج السماد وبتفاعله مع كل نوع من أنواع الأراضـي ومـع كـل نوع من أنواع المزروعات.

***"زهرة البستان ونزهة الأذهـان"** للطغنـري، أبـو عبـد الله محمـد بـن مالـك الغرنـاطي (ق5هـ/ 11م)، أبدى صاحب "زهرة البستان" اهتماما بالدور الحيوي الذي يؤديـه عنصـر المـاء إلى جانب التربة والأسمدة، لاسيما مـا يتعلـق بحفـر الآبـار والتنقيـب عـن الميـاه، كمـا يصـرح الطغنري في ثنايا مؤلَفه بمصادره ويرد على تجـارب المهندسـين الـزراعيين الـذين سـبقوه بالحجـة والتجربة، وهو يعول على تجاربه الشخصية التي يعارضها أحيانا بأساليب تعلمها خـلال أسـفاره في الشام وإفريقية، وهنا تكمن أهمية المُؤلَّف، لأن صـاحبه زار المغـرب الأوسـط خـلال رحلتـه الاستطلاعية ونزل بقلعة بني حماد، وأخـذ عـن أهلـها كيفيـة زرع الحنـاء، وهـذا مـا أشـار إليـه، واعتمدته في التعرف على أنواع الرياح وخصائص كل نـوع، وكـذا أهميـة الزبـول الحيوانيـة في إصلاح الأراضي، وتحسين مردودها، وما قد تحدثه هذه المخلوقات مـن ضـرر بـالأرض المشـبعة بمياه المطر.

*"**الفلاحة**"، لابن العـوام (ت6هــ/ 12م)[2] ، أحـد الأندلسـيين الـذين خلفـوا مؤلفـات علمية، وذاعت شهرتهم بفضـل مؤلفـاتهم في المجـال الفلاحـي، ويتميـز كتابـه عـن بـاقي كتـب

[1]- نشر وترجمة خوسي ماريه مياس بييكروسا، ومحمد عزمان، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955م.

[2]- Madrid en la imprenta real, ano, De 1802

الفلاحة بمميزات موضوعية ومنهجية، ومن ذلك كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية الذي انتفـع منه ابن العوام، إلا أنه ترك الطلاسم والخرافات الكثيرة وجميع الاعتبارات الدينية والفلكية، كمـا أخذ عن مؤلفين أندلسيين من أهل القرن (5هـ/ 11م) كابن بصال وابـن الحجـاج بالإضـافة إلى الطغنري صاحب كتاب "زهرة البستان ونزهة الأذهان".

ويعد هذا الكتاب من أثمن الكتب الزراعية، ويتـألف مـن جـزأين- اعتمـدتهما-، يضـم الجزء الأول ستة عشر فصلا، والجزء الثاني ثمانية عشر فصلا، الفصـول الـثلاثين الأولى تبحـث عن الزراعة، وكيفية الاعتناء بها، ومكافحة بعض آفاتها، والفصول الأربعة الأخيرة تبحـث عـن تربية المواشي والدواجن، ووصفها بصورة دقيقة للغاية، وكيفية علفها ونظافتهـا ومعالجـة بعـض أمراضها.

خامسا- كتب الجغرافية

تكتسي كتب الجغرافية قيمة علمية بالغة وتعد إحدى أهم المصادر المرجعيـة لهـذا البحـث، فقد أمدتني بمعلومات حول تنوع الغطاء النبـاتي وتنـوع مصـادر الميـاه مـن عيـون وأنهـار وآبـار بالمغرب الأوسط، وما رافق ذلك من اختلاف تضاريسي، وكذلك معلومات حول تنـوع الثـروة الحيوانية الرعوية ومناطق انتشارها، لكن دون أن يفصل أصحابها في الأنواع، أذكر منها:

* كتاب "**البلدان**" لليعقوبي، أحمد ابن أبي يعقـوب بـن واضـح (ت284هــ/ 897م) [1]، يعد من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين فسـحوا المجـال للمغـرب الإسـلامي مـن خـلال كتابـه البلدان، بذكره مدن المغرب ووصفها، وتتبع الطرق بينها، وضمنها معلومـات تاريخيـة هامـة لهـا علاقة بالقبائل ومواطن استقرارها، وهو ما يؤكده من خلال مقدمـة الكتـاب، معتمـدا في ذلـك على روايات شفوية لمن لقيهم في طريق سيره وترحالـه، إضـافة إلى ملاحظاتـه الشخصـية لأهـم المناطق التي زارها، وهنا تكمن أهمية المُؤَلَّف بالنسبة لموضوع البحث؛ فاليعقوبي مـن الجغـرافيين الذين زاروا المغرب الأوسط، وصل إلى تاهرت وتلمسان، فزودنا بمعلومات دقيقة، سـجلها عـن رواة محليين.

[1]- دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1988م.

*"**صورة الأرض**" لأبي القاسم بن حوقل النصـيبي (ت بعـد 367هــ/ 977م) [1]، أحـد أهم الجغرافيين الذين زاروا المغرب الإسلامي؛ فذكر ووصف مدنه، وتتبع الطرق الفاصلة بينها، بما فيها بلاد المغـرب الأوسـط بـين سـنتي (330هــ- 340هــ/ 941- 951م)، معتمـدا علـى ملاحظته أو على من نشأ بالمنطقة، وهذا ما أعطى المادة الواردة لديه أهمية كبيرة بالنسبة لموضوع البحث، خاصة وأنّه وصف تنـوع المواشـي ومنـاطق انتشـارها، ورخـص أسـعار الغـنم والإبـل والبقر، ومواطن تواجد القبائل مع تقديمه لقائمة إحصائية بـأهم القبائـل الزناتيـة المسـتقرة بـبلاد المغرب.

ناهيك عن جرده لبعض السلع ذات الأصل الحيواني والمصدرة مـن المغـرب الأوسـط إلى باقي المناطق، ويكاد ينفرد عن غيره من الجغرافيين المعتمد علـيهم في الرسـالة بتقـديم معلومـات فيما يخص السياسة المالية والضريبية للخلافة الفاطمية خلال القرن 4هـ/ 10م، كمـا أن تحديـده لنوع الثروة الحيوانية كان أدق من اليعقوبي "البلدان" والبكري "المسالك والممالك".

*"**المسالك والممالك**" لمؤلفه أبو عبيـد الله البكـري (القـرن 5هــ/ 10م) [2]، وهـو كتـاب جغرافي يهتم بوصف المدن والممالك، وبالرغم من أن صاحبه لم يزر بلاد المغـرب إلاّ أنـه اعتمـد في وضع كتابه على ملاحظات وأقوال المسافرين والتجـار الـذين زاروا المنطقـة خاصـة المغـرب الأوسط الذي كانت له مراسي هامة مقصودة من قبل تجار أندلسيين، كما مكنه منصبه الهام مـن الإطلاع على الوثائق الأندلسية، فكانت معلوماته المعتمدة مكملة لما قبله من المؤلفين.

ولتعزيز النصوص المصدرية في هذا المجـال، الـتي تعـود إلى القـرنين (4هــ- 5هــ/ 10م- 11م)، ارتأيت إثراءها بمادة تعود إلى جغـرافيين عاصـروا القـرن (6هــ/ 12م)، علـى رأسـهم الإدريسي، أبو عبد الله بن محمـد بـن عبـد الله (ت560هــ/ 1166م)، صـاحب كتـاب "**نزهـة المشتاق في اختراق الآفاق**" [3]، الذي أفادني بتقديم معلومات خاصة بتنوع الثـروة الحيوانيـة مـن

[1]- دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ.

[2]- تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.

[3]- مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون طبعة، 1994م.

مواش ودواب، ووفرة السمن بالمغرب الأوسط، بالإضافة إلى نصوص جد هامة حول حركية القبائل البربرية ومشاركة القبائل العربية الوافدة (ق5هـ/ 11م) لهم في المواطن.

سادسا- كتب الطب

هذا الصنف من المصادر يفيد في التعريف بمختلف الأمراض والأوبئة التي مست الإنسان والحيوان معا خلال الفترة الوسيطية، وتتبع طرق علاجها أو تجنبها، وأذكر منها:

***"التيسير في المداواة والتدبير"**، لابن زهر، أبو مروان عبد الملك (ت557هـ/ 1072م) [1]، نشأ في أحضان الطب والمعرفة ومهر فيه، وله تآليف مشهورة منها كتاب التيسير الموجود بين أيدينا، ويعد من أهم الكتب التي اعتمدها أهل الأندلس والمغرب في تداويهم ومعالجاتهم، وأهميته بالنسبة لدراستي تنحصر في بعض الوصفات العلاجية التي استخدمت فيها المشتقات الحيوانية كمادة أولية، هذا بالإضافة إلى التعريف بمسببات الأوبئة وشمولية خطرها على الإنسان والحيوان.

***"تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"**، لابن خاتمة المري الأنصاري (توفي بعد 770هـ/ 1369م) [2]، أفرد المؤلف كتابه للحديث عن الوباء العام لسنة 749هـ/ 1348م [3]؛ فقام بتعريف الوباء، أسباب ظهوره، كيفية انتشاره بين الأقاليم والأقطار، نتائجه، وطرق علاجه.

أما عن أهميته بالنسبة للدراسة فتكمن في تعريف الوباء والطاعون وعلاقة ذلك بالحيوان، وكيفية تأثير هذه الأمراض في الوسط الحيواني، ويؤكد ابن الخاتمة من خلال هذا المخطوط أنّ الأوبئة المختلفة لا تخص الإنسان فحسب وإنما تمس حيواناته أيضا، لأنها في الأصل بكتيريا غالبا ما يكون سببها الهواء الفاسد.

[1]- تحقيق محمد بن عبد الله الروداني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، دون طبعة، 1991م.

[2]- مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ميكروفيلم 1212.

[3]- ابتدأ وباء سنة 749هـ/ 1369م من أرض الحبشة وانتشر فيما يليها من الأقطار والأقاليم ليعم أكثر مملكة قشتالة حتى انتهى إلى إشبيلية من أقصى المغرب واتصل مع ذلك بجزر البحر الرومي بجزيرة صقلية وسردانية وميورقة وانعطف على ساحل العدوة وبلادها من أرض افريقية إلى ما يلي المغرب. ابن خاتمة، المري الأنصاري ، المصدر نفسه، ورقة 16.

سابعا- كتب الحسبة

كشفت لي كتب الحسبة عن الكثير من الأغذية ذات الأصل الحيواني التي كانت تباع في الأسواق، وحالات الغش والتدليس التي كانت تطالها، كخلط الحليب بالماء، أو لحم المعز بلحم الغنم ...إلخ، والتدابير المتخذة من قبل السلطة لحماية الناس من الاستغلال، وكذا الرفق بالحيوان في كثير من الحالات، وفي كل ذلك هي تعرفنا بصورة غير مباشرة على بعض الحرف ذات صلة بتربية الحيوانات.

ومن هذا المنطلق اعتمدت على العديد من المؤلفات في هذا الباب، أذكر منها كتاب "**آداب الحسبة والمحتسب**" لابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله القرطبي (242هـ/ 857م)[1]، و"**رسالة في القضاء والحسبة**" لابن عبدون محمد بن أحمد التجيبي (527هـ/ 1133م) [2]، وكتاب "**في آداب الحسبة**" للسقطي، أبو عبد الله بن أبي محمد (6هـ/ 12م) [3].

ومن أهمها رغم بعده الزمني عن مرحلة الدراسة "**تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**"، للعقباني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد (ت871هـ/ 1467م) [4]، عاصر العقباني أواخر الفترة الزيانية، تقلد خلالها منصب القضاء بتلمسان، أمّا تأليفه لكتاب "تحفة الناظر" فيعود لرغبته في رعاية الصالح العام، وتغيير المناكر، وإبرازه موقف الشريعة من البدع التي شاعت، وطرق معالجتها، وجعله في ثمانية أبواب وخاتمة، وبهذا يكون أهم مصدر ألف في مجال الحسبة بالمغرب الأوسط؛ بحيث قدم لي معلومات عن بعض العادات المتبعة في بيع اللحم، وعادة خلطه بالبطن والمصران، لكنه يبقى بعيد زمنيا عن فترة البحث.

---

[1]- تحقيق فاطمة الإدريسي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2005م.

[2]- تحقيق فاطمة الإدريسي، دار ابن حزم، ط1، 2009م.

[3]- تحقيق إ.ليفي بروفنسال وَج.س. كولان، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية، دون طبعة، 1931م.

[4]- تحقيق علي الشنوفي, Extrait Du Bulletin D’études Orientales De L’institut De Français De Damas, 1967.

ثامنا- كتب التاريخ العام

تتميز كتب التاريخ العام بكونها تحفل بالأحداث السياسية والوقائع العسكرية التي كان لها وقع على الثروة الحيوانية وتوزيعها؛ فكثرة الفتن والحروب وغياب السياسة الأمنية خلال فترة البحث (4- 5هـ/ 10م- 11م) كان له أثره الكبير على القبائل الرعوية التي اضطر أفرادها في الكثير من الأحيان إلى الهجرة في وسط ظروف صعبة تاركين وراءهم أموالهم ودوابهم، والبعض منهم كان يقوم بنقل دوابه معه في سفرته مما يعرضها للهلاك، وهذا النوع من الحركية أحدث صراعات بين القبائل بسبب مصادر المياه والأراضي الرعوية، كما كانت هناك إبادة للمواشي والدواب من جراء الحرائق.

بالمقابل، أفادتني بعض المصادر بحوليات ذات دلالة بالغة بالنسبة لموضوع نظام الرعي، كتلك المتعلقة بالظروف الطبيعية والاضطرابات المناخية (السيول، الجفاف...)، وكلها معلومات توفرها هذه المصادر، أذكر منها:

*"**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**" لابن عذاري المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/ 1312م) [1]، إنّ اعتماد صاحب البيان المغرب على نظام الحوليات في سرد أهم الأحداث السياسية والعسكرية ساعدني كثيرا على رسم صورة المغرب الأوسط خلال القرنين (4هـ- 5هـ/ 10م- 11م)، وإبراز مدى تأثير الحروب والفتن على توزيع الثروة الحيوانية، وحتى إبادتها في وسط موجة من التوسعات غير المنتظمة والهادفة للسلب والنهب، كما زودني بنصوص حول المجاعات والأوبئة التي حدثت ببلاد المغرب ككل، وأهم مسبباتها.

* "**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**" لابن أبي زرع (كان حيا سنة 729هـ/ 1329م) [2]، أفادني ببعض التواريخ الهامة وما تميزت به من أحداث وكوارث طبيعية خصت منطقة بلاد المغرب عامة، مع ذكره لبعض مظاهرها، كغلاء الأسعار، ونسبة عدد الوفيات، وهذا ما كان له بالغ الأثر على الإنسان والحيوان معا.

---

[1]- تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1980م.

[2]- دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، دون طبعة، 1972م.

*"**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، لعبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ/ 1406م)، والطبعة المعتمدة مكونة من مجلدين تحت عنوان "**تاريخ ابن خلدون**" [1]، خصص ابن خلدون قسما كبيرا من تاريخه لأخبار البربر، وقسمهم إلى قسمين: بدو رحل وهم البتر، ومستقرون وهم البرانس؛ فهذا المؤرخ كان شاهد عيان لحالة البربر في عصره، كما أرخ أيضا لأحداث سابقة، معتمدا في ذلك على المصادر الكتابية والشفوية، دون أن أنسى جزء المقدمة الذي خصصه للعمران البشري، واستعنت به في التعرف على أهمية الصنائع ذات الصلة المباشرة بالثروة الحيوانية وتصنيفها حسب أهميتها داخل المجتمع.

تاسعا- كتب السير والطبقات

ترجمت هذه الكتب لشريحة اجتماعية، اقتصرت على العلماء والمشايخ، غير أنها لم تخل من مادة ثرية لها علاقة بحرفة الرعي، كالتعرف على الفئات التي مارست النشاط الرعوي من فقراء وعلماء وأميين...إلخ، وهو ما لم أجده ضمن غيرها من المصادر، أذكر من أهمها:

*"**سير الوسياني**"، لأبي الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان (ق6هـ/ 12م) [2]، عاش الوسياني بين الجريد وأريغ ووارجلان، وعصره متزامن مع نشأة مدينة سدراتة، وكان الوسياني على المذهب الإباضي السائد آنذاك بالمنطقة، هذا المذهب الذي اعتمد أصحابه مثل غيرهم على القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكان لهم اجتهاد من علمائهم مثل غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى، والدليل على ذلك الموسوعتان الفقهيتان اللتان ألفهما أبرز علماء أريغ، لتشكل هذه المنطقة إلى جانب وارجلان بعد سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين منطقة استقطاب لكثير من المشايخ من جربة وجبل نفوسة، لكون المنطقة همزة وصل بينها وبين بادية بني مصعب.

[1]- دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003م.

[2]- تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ط1، 2009م.

يعتبر العصر الذي عاش فيه الوسياني من أزهى عصور المنطقة ثقافة، لذا تأثر بتلك البيئـة، الأمر الذي جعله يؤلف كتابا يتحدث عن مناقب وكرامـات شـيوخ الإباضـية في ذلـك الوقـت، وأهميته بالنسبة لموضوع البحث هي تلك الفتاوى الفقهية فيما يخص نظام الرعي، وكـذا إبـرازه أهمية المنطقة الممتدة بين أريغ ووارجـلان وصـلاحيتها لرعـي القطعـان، ولم يقتصـر علـى هـذه المعلومات فقط، إنما خصص بابا بعنوان **"ما قيل في الذي في أيدي العرب من الأموال من قول المشايخ من المسلمين"**، ومن خلال اطلاعي على محتـواه توصـلت إلى معلومـات حـول تفشـي ظاهرة الغصب والتعدي على أموال الناس من قبل العرب بغير حق.

* **"السـير"** للشـماخي، أبـو العبـاس أحمـد بـن أبـي عثمـان سـعيد بـن عبـد الواحـد (ت928هـ/ 1522م) [1]، لم يكن هذا المؤلف مجرد توثيق لأعلام الإباضـية ومشـيختها، بـل نجـد تنوعا في مادته، التي اكتست أهمية فائقة في التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصـادي والسياسـي لبلاد المغرب في العصر الوسيط، وكان أهم مصدر عولت عليه إلى جانـب سـير الوسـياني، مـن أجل رسم صورة عن الواقع المعاش داخل مجتمـع المغـرب الأوسـط في بعـض الأمـور المرتبطـة بحرفة الرعي.

* **"عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السـابعة ببجايـة"**، لصـاحبه الغـبريني البجائي (ت704هـ/ 1304م) [2]، وفيه ترجم المؤلف لعلماء بجاية والوافدين عليها مـن العلمـاء والصلحاء، أما أهميته بالنسبة لموضوع الأطروحـة فـتكمن في المعلومـة الـتي قـدمها عـن شـيبان الرعي.

بالإضافة إلى هذه العينة من المصنفات الـتي أفـادتني في سـد العديـد مـن ثغـرات البحـث، استفدت كثيرا من الدراسات والأبحاث باللغتين العربيـة والفرنسـية الـتي تطرقـت إلى الموضـوع بشكل أو بآخر، كما أنها تنوعت بتنوع مضامين الفصول، وفي الغالـب كـل فصـل اعتمـد علـى مجموعة من الدراسات الخاصة، التي أذكر منها:

[1]- تحقيق محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، دون طبعة، دون تاريخ.

[2]- تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1981م.

* **"النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خـلال القـرن السـادس الهجـري"** [1]، لعـز الدين عمر موسى، **"دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منـذ تأسيسـها إلى منتصـف القـرن الخامس الهجري"** [2] لصاحبه لقبال موسـى، **"مجتمـع المغـرب الأقصـى حتـى منتصـف القـرن السادس ميلادي إلى القرن التاسع عشر ميلادي"** [3] لهاشم قاسم العلوي.

ولم تختلف الدراسات الأجنبية عن سابقتها من حيث الأهمية، أذكر منها على سبيل المثـال لا الحصر:

Despois Jean, René Raynal, « **géographie de l'Afrique du nord ouest »**[4] , L. Golvin, « **lE Maghreb central à l'époque des zirides »**[5]**.**

الصعوبات

لم يخل طريق هذا البحث من صـعوبات وعوائـق، تمثلـت أساسـا في قلـة المـادة المصـدرية المهتمة بموضوع الرعي كحرفة ونظام في نفس الوقت، وما توفر لدي من نصوص خاصة الفقهية طرح مشكل التحديد الزمني للنازلة التي لهـا علاقـة بتضـمين أو تعـدي الرعـاة، وبالتـالي غلـب عليها طابع التعميم، حيث اضطررت في كثير من الأحيان إلى الاعتماد على عدة نصوص، منهـا من زامن فترة البحث ومنها ما جاء متأخرا عنها، غير أن مؤلفيها اعتمدوا علـى أمهـات مصـادر المذهب المالكي الذي عرف انتشارا واسعا بالمغرب الإسلامي.

كمـا أن المصـادر المعـول عليهـا في إنجـاز هـذا العمـل غالبـا مـا كـان مؤلفوهـا مـن الأنـدلس أو المغـربين الأدنـى والأقصـى؛ فكانـت عمليـة توظيفهـا تحتـاج إلى الدقـة قصـد تقريـب مضـمونها مـن واقـع المغـرب الأوسـط، هـذا المجـال الجغـرافي الـذي كانـت حـدوده مطاطية أو هلامية، حسب ظروف المنطقة، وكذا القوى الموجودة به.

---

[1]- دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2003م.

[2]- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1979م.

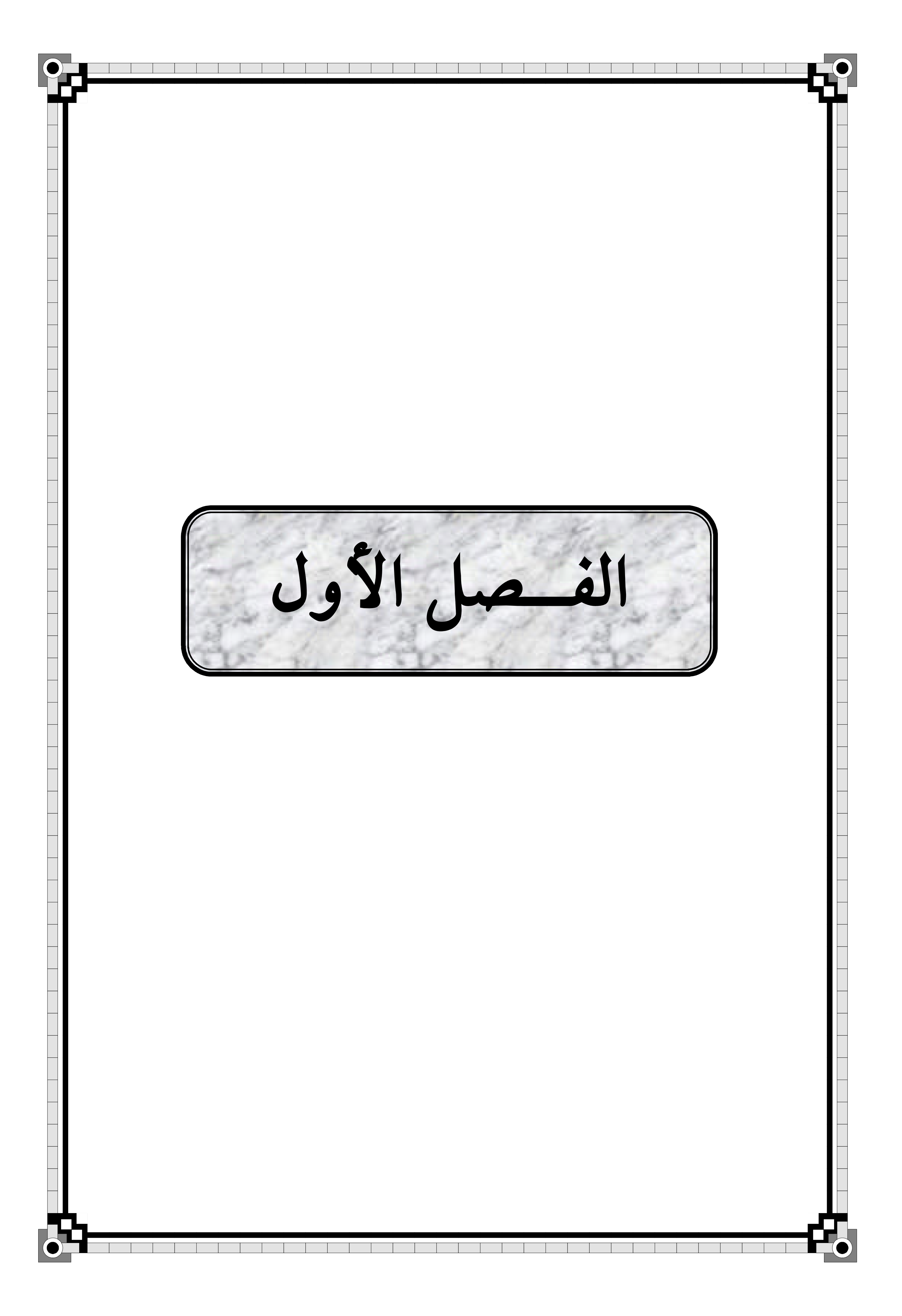
[3]- دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2003م.

[4]- Payot, Paris, 1976

[5]- paris, 1957

ومن جانب آخر، قضية المصطلحات الواردة ضمن النصـوص المصـدرية وعـدم ضـبطها، كالإشارة إلى الدواب والمواشـي والبهـائم والأنعـام دون تحديـد أنـواع الصـنف الواحـد، وكـذا استعمال عبارة "ذات زرع وضرع"، أو مصطلح "الظلف والحافر"، هذا ما صـعب علينـا رسـم خريطة توزيع الثروة الحيوانية.

وفي النهاية أود أن أشير إلى نقطة تتعلق بتصميم البحث وهيكلته، والقصد هنـا التـوازن بين عناصر الفصول، فهو إن روعي داخل بعـض الفصـول والعناصـر، فإنـه لم يـراع في بعضـها الآخر، وذلك راجع إلى طبيعة مادة كل عنصر وحظوظ كل فصل منها.



الفـــصل الأول

أولا- العوامل الطبيعية

1- التضاريس

2- المناخ

3- المياه

4- الغطاء النباتي

5- الكوارث الطبيعية

6- عوامل أخرى

ثانيا- العوامل البشرية

1- السياسة الفاطمية ونتائجها

2- الأثر الاقتصادي لبني هلال وبني سليم في بلاد المغرب الأوسط

ثالثا- الثروة الحيوانية وتوزيعها بالمغرب الأوسط

1- المواشي

2- الدواب

أولا- العوامل الطبيعية

لا يمكن دراسة موضوع الرعي بالمغرب الأوسط ولا معرفة خصائصه، دون التعرف على مميزات المنطقة المناخية ومدى تأثيرها على توزيع الثروة الحيوانية المرتبطة أساسا بموضوع الرعي، ويقتصر هذا النظام على أنواع محددة من الحيوانات الرعوية (المواشي و الدواب) التي تنوعت بتنوع التضاريس، هذه الأخيرة كانت أهم عامل أثر في المناخ، الذي يشكل بدوره سببا رئيسيا يدفع الأفراد خاصة البدو إلى الترحال رفقة قطعانهم سعيا وراء ظروف طبيعية أو بيئية أو مناخية أحسن [1]، وللمرتفعات دور في تحديد الملامح المناخية خاصة بالقسم الشمالي للمجال الجغرافي صدد البحث [2].

1- التضاريس

إن الطبيعة الجغرافية لبلاد المغرب هي عبارة عن كتلة واحدة متشابهة إلى حد كبير في التضاريس والبيئة والمناخ؛ فهنالك سلاسل جبلية ضخمة تخترق البلاد من الغرب إلى الشرق وتصل ما بين أجزائه [3]، وعليه فالمناطق الثلاث: الجزائر، تونس، المغرب تتشابه كثيرا من حيث التكوين التضاريسي والمناخ والسكان [4]، ويصف S.Gsell الجزائر وهي الجزء المعروف خلال الفترة الوسيطية بالمغرب الأوسط قائلا:" توجد الجزائر مستندة بالجبال طوال ساحل البحر الأبيض المتوسط وتحتل غالب أرضها قفار في الداخل" [5]، غير أنّ تحديد S.Gsell يبقى ناقصا؛ فحد المغرب الأوسط حسب صاحب الاستبصار "من وادي مجمع وهو في نصف الطريق بين مليانة

---

[1]- مصطفى الفوال، علم الاجتماع البدوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دون طبعة، 2002م، ص354.

[2]- جيلالي صاري، الإنسان وبيئته في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1983م، ص21/ Jean Blottiére, l'Algérie, éditions maritimes et coloniales, paris, 1955, p42.

[3]- موريس لومبار، تاريخ الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1979م، ص21.

[4]- إبراهيم أحمد العدوي، بلاد الجزائر- تكوينها الإسلامي والعربي-، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دون طبعة، 1970م، صص10- 11/ Gautier, l'Afrique blanche, librairie arthéme fayard, paris, 1939, p150

[5]- تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دون طبعة، 2007م، ج1، ص41.

ومدينة تلمسان بلاد تازا من بلاد المغرب في طول، وفي العرض الذي على ساحل البلاد...مثل مدينة وهران ومليلة وغيرها من البلاد الساحلية إلى مدينة تنزل، وهي مدينة في أول الصحراء" [1].

كما أنّ الارتفاع يغلب على سطح المنطقة، ويختلف معدله عن مستوى سطح البحر من منطقة إلى أخرى، فهو لا يتجاوز في تونس 300 متر، بينما يصل إلى 900 متر في الجزائر، و800 مترا في المغرب [2]، وتسيطر السلاسل الجبلية والهضاب سيطرة شبه تامة على القسم الشمالي منها، وقد أثرت تلك السلاسل في رسم الخطوط الأساسية وتوزيع المظاهر الطبيعية والبشرية [3]، حيث تمتد جبال الأطلس التي تنتمي إلى الجبال الإلتوائية الحديثة، في القسم الشمالي من بلاد المغرب على طول حوالي 2200كم [4]، فتقوم سلسلة طويلة تحاذي الساحل وتوازيه، تسمى التل الشمالي في تونس، وجبال الريف في المغرب الأقصى، والأطلس التلي في الجزائر، والمتكون بدوره من سلسلة من المرتفعات التي يبلغ معدلها حوالي 1200م [5]، وهي من المواقع الجغرافية الجغرافية الممتازة التي ساعدت على تأسيس العديد من المدن خلال الفترة الوسيطية، منها مدينة أشير المؤسسة "بين جبال شامخة محيطة بها" [6].

إذن تضاريس هذا الجزء من بلاد المغرب تتكون من سلسلتين جبليتين تمتدان من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وهما السلسلة التلية في الشمال وسلسلة الأطلس الصحراوي في الجنوب وتفصل بينهما الهضاب والسهول العليا [7].

---

[1]- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، دون طبعة، 1985م، ص176.

[2]- J. Desspois, l'Afrique blanche, presse universitaires de France, paris, 1949, p7/ Jean Blottiére, op. cit. p42-43.

[3]- الشامي صلاح الدين علي، الوطن العربي دراسة جغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط4، 1996م، ص99.

[4]- محمد الهادي لعروق، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص49.

[5]- Gautier, op. cit, p153 / Jean Blottiére, op. cit, p42

[6]- البكري، المسالك والممالك، ج2، ص241.

[7]- Abdelhamid Hajiat , le maghreb central sous le règne du sultan ziyanide Abou h'Ammou mousa II, 760- 91/ 1359- 89,édition errached, Algérie, 2009, pp27- 28

وما من شك في أن هذه جبال ساهمت كثيرا في حماية الأفراد، خاصة وقت الحروب والفتن، حيث شكلت ملجأ للقبائل البربرية الثائرة، منها قبيلة زناتة التي كانت في الغالب تحتمي بالجبال والبراري [1]، وجبال هذه الرقعة الجغرافية كانت حمى لكثير من أهل القيروان لما غز الهلاليون إفريقية (442هـ/ 1051م)، حيث انتقل أعداد منهم إلى "بلاد بني حماد لكونها جبالا وعرة يمكن الامتناع بها من العرب" [2]، وشكلت جبال سالات سنة (333هـ/ 944م) ملجأ حصينا لأبي يزيد مخلد*، حتى الخليفة المنصور الفاطمي** لما ذهب في إثره دخل مدينة المسيلة ورحل في جبال وعرة، وأودية عميقة خشنة الأرض، والظاهر أن الطريق لم يكن سهلا، لأنّ الأدلاء عرفوه بأن هذه الأرض لم يسلكها جيش قط [3].

ومدينة أفكان كانت "في سفح جبل أوشيلاس وهو بجوفيها، ولهذا الجبل شعراء*** غامضة، وبقبليها نهر سيرة، ومنبعه من عيون بشرقيها عليها الأرحاء والبساتين من كلتا ضفتيه، وبغربي أفكان أسفل بساتينها مجمع الأودية: وادي سيرة، ووادي سى، ووادي هنت" [4]، ومدينة ومدينة مليانة حصينة في سفح جبل شعراؤه كلها ريحان [5].

---

[1]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، دون طبعة، دون تاريخ، ص1268.

[2]- المصدر نفسه، ص1472/ البكري، المصدر السابق، ج2، ص226.

*- أبو يزيد مخلد بن كيداد، من قبيلة زناتة، كان ظهوره سنة 216هـ/ 828م، كادت حركته هذه أن تقضي على الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب. ابن حماد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون طبعة، 1984م، ص30/ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج1، صص 216-218.

**- أبو العباس، إسماعيل بن أبي القاسم، ولد بالمهدية سنة 299هـ/ 912م، ولي العهد سنة 334هـ/ 946م. ابن حماد، المصدر السابق، ص32/ عماد الدين إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب- القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار-، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006م، ص338 وما بعدها/ فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية (296- 365هـ/ 909- 975م)، التاريخ السياسي والمؤسسات، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب، بيروت، ط1، 1994م، صص 247- 259.

***- الشعراء: روضة شعراء، كثيرة العشب، وأرض شعراء يقصد به المكان ذو الشجر. الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2006م، ص331.

[3]- ابن الأثير، المصدر السابق، ص1221.

[4]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص263.

[5]- مجهول، الاستبصار، ص171.

ومن جبال المغرب الأوسط حسب ما تفيدنا به إحدى المصادر المتأخرة [1] "جبل بني يزناسن يقع هذا الجبل على بعد نحو خمسين ميلا غربيّ تلمسان ...وهو شديد الوعورة والارتفاع... جبل مطغرة هذا الجبل شاهق جدا شديد البرودة. يقع على بعد نحو ستة أميال من ندرومة...جبل ولهاصة يجاور هذا الجبل المرتفع مدينة هنين... جبل مغراوة يمتد هو الآخر على طول نحو أربعين ميلا محاذيا شاطئ البحر المتوسط، قريبا من مدينة مستغانم"، وأهالي هذه الجبال يملكون الحبوب خاصة الشعير، و"يوجد في شرق سهل الجزائر وجنوبه عدد لا يحصى من الجبال، تسكنها قبائل شديدة البأس، ...يملكون أراضي جيدة للزراعة، وكمية عظيمة من الماشية والخيل" [2]، كما أن اقتراب جبال الأوراس الشامخة من السهول والصحراء جعلها تفرض على سكان شرق المغرب الأوسط حرفتي الزراعة والرعي في آن واحد، وبعبارة أخرى جمع السكان في تلك الأرجاء بين خصال المزارع المحب للاستقرار والعمران، وخصال الراعي الهائم وراء الانطلاق والانتجاع [3].

أما الجنوب فتمتد على هامش صحراؤه سلسلة أخرى من الغرب إلى الشرق أيضا، تبدأ من رأس "غير" على ساحل المحيط الأطلسي، حتى خليج قابس في تونس، وتحمل بدورها أسماء مختلفة: جبال الظهر في تونس، الأطلس الكبير في المغرب الأقصى، الأطلس الصحراوي في الجزائر [4]، والذي تسيطر عليه الملامح الخاصة بالمناخ الصحراوي نظرا للموقع الجغرافي للجبال، لهذا تقل فيها كثافة الغطاء النباتي، كما أنها قليلة السكان غالبا، خاصة بالسفوح الجنوبية [5].

---

[1]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م ، ج2، ص44.

[2]- المصدر نفسه، ص46.

[3]- إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص12.

[4]- عوض حسان، الجبال المغربية مقدمة في ملامحها الجغرافية، مجلة البحث العلمي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، العدد 17، 1319هـ/ 1917م، ص47-48.

[5]- صاري جيلالي، المرجع السابق، ص19.

أمّا السهول الساحلية بالجزائر- المغرب الأوسط- فنادرة جدا، إذ المتنقل كلما مرّ بها إلاّ ويفاجأ بحدودها الضيقة وكذلك بانعزالها نظرا إلى تموج الجبال وتعدد المرتفعات، وهذه الظاهرة العامة تلاحظ بسهولة في أراضي التل [1]، فجبال مجردة التونسية تحصر سهل عنابة من الشرق، في حين تحصره جبال سوق أهراس من الجنوب، وهو سهل ضيق أيضا يجري به واد السيبوس، وتحد جبال الأطلس المتيجي من الجنوب سهل متيجة الذي لا يزيد عرضه عن 30 كم، في حين يتجاوز طوله 100كم، وتفصله منطقة جبلية بالقرب من مليانة عن سهل وهران، الذي يمتد إلى الجنوب من مدينة وهران، وتجري به أودية كبيرة على رأسها واد شلف [2].

كما أننا نجد السهول الداخلية في الجزائر مرتفعة تأخذ شكل الهضاب العليا، لأن ارتفاعها يتراوح بين 500 و1000متر [3]، وهي تضم عددا من المنخفضات والأحواض المغلقة على شكل سبخات وشطوط ذات تصريف داخلي [4]، تنحصر بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي، وتمثل أهم منطقة للرعي وزراعة الحبوب [5].

وتحتل الصحراء القسم الجنوبي من الجزائر، ويتميز سطحها بوجود الأحواض المنخفضة، التي ينتشر في قاعها عدد من الواحات، وغالبا ما تكون شحيحة الماء، كما هو الحال في حمادة هضبة "تادمايت" [6]، كما تنتشر في أقصى الجنوب الشرقي لهذا الجزء "جبال الهقار" البركانية، وبها قمة "تاهات" بمرتفعات أتكور التي يصل ارتفاعها إلى 2918م، وهي أعلى قمة في الجزائر [7].

[1]- صاري جيلالي، المرجع السابق ، ص15.

[2]- حليمي عبد القادر، جغرافية الجزائر طبيعية بشرية اقتصادية، مطبعة الإنشاء، دمشق، ط2، 1968م، ص34.

[3]- جان فرانسوا وآخرون، المغرب العربي- الإنسان والمجال-، تعريب علي التومي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ص43.

[4]- محمد الهادي لعروق، المرجع السابق، ص49.

[5]- حليمي عبد القادر علي، جغرافية المغرب العربي الكبير، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، ط2، 1972م، ص12.

[6]- سارة حسن منيمنة، في جغرافية الوطن العربي، دار النهضة، بيروت، دون طبعة، 1990م، ص39.

[7]- حليمي عبد القادر علي، جغرافية الجزائر، ص49.

مجمل القول، تميز المغرب الأوسط بموقع إستراتيجي، ساهمت العوامل الجيولوجية والمناخية في تشكيل سطحه وتقسيمه إلى مناطق تضاريسية مختلفة من حيث البنية والمظهر؛ حيث كان لهذه التضاريس خصائص عديدة، برز تأثيرها على النشاط الرعوي بالمنطقة بتعدد الثروات الحيوانية بين مواشي ودواب.

2- المناخ

يشير ابن خلدون [1] في جزء هام من مقدمته إلى أهمية المناخ، ويوضح تأثيره على صيرورة الحضارات، لكن ثمت عامل هام يتحكم بدرجات متفاوتة في الملامح المناخية، إنه التنوع التضاريسي، حيث يمكن تقسيم الأراضي التي شكلت بلاد المغرب الأوسط إلى قسمين: قسم يتمثل في مناطق السهول الخضراء كسهول السرسو التي تقع في الجزء الجنوبي من تاهرت، وسهول وادي الشلف الغني بتربته ومياهه، وكذلك السهول الساحلية التي كانت تزرع بها الحبوب، أما المنطقة الثانية، فهي منطقة السهوب التي تتميز بقلة أمطارها وتذبذبها وعدم انتظامها، فينتج عنها ضعف في المنتجات الزراعية، وبالتالي اهتمام السكان بالرعي أكثر من الزراعة، يضاف إلى ذلك المناطق الجبلية التي تسقط فيها الأمطار بكميات غزيرة [2].

لكن تغييب المصادر الوسيطية للخصائص المناخية بالمنطقة، شكل عائقا في تحديد أهم الأقاليم المناخية بالمنطقة، غير أن الدراسات الحديثة المهتمة بالتنوع التضاريسي والمناخي للجزائر، قسمت هذا المجال الجغرافي إلى ثلاثة أقاليم مناخية يختلف كل واحد عن الآخر:

* مناخ البحر الأبيض المتوسط: يشمل المناطق الشمالية المطلة على البحر المتوسط والسهول الساحلية في المغرب الأوسط، وهو من المناخات المعتدلة الدافئة المتميزة بشتاء لطيف على

---

[1]- المقدمة، صص91- 95.

[2]- منصور عبد الحفيظ، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في عهد الإمارة الرستمية، بحث في الدراسات المعمقة (التاريخ الإسلامي)، جامعة قسنطينة، 1983م- 1984م، صص109- 110، غير منشورة/ بلهواري فاطمة التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، دون طبعة، 2009م، ص13.

الساحل وأمطار في الخريف والشتاء والربيع، وبصيف حار وجاف، والخاصية الأساسية لهذا المناخ حسب رأي J. despois، الصدفة التي تجمع بين الصيف وفترة الجفاف، وهو متأثر بقوة من ناحيته الجنوبية بالصحراء، وهي أرض قارية، شديدة الجفاف، ذات شتاء بارد جدا وصيف حارق [1]، ولا تكون هنا الماشية عُرضة لانعدام المراعي بفضل وجود الغابات والأعشاب المختلفة (الجنبات والحشفة)، بل الثلوج التي تغطي الأرض في المناطق المرتفعة والرياح الباردة التي تهب بعد سقوط الأمطار، هي التي تسبب الكوارث في صفوف القطعان المحرومة من المأوى [2].

* مناخ الإستبس: يسود المناطق الداخلية ويمتد إلى الجهات الجنوبية، إنه النقطة الفاصلة بين مناخ البحر المتوسط في الشّمال ومناخ الصحراء في الجنوب [3]، وتتراوح كمية الأمطار به بين 400 ملم و200 ملم سنويا، وقد يزداد التساقط عن هذا القدر في عام من الأعوام، لكنه لا يلبث أن تعقبه سنون جافة، لذلك كان الاعتماد على المطر للزراعة في هذا الإقليم دون وجود مصدر مساعد للري مجازفة حقيقية، وكان الرعي هو الحرفة الرئيسية المنتشرة [4].

* المناخ الصحراوي: يتميز بالارتفاع الشديد في درجة الحرارة مع انخفاض طفيف في أشهر الشتاء، والجفاف شبه التام، فلا يسقط شيء من المطر في هذا النطاق إلاّ في القليل النادر وهو غير منتظم، ولما كان الغطاء النباتي خفيفا، أو منعدما في بعض المناطق كان الانسياب السطحي بعد الأمطار كبيرا للغاية، ومن ثم كان الأثر الفعلي للمطر المتساقط بالنسبة للنبات الطبيعي أو للمحاصيل المزروعة في الواحات ضئيلا [5]، وعلى الرعاة أن يذهبوا في غالب الأحيان إلى المناطق المتاخمة المروية أكثر أو إلى مناطق

[1]- J. Despois, op. cit, p3

[2]- بن عميرة محمد، الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2004م- 2005م، ص100.

[3]- جودة حسنين جودة، الجغرافيا المناخية والحيوية مع التطبيق على مناخ ونبات قارات أروبا وآسيا وإفريقيا ومناخ ونبات العالم العربي، الفنية للطباعة والنشر، الإسكندرية، دون طبعة، 1999م، ص492.

[4]- سارة حسن منيمنة، المرجع السابق، ص67.

[5]- المرجع نفسه ، ص66/ بلهواري فاطمة، المرجع السابق، ص14.

المناخ المتوسطي بحثا عن المراعي الصيفية الضرورية لقطعانهم [1]، علما أن هذا المناخ الغالب عليه تربية الإبل والضأن والمعز، وهي بطبيعتها تتناسب مع طبيعة المرعى الفقير [2].

في كل الأحوال، فقد أثر التنوع التضاريسي على مناخ بلاد المغرب الأوسط، وساهم في تنوعه، لكن تحديده خلال العصر الوسيط ليس سهلا، حيث أن المصادر تكتفي بذكر بعض الإشارات عن الجو السائد في مدينة ما ضمن سياق حديثها أو وصفها لبعض مميزاتها؛ فالبكري مثلا يشير إلى أن مدينة تاهرت وما جاورها كانت "شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج" [3]، وهو ما يؤكده ابن عذارى، ويضيف المؤلف نفسه حول عدد أيام فصل الشتاء بها قائلا: "قيل لبعض الظرفاء من أهلها: "كم الشتاء عندكم من شهر في السنة؟" قال: " ثلاثة عشر شهرا"! [4]، ويتضح من خلال هذا النص أن أشهر الشتاء كانت صعبة للغاية في تاهرت نظرا لتهاطل الثلوج والأمطار على المنطقة واستمرارها أكثر من ثلاثة شهور، فربما كان الخريف والشتاء والربيع كله أمطار، ولا يزال مناخ المدينة يتميز بتساقط أمطاره وثلوجه الغزيرة لحد الآن، ولعل هذا ما يفسر خصوبة المنطقة وغناها بالثروات الزراعية [5].

ومن الأمثلة الأخرى، مدينة تلمسان التي تميزت بمناخ لهو رطب لبعدها عن البحر قليلا، ولا هو حار صيفا، كما أنها لا تتأثر برياح السموم الحارة التي تأتي من الصحراء لأن جبال الأطلس تشكل الجدار الواقي من هذه الرياح، فلا يكون صيفها شديد الحرارة [6]، غير أن

1- بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص101/ J. Despois, op, cit, p27

2- صلاح الدين صميدة عوض، الرعي والبيئة في إفريقية، ضمن أعمال ندوة عن الجغرافيا ومشكلات تلوث البيئة، المنعقد في يومي 28، 29 أبريل 1992، الجمعية الجغرافية المصرية، ص325.

3- المسالك والممالك، ج2، ص248.

4- البيان المغرب، ج1، ص198.

5- منصور عبد الحفيظ، المرجع السابق، ص111.

6- محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، 1995م، ص2.

شتاءها كثير البرد والثلج [1]، وهو ما يؤكده ابن مرزوق [2] بقوله: "هي أشد بلاد عدوة المغرب الأوسط بردا وتجلدا"، ويثبته ابن مريم من خلال البستان [3]، والظاهر أن قساوة فصل الشتاء مست العديد من مناطق المغرب الأوسط، حيث يشير عماد الدين إدريس في معرض حديثه عن حملة القائم الفاطمي (366-343هـ/ 948-955م) على المنطقة سنة (315هـ/ 927م) قائلا: "وتوالت الغيوث والأنواء والأمطار وكثر الوحل، فسمّى الناس ذلك المناخ مناخ الوحل" [4]، ويوضح صاحب البيان المغرب الصورة قائلا:. "..وتوجه إلى مدغرة، ثم إلى سوق إبراهيم. فأقام في تلك الجهة أكثر من شهر، لكلب الشتاء وكثرة الوحل" [5]، ويضيف أن القائم كتب إلى إلى المهدي (297-322هـ/ 909-934م) يخبره "أنّه أقام في مناخ واحد شهرًا كاملًا، عليه المطر كلّ يوم بالغدو والآصال" [6].

وما من شك في أن المناخ ساهم منذ القدم بدور بارز في التأثير على النبات والإنسان والحيوان معا، وعلى ما يبدو أنه لم يتغير كثيرا عمّا نحن عليه الآن؛ فالباحث بن عميرة في دراسته عن"الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب" يعرض استنتاجات بعض الباحثين على رأسهم Gostynski والتي تشير إلى"أن مناخ إفريقيا الشمالية لم يتغير كثيرا، منذ الألفية الأولى قبل الميلاد" [7]، أما Xavier de Planhol فيستنتج : "أن المناخ(في المغرب) لم يتغير بالفعل، منذ العصر القديم على

[1]- الزهري، الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، دون طبعة، دون تاريخ، ص113.

[2]- المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1981م، ص222.

[3]- البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م، ص82.

[4]- عيون الأخبار- الجزء الخاص بتاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب-، صص218- 219.

[5]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص191.

[6]- المصدر نفسه، ص192.

[7]- بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص90/ سعيد البوزيدي، الخصوصيات المناخية للمغرب القديم، ضمن كتاب أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا، مكتبة دار السلام، الرباط، ط1، 2007م، ص188- ص191.

الأقل في خطوطه الأساسية" [1]، كما يذهب Golvin إلى القول: " إنّ مناخ أي بلد لا يتغير تغييرا محسوسا في ألفية واحدة... نحن نعلم مثلا، إذا اقتصرنا على المنطقة التي تهمنا- المغرب الأوسط في عهد بني زيري- أن منابع المياه المعروفة حاليا بمنطقة benia هي التي وصفها البكري في بداية القرن الحادي عشر الميلادي" [2]، ويستنتج Gsell أنه إذا" كان مناخ بلاد البربر قد طرأ عليه تغير منذ العهد الروماني، فإن ذلك لم يكن إلاّ بقدر ضئيل" [3].

نافلة القول، أنه مهما قيل عن المناخ تبقى طبيعة الأرض وتنوعها التضاريسي العامل الأول المؤثر عليه، والمحدد لأقاليمه، مع فرض طبيعة قاسية مضطربة، تتحكم بنسبة كبيرة في توزيع المناطق الرعوية، كما أنه المتسبب الرئيسي في توفير الماء، هذا الأخير ونظرا لأهميته بالنسبة لأي مجتمع فإن نقصه يؤدي إلى اضطرابات عامة.

3- المياه

إن الخصائص المناخية والتضاريس التي تميزت بها بلاد المغرب الأوسط أثرت بصورة واضحة على توزيع المياه مع إعطاء نمط خاص لجريانها، وكذا مناطق الاستقرار من حولها سواء في القديم أو العصر الوسيط [4]، وبالتالي على مختلف الأنشطة الاقتصادية، وهذه الخصائص تشير إليها العديد من المصادر الجغرافية الوسيطية التي اهتمت بوصف بلاد المغرب وذكر ثرواتها، ووفرة مياهها، ويعتبر المغرب الأوسط جزءا هاما من هذا الإقليم الذي يصفه صاحب "أحسن التقاسيم" قائلا: "يجري خلالها الأنهار، ويملأ غيطانها الأشجار" [5]؛ فالماء حياة كل

1- Xavier de Planhol, les fondement géographiques de l'Histoire de l'Islam, Paris, 1960, p136/ Gsell, le climat de l'Afrique de nord dans l'antiquité , revue Africaine, volume 55, 1911, pp344-410.

2- le Maghreb central à l'époque des zirides , p77

3- تاريخ شمال إفريقيا، ص104.

4- عبد العزيز بل الفايدة، الماء بين المقدس والمنفعة في شمال إفريقيا ما قبل الإسلامية على ضوء النقاش، سلسلة ندوات ومناظرات، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، رقم11، 1999م، ص33/ .Abdelhamid Hajiat, op. cit, p40

5- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص216.

شيء، لا يصلح عيش ولا نمو الكائن إلا به، وبه يحيا الإنسان "الذي لم يخلق الله اشرف صيغة منه والحيوان والنبات والشجر وكل مأكول من الثمر وغيره" [1].

كما أن الماء يشكل سببا أساسيا للترحال أو التجوال لدى البدو، ليظهر ما يعرف بالبداوة الرعوية، ويجد هؤلاء إلى جوار الماء كل أسباب الحياة والخصب والنماء [2]، وقد عالجت كتب النوازل الفقهية قضايا الماء، ويلاحظ ارتباطها الوثيق بمجتمع البادية، فهي تتناول مشاكل تتداخل فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية [3]، لأن الماء هو العامل الرئيسي وراء قيام النزاعات بين الأفراد خاصة في أوقات الجفاف، وعليه يمكن تقسيم مصادر المياه إلى أربعة وهي: الأمطار، والأنهار، والعيون، والآبار، فضلا عن الجهد البشري والحيواني في استخراج المياه باستخدام الآلات، والنظم.

أ- الأمطار

تتميز المنطقة التي تهب بها رياح الشمال الغربي بكثرة ورود أمطارها وشدة غزارتها واتساع مدارها [4]، لكن الملاحظ هو التساقط غير المنتظم من سنة إلى أخرى، وذلك بالمناطق المعتدلة، وينتج عن ذلك الجفاف وتنعكس عنه المجاعات والأوبئة، كما قد تسقط الأمطار بغزارة أكثر فتحدث أضرارا جسيمة، و تشير بعض المصادر العربية الوسطية إلى هذا التذبذب في التساقط [5]، ولا يتخلص الساحل الشمالي لإقليم إفريقية إفريقية والمغرب الأوسط من خط التماطر إلاّ قرب تلمسان نظرا لوقوعها ضمن السلسلة الأطلسية من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، مما يسمح لمؤثرات بحر

[1]- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مكتبة المثنى، بغداد، دون طبعة، 1885م، ص223.

[2]- مصطفى الفوال، المرجع السابق، ص354.

[3]- عمر بنميرة، قضايا المياه بالمغرب الوسيط، من خلال أدب النوازل، تاريخ وأدب النوازل، كلية الآداب، الرباط، سلسلة رقم 46، ص77/ محمد حسن، المدينة والبادية، بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، دون طبعة، 1999م، ج2، ص384.

[4]- كزال ستيفان، المرجع السابق، ص60.

[5]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص191 وما بعدها/ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص96 وما بعدها.

المحيط بالتوغل نحو الداخل، وبخلاف جبال الأطلس التي تحجب السفوح الجبلية الغربية عن الأمطار، وتشكل هذه الجبال حاجزا أمام الرياح الغربية [1].

أما المغرب الأوسط فتهب عليه الرياح الغربية العكسية بأمطارها، ويبدأ نزول المطر في فصل الخريف ومطلع الشتاء ثم الربيع، فتشتد في نوفمبر وديسمبر، بينما الصيف جاف، وهذه الأمطار تمد الأنهار بكمية كبيرة من المياه [2]، وعليه وجب مراعاة توزيع الأمطار في تربية المواشي، لأن ظروفها تكون حسنة خلال قسم كبير من السنة في الجهات التي يتجاوز فيها المعدل السنوي 35 سنتمترا، وحين لا يكون في التهاطلات اضطراب كبير في المواعيد، ففي شهر ديسمبر وحتى في نوفمبر حين تبكر الأمطار تكسي الأرض ببساط من الكلأ الطبيعي، من النجيليات والبقليات التي يلذ الكثير منها للمواشي، ويكون طعمها ألذ وتغذيتها أفيد بالجهات المرتفعة كالجبال التي بشمال قسنطينة، والسهول العليا لسطيف وتيارت [3].

إذن هناك علاقة بين التساقط وتنوع الغطاء النباتي، هذا الأخير بدوره يتحكم في تنوع الثروة الحيوانية وتوزيعها إلى جانب الماء، حيث يكشف لنا صاحب الاستبصار ذلك بقوله: "للمغرب الأوسط مدن كثيرة... أكثرها في البلاد الساحلية، وهي كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم والماشية" [4]، غير أن الثلوج تمنع الماشية من الرعي، وهو ما يؤكده صاحب كتاب الاستبصار بقوله: "ومن الجبال المشهورة ببلاد المغرب فازار، وهو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر، ويطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي، وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيل"[5]، وكذا قسوة المناخ والصقيع الليلي بالخصوص يحدث عنهما ضحايا كثيرة [6]،

---

[1]- بلهواري فاطمة، المرجع السابق، ص8.

[2]- يحي أبو المعاطي، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (238- 488هـ/ 853- 1095م)، شهادة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1421هـ/ 2000م، ص433، غير منشورة.

[3]- كزال ستيفان، المرجع السابق، ص150.

[4]- مجهول، الاستبصار، ص179.

[5]- المصدر نفسه، ص187.

كثيرة [1]، وهذا ما كان في الغالب يلزم الكثير من الرعاة على الترحال؛ فالتنوع المناخي والتضاريسي له أثره الكبير في توزيع المصادر المائية من أبار وأنهار وعيون.

كما أن افتقار المغرب الأوسط للأنهار الكبرى جعله لا ينتفع بمياه الأمطار التي يتلقاها السطح وكذلك المياه الجارية والجوفية، علما أن "أفضل المياه ماء السماء ...ثم ما وقع منه على جبل فيجتمع على صخرة ثم ماء الأنهار العظام، ثم الماء المستنقع في الصحاري إذا لم يكن عشب فيه، ثم ماء القناة ثم ماء الحوض الكبير العمق، ثم ماء العيون وما كان مجراه على الصخور" [2].

ب- الأنهار

تمثل الأنهار مصدرا رئيسيا من مصادر المياه العذبة على سطح الأرض لقوله تعالى: ﴿**أَلَم تَرَ أَنّ الله أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ**﴾ [3]، لذا لجأ الإنسان إليها شاربا وساقيا وزارعا [4]، وما هو معروف أن التساقطات تغذي الأنهار والعيون منذ القدم [5]، بالإضافة إلى ربطها بين المناطق الساحلية والداخلية [6]، كما نتج نتج عن كثرة الأمطار توفر مياه دائمة الجريان في إقليم المغرب الأوسط نظرا لارتفاع جباله، كمدينة تاهرت التي كانت في "سفح جبل يسمى قرقل، وهي على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب، يسمى مينة، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس" [7]، لكن الفائدة لم تشمل كل المناطق لأن المغرب الأوسط لم يحظ بعدد كبير من

[1]- كزال ستيفان، المرجع السابق، ص151.

[2]- ابن الفقيه، المصدر السابق، ص223.

[3]- سورة الزمر، الآية21.

[4]- شاهر جمال آغا، علم المناخ والمياه، مطبعة الإحسان، دمشق، دون طبعة، 1978م، ج2، ص183.

[5]- محمد المجدوب، الماء في تاريخ المغرب، سلسلة ندوات ومناظرات، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، رقم11، 1999م، ص18.

[6]- بلهواري فاطمة، المرجع السابق، ص10.

[7]- مجهول، الاستبصار، ص178.

من الأنهار، فهي قليلة صغيرة وبعضها لا تكثر فيه المياه إلاّ في فصل الشتاء عندما تهطل الأمطار [1].

ومن أشهر هذه الأنهار نهر شلف، وهو أغزرها بالمنطقة، منبعه من جبل وانشريس ويصب ماؤه في البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة مستغانم [2]، وشبه هذا النهر بالنيل يزيد أيام نقص الأنهار [3]، وقد يترتب عن ذلك ظهور مناطق صالحة للزراعة والرعي [4]، وهذا ما تؤكده أوصاف الجغرافيين العرب لهذه المنطقة، فمدينة أرشقول كان بها: " آبار عذبة لا تغور تقوم بأهلها ومواشيهم" [5]، ويصف ابن حوقل حوقل مدينة برشك قائلا: "ولها مياه جارية وأبار معين... ولها بادية يشترون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النحل بالبلد، وأكثر أموالهم الماشية* ولهم من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد عن حاجتهم" [6]، وهو ما يؤكده الإدريسي في نزهته [7]، وبالمسيلة الحنطة والشعير موجودان، ويقابل ذلك كثرة "المواشي من الدواب** والأنعام*** والبقر" [8]، والملاحظ هنا اقتران وفرة الثروة الحيوانية وتنوعها بكثرة

[1]- الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160هـ-296هـ)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط3، 1987م، ص15.

[2]- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982م، ص141/ الحريري محمد عيسى، المرجع السابق، ص15.

[3]- اليعقوبي، المصدر السابق، صص113- 114/ ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص141.

[4]- بلهواري فاطمة، المرجع السابق، ص12.

[5]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص261.

*- المواشي،- مشي- والماشية، الإبل والغنم معروفة، والجمع المواشي اسم يقع على الإبل والبقر والغنم، وكلّ ما يكون سائمة للنسل. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م، م14، ص81.

[6]- صورة الأرض، ص78.

[7]- نزهة المشتاق، م1، ص 258.

**- الدّابة، اسم لما دَبَّ من الحيوان، والدّابة التي تركب، وقد غلب هذا الاسم ما يركب من الدواب، وهو يقع على المذكر والمؤنث، ابن منظور، المصدر السابق، م5، ص206.

***- الأنعام، -نعم-، والأنعام يقصد بها الإبل والبقر والغنم. ابن منظور، نفسه، م14، ص305.

[8]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص85.

الإنتاج الزراعي وتنوع محاصيله، إذ غالبا ما نجد كثرة الزرع ترفق بكثرة الضرع، وهذا يعود إلى توفر الشروط الضرورية وعلى رأسها مصادر المياه، التي اعتمدت على مياه الأمطار أو الأنهار وما قابلها من مياه جوفية.

ومن الأنهار أيضا نهر سيرات كبير ومشهور، يجري بالقرب من قلعة هوارة ويسقى هذا النهر فحص سيرات الذي يبلغ طوله أربعين ميلا [1]، أما نهر مينة فيأتي من جهة القبلة لمدينة تاهرت [2].

إذا كانت بعض الأنهار تستمد مياهها من تساقط الأمطار، فهناك ما تستمد مياهها من العيون والينابيع لتصبح أكثر فائدة موسم شح الأمطار، فنهر سهر "وهو نهر المسيلة ويعرف بالوادي الرئيسى" [3]، "منبعثه من عيون داخل مدينة غدير وَارًّا... بين جبال فيها عين ثرة عذبة عذبة عليها الأرحاء وعين أخرى، وتحتهما عين خرّارة يقال لها عين مُخلّد تجتمع فيها، ومن هناك منبع نهر السهر" [4]، ولمدينة قسنطينة ثلاثة أنهر تخرج من بعض العيون [5]، لكن المياه المتساقطة المشكلة للأنهار والجداول لا يلبث أن يتبخر جزء منها [6].

ج- العيون والآبار

استخدمت مياه العيون والآبار لسد حاجات الإنسان والنبات والحيوان معا، خاصة بالمناطق الصحراوية التي يقل فيها المطر، كما ساهمت في تغذية الأنهار بالمياه بعد فصل الأمطار، أو باستخدامها بديلا عنها في الزراعة والشرب [7]، وقد انتشرت الآبار والعيون في أماكن عدة من المغرب الأوسط، منها أشير التي كان بها "عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر" [8]،

[1]- البكري، المصدر السابق، ص252.
[2]- المصدر نفسه، ص238.
[3]- نفسه، ص232.
[4]- نفسه، ص240.
[5]- نفسه، ص244.
[6]- شاهر جمال آغا، المرجع السابق، ص15.
[7]- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ص59.

قعر" [1]، ولمدينة تيفاش "عيون ومزارع كثيرة" [2]، وقصر الفلوس" ماؤها من عين ماء جارية بها" [3]، ومدينة تلمسان كان فيها "عيون كثيرة ومياه غزيرة" [4]، جلبها الأولون من عيون لوريط، بينها وبين المدينة ستة أميال [5]، وهذه الميزة جعلت يحي ابن خلدون يصف المدينة قائلا: قائلا: "منجبة للحيوان والنبات، كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة" [6]، وهو ما يؤكده المقري من خلال نفح الطيب [7].

أما تاهرت فقد اشتهرت بمخازن عديدة للمياه لاهتمام الرستميين بأعمال الري [8]، خاصة خاصة وأنها إقليم"أحدقت بها الأنهار، والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين وجل بها الإقليم" [9]، وهي أوصاف يؤكدها البكري خلال القرن 5هـ/ 11م [10]، 5هـ/ 11م [10]، الأمر الذي ساعد على ازدهار الزراعة وتربية الماشية بها [11]، ومن الأمثلة أيضا مدينة مليانة "آهلة على نهر، ولها آبار عذبة" [12]، وخصت أرشقول بآبار عذبة لا تغور تقوم بأهلها ومواشيهم [13].

لكن تمت أمور فقهية فيما يخص توزيع مياه الآبار بين المالك أي الحافر وعابر السبيل، غير أن تطبيقها مع واقع المغرب الأوسط أمر في غاية الصعوبة، وذلك لغياب النصوص المتعلقة

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص241.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص231.

[3]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص79.

[4]- الزهري، المصدر السابق، ص113.

[5]- البكري، المصدر السابق، ص259

[6]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، دون طبعة، 1980م، ص90.

[7]- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، دون طبعة، 2004م، ج7، ص135.

[8]- بلهواري فاطمة، النشاط الاقتصادي ببلاد المغرب خلال القرن 4هـ/ 10م، شهادة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة السانية ، وهرا، 2004-2005م ص15، غير منشورة.

[9]- المقدسي، المصدر السابق، ص 228.

[10]- المسالك والممالك، ج1، ص248.

[11]- محمد بن رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، المطبعة العلوية، مستغانم، ط1، 1966م، ص 30.

[12]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص251.

[13]- المصدر نفسه، ص 261.

بالمنطقة التي عرفت انتشارا واسعا للمذهب المالكي كبقية مناطق بلاد المغرب، لكن الوحدة الجغرافية لمناطق هذا الإقليم- المغرب- والرحلات العلمية المتبادلة بين فقهائه جعلتنا نتبنى الكثير من الأحكام الواردة ضمن أمهات مصادر الفقه المالكي، وإسقاطها على واقع المغرب الأوسط، منها أهمية البئر في سقي الدواب والتي أفادنا بصددها صاحب النوادر والزيادات بقوله:. "روى مالك أن ﷺ قال ﴿لاَ يُمْنَع فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ الْكَلَأ﴾ قال مالك ومعنى ذلك في آبار الماشية لأنه إذا منع فضل الماء لم يرع ذلك الكلأ الذي بذلك الوادي إذا لم يجد ما يسقي به فصار منعا للكلأ وذلك في آبار الفلوات* لا تباع ولا تورث وصاحبها الذي احتفرها أو ورثته أحق بمائها يسقون منها قبل غيرهم ثم ليس لهم منع الناس أن يسقوا بفضلها" [1]، ومن هنا تبدو الفائدة عامة على الأفراد فيما يخص الآبار القريبة من أماكن الرعي، لكن مع احترام حق كل فرد في الاستفادة من البئر التي قام بحفرها، وبما أن السند هو قول الرسول الكريم، حسب رواية مالك، يمكن تطبيق تلك الأحكام على واقع المغرب الأوسط.

كما خصص صاحب الأحكام السلطانية من جهته فصلا "في أحوال حافر الآبار"، تناول من خلاله الحالات التي تحفر فيها الآبار، وركزنا على تلك التي لها علاقة بالماشية؛ فالحالة الأولى يحفر للسابلة ويكون ماؤها مشتركا، وحافرها فيه كأحدهم حتى الزرع له حظ من هذا الماء، لكن إن ضاق ماؤها عنهما كان شرب الحيوان أولى به من الزرع، ويشترك فيه الآدميون والبهائم**، فإن ضاق عنهما كان الآدميون بمائها أحق من البهائم.

*- الفلوات، الفلاة، المفاوز- القفر من الأرض، ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص226.

[1]- ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، ج11، ص5.

**- البهيمة،- بهم- كل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء، والجمع بهائم، والبهمةُ: الصغير من أولاد الغنم الضأن والمعز والبقر من الوحش وغيرها، ابن منظور، المصدر السابق، م2، ص172.

أما الحالة الثانية، أن يحتفرها الحافر لارتفاقه بمائها، كالبادية وهم الرحل إذا انتجعوا أرضا وحفروا فيها بئرا لشربهم وشرب مواشيهم، كانوا أحق بمائها ما أقاموا عليها في نجعتهم [1]، والحديث هنا يخص بئر الماشية، الذي لا يجوز منع فضله؛ إذ يشير صاحب النوادر والزيادات إلى أن ابن القاسم قال: "لا تباع بئر الماشية لأن للناس فيها حقا" [2].

والظاهر أن قضية تصريف مياه الآبار للارتفاق بها متفق عليه؛ فأبو يوسف القاضي مثلا يشير قائلا: "وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها، وليس له أن يبيع من ذلك شيئا للشفة والشفة عندنا لبنى آدم والبهائم والنعم والدواب" [3]، ويفيدنا المؤلف نفسه أنه لو كان لأهل قرية مروج خاصة بهم يرعون فيها ويحتطبون منها، هنا لهم كل الحق في التصرف بها، يتبايعونها ويتوارثونها، لأنها ملك لهم، لكن لا يحق لهم أن يمنعوا الكلأ أو الماء عن أصحاب المواشي المستغلين لتلك المروج والمياه [4]، كما تجدر الإشارة إلى المسافة التي تبعد بين مكان الحفر وأماكن تواجد الماشية، فليس "للبئر، ولا للعيون حريم*، إلا لما يضر بها، فإذا ظهر الضرر: منع من إحداثها. وما كان من آثار الماشية، وذهب أحد إلى أن يحفرها، أو يبني بقربها، في موضع عطن**، أو مرابض الغنم، أو البقر حول البئر" [5]، وسئل ابن سحنون عن حريم البئر فقال: "اختلف في ذلك الأئمة، قيل هي عشرون ذراعا، وقيل ستون ذراعا، وقيل: ثمانون ذراعا" [1].

---

[1]- الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق نبيل عبد الرحمن حيّاوي، دار الأرقم، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، صص258- 260.

[2]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ج11، ص7.

[3]- أبو يوسف، كتاب الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص95.

[4]- المصدر نفسه، ص102.

*- الحريم مسافة معين تثبت بالنص، وعلى ما يبدو أن حريم بئر العطن المشار إليها أربعون ذراعا، لقوله ﷺ ﴿من حفرا بئرا فله أربعون ذراعا حولها عَطَن لماشيته﴾. يحي بن آدم القرشي، كتاب الخراج، تحقيق أبو الأشبال أحمد محمد شاكر، دار المعرفة للطباعة والنشر، دون طبعة، دون تاريخ، ص103/ الماوردي، المصدر السابق، ص259.

**- عطن، ضرب القوم بعطن إذا أناخوا حول الماء بعد السقي، ويقال الإبل تحن إلى أعطانها والرحال إلى أوطانها. الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2006م، ص426.

وصفوة القول، للتضاريس إيجابيات وسلبيات؛ فارتفاعها يتسبب في فوارق كثيرة بما فيها تساقط الأمطار، وهي غير منتظمة في كل الجهات ولا يمكن الاعتماد عليها بكل ثقة، إذ يحدث أنها قد تنعدم في الشهر الذي تكون فيه ضرورية بحق، وقد يسود الجفاف سنوات عديدة، ينقص فيها منسوب المياه، وتجف المحاصيل وتموت المواشي [2]، لأنّ الأمطار وتوزيعها يتوقف عليه تنوع الغطاء النباتي ووفرة المراعي [3].

إذن التساقطات المطرية لها أهمية عظمى في الحياة الاقتصادية والبشرية، باعتبارها العنصر الفعال الذي يحدد النطاقات النباتية سواء أكانت طبيعية أم زراعية، خاصة وأنّ النشاط الرعوي يرتكز على وجود الماء، هذا الأخير الذي يساهم بدرجة كبيرة في توفير المراعي الضرورية لكل حيوان.

4- الغطاء النباتي

للغطاء النباتي وظيفة حيوية بالنسبة للإنسان وحياته [4]، ويخضع بدوره لنوع التربة باعتبارها أهم العناصر المتحكمة في الإنتاج الفلاحي بكل أشكاله الزراعية والرعوية، ومن ثم هي عنصر أساسي لتأمين التغذية البشرية والحيوانية [5]، إلى جانب غزارة التساقطات ووفرة المياه، وهذا النبات هو قوام غذاء الحيوان، ودرجة تحمل أي مكان لعدد من الحيوانات يتوقف على ما

---

[5]- ابن زرب، كتاب الخصال، تحقيق د. عبد الحميد العلمي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دون طبعة، 2005م، ص278.

[1]- ابن سحنون، فتاوى ابن سحنون، تحقيق مصطفى محمود الأزهري، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2011م، ص379.

[2]- Gautier, op. cit, p154- 155 / حليمي عبد القادر، مدخل في الجغرافية المناخية، ص181.

[3]- J. Despois, op, cit, p19- 20

[4]- جيلالي صاري، المرجع السابق، ص32.

[5]- إبراهيم القادري بوتشيش، عبد الهادي البياض، التربة: آفاتها، تقنيات علاجها وتدبير استغلالها في ضوء الأدبيات الفلاحية الأندلسية (القرن5هـ/ 11م)، ضمن كتاب جماعي "الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، دون طبعة، 2011م، ص215.

به من غذاء صالح [1]، ومثلما تحكمت التضاريس في التنوع المناخي، نجدها قد أثرت وبنفس الصورة في توزيع الغطاء النباتي، وذلك حسب درجة الارتفاع عن سطح الأرض.

فهنالك أنواع كالزان يوجد على ارتفاع ما بين ألف وألف وخمسمائة متر، والخروب يكثر في المناطق التي يتراوح ارتفاعها بين أربعمائة وألف وخمسمائة، في حين يوجد الأرز في المناطق التي يتراوح ارتفاعها مابين ألف وخمسة مائة وألفين وخمسمائة متر [2]؛ فالجهات الجغرافية تتباين ما بين مناطق فلاحية متوافرة على أسباب الاستقرار، ومناطق رعوية تشتمل على حد أدنى من الخصوبة، ثم مناطق صحراوية قاحلة تقتضي من سكانها التنقل والترحال المتواصل [3]، غير أن المصادر الجغرافية المعتمدة في الدراسة رغم أهميتها إلاّ أنها لا تقدم المادة الوافية حول الغطاء النباتي وأنواعه ببلاد المغرب الأوسط، إنما تكتفي بالربط بين وفرة الزرع والضرع، كمتيجة التي كان لها "مزارع ومسارح" [4]، ومراعي وجدة "...أنجع المراعي وأصلحها للظلف* والحافر**" [5]، وحول جراوة "بسائط عريضة للزرع والضرع" [6].

ويفيدنا الإدريسي حول مدينة بجاية قائلا: "ولحومها كثير وبلادها وجميع ما ينضاف إليها

[1]- فاروق محمد حلمي، إبراهيم علي جعبوب، الحيوان الزراعي الاقتصادي، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، دون طبعة، 1972م، ص262.

[2]- بلهواري فاطمة، المرجع السابق، ص 18.

[3]- آزاد أحمد علي، الفكر الاجتماعي عند الخلدوني، المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2004م، ص 156.

[4]- البكري، المصدر السابق، ص247.

*- الظّلف والظِّلف، -ظلف-، ظفُرُ كل ما اجترّ، وهو ظلف البقر والشاة والظبي وما أشبهها، ابن منظور، المصدر السابق، م9، ص187.

**- الحافر- حفر- من الدواب يكون للخيل والبغال والحمير، ابن منظور، المصدر السابق، م4، ص163.

[5]- البكري، المصدر السابق، ص264.

[6]- المصدر نفسه، ص326.

تصلح فيها السوائم*** والدواب لأنها بلاد زرع وخصب" [1]، وكان لمستغانم جنات وبساتين كثيرة [2]، ومدينة بني واريفن واسعة المسارح كثيرة الكلأ [3]، ونفس الخاصية تميزت بها مدينة تاهرت.

وفي كل الأحوال الغطاء النباتي أنواع، إما مزروعات يعمل الإنسان على تعهدها والاعتناء بها لأنها تمثل زاده وزاد من يرافقه من الحيوان، أو نجده على شكل غابات ممتدة في معظم أراضي الشمال ولا يستثنى منها إلاّ بعض الأماكن المحدودة [4]، وهذا الامتداد يرجع إلى الأمطار الكافية والمرتفعات والتربة، ولعل"صاحب الاستبصار" صدق لما وصف مدن المغرب الأوسط ، التي تميزت بكثرة خصبها وزرعها، وطيب مراعيها، وهذا ما ساهم بقدر كبير في وفرة الغنم والماشية، وكذا رخصها وجودة لحومها [5]؛ فالزراعة والرعي هما أساس معيشة سكان المغرب الأوسط [6]، ومثلما ساهم الماء بدور كبير في تحرك القبائل نجد أنّ الكلأ من أهم العوامل العوامل التي تحرك البدو الرعاة [7].

وبالمقابل، تبقى النصوص الخاصة بوصف غابات هذا المجال الجغرافي شحيحة جدّا، وربما دل عليها مصطلح شعراء الوارد ذكره ضمن العديد من النصوص، خاصة الجغرافية، من ذلك مدينة أفكان التي كانت في سفح جبل له شعراء غامضة [8]، والحصن الذي بناه الحسن بن أبي العيش في جبل ممالو قبلي مدينة جراوة ، يتصل به في أسفل الجبل شعارى كثيرة الالتفاف لا

[1]- الإدريسي، نزهة المشتاق، م1، ص261.

***- السائمة- سوم- بمعنى المال الراعي وسامت الراعية والماشية والغنم والسّوام، كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلي وسومه يرعى حيث شاء، والسّوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل، ابن منظور، المصدر السابق، م7، ص308.

[2]- الإدريسي، المصدر السابق، ص271.

[3]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص241.

[4]- جيلالي صاري، المرجع السابق، ص32.

[5]- مجهول، المصدر السابق، ص179.

[6]- محمود السيد، تاريخ إفريقيا الحديث والقديم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دون طبعة، 2006م، ص269.

[7]- مصطفى الفوال، المرجع السابق، ص 354.

[8]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص263.

تسلك [1]، بالإضافة إلى الأشجار المثمرة التي نجدها بالبساتين المختلفة، كندرومة التي كانت حسنة "كثيرة الزرع والفواكه... ولها بسائط خصيبة ومزارع كثيرة" [2]، وبالمرسى الكبير "بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة... والعسل بها موجود... " [3].

ويميل أحد الباحثين [4] إلى القول أنّ الأوضاع ببلاد المغرب الأوسط ساعدت على نمو الغابات على وجه العموم، باستثناء بعض المساحات المتلفة في القطاع الشرقي إثر توغل قبائل الهلاليين، كما أن المراعي تنمو بازدهار بين هذه الغابات وبين المنحدرات وفي الأودية الجبلية، لهذا تربى الكثير من قطعان الماشية في هذه المراعي النضرة، علما أنّ الثلوج التي ترغم البشر والحيوانات في الشتاء على الالتجاء إلى السفوح والأودية، تساهم عند ذوبانها إضافة إلى الأمطار التي تتلقّاها الجبال الأطلسية خلال فصل الصيف، في تجديد هذه المراعي [5].

ويمتاز الغطاء النباتي هنا بالتنوع للتباين في مظاهر السطح وكميات الأمطار وأنواع التربة، فتظهر الغابات المعتدلة على المنحدرات الشمالية لجبال الأطلس حيث التربة الجبلية الخصبة والأمطار التي يتزايد معدلها على 600 ملم، وتنتشر مراعي الإستبس في الأودية الجبلية، عكس الهضاب ومنحدرات الأطلس الداخلية فإن كمية الأمطار تقل عن 400 ملم، وتتميز تربة الإستبس أو تربة الحشائش السمراء بفقر نسبي في المواد العضوية، كما يعد هذا الإقليم من مناطق الرعي الأساسية في بلاد المغرب، إذ تنتشر فيه أعداد كبيرة من القطعان التي تضم المعز والأغنام والأبقار والإبل والخيل والحمير [6].

[1]- البكري، المصدر السابق ، ص326.

[2]- مجهول، الاستبصار، ص 135.

[3]- الإدريسي، المصدر السابق، ص252.

[4]- جيلالي صاري، المرجع السابق، ص37.

[5]- جان فرنسوا وآخرون، المرجع السابق، ص102.

[6]- سعودي محمد عبد الغني، جغرافية الوطن العربي، دار اليازوري للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1999م، ص69.

أما نباتات الصحراء فتظهر في الأحواض الجنوبية حيث تقل كمية الأمطار عن 200 ملم [1]، ويعد هذا الحيز الجغرافي أنسب المناطق الرعوية للجمال والمعز لأنّ هذه الحيوانات لا تحتاج إلى مراعي غنية [2].

كما تنمو مراعي المغرب الأوسط- الجزائر- فوق هضبة الشطوط ولا سيما في الأودية العديدة التي تقطعها، وكذلك على المنحدرات المشرفة على الهضبة [3]، وعليه نجد تربية البقر تتم في بعض المناطق المحظوظة من التل الجزائري، وتربيتها مرتبط ارتباطا وثيقا برطوبة المناخ وبالعشب الغزير [4]، أما الغنم فيناسبها نوع خاص من النباتات متوفر على حافة الشطوط ويعرف ب « HALOPHYTES »، ويسمي "**Gautier**" بلاد السهوب "بلاد المواشي"، ويضيف أنه موطن المراعي والقبائل الرحل [5]، وهو أنسب بيئة لتربية الخيل لأنه يحتاج إلى مساحات واسعة للعدو [6].

صفوة القول، يعد الغطاء النباتي ثاني عامل يساعد على تنوع ووفرة الثروة الحيوانية إلى جانب المياه، غير أنه خاضع للتقلبات المناخية، ومتأثر بها كثيرا مما يجعله يتغير من سنة إلى أخرى، وهذا ما ينعكس سلبا على تلبية حاجيات الحيوانات الغذائية من حبوب ومراعي طبيعية.

5- الكوارث الطبيعية

---

[1]- محمد إبراهيم حسن، دراسات في جغرافية ليبيا والوطن العربي، منشورات جامعة بنغازي، مطابع الشروق، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص13.

[2]- سعدية عاكول الصالحي وعبد العباس فضيح الغريري، الجغرافيا الحيوية- النبات والحيوان-، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1998م، ص139.

[3]- محمد إبراهيم حسن، المرجع السابق، صص 14-15.

[4]- موريس لومبار، المرجع السابق، ص254/ بودرقا لحسن، الثروة الحيوانية بشمال إفريقيا القديم، شهادة دكتوراه في التاريخ والأركيولوجيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001- 2002م، ص208، غير منشورة.

[5]- Gautier, op, cit, p161

[6]- سارة حسن منيمنة، المرجع السابق، ص142/ م. س. اندرسون، البيئة والحياة، ترجمة د. فوزي فهيم جاد الله، راجعه د. يوسف أبو الحجاج، مكتبة الأنجلو المصرية، دون طبعة، دون تاريخ، ص102.

إنّ الحديث عن العوامل المؤثرة في تربية الحيوانات يدفعنا إلى التعرف على أهم الجوائح الطبيعية التي مست مناطق عدة من المغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من القرن 4هـ/ 10م إلى غاية نهاية القرن5هـ/ 11م، وفي الواقع يعود السبب الرئيسي لهذه الجوائح إلى التقلبات المناخية، مما أدى في كثير من الأحيان إلى ظهور قحط ومجاعات، لتتبع بأمراض وأوبئة تضرر منها الحيوان قبل الإنسان.

كان تأثير الكوارث الطبيعة جد واضح على القطاع الفلاحي بشكل كبير، ويعود ذلك إلى الاضطرابات المناخية الفجائية أو الدورية التي شهدها المجال المكاني المخصص للبحث كغيره من مناطق بلاد المغرب؛ فكان لذلك أثره الكبير على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من بين هذه الكوارث:

أ- الجفاف

يعد الجفاف صورة من صُورِ قلة التهاطل، ويصنفه أحد الباحثين [1] ضمن الجوائح المائية، لأنه ظاهرة تجعل الحاجة ماسة إلى الماء من قبل النبات والحيوان، وحتى الإنسان، بحيث تغدو الأرض قاحلة لا نبات ولا ماء فيها؛ فاحتباس الأمطار يقضي على الإنتاج الزراعي وأعشاب المراعي، وينفق بسببها أعداد كبيرة من الحيوانات [2]، وقد ضرب الجفاف بلاد المغرب ككل عبر فترات زمنية مختلفة [3]، حسب ما تفيدنا به بعض المصادر التاريخية مع الإشارة إلى ما يتبعه من مجاعات وأوبئة، حتى وإن كانت بعض النصوص مبالغا فيها، إلاّ أن ما يهمنا في مضمونها وجود الظاهرة إما بسلبياتها أو إيجابياتها.

[1]- سعيد بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7 و8هـ/ 13 و14م،- إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2007، ص154.

[2]- علي حسن موسى، المناخ والزراعة، دار دمشق، دمشق، ط1، 1994م، صص115- 116/ م. س. اندرسون، المرجع السابق، 135.

[3]- محمد المجدوب، الماء في تاريخ المغرب، سلسلة ندوات ومناظرات، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، رقم11، 1999م، ص21.

ومن النصوص الدالة على الأثر السلبي للتقلبات المناخية خلال مرحلة البحث، القحط الذي عم سنة (381هـ/ 991م) كلا من بلاد المغرب والأندلس وإفريقية بحيث "جفت من أجله المياه جفوفا كثيرا" [1]، فكانت المجاعة شديدة دامت ثلاثة سنين، من سنة (379هـ/ 989م) إلى (381هـ/ 991م) [2]، وبلغ أثر هذه الجائحة الحيوان أيضا حسب ما تفيدنا به إحدى النصوص التاريخية من خلال إشارة صاحبها إلى تغير الأوضاع أواخر سنة (381هـ/ 991م) بنزول المطر، حيث" أكلأت الأرض وأحطت الأسعار، وحيي الناس وانتعشت البهائم والدواب" [3]؛ إذن مما لا شك فيه أن تذبذب الأمطار، وعدم تساقطها في بعض الجهات خلال فترات زمنية معينة، يعد عاملا في سيادة الجفاف، ومثل هذه الوضعية لا تشجع على التقري والتمدن وإنما التنقل الدائم بحثا عن الماء والكلأ [4].

لكن هناك نصوص تثبت أن المجاعة قد تحدث بسبب كثرة الفتن، أين يصبح الانفلات الأمني سيد الفترة، مثلا في سنة (303هـ/ 916م) وقع بالأندلس والعدوة وإفريقية "فتن كثيرة ومجاعة عظيمة شبهت بمجاعة عام ستين ومائتين، بلغت فيها الحاجة مبلغا لا عهد للناس بمثله، وصل مد القمح ثلاثة دنانير ووقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم" [5]، وربما كانت تاهرت من بين المناطق التي عمتها الظاهرة، لأن ابن حوقل يصفها في وقته (ق4هـ/ 10م) بقوله: "تغيرت... عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر... فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت" [6]، وبهذا تكون الحروب قد أضرت بالإنتاج

---

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص114.

[2]- المصدر نفسه، ص115.

[3]- نفسه، ص115.

[4]- الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي، من منتصف القرن 2هـ/ 8م إلى نهاية القرن 5هـ/ 11م، تقديم محمد حجي، دار المدار الإسلامي، دون طبعة، 2000م، ص37.

[5]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص98.

[6]- صورة الأرض، ص93.

*- أجلو، هو بلد بني ورتيزلن في جهة وادي ريغ في الجنوب الجزائري، الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص825.

الفلاحي، وقلصت من مردوديته بفعل نهب المحاصيل والماشية، وإحراق المزارع، وتخريب الحقول، فضلا عن ضغط الطبيعة، وظهرت بذلك المجاعات التي خلفت بدورها نتائج كارثية على الإنسان والحيوان.

ولا سبيل إلى الشك، في أن هذه الظروف كانت تدفع بالأفراد إلى اتخاذ تدابير أو اللجوء إلى عبادات شرعية كصلاة الاستسقاء أو الصوم، وهذا ما فعله أهل أجلو* الذين وقع فيهم وباء في أحد السنين "فأضر بأهلها في جناتهم، وآذى كثيرا، اقتضى نظرهم أن يجتمعوا ويصوموا يوم الأربعاء والخميس والجمعة" [1]، وربما استعان بعضهم بالأولياء وذوي الكرامات، وفي هذه الظروف شكا أهل تلمسان إلى أبي زكريا يحيى بن يوغان الصنهاجي** قحطا مسهم "فاستسقوا به فسقوا" [2].

أما التدابير الأخرى فتمثلت في حفر المطامير والخوابي والأهراء لتخزين الحبوب والمواد اللازمة من قبل عامة الناس وخاصتهم، منهم الخليفة الفاطمي القائم (322-334هـ/ 934- 946م)، الذي أمر باتخاذ المطامير بالمسيلة، وأمر أن تدخر فيها الأقوات وأنواع المأكولات، وكل ما تنضم إليه الضرورة ففعل علي بن حمدون*، ذلك"وزاد فاحتفل... وكان إذا ارتفعت الأسعار، واغبت الأمطار، يكتب إلى أبي القاسم، وهو ولي عهد أبيه يخبره بذلك وبعد إفضاء الأمر إليه يستأذنه في البيع..." [3]؛ فالنص يعكس العلاقة بين التساقطات وتحقيق الأمن الغذائي سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان، ولعل هذا ما يفسر لنا اهتمام سكان المنطقة بزراعة بعض الأنواع

[1]- الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاى، مطبعة البعث، قسنطينة، دون طبعة، 1974م ، ص440.

**- أبو زكرياء يحيى بن يُوغان الصنهاجي، كان من أمراء صنهاجة، مات بتلمسان عام 537هـ/ 1134م. ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2006م، ص101.

[2]- ابن الزيات، المصدر السابق، ص 102/ ابن صعد التلمساني، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب، تحقيق د. محمد أحمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ط1، 2011م، ص144.

*- علي بن حمدون بن سماك بن مسعود الجذامي المعروف بابن الأندلسية، قام ببناء مدينة المسيلة بأمر الخليفة القائم الفاطمي، واستعمله إلى أن هلك في فتن أبي يزيد. البكري، المصدر السابق، ج2، ص239.

[3]- ابن حماد، المصدر السابق، ص25.

من الحبوب، خاصة الشعير، لأنه "يخشى الجفاف كثيرا، وينضج قبل القمح بشهر" [1]، كما أن ارتفاع أسعار مادة العلف لا يمكّن أصحاب المواشي من توفير الكمية اللازمة لقطيعهم، خاصة في المناطق المشارفة على أبواب الصحراء، ولا يكون هَمُّ المرء إلاّ نفسه.

مجمل القول، المغرب الأوسط كغيره من المجالات الجغرافية الأخرى، عرف سنوات مطيرة وأخرى جافة نتج عنها القحط، أخطر الجوائح المائية على الإطلاق، وأكثرها وقوعا، هددت الإنسان ومعاشه واكتسابه، لأن الكثير من الحرف ذات الأصل الحيواني كالدباغة والصباغة تقوم على وفرة الماء، ونقصه يؤدي إلى تعطل قيامها، حتى الحيوانات كانت عرضة لهذه الظواهر الطبيعية، وذلك يؤدي حتما إلى شل النشاط الرعوي داخل هذا الحيز الجغرافي.

ب- السيول

إذا كانت السماء تبخل في بعض السنين بمائها فيكون الجفاف، فإنها كانت تجود في سنين أخرى بأمطارها الغزيرة، مما يتسبب عنه السيول وما ينجر عنها من منع الحرث والبذر، وجرف للتربة، وتهديم للجسور والقناطر وإغراق بعض المساكن وتهديمها، وإتلاف المزارع؛ حيث يصور لنا عماد الدين إدريس غزارة الأمطار التي هطلت على أبي القاسم سنة (315هـ/ 927م) بالقرب من وادي السواني*، بما يلي:"وتوالت الغيوث والأنواء والأمطار وكثر الوحل، فسمّى الناس ذلك المناخ مناخ الوحل" [2]، ويوضح ابن عذارى الصورة أكثر قائلا":...وتوجه إلى مدغرة، ثم إلى سوق إبراهيم. فأقام في تلك الجهة أكثر من شهر، لكلب الشتاء وكثرة الوحل" [3]، ويضيف أن القائم كتب إلى المهدي يخبره "أنّه أقام في مناخ واحد شهرًا كاملًا، عليه المطر كلّ يوم بالغدو والآصال" [4].

---

[1]- كزال ستيفان، المرجع السابق، ص147.

*- وادي السواني قد يكون بالقرب من مدينة سوق إبراهيم التي أشار إليها ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص191.

[2]- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، صص218- 219.

[3]- البيان المغرب، ج1، ص191.

[4]- نفسه، ص192.

لم تقتصر خطورة عدم انتظام التساقطات فيما تحدثه من سيول وقحط، بل ينتج عن سقوط الأمطار بعد فترة من الجفاف، أو في غير موعدها، تفشي بعض الأوبئة، ضف إلى ذلك ما تسببه من أضرار اقتصادية تمثلت أساسا في إتلاف المزروعات، هذه الأخيرة لا غنى للإنسان ولا الحيوان عنها.

ج- الرياح والأعاصير

أدت الأعاصير والرياح الشديدة وما تبعها من اضطرابات إلى حدوث أضرار جسام في الأرواح وممتلكات الناس من زرع وضرع، الأمر الذي ترتب عنه وقوع مجاعات وأوبئة، ونذكر منها الرياح المظلمة الصفراء التي هبت على المغرب وإفريقية سنة (307هـ/ 919م)"دامت أياما وسدت الأفق حتى كان الرجل لا يرى جليسه وأتبعها الوباء" [1]، ويسميها صاحب "روض القرطاس" بالريح السوداء لكنه يحصرها في مدينة فاس مشيرا إلى أنها "قلعت الأشجار وهدمت الديار" [2]، أما سنة (379هـ/ 994م) فهبت فيها الريح الشرقية بالمغرب ودامت ستة أشهر فأعقبها الوباء العظيم، والأمراض الكثيرة [3]، وهذه الرياح أكثر ضررا من غيرها؛ حيث يصفها "الطغنري" قائلا: "وهي تقارب الاعتدال إلا أنها إلى الحرارة واليبوسة أميل" [4]، لذا كان الجنانون يتخوفون منها لأنها تفسد النوار، وقد يصحبها قحط شديد، ولكن الرياح الدبور أو الغربية أفيد، لأنها مائلة إلى البرودة والرطوبة [5].

أما في سنة 342هـ/ 954م" جاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب، وكان بها الرعود القاصفة والبروق الشديدة، ودام ذلك أياما استسقى كثير، وفيها كانت الريح الشديدة التي هدمت المباني" [6]، غير أن أكثر هذه العواصف خطورة بالنسبة للمغرب الأوسط تلك التي

[1]- نفسه، ص182.
[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص98.
[3]- المصدر نفسه، ص102.
[4]- زهرة البستان ونزهة الأذهان، ص66.
[5]- الطغنري، المصدر نفسه، ص66/ ابن الزيات، المصدر السابق، ص474.
[6]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص100.

ضربت سنة (485هـ/ 1092م)"فكانت الرياح الهائلة التي هدمت المباني بمدينة تلمسان وأحوازها واقتلعت الأشجار العظام ونظر الناس إلى البهائم تمر بين السماء والأرض" [1].

د- البرد

تعد ظاهرة نزول البرد، إحدى الظواهر الطبيعية الأكثر تعقيدا، ويتجلى هذا التعقيد من خلال العمليات التي ترافق تشكل البرد، لأن تشكله يتم أثناء العواصف الرعدية، التي يصل فيها سرعة التيار الهوائي المتجه لأعلى الغيمة إلى أكثر من 160كم/ سا، ويعد أحد أخطر ظواهر التهاطل إذا كان حجم حباته كبيرا، خاصة بالنسبة لمحاصيل زراعية معينة كالقمح والشعير، اللذين يحتاج إليهما الإنسان والحيوان معا، كما يتسبب أحيانا في قتل المواشي والدواب، مثلما حدث ببلاد المغرب في سنة (339هـ/ 950م) إذ "نزل برد عظيم كبير الحجم، زنة الحجر رطل وأزيد، قتل الطير والوحوش والبهائم وطوائف من الناس وكسر الثمار والشجر وكان ذلك إثر قحط شديد وغلاء عام" [2]، وفي سنة (342هـ/ 953م) "نزل برد عظيم لم يعهد مثله قتل المواشي وأهلك الثمار" [3].

ويضيف صاحب كتاب الاستقصا "أن هذه السنة- 342هـ/ 953م- جاءت فيها السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب، وكان بها رعود قاصفة وبروق خاطفة ودام ذلك أياما... " [4]، بالرغم من أنّ النصوص لم تحدد مجالا جغرافيا معينا من بلاد المغرب، إلاّ أننا ارتأينا توظيفها لشموليتها، وباعتبار المغرب الأوسط جزءا من بلاد المغرب.

وبوضع النص في إطاره الزمني يتضح أن الظاهرة كانت غريبة بالنسبة لأفراد المجتمع، ولم يكن لهم تفسير علمي فيما يخص وزن حبة البرد التي بلغت رطلا وأزيد، وهذا في الواقع حقيقة علمية أثبتتها الدراسات الحديثة، والتي فسرت حدوث ظاهرة البرد إلى الانخفاض الكبير لدرجة الحرارة، دون الصفر، أما تساقط حباته الكبيرة يعود إلى دفع التيارات الهوائية للغيوم المتفرقة

---

[1]- المصدر نفسه، ص109.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص100.

[3]- المصدر نفسه، ص100.

[4]- الناصري السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص153.

باتجاه الأعلى، وإذا بلغت سرعة التيار الهوائي 160كم/ سا، جاءت الحبات كبيرة الحجم، وقد يصل قطر الحبة إلى 15سم، وتصطدم بالأرض بسرعة 180كم/ سا [1].

وما من شك في كون العواصف الثلجية شكلت نفس الضرر، حيث يكشف عماد الدين إدريس أن الخليفة الفاطمي المنصور لما ثنى أعنّة خيله وقصد أقرب المواضع التي فيها العمارة ببلد صنهاجة، اجتاز في طريقه على المياه المالحة والجبال الوعرة، "وانتهى إلى كدى صنهاجة. وأصاب الناس في ذلك اليوم ثلج واشتد عليهم بالليل وتراكم على الأخبية والفازات حتى تكسرت أعمدتها ...وانفتحت السماء بالسفح الهاطل" [2].

هـ- الزلازل

عرف المغرب الأوسط كباقي بلاد المغرب هزات ارتدادية، مخلفة خسائر مادية وبشرية مختلفة، كالزلزلة العظيمة التي وقعت سنة (472هـ/ 1080م)"التي لم ير الناس بالمغرب مثلها، هدت البنيان ومات فيها خلق كثير تحت الردم، ووقعت الصوامع والمنارات، ولم تزل الزلزلة تتعاقب وتتكرر في كل يوم وليلة من أول يوم من الربيع الآخر إلى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة" [3]، وخلفت دمارا طيلة المدة التي ترددت فيها ولا سيما في وسط العنصر البشري، ولم تكن الزلازل من صنف الكوارث التي تحدث باستمرار في عام واحد [4]، لكن هزاتها العنيفة تخلف دمارا شاملا يأتي على الإنسان والحيوان والعمران، وحتى مصادر المياه كالعيون والآبار تتأثر بالهزات الأرضية، إذ يمكن أن تتغير منافذها أو تخرب الخزانات الباطنية.

---

[1]-عبد الله الجمعان، دراسة ظاهرة "البرد"، تحجم خسائره المادية والبشرية . يوم 29/ 10/ 2013 http://www.aawsat.com/details.asp?article.

[2]- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص404.

[3]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص168

[4]- عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص75.

ويمكن أن نلخص أهم الكوارث التي عرفتها بلاد المغرب الأوسط كغيرها من أقـاليم بـلاد المغرب كالتالي:

***جدول (01) يمثل أهم الكوارث الواقعة بالمغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م**

السنة	نوع الكارثة	مناطق انتشارها
260هـ/ 874م	وباء عظيم مع غلاء السعر وعدم الأقوات	بلاد الأندلس والمغرب
285هـ/ 898م	مجاعة شديدة، وباء ومرض	بلاد الأندلس وبلاد العدوة
303هـ/ 915م	فتن كثيرة ومجاعة عظيمة شبهت بمجاعة سنة 220هـ	إفريقية والمغرب والأندلس
307هـ/ 920م		إفريقية والمغرب والأندلس
342هـ/ 954م	ريح شديدة	المغرب والأندلس
344هـ/ 956م	وباء عظيم	المغرب والأندلس
355هـ/ 966م	رياح شديدة	
361هـ/ 972م	الجراد	المغرب
377هـ/ 988م	الجراد الكثير	بلاد المغرب

نتائجها	المصدر	378هـ/ 989م	الفيض
مات خلق عظيم	ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص97	379هـ/ 990م	رياح شرقية دامت ستة أشهر
أكل الناس بعضهم بعضا، هلك فيه من الناس ما لا يحصى	المصدر نفسه، ص97	381هـ/ 991م	قحط شديد
وقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم	ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص173	381هـ/ 991م	مجاعة شديدة
طاعون ووباء كثير	الناصري السلاوي، المرجع السابق، ص152	382هـ/ 992م	رياح شديدة
هدمت المباني	المرجع نفسه، ص153	406هـ/ 1016م	الجراد
هلك فيها خلق كثير	ابن أبي زرع،المصدر نفسه، ص100	407هـ/ 1017م	قحط شديد
قلعت الأشجار وهددت الديار وقتلت الرجال	الناصري، المرجع السابق، ص161.	411هـ/ 1321م	قحط
	المصدر ر نفسه، ص101	485هـ/ 1092م	رياح شديدة
فتك بها	نفسه، ص101	498هـ/ 1105م	قحط متناهي

ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص39	أيقن الناس بالهلاك	بلاد الأندلس والعدوة
نفسه، ص120	هدمت المباني واقتلعت الأشجار العظام، وتطايرت البهائم بين السماءوالأرض	تلمسان وأحوازها
نفسه، ص118	كثر الفناء في الناس	بلاد المغرب من تيهرت إلى سجلماسة
ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص118	مسغبة عامة ووباء كثير	المغرب والأندلس وإفريقية
ابن الأثير، المصدر السابق، ص1358	غلاء	إفريقية والمغرب
نفسه، ص116	هدمت الديار وأفسدت الثمار	المغرب
نفسه، ص115		إفريقية والأندلس والمغرب
المصدر نفسه، ص111	جفت من أجله المياه	بلاد المغرب والأندلس وإفريقية
ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص111	وباء عظيم وأمراض كثيرة	المغرب
الناصري السلاوي، المرجع السابق، ص161		جميع وأودية المغرب

يمثل الجدول أعلاه أهم الكوارث الطبيعية التي أصابت بلاد المغرب بما فيها المغرب الأوسط خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن(4هـ/ 10م) إلى القرن(5هـ/ 11م)، كالجفاف والجراد والأعاصير، لكن نميز من خلال الجدول نوعين من الجوائح منها عامة تصيب عموم المغرب، وليس لدينا مادة مصدرية دالة على اشتمال هذه الكوارث المغرب الأوسط، وإنما وظفت النصوص على ظاهريتها وعمومها، وآثرنا تسجيلها على سبيل المقاربة والافتراض،

وهناك جوائح محلية خصت المجال الجغرافي محل الدراسة أو أحد مدنه كما هو مبين من خلال الجدول أعلاه.

والجدير بالذكر هو تلك النصوص الخبرية غير المؤرخة التي ورد ذكرها ضمن كتب السير والمناقب، حتى المصادر النوازلية الأساسية بالنسبة لدراستنا لم تشر إلى وقوع هذه الجوائح إلاّ عرضا ضمن سياق حديثها عن بعض المشاكل المترتبة عنها دون الإشارة إلى سنة حدوثها، مما خلف فجوة وثغرة في لائحة الكوارث الطبيعية التي عملنا على رصدها.

يضاف إلى ذلك الفترات الحرجة التي ذكرها كل من ابن الأثير وابن عذارى خصت إفريقية فقط، لكننا ارتأينا إلى تنبيه إليها على أساس أن المجال الذي اخترناه للدراسة كانت أجزاؤه الشرقية خاضعة لسلطة إفريقية في أغلب فترة بحثنا؛ فعلى سبيل المثال الغلاء الشديد، والمجاعة العظيمة التي عرفتها إفريقية سنة (413هـ/ 1022م)[1]، حيث لم يكن مثلها في تعذّر الأقوات، والظاهرة نفسها شهدتها إفريقية سنة (425هـ/ 1033م)[2]، وفي سنة (469هـ/ 1077م) عرفت ذات المنطقة مجاعة عظيمة ووباء عظيما، مات فيه خلق كثير [3]، لكن لم تزودنا ذات المصادر بالأسباب الحقيقية لظهور هذه المجاعات والأوبئة ولا إلى دوافع ارتفاع الأسعار، فهل يعود ذلك لاضطرابات داخلية أم إلى تقلبات مناخية؟. والواضح من الجدول أن الأوبئة قد تحدث نتيجة ظهور المجاعات، مثلما حدث سنة (407هـ/ 1017م) لكنها ليست مسلمات؛ بحيث تقع المجاعة ولا يتبعها وباء، وهذا ما رأيناه بالنسبة لمجاعة سنة (381هـ/ 991م).

بالمقابل، قد يقع الوباء دون جفاف ولا مجاعة مثل "الوباء العظيم" الذي مس المغرب والأندلس سنة (344هـ/ 956م)، وهلك فيه خلق عظيم [4]، دون أن نستثني الحيوان، ومن جهة أخرى يكشف لنا ابن خاتمة أن التغيرات المناخية- السيول والرعود والبروق والرياح الشديدة-

---

[1]- ابن الأثير، المصدر السابق، ص1377.

[2]- المصدر نفسه، ص1406/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص275.

[3]- ابن عذاري، المصدر نفسه، ص300.

[4]- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج1، ص153.

تعد أحد مسببات الوباء بقوله: "تغير الهواء من جهة الزمان والوقت وما يتعلق به من غزارة المطر وقلته أو عدمه وهبوب الرياح وركودها وذلك يتغير الفصل من فصول السنة عن كيفيته الطبيعية إلى ضدها" [1]، ويضيف "كأن يكون الربيع باردا يابسا على طبيعة الخريف لعدم الأمطار فيه والشتاء قبله وهبوب الرياح الشمالية أو يكون الصيف شتويا لغزارة الأمطار فيه وهبوب الرياح الجنوبية أو يكون الخريف على طبيعة الربيع أو الشتاء على طبيعة الصيف" [2].

وهناك أيضا، السيول التي تجرف التربة، وتأتي على المحاصيل الزراعية، أما الرياح الشرقية القادمة من الصحراء فإنها تحرق المحاصيل إذا هبت في غير أوانها، ولم تقل الرياح العاصفة ضررا عنها، فكانت بدورها تقلع الأشجار وتتلف المحاصيل، وقد تأتي على البهائم والإنسان، وبموازاة ذلك، شكل الجراد آفة خطيرة على الأنشطة الفلاحية والرعوية بما يخلفه من خراب، لكن المصادر المعتمدة لم تسجل لنا مجاعات بالمغرب الأوسط كان سببها الجراد.

واعتمادا على الجدول أعلاه يظل الغلاء ظاهرة ملفتة للنظر، باعتبار ما عرفته الأسعار من تقلبات ساهمت إلى حد كبير في اشتداد حدة الكوارث، خاصة وأنّ الكثير من الأشخاص استغلوا فترة الشدائد للاتجار في الحنطة [3]، وذلك باستغلال قلة المحصول وندرته من أجل التلاعب في أثمانه، وهذا ما قد يترتب عنه تأثر الثروة الحيوانية بسبب قلة الأعلاف وندرتها، وهلاكها في الواقع هدد السكان في غذائهم والمنافع الأخرى التي لهم فيها كالنقل والحرث، وما يؤكد الفكرة التي نذهب إليها فيما

[1]- تحصيل غرض القاصد، ورقة 16.

[2]- المصدر نفسه، ورقة 16-17.

[3]- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، م2، ص23/ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي "طور الازدهار (1)"، الخلفية السوسيو- تاريخية، سينا للنشر، القاهرة، ط3، 2000م، ص37.

يخص تأثر الثروة الحيوانية بسبب الكوارث الطبيعية إشارة ابن الأزرق إلى أن "كثرة حدوث الموتان، إما من شدة المجاعات أو كثرة الفتن لاختلال الدول ووقوع الوباء" [1].

ويفسر صاحب "تحصيل غرض القاصد في تفضيل مرض الوافد" الموتان وعلاقتها بالحيوان من خلال شرحه للفظ- الموتان- الذي يطلق على الوباء "وذلك على المجاز إذ أصله في اللغة الموت يقع في الماشية- وتقييده بضم الميم-" [2]، أما لفظ الموتان مثلما نجده عند صاحب المقدمة [3] والذي يعني الوباء أيضا يقصد به شمولية الموت من هذا المرض المفاجئ في الإنسان والماشية، ومفهوم الوباء خلال الفترة الوسيطة لا يختلف عما توصلت إليه الأبحاث الحديثة [4] على أنه مرض عام مشترك بين الإنسان والحيوان تسببه بكتيريا، أو فيروسات تختلف حسب نوع المرض الوبائي، وتكون سريعة الانتشار من المصاب إلى السليم.

كيفما كان الحال، فقد تعددت الكوارث الطبيعية وما ترتب عنها من جوائح خلال المزمنة المخصصة للبحث واختلفت من حيث طبيعتها من جفاف ورياح وفيضانات وجراد وثلج وزلازل، ومن الطبيعي أن تخلف هذه الظواهر المناخية القاسية نتائج وخيمة على الأنشطة الفلاحية باعتبارها المصدر الأساسي لعيش الأفراد وحيواناتهم؛ فالماشية قاست كثيرا من نزوات الطبيعة وتأثرت بالجفاف والأمراض التي تصيبها دوريا، مما جعل الرعاة في بحث دائم عن المرعى، وفي حركة انتجاع ذهابا وإيابا بين الصحراء والسباسب من جهة والمناطق التلية من جهة ثانية [5]، مع العلم أن السباسب مؤهلة طبيعيا للحياة الرعوية [1]، وتبقى طبيعة العالم كما يراه

---

[1]- بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2008م، ج2، ص694.

[2]- ابن خاتمة، المصدر السابق، ورقة4.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، صص334، 335.

[4]- الموسوعة العربية العالمية، مادة "وباء"، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، ط1، 1999م، صص27- 48.

[5]- محمد حسن، المدينة والبادية، ج2، ص455/ مبارك أيت عدي، الثروة الحيوانية بالصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية الوسيطية، ضمن كتاب جماعي "البيئة بالمغرب: معطيات تاريخية وآفاق تنموية منطقة درعة نموذجا"، مطبعة المعراف الجديدة، الرباط، دون طبعة، 2006م، ص73.

صاحب المقدمة [2] "في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبته"، وهو ما يؤكده ابن الأزرق أيضا [3].

خلاصة القول، لم يكن الإنسان هو المتضرر الوحيد من الأوبئة في المغرب الأوسط، وإنما الحيوانات أيضا، كون هذا النوع من الأمراض مشتركا بين الإنسان والحيوان معا، وقد يترتب عنها تراجع وشل النشاط الرعوي بهذا المجال الجغرافي.

6- عوامل أخرى

أ- **الأمراض**

كانت الحيوانات عرضة للكثير من الأمراض التي تعطبها وتؤدي بها إلى الهلاك، وفي الغالب هي عيوب ترد لأجلها الدواب، وجمعها البرزلي في فتاويه قائلا: "وعيوب الدواب منها الإنتشار... وهو انتفاخ العصب، ومنها الشظي وهو عظم ناتٍ بالذراع،... ومنها الدحس وهو ورم يكون في أطرة حافره. ومنها الزوائد وهي أطراف عصب تبرق عند العجالة فيقطع عنها ويلصق بها... والحرد وهو ما كان يصيبه في عرقوبه من ترهل وانتفاخ عصب. والسرطان وهو داء في الرسغ فتيبس عروق الرسغ حتى ينقلب حافره. ومنها الإرتهاش وهو أن يصل بعرض حافره عرض عجافته من اليد الأخرى فربما أدماها وذلك لضعف يده. والمشش وهو شيء يشخص في رطيفة حتى يكون له حجم ليس له صلابة العظم الصحيح... " [4].

وحتى كتب الحسبة اهتمت بعيوب الدواب، منها الانتشار الذي يشير السقطي إلى أنه "وجع يصيب الدابة في ركبتها فنوع منه يزيد إلى أن يمنعها المشي ويُكلّها، والزائد وهو ورم يصيب يد الدابة فإن طبّ كان عيبا وإلاّ كانت مضرته أكثر، والدّخس وهو كالداحس يكون فوق حافر الدابة فإن طال به انتهى إلى طرح الحافر

[1]- جان فرانسوا تراون وآخرون، المرجع السابق، ص87.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص334.

[3]- بدائع السلك في طبائع الملك، ج2، ص694.

[4]- فتاوى البرزلي، ج3، صص292- 293.

وبطلت المنفعة بها سنة إلى أن ينبت غيره، ...وقد ينبت للدابة أنياب رقاق زائدة الطول تمنعها من أكل العلف ويحتاج أن يكسرها البيطار، والسّلاق يمنع أكل الدابة للعلف وتبلّه وهو عيب المأخذ وإذا لم تقبل الدابة اللجام عيب" [1].

والغدد في الدابة عيب ترد به، "فإن هلكت الدابة بسبب الغدد، وكان البائع قد دلس به فمصيبتها من البائع المدلس وكذلك كل عيب دلس به في الحيوان كله... فعطبت من ذلك فمصيبتها من البائع المدلس" [2]، وهو واقع اجتماعي يؤكده صاحب "سير الوسياني" بقوله: "وذكر أبو الربيع* أن أبا عبد الله دفع لرجل حمارا ليبيعه، وأخبره بعيب فيه فقال له: أره للمشتري فباع الحمار، وأخبر بالعيب ولم يريه له، فقال أبو عبد الله: اردد عليّ حماري إذ لم تره العيب وتضع يدك عليه" [3].

وهذه الأمراض يجب أن ينظر فيها أهل الاختصاص، إذ يؤكد صاحب "الأحكام" على أن يكونا رجلين بيطريين [4]، ذوي خبرة بعلل الدواب وعلاجها، وعلى معرفة بالفصد أو القطع أو الكي [5].

حتى الأوبئة أو الموتان كان لها جانب لا يستهان به في إحداث الضرر بالحيوانات، حيث يكشف لنا ابن الخاتمة ذلك بقوله: "الناس تحرز من الموتان الذي يكون عاما في المواشي وغيرها من الحيوان" [6]، ويضاف إلى الوباء "الطاعون"، وهو مرض وبائي بكتيري حاد مشترك بين

---

[1]- السقطي، في آداب الحسبة، ص66.

[2]- الشعبي، المصدر السابق، ص291/ الباجي، فصول الحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق د. محمد أبو الأجفان، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2002م، ص222.

*- أبو الربيع سليمان بن موسى الزلغيني، محدث اباضي من تين باماطوس بوارجلان، عاش في النصف الثاني من ق5هـ / 11م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص924.

[3]- الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص735.

[4]- الشعبي، المصدر السابق، ص260.

[5]- ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق د.محمد محمود شعبان، صديق عيسى المطيعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون طبعة، 1976م، صص 234- 235.

[6]- تحصيل غرض القاصد، ورقة4.

الإنسان والحيوان [1]، مثل الوباء العظيم الذي ضرب المغرب والأندلس سنة (344هـ/ 955م) و"هلك فيه خلق عظيم" [2]، وحسب بعض المصادر الطبية الوسيطة [3] يعد فساد الهواء والماء أحد مسبباته، ويفيدنا ابن خاتمة في الموضوع قائلا: "... تغير الهواء وتعفنه سببا هلاك الحيوان وحلول الوباء بالناس" [4]، مثلما يؤثر تغير الهواء في الحيوان مرضا وهلاكا قد يؤثر تغيره في النبات والأشجار والثمرات سقاما [5]، وهذا حال مدينة تنس، التي كانت وبية الهواء ورديئة الماء، "من يدخلها لا يسلم من المرض" [6]، والحمى لا تفارق أهلها في كثير من الأوقات، والظاهر أن مصدر هذه الحمى يعود لاستهلاكهم مياه واد يدور حول المدينة، وإليه مذهب مياه حشوشهم [7].

وفساد الهواء ينجم أيضا عن كثرة العمران والموت التي تزداد أعدادها خلال فترة الحروب، أما فساد الماء يكون بانتشار مستنقعات المياه القذرة؛ إذ يقول ابن زهر في ذلك: "وقد يعيش الحيوان أياما وهو لا يتغذى بشيء، وأما النفس فإنه متى عدمناه لم نلبث أن يعاجلنا الموت" [8]، وما يكشف لنا خطر الوباء على الأفراد رواية الدرجيني [9] قائلا: "وقع- الوباء- في أجلو سنة من السنين* فأضر بأهلها في جناتهم،

---

[1]- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط13، 1986م، ص38.

[2]- الناصري السلاوي، المرجع السابق، م3، ص153.

[3]- ابن خاتمة، المصدر السابق، ورقة 5/ ابن زهر، أبو مروان، التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق محمد بن عبد الله الروداني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، دون طبعة، دون تاريخ، ص454.

[4]- تحصيل غرض القاصد، ورقة 6.

[5]- المصدر نفسه، ورقة7/ وهذا ما أثبتته بعض الدراسات الحديثة منها دراسة صلاح الدين صميدة عوض، المرجع السابق، صص 320-323.

[6]- مجهول، الاستبصار، ص133.

[7]- القزويني، المصدر السابق، ص173/ الاصطخري، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927م، ص38.

[8]- التيسير في المداواة والتدبير، ص454.

[9]- الطبقات، ج2، ص440.

*- لم يحدد الدرجيني السنة التي وقع فيها الوباء، لكنه يشير إلى من ذكره، وهو الفقيه المحدث أبو القاسم يونس بن أبي الحسن، من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص440.

جنـاتهم، وآذى كـثيرا، اقتضـى نظـرهم أن يجتمعـوا ويصـوموا يـوم الأربعـاء والخمـيس والجمعة"، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نستبعد تأثيره على الحيوانات.

خلاصة القول، المجاعات والأوبئة من أخطر العوارض التي هددت الحيـوان خـلال الفـترة الوسيطية على العموم، وأسبابها عديدة ومختلفة، وما من شك في أن تكون نتائجها وخيمة علـى كل كائن حي، بدرجات متفاوتة .

ب- الحيوانات المفترسة والهوام

شكلت الحيوانات المفترسة خطرا حقيقيا هدّد الحيوانات؛ إذ كانت الأسود والـذئاب أكثـر الحيوانات ضررا على تنمية الثروة الحيوانيـة خاصـة في بعـض المسـارح المجـاورة أو القريبـة مـن الأراضي كثيرة الوحوش، كموقـع مدينـة تـاهرت كـان قبـل بنائهـا "غياضـا عـامرة بـالوحوش والسباع والهوام" [1]، وربما تعرضت هذه الحيوانات الضارية للقطيـع إذا كانـت بمـراع قريبـة مـن الغابات، علما أن الرعاة كانت لهم عـادة إخـراج قطيـع الماشـية مـن المدينـة وتركهـا في المراعـي ليعودوا إليها في العشي، وربما نقص واحد أو اثنان من العدد الإجمـالي بسـبب هجـوم الأسـود عليها، خاصة وأن أسود بلاد المغرب متوحشة وخطيرة جدا على الحيوانات وعلى النّاس، حيث كانت تهاجم القطعان دون تردد وهي من القوة بحيث تستطيع أن تحمل جملا، وكلما اشـتد الحـر زادت شراستها وجرأتها، وتتميز الأسود التي تعيش في صـحراء "أنكـاد" بـالقرب مـن تلمسـان بالشراسة [2]، لهذا كان الرعاة يحيطون مواشيهم بسياج عال جدا مـن الأشـواك ويسـهرون الليـل كله في حراستها من الأسود.

كما تفيدنا احدى المصادر الجغرافية أن الذئاب بتنس كانت كثيرة، وتأكل أهلها، وهـذا مـا سبب لهم العذاب [3]، أما بالنسبة للثروة الحيوانية فلم يشر صاحب المصدر إلى إلحاق الضرر بهـا، بها، لكن من خلال استقراء مضامين المصـادر الفقهيـة الـتي أفادتنـا أن الراعـي في وقـت قائلتـه

[1]- أبو زكريا، المصدر السابق، ص81/ ينظر البكري، المصدر السابق، ج2، ص250.

[2]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، صص265- 266.

[3]- القزويني، المصدر السابق، ص173.

مسؤول عما ضاع من الماشية التي تسرح في موضع كثير "الوحش العادي" [1]،أي كل حيوان متوحش، ومن هنا يمكن أن نستنتج أن الذئاب من الحيوانات المفترسة والخطيرة على الإنسان والحيوان معا، وعرف ب "آفة الغنم" [2].

من جانب آخر، شكل انتشار العقارب خطرا على الإنسان والحيوان معا، وتتعلق إحدى هذه الشهادات بحديث البكري عن انتشار هذه الحشرة الخطيرة بالمسيلة قائلا: "وبها عقارب مهلكة لا يتخلص من لسعتها" [3]، وفي جبل مسيون* عقارب كثيرة صفراء اللون لكنها أقل ضررا [4]، وفي الواقع ذكور العقارب أكثر خطورة من إناثها [5].

وتشير أحدى المصادر القديمة [6] إلى أن هذا النوع من الحشرات شكل خطرا منذ القدم، وهذا الخطر نجد له امتدادا حتى الفترة الوسيطية، واتخذت علاجات وقائية لتجنب مخاطرها، ففي القلعة مثلا يشير الإدريسي قائلا: "وبهذه المدينة عقارب كثيرة سود تقتل في الحال وأهل القلعة يتحرزون منها ويتحصنون من ضررها ويشربون لها نبات الفوليون الحراني ويزعمون أنه ينفع شرب درهمين منه لعام كامل فلا يصيب شاربها شيء من ألم تلك العقارب وهذا عندهم مشهور وقد أخبر بذلك من يوثق به في وقتنا هذا وحكى عن هذه الحشيشة أنه شربها وقد لسعته العقرب فسكن الوجع مسرعا ... " [7]، أمّا الوقاية منها في القديم لدى السكان المحليين

---

[1]- البرزلي، المصدر السابق، ص558/ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص330

[2]- الوسياني، سير الوسياني، ج2، ص529.

[3]- المسالك والممالك، ج2، ص239

*- جبل مسيون يقع من الجهة الشمالية لمدينة بجاية، وهو سامي العلو، صعب المرتقى. الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص259.

[4]- الإدريسي، المصدر نفسه، ص259.

[5]- لحسن بودرقا، المرجع السابق، ص144.

[6]- Strabon, géographie de strabon, traduction nouvelle, par Amédée tradieu bibliothécaire de l'Institut, paris, 1886, XVII, 3, 11

[7]- نزهة المشتاق، م1، ص255.

فيشير إليه سترابون قائلا: "فعندما يحين وقت النوم، يدهنون أرجل أسرتهم بالثوم ويحيطونها بالأشواك لحماية أنفسهم من العقارب" [1].

كما شكل الجراد آفة طبيعية خطيرة على الإنسان وموارده في كل عصر وفي كل مصر، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الجوائح المائية بما يسببه من ظهور فترات حرجة، مثلما حدث سنة (377هـ/ 985م) حيث "عم الجراد الكثير بلاد المغرب وفتك بها" [2]، وبدون شك هذه الأسراب كان لها أثر اقتصادي واجتماعي على سكان المجتمع، بإتلافها للزروع، وارتفاع الأسعار، مثلما حدث سنة 406هـ/ 1016م بإفريقية والمغرب [3]، وكذا الأسراب التي نزلت بإحدى ضياع وادي أريغ* خلال النصف الثاني من ق5هـ/ 11م، وكادت تتلفها [4]، لذا كثرت كثرت مخاوف أصحاب الضياع من آثار اجتياحه، خاصة المكترين منهم، الأمر الذي جعل علماء الفتوى يخففون من حدة ضرره بوضع دعم قانوني لإسقاط بعض التكاليف عن المتضررين، ويفيدنا الونشريسي أن بعض الشيوخ سئلوا عن أرض أتى الجراد فأكل زرعها. فأجابوا: "لو أتى الجراد إبان الحرث فعلم الناس أنهم إن زرعوا شيئا أكله الجراد فامتنعوا لذلك فلا شيء عليه في تلك المدة. قيل يريد أنه باض في تلك الأرض بحيث يعلم إنه إذا ظهر أكل الزرع فهو بمنزلة الدود في الأرض يأكل الزرع" [5].

ومن الطبيعي أن تتأثر المزروعات والمغروسات بسبب الهجوم المفاجئ لأسرابه الكثيرة، مما يؤدي إلى مضاعفات سلبية، وفي مقدمتها المجاعات وأمراض سوء التغذية وقضائه على الغطاء النباتي يابسا وأخضر، خاصة في المناطق الصحراوية وهي البيئة المواتية لاستيطانه لمناخها

1- Starabon, Op. Cit, XVII, 3, 11

2- ابن أبي زرع، المصدر السابق ، ص102.

3- ابن الأثير، المصدر السابق، ص1358.

*- يذكر ابن خلدون المدينة قائلا: "في سمته- بلد واركلي (وارجلان)- إلى جهة التلول بلاد ريغ"، تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2397/ ويشير محقق سير الشماخي ضمن فهارسه إلى أنها من واحات شرقي الصحراء الجزائرية تسمى حاليا وادي أريغ. المصدر السابق، ج3، ص827.

4- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص574.

5- المعيار المعرب، ج8، ص164.

الحار [1]، علما أن الجراد له قدرة على نثر بيضه في أماكن متعددة وبسرعة وكمية قياسيتين، مما يجعل من الصعب حسم دابره واستئصال شأفته بوسائل بدائية لا تتجاوز الجمع والحرق، وتتم هذه العملية في الغالب قبل طلوع الشمس، لأنه لا يطير لأجل البرد [2]، إلى جانب بعض الوصفات الغريبة من أدبيات الطلاسم والشعوذة [3]، وأحيانا أخرى الأكل [4]، وهو ما يوضحه ابن أبي زيد القيرواني (310-386هـ/ 921-996م) قائلا: "لم يجز مالك أكل الجراد بأخذها حتى يفعل بها ما تموت به من قطع رؤوسها أو أرجلها وأجنحتها أو إلقائها في ماء حار أو في نار" [5]، وأكل الجراد عادة قديمة اتبعها سكان شمال إفريقيا الذين اعتبروا هذه الحشرة بلاء سلطه عليهم غضب الآلهة [6]، ولا تزال عادة أكل أنواع الجراد معروفة وسائدة بالجنوب الجزائري- المغرب الأوسط-، ويباع حتى في المحلات.

ولا شك أن أكله للزرع يعكس معاناة الحيوان ومصارعته للجوع، وندرة الأقوات وغلاء الأسعار، وهذه الحشرة "إذا رعت أيام الربيع طلبت أرضا طيبة التربة رخوة، ونزلت هناك وحفرت بأذنابها حفرا وباضت فيها كل واحدة مائة بيضة وطارت، وآفتها الطيور والبرد، ثم أتت أيام الربيع واعتدل الزمان يفقس ذلك البيض المدفون، ويظهر مثل الذباب الصغار على

---

[1]- عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6- 8هـ/ 12- 14م)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008م، ص63.

[2]- ابن بطوطة، تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، الرباط، دون طبعة، 1997م، ص679.

[3]- عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص65.

[4]- اللبيدي، مناقب أبي إسحاق الجبنياني ومناقب محرز بن خلف، تحقيق روجي إدريس، تونس، دون طبعة، 1959م، ص20/ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص679.

[5]- النوادر والزيادات، ج4، ص357/ يشير الإدريسي إلى أن أهل مدينة السوس كانوا يأكلون الجراد أكلا كثيرا "مقلوا ومملوحا" المصدر السابق، ج1، ص228 .

[6]- كزال ستيفان، المرجع السابق، ص124.

وجه الأرض، وأكلت زرعها حتى قويت، ثم تـنهض إلى أرض أخـرى وباضـت كمـا فعلـت في عامها الأول وهكذا دأبها" [1].

وفي أحد رسائل الأمير المرابطي علي بـن يوسـف (500- 537هــ / 1106- 1143م)، يصف الدمار والخراب الذي يخلفه الجراد، بما يلي"إن الجراد داء عضال، وإن كان ما يقال- مـن البحر نشره فإنما هو جمرة تحرق البلاد، وتجيع العباد، وشأنها الفساد ...ينزل بـالوادي، قـد امـتلأ عشبا، وطلعت أزهاره شهبا ...فيتركه جمرة سوداء لا يجد فيها الضب عرادا ولا النبت أراكـا ولا قتادا" [2].

ويصور لنا أحد الباحثين المعاصرين [3] جسامة الأضرار التي يُلحِقُها الجراد بالغطـاء النبـاتي قائلا: "السرب الصغير الذي مساحته 10 كلـم مربـع يحتـوي علـى 500 مليـون جـرادة، فـإذا فرضنا أن متوسط، وزن الحشرة 2 جم فإن وزن الجراد بهذا السرب هو 1000 مليـون طـن أي أنه يتغذى يوميا على 1000 طن من الغذاء الأخضر، بالإضافة إلى ما يحدثه نتيجة التلف النـاتج عن تكسير النباتات، أي يمكنه أن يتلف مساحة مئات الأفدنة يوميا".

في الواقع، يبقى كل ما أشرنا إليـه نظـري بالنسـبة لمرحلـة البحـث، لأن المصـادر المعتمـدة والمطلع عليها لم تسجل لنا المواطن التي انتشر فيها الجراد، ولا الأضرار المترتبة عنه، على عكـس ما شهدته باقي مناطق المغرب الإسلامي، والذي لا نستبعده أن موجات الجراد لتلك الفـترة قـد اجتاحت المغرب الأوسط على أساس أنه سريع الانتشار، سواء بالنسبة للجهـة الشـرقية القريبـة من المغرب الأدنى أو الغربية القريبة من المغرب الأقصى .

---

[1]- القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دون طبعـة، 1981م، صـص470، 471/ سميرة المزكلدي، المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (534- 776هـ / 1139- 1375م)، شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية 2003- 2004م ، ص29، غير منشورة/ عادل أبو النصـر، تاريخ الزراعة القديمة، دون دار نشر، ط1، 1960م، ص367.

[2]- محمود علي مكي، وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين لكتـاب مـرابطين، مجلـة المعهـد المصـري للدراسـات الإسـلامية، مدريد، المجلد 7 و8، 1959م، صص 186- 188.

[3]- عثمان يس، الوقاية من آفة الجراد، ضمن الكوارث الطبيعية، "آفة الجـراد"، مطبوعـات أكاديميـة، المملكـة المغربيـة، الربـاط، 28- 29- 30 نوفمبر 1989م، ص68.

ثانيا- العوامل البشرية

شكلت الحروب والفتن سمة أساسية من سمات العصر الوسيط، إذ لا تكاد الحروب تنتهي حتى تتصاعد من جديد مخلفة وراءها الخراب والدمار والجوع، لقد كانت مصدر اضطراب عرقل النشاط الاقتصادي بصفة عامة والفلاحة على وجه الخصوص [1]، دون أن نستثني الثروة الحيوانية من ذلك، لاعتماد الأطراف المتحاربة على عمليات التخريب والتحطيم وإبادة الحيوانات، لأن الحروب والفتن يلحق ضررها بالشجر والحيوان أكثر مما يلحق بالمحاصيل الزراعية [2]، وهو ما يؤكده ابن هيدور بقوله: "إنّ الغلاء لحدوثه سببان إما احتباس المطر في البلاد المحتاجة إليه، وإما لظهور الفتن والحروب بسبب الخروج على الملوك، فإذا دامت الفتنة وقع الفساد في الحواضر والبوادي وفسدت حبوبها المختزنة وانقطعت الطرق وعدمت المرافق لأجل ذلك" [3]، هذا وضع تاهرت خلال عصر ابن حوقل (ق4هـ/ 10م)، الذي أخبرنا عن تغير أحوالها وأحوال من جاورها من البربر، وتفشي الفقر بسبب تواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت [4].

حتى الدراسات الحديثة تؤكد على الفكرة نفسها؛ إذ يرى أحد الباحثين [5] أن الحقول "عندما لا تصبح... طوال سنوات متعددة سوى مسرح للمعارك، أو مجرد ممر لعبور وحدات المحاربين، التي تعيش من المنطقة وتمارس فيها سياسة الأرض المحروقة، فإن الأمر ينتهي بالفلاحين إلى الانصراف عن الاهتمام بمزروعاتهم، أو إلى عدم الاهتمام إلا بالحد الأدنى الذي يكفيهم

[1]- الطويل محمد، البادية المغربية غداة الفتح الإسلامي، النصف الثاني للقرن 1هـ/ 7م- منتصف القرن 5هـ/ 11م، مجلة البادية المغربية،الماضي- الحاضر – المستقبل، الرباط، ع1، س1، 2006م، ص36.

[2]- القاضي عياض وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1990م، ص67. / عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 1996م، ج2، ص223.

[3]- علي بن عبد الله هيدور التادلي، الأمراض الوبائية، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، تحت رقم 9605، ورقة2.

[4]- صورة الأرض، ص93.

[5]- R. Mols, Introduction de la démographie historique des villes d'Europe du XIV Au XVII siècles, Louvain, 1954, t2, p460

للغذاء"، وإذا كان بإمكان الفلاح إخفاء جزء من محصوله في مطامير واهراء، فإنه لا يستطيع إخفاء قطيعه وبهائمه المعرضة للنهب والسرقة والغصب، مثلما حدث مع صاحب جراوة بن أبي العيش* حين دخل عليه موسى ابن أبي العافية** سنة (317هـ/ 929م)، وحاصره بمدينته حتى أوفى على أخذها، فلما أحس صاحب جراوة بالغلبة خرج هاربا بأهله وولده، وينقل لنا ابن حيان الأحداث قائلا: "فسفكنا (موسى بن أبي العافية) دماء حماته، وأخذنا له خيلا عديدة، وانحصر لنا في القلعة التي بناها، فأحطنا به، وأدرنا العسكر حوله، وتغلبنا على جراوة، وغنمنا ما كان فيها، فأصبنا فيها من الأطعمة وضروب الأقوات والذخائر، ما استوسع أهل العسكر فيه.... "[1].

نافلة القول، الاضطرابات السياسية والأمنية خلال القرنين (4-5هـ/ 10-11م) اختلفت وتنوعت حسب العلاقة الرابطة بين الطرفين المتنازعين، ولتوضيح السلبيات والأضرار المترتبة عنها سنقتصر على نماذج فقط.

1- السياسة الفاطمية ونتائجها

تجمع الكثير من المصادر على أن الفترة التي أعقبت سقوط الدولة الرستمية (160-296هـ/ 777- 909م) ببلاد المغرب الأوسط، وقيام الخلافة الفاطمية بالمغرب الأدنى عرفت تحولات اقتصادية واجتماعية أسفرت عنها ثورة فجرها الطرف الذي تضرر منها وهم المالكية والخوارج، خصوصا أمام توزيع الخلفاء الفاطميين للأراضي التي صودرت على رجال الدولة من الكتاميين والصقالبة وغيرهم؛ فاتسمت الفترة بكثرة الحروب والفتن مع ما رافقها من ضروب الاستيلاء والغصب والتعدي، وكان الفلاحون أول وأكبر المتضررين منها، للعلاقة التي

*- ابن أبي العيش عيسى بن إدريس، مؤسس مدينة جراوة سنة 257هـ/ 871م من بني محمد بن سليمان ابن عبد الله. ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص196.

**- موسى ين أبي العافية، ملك الكثير من أعمال المغرب وبايعته القبائل والشيوخ، عدل عن الخضوع للفاطميين وأعلن بيعته لأموي الأندلس، قتل موسى سنة 341هـ/ 953م. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص83/ ابن الخطيب، المصدر السابق، صص 379- 380.

[1]- ابن حيان، المقتبس في أنباء أهل الأندلس، تحقيق ب.شالميتا، ف.كورينطى، م.صب وغيرهما، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، دون طبعة، 1979م، ص414.

تربطهم بالأرض والحيوان، هذا ما أسهم في كثرة الفتن بين القبائل بالمغرب الأوسط، بين الرحل والمستقرين، أي زناتة وصنهاجة، ونبذ أكثرهم الطاعة وأظهروا العصيان، الأمر الذي دفع بالخلفاء الفاطميين إلى القيام بحملات تأديبية، انطلاقا من الجهة الشرقية للمغرب الأوسط، مثلما حدث سنة (315 هـ/ 997م) حيث أمر الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله (322هـ-334هـ/ 934-946م) بشن حملة بلغ عدد عساكرها أربعين ألفا [1].

بعد وصول حملة القائم إلى أشراف مسيلة بني عيسى "انتهى إلى سطيف... فتلقاه وجوه كتامة وأقبلوا إليه من كل فج عميق. فأنفذ رجالا منهم إلى نواحيهم لإصلاح أمورهم، وأنفذ كتبه إلى القبائل كافة، وأعذر إلى مزاتة وكيانة* وبني كملان**، فتمادوا في بغيهم وأصروا على غيّهم، فأحكم في سطيف ما أراد إحكامه وأنفذ الجيوش مع وجوه كتامة وأمر عليهم جعفر بن عبيد***، وذلك لأربع عشرة بقيت من جمادى الأخرى، وقد اجتمعت جماعة عظيمة من كيانة وبني كملان وقبائل زناتة فتحصنوا في قلعة منيعة وعرة المسالك صعبة المرام تعرف بعقار****، فقصدتهم العساكر في قلعتهم، فأحاطوا بها واقتحموا الوعر عليهم......وأحرقوا ديارهم، ونهبوا ما كان في القلعة لهم من النعم والخيول والأثاث" [2]، ويخيل إلينا أن الحملة التي اقتحمت القلعة لم يكن عدد جنودها بالقليل، كما أنهم لم يميزوا بين العناصر الثائرة وباقي الأفراد، بحيث

[1]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، صص215-216.

*- مزاتة: من البربر البتر، وهم أحد بطون لواتة التي كان أفراد منها بضواحي تاهرت، كما سكنت أعداد منها المسيلة. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج2، صص2410- 2411/ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص254.

**- بنو كملان: من بطون هوارة، وكانت لهم مواطن بالمغرب الأوسط، ويذكرهم ابن حماد عند حديثه عن أبي يزيد قائلا:"وسار إلى جبل الأوراس وفيه قوم من هوارة يقال لهم بنو كملان من أهل مذهبه". المصدر السابق، ص30/ ينظر ابن خلدون، المصدر
السابق، ج1، ص 2430.

***- جعفر بن عبيد تقلد منصب الحاجب خلال عهد الخليفة الفاطمي القائم، وقائد حملة عسكرية على قلورية من بلاد الروم سنة (312- 313هـ/ 925- 926م). عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص214.

****- يشير محمد اليعلاوي محقق الجزء الخاص ببلاد المغرب من كتاب عيون الأخبار إلى أن القلعة موجودة بجبل كيانة، وهذا الأخير هو جبل المعاضيد شمالي شط الحضنة وشرقي المسيلة، وهو الجبل الذي يلجأ إليه أبو يزيد في خاتمة مطافه ومنه يؤخذ، كما أن كيانة اسم منطقة من الجبل وأيضا اسم قبيلة. ينظر عماد الدين إدريس، المصدر السابق، هامش رقم 121، ص216.

[2]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، صص 216- 217.

قاموا بحرق الديار وربما كانت مرفقة بزريبة لإيواء الحيوانات، ويضاف إليها عمليات نهب الدواب لأهميتها الحربية، أمام قبائل بربرية كان لها نصيب من مسؤولية الخراب الذي مس الفلاحة عامة خلال هذه المرحلة.

تابع القائم (322هـ- 334هـ/ 934-946م) تحركاته بالمغرب الأوسط باتجاه قلعة جمة* لمحاربته ابن خزر**، فلم يبق وراء هذا الأخير سوى الهروب رفقة من كان معه من أهل القلعة تاركين ما كان بها من النعم والأموال، ولما وصلها القائم وجدها خاوية من السكان؛ فأمر الناس فنهبوا ما كان فيها من المواشي والمطاعم والشحن [1]، وهناك أحداث كثيرة فيما يخص الحملات الفاطمية نحو بلاد المغرب بما فيها المغرب الأوسط [2]، خاصة عند قيام ثورة أبي يزيد مخلد وما جرى فيها من أحداث ومعارك، تفادينا ذكرها تجنبا للإطالة، واكتفينا بإيراد بعض الشهادات التي تثبت عمق الأثر الذي خلفته غياب السياسة الأمنية وتواتر الفتن على الثروة الحيوانية والنشاط الرعوي بالمغرب الأوسط على العموم.

أما الشهادات الأخرى، فهي حملات الخليفة المنصور الفاطمي من أجل إخضاع القبائل والثورات القائمة، أهمها تلك التي جرت بينه وبين أبي يزيد؛ فالوقائع كانت صعبة والحروب شديدة، وما يثبت ذلك ما ورد عند الجوذري قائلا: "ما رأى الناس قط في الإسلام مثلها، ولا دار زمن يعرفه الناس بما يشبهها" [3]، ولا تعوزنا القرائن التي تفصح عن هذا الواقع، فمن خلال

*- لم نتمكن من تحديد موقع قلعة جمة، لكن من خلال وصف عماد الدين إدريس لحملة القائم على المغرب الأوسط سنة (315هـ/ 924م) يؤكد على أنها من القلاع الموجودة بالمجال الجغرافي صدد الدراسة. المصدر السابق، ص218.

**- محمد بن خزر، أحد رؤساء زناتة، وزعمائهم، وكبرائهم، ملك تاهرت ووهران وتلمسان وسائر بلاد زناتة بدعوة الحكم المستنصر بالله ملك الأندلس.ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص257/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص359.

[1]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص218.

[2]- ابن حماد، المصدر السابق، صص24- 32/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص193/ عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص264 وما بعدها/ ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص2698/ فرحات الدشراوي، المرجع السابق، صص221-226.

[3]- الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق د.محمد كامل حسين، د.محمد عبد الهاوي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون طبعة، 1954م، ص49.

استقراء مضامين عدد من المصنفات التاريخية [1]، يتضح توالي الحروب والقلاقل، وعدم الاستقرار السياسي ، وغارات القبائل الموالية لأبي يزيد على غيرها من القبائل، إذ يشير أبو زكريا من خلال نقله لحديث على لسان أحد أفراد مزاتة الذين خرجوا مع هذا الثائر قائلا: "خرجنا معك نحن لنتواكل هذه الميتة... يريد بالميتة الغنائم والأموال التي يأخذونها" [2].

ولما توجه أبو يزيد الثائر إلى جبل سالات، خرج المنصور من المسيلة خلفه في مسالك وعرة، ولما وصل سفح الجبل المذكور سأل عنه فلم يجد له خبرا، فأمرهم أن يأخذوه إن مر بهم، ووعدهم بالأموال، وكر راجعا يريد بلاد صنهاجة، لكن غلبهم الجوع والعطش، ودوابهم بغير علف، ورغم كل هذه الصعاب إلاّ أنها لم تقف حاجزا أمام رغبة الخليفة الفاطمي في القضاء على هذا الثائر، وبذل الأموال الكثيرة من أجل كسب أكبر عدد ممكن من الأنصار، من ذلك الأرزاق التي فرقها والعطاء الذي أجزل به على أنصاره بحائط حمزة (البويرة)، ولما وصله زيري بن مناد في عساكر صنهاجة أجزل عليهم بالعطاء، وأفاض عليهم وعلى كافة صنهاجة الواصلين معه الأموال، استمال بها قلوبهم واستخلص عيونهم، فصفت بذلك نياتهم وحسنت فيه معتقداتهم [3].

استمرت تحركات الخليفة الفاطمي في طلب بني كملان، حماة البربر، وهم أكثر من اجتهد وصبر مع أبي يزيد، فخرج إليهم المنصور (334هـ/ 945م) بمن معه بين الجبال حتى وصل إلى أخبيتهم، فسلموا ما فيها. وأمر الإمام بإحراقها فاشتعلت النيران وثار الدخان [4]، لأن الغنيمة حسب أحد المصادر الفاطمية [5] "لا يستطاع حملها ولا إخراجها ... يُتلف ويحرق المتاع والسلاح بالنار، وتذبح الدّواب والمواشي، وتحرق بالنار ولا تعقر، فإن العقر مثلة شنيعة"؛ في الواقع حملة

---

[1]- ابن حماد، المصدر السابق، صص 31- 47/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، صص216- 220.

[2]- سير الأئمة وأخبارهم، ص180.

[3]- ابن حماد، المصدر السابق، ص39.

[4]- عماد الدين، المصدر السابق، ص377.

[5]- القاضي النعمان، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، تحقيق آصف بن علي أصغر، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1969م، ص391.

المنصور هذه لم تضر بالقبيلة المستهدفة فحسب، إنما خطرها شمل حتى القبائل الموجودة بطريق سير العساكر، والتي تضررت أراضيها الزراعية وثرواتها الحيوانية، من جهة ثانية مسألة ذبح وحرق الدواب والمواشي تتنافى مع مسألة الرفق بالحيوان، كما كانت سببا دفع بالأفراد إلى التنقل من الأماكن غير الآمنة إلى مناطق أخرى أكثر استقرارا خاصة الجبلية.

والجدير بالإشارة هي تلك الخسائر التي لحقت بالدواب المرافقة للحملات العسكرية بالمنطقة، من ذلك ما يخبرنا به عماد الدين إدريس حين سار الخليفة المنصور الفاطمي خلف الثائر أبي يزيد مخلد الكيدادي بمناطق المغرب الأوسط، قائلا "بلغ الضر من العسكر مبلغا عظيما، وبلغ الجهد، ويأسوا من خلاص الخيول...وعدم العلف في ذلك المكان، فقيل إنه بلغ ما تحتاج إليه الدابّة من الشعير دينارا ونصف دينار من الذهب، وقفيز الزيت دينارا. وماتت أكثر الخيل والجمال، ولم يكن لها ما تقتاته سوى الحلفاء" [1].

والقاعدة نفسها سار عليها المعز لدين الله*، حيث خرج إلى قبيلة هوارة الذين قاموا بنصرة أبي يزيد وخالفوا السلطة القائمة، وذلك في جيش عظيم إلى مقرهم بجبل أوراس، فلما سمعوا بخروج جموعه تجمعوا بدورهم بالقرب من مدينة باغاية، إلاّ أن بلكين بن زيري** أوقع بهم الهزيمة، وفرق شملهم في بلاد الزاب [2]، وبعد رحيل المعز إلى مصر تحرك بلكين أول حركته إلى المغرب فهزم زناتة واستأصل شأفتهم، وسبى أموالهم وذراريهم [3]، كما سار إلى تاهرت لما بلغه أن أهلها ثاروا على عامله، فقتل وسبى ونهب وأحرق البلد [4].

*- المعز لدين الله، مدة حكمه من341هـ/ 953م إلى 365هـ/ 976م. ابن حماد، المصدر السابق، ص48.

1- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص404/ سميرة المزكلدي،المرجع السابق، ص23.

**- بلكين بن زيري، أول ملوك بني زيري استخلفه المعز الفاطمي بجميع إفريقية والمغرب، ففوض إليه وسماه يوسف، وكناه أبا الفتوح، ولقبه سيف العزيز بالله، توفي سنة 372هـ/ 983م. ابن الخطيب، المصدر السابق، صص320- 321/ النويري، المصدر السابق، صص310- 312.

2- ابن حماد، المصدر السابق، ص49.

3- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص321.

4- النويري، المصدر السابق، ص312.

والواضح أن ثورة أبي يزيد مخلد كلفت خزانة الخلافة الفاطمية نفقات باهظة، في الوقت الذي كانت البلاد تمر بأزمة اقتصادية، ومجاعة وغلاء في الأسعار، هذا ما هو إلاّ نتيجة حتمية لسياسة قاسية أضرت بالسكان كثيرا، الأمر الذي جرّ بهم للانضمام لهذه الثورة من أجل تحسين الأوضاع ولتحقيق أهداف اقتصادية أكثر منها سياسية، وأمام مجتمع تختلف فيه العناصر القبلية وأهدافها الشخصية علينا أن نتصور الصدمة العنيفة التي قد تحدثها مثل هذه الأعمال بالنسبة للنشاط الزراعي والرعوي، وعلينا تصور عدد الرجال المجندين للحملات التأديبية، من جانب آخر عمليات الحصار التي كانوا يقومون بها تُبعت بعملية حرق للزرع وقطع للأشجار المثمرة، كما استعملت آلات حربية من أجل إضعاف المهاجمين [1]، الأمر الذي نتج عنه قتلى وجرحى في صفوف السكان، أما بالنسبة للثروة الحيوانية فلم تزودنا المصادر التاريخية بالمعلومات الكافية عما لحقها من أضرار ومخاطر، لكن لا تعوزنا القرائن لاستنتاج ذلك، خاصة وأن النبات والحيوان هما الأكثر تأثرا قبل الإنسان كما سلف الذكر.

هكذا اضطر الأفراد إلى الفرار بمواشيهم تجنبا لخطر الموت، مثلما حدث مع أبي الربيع سعيد بن زنغيل الذي هرب من أبي تميم، متوجها نحو وارجلان هاربا بظعائنه وأهله [2]، وهذا النوع من الهجرات يجعل المناطق خالية غير عامرة، وهذه حالة فحص سيرات* البالغ طوله نحو أربعين ميلا، ليس منه شيء إلا يناله ماء هذا النهر، ويصف لنا البكري حاله خلال القرن (5هـ/ 11م) بقوله: "إلاّ أنه اليوم غامر غير عامر ولا أهل فيه، لأن الخوف أجلى أهله" [3]، وهذا قد يعود لتتابع الأحداث وكثرة

---

[1]- فرحات الدشراوي، المرجع السابق، صص 557- 561.

[2]- أبو زكريا، المصدر السابق، ص235.

*- يقول البكري عن فحص سيرات: "وفي ساحل هذا الفحص مدينة أرزاو"، وهذا الفحص محصور بين مدنتي تامزغران وأرزاو. المصدر السابق، ج2، ص252.

[3]- البكري، المصدر السابق، ص252.

الاضطرابات التي عرفتها المنطقة؛ فبعد رحيل الخليفة الفاطمي من بلاد المغرب إلى مصر، تابع خلفاؤهم من بني زيري الحملات التأديبية ضد القبائل المعارضة، الأمر الذي جعل المنطقة غير مستقرة؛ حيث يؤكد ابن خلدون أوضاعه خلال القرن (5هـ/ 11م) قائلا: "ولم يزل حماد* أيام باديس** أميرا على الزاب والمغرب الأوسط ومتوليا حروب زناتة، وكان نزوله ببلد أشير والقلعة متاخما لملوك زناتة وأحيائهم البادية" [1].

لم تكن المناطق الصحراوية بمعزل عن هذه المشاكل، حيث كانت أحد المناطق المفضلة لأصحاب الحركات المعارضة للسلطة، ومن الشواهد الدالة على ذلك حملة القائم بأمر الله سنة (310هـ/ 923م) التي دفعت بمحمد بن خزر إلى الفرار والتوغل في الصحاري [2]، ومن جهة أخرى كانت إبل هذا المجال الجغرافي معرضة للسلب هي الأخرى حسبما يشير إليه نص فتوى سئل فيها ابن الحاج التجيبي (458- 529هـ/ 1066-1135م) صاحب كتاب "**نوازل ابن الحاج**" عن أهل الصحراء من المرابطين: يغير بعضهم على بعض أكثر أموالهم الإبل، فتتناسل ويرثها الأبناء عن الآباء فيريد بعض الأبناء أن يتحلل منها، هل تطيب له؟ وكيف إن أهدى منها شيئا لأمير المسلمين هل يباح له؟، وكان جوابه أن "...من بيده يتصدق بقيمته وينوي بذلك أربابها وتطيب له، وأما هبتها لأمير المسلمين فإن أثاب عليها من ماله فلا ولمن وضعها في بيت مال المسلمين وقبلها للمسلمين فذلك جائز" [3]؛ فالنص يشير إلى تناسل الإبل المسروقة وتوارث نتاج ذلك بين الأبناء والآباء، أي ظاهرة السرقة والنهب معروفة ومتداولة لدى بعض القبائل، لدرجة أن بعض الأبناء حاولوا إيجاد حل يجعل ما بين أيديهم مالا حلالا.

*- حماد بن بلكين بن زيري بن مناد، أخباره مشهورة، وهو الذي بنى القلعة، توفي سنة 419هـ/ 1028م. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص329.

**- باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد، كانت له وقائع كثيرة مع حماد، توفي سنة 406هـ/ 1016م.

1- تاريخ ابن خلدون، ص1876.

2- ابن حماد، المصدر السابق، ص24.

3- ابن شد، فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، السفر الثاني، دار الغرب، بيروت، ط1، 1987م، صص 1018- 1019/ البرزلي، المصدر السابق، ج5، ص119.

غير أن ما يهمنا في هذا النص هو الإشارة إلى عمليات النهب والسرقة التي كانت تتعرض لها الحيوانات، كما يشير إلى مدى ترسخ الظاهرة لدى أفراد بعض القبائل خاصة خلال غياب الأمن وانعدام الاستقرار، حتى أصبح الموضوع مسألة تطرح ضمن المصادر الفقهية وتحتاج إلى إجابة شافية، وهنا يتصدق صاحب الدواب بقيمة ما بيده وينوي ذلك لمالكها الأصلي الذي سرقت منه، وإذا أهديت للحاكم فيجب أن توضع في بيت المال للفائدة العامة.

خلاصة القول، الحروب وغياب السياسة الأمنية أضر كثيرا بالنشاط الرعوي، خاصة بالبوادي، بفعل نهب الماشية، وإحراق المزارع وتخريب الحقول المصدر الأول لتوفير الكلأ المناسب للحيوانات، ولا شك أن دورية هذه الأوضاع، واستمرارها ساعد على الاهتمام بالماشية أكثر خاصة بالمناطق الصحراوية؛ فهي رأس مال متنقل يسهل الهروب به أمام النهب والغارات التي قد يتعرض لها الأفراد، أي انتشار ظاهرة الرعي المتنقل على حساب المستقر- لكن هذا ليس تعميما على كل المنطقة-، ومثلما أثرت الجوائح على الإنتاج الفلاحي عصب الحياة الاقتصادية، أثرت الأزمات السياسية؛ فارتفعت بذلك الأسعار وعمّ الغلاء، لدرجة عدم قدرة أصحاب الدواب والمواشي على توفير كمية العلف الضرورية، مثلما حدث مع الحملة التي قادها المنصور الفاطمي، حيث "بلغ ما تحتاج إليه الدابّة من الشعير دينارا ونصف دينار من الذهب، وقفيز الزيت دينارا. وماتت أكثر الخيل والجمال، ولم يكن لها ما تقتاته سوى الحلفاء" [1].

2- الأثر الاقتصادي لبني هلال وبني سليم في بلاد المغرب الأوسط

لما بلغ الخليفة الفاطمي المستنصر* ما فعله المعز بن باديس** سنة 441هـ/ 1049م، من إلغاء مراسيم الشيعة ومبايعة بني العباس، ثم سب أئمة الفاطميين من فوق المنابر وقتل

---

[1]- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص404/ سميرة المزكلدي،المرجع السابق، ص23.

*- المستنصر بالله، بويع بالخلافة سنة 427هـ/ 1036م وكان أطول الخلفاء عهدا إذ دامت خلافته إلى غاية 487هـ/ 1094م. ابن حماد، المصدر السابق، ص70.

**- المعز بن باديس، كنيته أبو تميم ولد سنه 399هـ/ 1009م، ولي الملك407هـ/ 1017م، توفي سنة 455هـ/ 1063م. ابن عذاري، المصدر السابق، ص295.

أشياعهم [1]، أشار اليازوري* على الخليفة المستنصر بترحيل الموجات العربية من بني هلال وسليم** لتأديب المعز، هذه القبائل التي كانت تقطن في السابق شمال الجزيرة العربية، أما استقرارهم بصعيد مصر فكان تحت أمر الخليفة الفاطمي، لما قاموا به من نهب وأعمال شغب ومضايقة لسلطة، ومنعوا من اجتياز النيل [2].

وعليه جاءت فكرة اليازوري للتخلص منهم بتحريضهم على غزو إفريقية، خاصة وأن هذا الوزير له حقد وغل اتجاه المعز الذي كان يسيء معاملته في السابق؛ فدخلت العرب إلى بلاد المغرب باتجاه إفريقية سنة 442هـ/ 1051م، عندها كتب اليازوري إلى المعز قائلا: "أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولا. وحملنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا" [3].

لا شك أن الظاهرة الهلالية إلى بلاد المغرب في منتصف القرن (5هـ/ 11م) كانت من أكبر المشاكل التي شمل خربها الأرض والإنسان والحيوان جميعا [4]، لأنهم كانوا بدوا رحلا يربون المواشي والخيل ويطلبون المراعي [5]، إلاّ أنهم عاثوا في الأرض فسادا، وأحدثوا حالة من الفوضى وعدم الاستقرار بما في ذلك بلاد المغرب الأوسط ، حيث نازلوا مدينة القلعة

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، صص273- 279.

*- محمد الحسن بن اليازوري، وزير الخليفة الفاطمي المستنصر (427- 487هـ/ 1036- 1094م)، أصله من قرى فلسطين. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2324. غير أن بن حماد يشير إلى أن أبا القاسم أحمد بن علي ، الجرجرائي هو الذي أدخل العرب إلى إفريقية. المصدر السابق، ص66.

**- كانت بطون هلال وسليم من مضر، وكانوا أحياء ناجعة بمجالاتهم من قفر الحجاز بنجد، وكان مقامهم خلال العهد الفاطمي بمصر بالصعيد، وفي العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك، وكان لهم أضرار بالبلاد. ابن الأثير، المصدر السابق، ص973/ ابن خلدون، المصدر السابق، م1، ص2323.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص288.

[3]- النويري، المصدر السابق، ص 343/ ابن الأثير، المصدر السابق، ص1439.

[4]- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، دون طبعة، 1968م، ص394/ صباح إبراهيم الشيخلي، الهلاليون في المغرب –ضوء جديد على أثر هجرتهم–، ضمن كتاب الوطن العربي النواة والامتداد عبر التاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2003م، ص139.

[5]- جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، دون طبعة، دون تاريخ، ص237/ يسرى الجوهري، جغرافية المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دون طبعة، 2001م، ص69.

"...وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، مثل طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكينها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجنّ، وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد، وهجروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالهم في الأمصار، وملكوا عليهم الضواحي يتحيّفون جوانبها ويقعدون لهم بالمراصد، ويأخذون لهم الإتاوة على التّصرف في أوطانهم" [1].

وبهذا يكون العرب قد أحدثوا تغيرا في حياة الرعاة من البربر الذين عرفوا حياة الترحال والانتقال الموسمي بقطعانهم إلى المناطق القريبة من السواحل الخصبة منذ القدم [2]، وبدخول عنصر جديد ارتفع عدد البدو في المنطقة عما كان عليه [3]، حيث أضيفت إلى القبائل الرعوية البربرية قبائل أخرى عربية، وبما أن البدو الرحل يحتاجون إلى مراع، كان لابدّ للوافد أن يطرد من سبقه إليها [4]، مثلما حدث مع بطون قبيلة زناتة المنتشرة بين مدينتي تلمسان وتاهرت، وكان دأبها التنقل والانتجاع من مكان إلى مكان غيره [5]، وبهذا يكون المغرب الأوسط قد دخل مرحلة جديدة وتذبذب استقرار قبائله، فتوزع الزناتيون بين التل والصحراء والمغرب الأقصى، واستحوذ عرب الأثبج على بعض الممتلكات في سهول الزاب وقلعة بني حماد [6].

والظاهر أن ما أقدم عليه هؤلاء العرب يرجع إلى أسباب عدة، أهمها ما أفادنا به صاحب كتاب "نهاية الأرب" قائلا: "ثم أحضر- اليازوري- أمراءهم وأباحهم على

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، م2، صص 2328- 2329/ عبد الاله بنمليح، افريقية الزيرية وعلاقاتها السياسية والاقتصادية بدول جنوب حوض البحر المتوسط والأندلس 361هـ / 972م- 543هـ / 1148م، دبلوم الدراسات العليا، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس السنة الجامعية 1986م- 1987م، ص355، غير منشورة.

[2]- محمد البشير شنيتي، نوميديا وروما الإمبراطورية، تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال، كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2012م، صص284- 289.

[3]- جورج مارسيه، المرجع السابق، ص236 وما بعدها.

[4]- عبد الله العروي، المرجع السابق، ج2، ص223.

[5]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص257/ ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2326.

[6]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص1790.

لسان المستنصر أعمال القيروان ووعدهم بالمدد والعدد وأمرهم بالعبث والإخراب فدخلت العرب إلى بلاد المغرب في سنة اثنين وأربعين وأربعمائة" [1]، وهو نفس ما يذهب إليه ابن خلدون [2]؛ إذن الخراب الذي حدث بالقيروان وأعمالها والجزء الشرقي من المغرب الأوسط يعود الجزء الكبير منه للخليفة الفاطمي، بإعطائه كل الصلاحيات لهذه القبائل لبسط نفوذها بالمنطقة والتصرف بكل حرية، ومن جانب آخر، المعروف عن القبائل العربية أنها بدوية، تعيش حياة التنقل والترحال وبعيدة عن التمدن والاستقرار، وهو الأمر الذي زاد الوضع تأزما، يضاف إلى ذلك مواجهة البربر أصحاب الملكيات لهم، ومحاولة دفاعهم عن أراضيهم وأموالهم الأمر الذي أدى إلى مجابهة بين المالك والغاصب.

وقد لا نبالغ إذا قلنا إن الظاهرة قلبت الأوضاع السياسية والاقتصادية والديمغرافية للمنطقة، وحِدَّة الاكتساح كانت شديدة على البادية والمدينة على حد سواء؛ حيث يشير ابن عذاري إلى أنّ عددهم قدر بسبعة آلاف فارس وخمسمائة [3]، منهم من هاجم جهات مختلفة من بلاد المغرب الأوسط، واكتسحوا بسائطه بقوة لا تقهر حتى انتهوا إلى ضواحي القلعة [4]،إلى جانب ذلك لم يتورع العرب عن تدمير الأراضي الزراعية، وإتلاف محاصيلها، عبر سياسة تقوم على السلب والنهب والتخريب، كما شكلت السهول مناطق إغراء للهلاليين، مما أسفر عنه توسع المجال الرعوي على حساب الزراعي وحتى الغابوي، واضطر أهل البادية ترك السهول والاعتصام بالمرتفعات، فتحولت المزارع إلى مراعي ومسارح [5]، وهذا ما حصل لزناتة المغرب الأوسط.

---

[1]- النويري، المصدر السابق، ص343.

[2]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2324.

[3]- البيان المغرب، ج1، ص293.

[4]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص262.

[5]- عبد الاله بنمليح، المرجع السابق، ص356/ كزال ستيفان، المرجع السابق، ص139/ عبد الله العروي، المرجع السابق، ص255.

ومن خلال استقراء عدد من المصنفات النوازلية يتضح انتشار ظاهر الغصب والتعدي، ومن الواضح أنها لازمت القبائل العربية ببلاد المغرب عموما، وهو ما نص السؤال الذي طرح على الإمام أبي عبد الله بن عرفة* سنة (796هـ/ 1393م) حول قتال الديلم ورياح وسويدة وبني عامر، أمراء المغرب الأوسط، والسائل يشير إلى أن "جماعة من العرب، تبلغ ما بين فارس وراجل قدر بعشرة آلاف أو تزيد، وليست لهم حرمة إلا شن الغارات، وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم، وانتهاب أموالهم بغير حق... وهذا دأب سلفهم وخلفهم" [1].

وهناك نصوص أخرى تفيد بما كانت تقوم به بعض القبائل من غصب لأموال الناس؛ إذ يفيدنا الونشريسي قائلا: "سئل- ابن رشد (520هـ/ 1126م)- من بعض مرابطي الصحراء عن مسألة غصب نزلت عندهم. في قوم من قبائل شتى في الصحراء يتغاصبون فيما بينهم وليس لهم مال غير الماشية وهذا الغصب المذكور فيما بينهم قديم بين آبائهم وأجدادهم وأنهم يتوارثون ذلك المال المغصوب فيما بينهم. هل يسوغ لأحد له مال حلال لا يشوبه حرام وهو ممن راغ عن التباعات وأراد التورع هل يجوز له أن يبتاع من ذلك المال المغصوب أم لا؟" [2] والنازلة نفسها ذكرها ابن رشد من خلال فتاويه [3]، ونقلها البرزلي (841هـ/ 1438م) عنه في جامع فتاويه [4].

والظاهر أن الماشية التي بأيدي هؤلاء القوم من القبائل الصحراوية من البربر أو العرب قد توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، وهي في الأصل مغصوبة ولا يعلم أصحابها لقدم غصبها منهم ولا ورثتهم، ولا يمكن صرفها إلى أصحابها بأعيانهم ولا صرف شيء منها إلى صاحبه بعينه للجهل به. فحكمها بأيدي الذين هي بأيديهم حكم اللقطة بعد التعريف بها واليأس من وجود

*- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة، التونسي، إمامها وعالمها وخطيبها، وممن أخذ عنه الشريف التلمساني، ابن مرزوق الحفيد، توفي سنة 803هـ/ 1401م. الونشريسي، وفيات الونشريسي، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 2009م، ص74/ التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ط2، 2000م، صص463-472.

[1]- المازوني، المصدر السابق، ج1، صص 382- 383.

[2]- المعيار، ج9، ص542.

[3]- فتاوى ابن رشد، صص 1018- 1019.

[4]- البرزلي، المصدر السابق، ج5، صص118-119.

صاحبها [1]، أما ابن الحاج (ت 529هـ/ 1135م) فأجاب عن المسألة قائلا: "من هي بيده يتصدق بقيمتها وينوي بذلك أربابها وتطيب له... وإباحة أكلها للأبناء بحكم اللقطة فشأنك بها ضعيف لأن هذه خرجت بغير رضى أربابها بخلاف اللقطة فهذا أصل في طيب الأموال المجهول أربابها فتدبره" [2].

حتى نسل المال المغصوب كان له أحكام من خلال المصادر الفقهية، ولم يتساهل الفقهاء في أمرها، كغاصب الغنم الذي "جز أصوافها، وشرب ألبانها، وأكل سمنها وجبنها، ثم قدم صاحبها: ضمن الغاصب ما جز وما أكل، وأخذ الغنم صاحبها مع غلتها،... فإن ماتت الغنم وبقي نسلها: كان صاحبها بالخيار بين أن يأخذ نسلها، ولا يرجع عليه بقيمة أمهاتها، أو يأخذ قيمة أمهاتها، ولا يأخذ نسلها" [3]، ومن البراهين الدالة على واقع ذلك داخل مجتمع المغرب الأوسط جواب الشيخ عبد الرحمان الوغليسي (ت 786هـ/ 1384م) عن المعاملة في نسل الدواب المغصوبة، هل يجوز؟ فأجاب أنه لا يتم إلا بإذن من غصبت منه، وبعد أن يتخلص الغاصب من تبعاتها بدفع قيمتها وقيمة أمهاتها إلى المالك [4].

ومن تم آثرنا تسجيل هذه النصوص على سبيل المقاربة أمام انعدام المادة المصدرية الخاصة بفترة البحث، وأخذنا النص على ظاهريته وعمومه بهدف إعطاء صورة عمّا صدر عن القبائل العربية من فوضى، بالإضافة إلى تأكيد طباع الغصب واللصوصية في بعضهم، وأنها متوارثة من جيل إلى آخر، واغتصابهم للدواب من أصحابها جعل أموالهم في نظر غيرهم كلها حراما، خاصة بين المتعاملين فيها شراء أو استخداما، وصار شراء الحيوانات منهم أمرا محاطا بالخوف، وقسمها الناس إلى حلال وحرام [5].

[1]- الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص542.

[2]- المصدر نفسه، ج9، ص543.

[3]- ابن زرب، المصدر السابق، ص286.

[4]- المازوني، المصدر السابق، ج4، صص121-122.

[5]- الشعبي، المصدر السابق، ص240/ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، صص181- 182.

ولا سبيل إلى الشك، في أن دخولهم خلال هذا العهد ترتب عنه فوضى تعطل معها النشاط الفلاحي والتجاري، ليعاد إحياؤه فيما بعد بزراعة الواحات وخفارة القوافل في المناطق الخاضعة لنفوذهم [1]، وفي كل الأحوال، هذه الغزوة كانت مرتبطة بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة قبل مجيء العرب وبعد تواجدهم، مع هذا حمل هؤلاء أشياء إيجابية إلى جانب سلبياتهم، منها اهتمامهم بالثروة الحيوانية لحاجتهم إليها في جميع شؤونهم.

خلاصة القول، المغرب الإسلامي كان مضطربا في منتصف القرن الخامس الهجري، فكان هناك القبائل العربية في المغرب الأدنى والمرابطون في المغرب الأقصى، وكلتاهما تضغط على المغرب الأوسط، وبالنسبة للنشاط الرعوي- نقصد الرعي المستقر- كان يمارس خارج أسوار المدن وفي البادية لاتساع مزارعها وحقولها ووفرة المسارح للحيوان، فكانت الحروب والغارات أهم مشكل عانى منه الرعاة خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م.

ثالثا- الثروة الحيوانية وتوزيعها بالمغرب الأوسط

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [2]، وكلمة الأنعام فصلت في سورة الكريمة إلى ثمانية أزواج، وبما جعل فيها من مصالح ومنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ومن أولادها يأكلون [3]، لذا يعد الرعي الوسيلة الوحيدة للاستغلال الجيد بالنسبة للمناطق الجبلية، خاصة في المناطق السهبية الواسعة الغير منتجة، والصحراوية [4]، غير أن تربية الأفراد المستقرين لم تقتصر على المواشي والدواب في مزارعهم، إنما رافق ذلك أعمال أخرى كان من الضروري الاهتمام بها

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2100.

[2]- سورة النحل، الآية 5.

[3]- ابن الكثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2000م، ج2، ص1026.

[4]- J. Despois, R. Raynal, géographie de l'Afrique du Nord- ouest, p53

لمنافعها المختلفة ولقيمتها الغذائية، منها تربية النحل، ومن أهم الحيوانية بالمغرب الأوسط، نذكر:

1- المواشي

لم يقتصر ممتهن الرعي على نوع واحد من الحيوانات، وكثيرا ما تربى الأبقار والأغنام والخيول والبغال والجمال في منطقة واحدة، حسب ظروف العيش الملائمة، وكذا امتداد المراعي الهامة والشاسعة في سفوح الجبال، وكذلك في أودية الأنهار، حيث توجد في هذه المناطق أنواع من الأشجار والأعشاب؛ فترعى الضأن والمعز في الجبال وسفوحها، في حين تربى الأبقار والخيول في السهول والمروج، وتقل المراعي في المناطق الجافة وتكثر في المناطق الرطبة [1].

وتفيدنا بعض المصادر الجغرافية الوسيطة كابن حوقل، البكري، الإدريسي بمعطيات حول مناطق انتشار هذه الثروات بالمجال الجغرافي صدد الدراسة، والتي انحصرت بين منطقتي تاهرت والمسيلة، هذا بالإضافة إلى المنطقة المحصورة بين برشك ومازونة، والتي اشتهرت بكثرة إنتاجها للصوف، خاصة خلال القرن 6هـ/ 12م حسب شهادة الإدريسي، وكان يقوم بهذا العمل قبائل زناتة، ومغراوة وبني راشد وبني عبد الوادي وبني مرين، وعرفوا على أنهم "قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى مكان غيره" [2].

أ- الأغنام[*]

ساهمت وفرة المراعي و ملائمة المناخ ببلاد المغرب الأوسط، وتزايد استهلاك اللحوم والأصواف والجلود بعد أن تم ربط المغرب بالطرق التجارية بعيدة المدى، وبعد نمو شبكة من المدن والقرى والمداشر، في انتشار تربية المواشي، على رأسها الأغنام، ونخص من الأغنام

---

[1]- إسماعيل سامعي، معالم الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، 2007م، ص275/ عز الدين موسى، المرجع السابق، ص198.

[2]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص257.

*- كلمة غنم تدل على الضأن والمعز معا. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط8، 2005م ، ص1211/ أحمد قدامة، قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986م، ص367.

"الضأن"، وهي من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد أو اثنين، وإذا رعت زرعا نبت عوضه، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الشعر [1]، وتشتهر أراضي السهوب بالمغرب الأوسط بتربية هذا النوع من الماشية؛ بحيث تعيش في شكل جماعات أو قطعان، مرفقة بأفراد من المعز ليقودها إلى المرعى [2].

كما تعد تربية الضأن أساسُ كثيرٍ من العمليات الإنتاجية الزراعية مثل إنتاج اللبن والصوف واللحم والسمن [3]، وتزبيلها "في الفدادين مصلح جدّا عظيم النفع كبير التأثير في الزرع وفي جميع المستغلات" [4]، والضأن كثيرةُ الصوف تحتمل شدة الشتاء أكثر من القليلة الصوف والجعدة.

أما عن أشهر المدن التي عرفت باديتها تنوعا في الثروة الحيوانية، مدينة مرسى الدجاج التي كان بها من "الألبان والمواشي ما يغرق غيرهم ممن جاورهم" [5]، وعرف بربر جزائر بني مزغنة بكثرة مواشيهم من البقر والغنم السائمة في الجبال، ولمدينة شرشال بادية يغلب على أهلها البربر "وأكثر أموالهم الماشية" [6]، ومواشي أهالي وهران كثيرة، كما ساعد خصب مدينة واسلي على كثرة ماشيتها [7].

ومن الأمثلة الأخرى التي تثبت اهتمام سكان المنطقة بتربية المواشي مع كثرتها لديهم، بادية ارشقول المعروفة بخصوبة تربتها "وسعة في الماشية والأموال السائمة،...

[1]- ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج20، ص38/ الأبشهي، المصدر السابق، ج2، ص388/ حسام خلف الصفيحي، المرجع السابق، ص35.

[2]- حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية- الأحوال الاقتصادية والثقافية-، دار الحضارة، الجزائر، ط1، 2007م، ج2، ص39.

[3]- مصطفى كمال، إنتاج الضأن والصوف، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، 1972م، ص267/ للمواشي خصائص علاجية ذكرتها العديد من المصادر الطبية الوسيطية، نذكر منها على سبيل المثال كتاب "طب زاد المسافرين للفقراء والمساكين" لابن الجزار القيرواني، مكتبة المعارف، بيروت، تحقيق مختار سالم، ط1، 2004م، ص23 وما بعدها.

[4]- الطغنري، المصدر السابق، ص97/ عبد الملك بن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، ص250.

[5]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص77.

[6]- المصدر نفسه، ص78.

[7]- نفسه، ص79.

وفيها مياه ومواجن كثيرة للمراكب وأهلها والمحتاجين إليها في سقي سوائمهم" [1]، ويؤكد البكري تواجد الماشية بالمدينة خلال القرن 5هـ/ 11م [2]، ولا تختلف عنها المسيلة في كثرة "المواشي من الدواب والأنعام والبقر" [3]، خاصة وأنها في بساط من الأرض [4]، أما أهل ميلة فكانوا على درجة كبيرة من الغنى لأن بلدهم "طيب كثير الزرع والماشية والثمار" [5]، ولا نستثني مدينة تاهرت من ذلك، "وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم... " [6]، وشكلت هذه الثروة أهم مصادر بيت المال في أيام عبد الرحمان بن رستم؛ حيث كان العمال يقبضون أعشارهم من أهل الشاة والبعير [7]، والبعير [7]، واشتهرت مدينة وجدة بصلاحية مراعيها لذوات الحافر والظلف [8]، وبالمقارنة بين مختلف المواشي التي استأنسها الإنسان تبقى الضأن الأكثر انتشارا وعددا، لقدرتها على مقاومة برد وثلوج الشتاء، وحرارة الصيف وجفافه عكس الأبقار [9].

غير أن النصوص الجغرافية باعتبارها أهم مصدر للتعرف على أنواع الحيوانات بالمنطقة، لم تقدم لنا قائمة إحصائية عن كل نوع، واكتفت في كثير من الأحيان بالتعميم باستعمال عبارة "المواشي والدواب" أو "الزرع والضرع"، أي دون أن تفصل في النوع، لكن بما أن المعز من الأغنام التي استأنسها الإنسان، وكانت الرفيق الدائم للضأن في مراعيها، فما من شك أنها تواجدت بمسارح المغرب الأوسط؛ إذ تؤكد إحدى المصادر الجغرافية المتأخرة [10] على انتشار

---

[1]- ابن حوقل المصدر السابق، ص79.

[2]- المسالك والممالك، ج2، ص261.

[3]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص85.

[4]- البكري، المصدر السابق، ص239.

[5]- مرمول كربخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، دون طبعة، دون تاريخ، ج3، ص13.

[6]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص86.

[7]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص35.

[8]- البكري، المصدر السابق، ص264.

[9]- J. Despois, R. Raynal, op. cit, p54

[10]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص45

تربية هذا النوع من الماشية بجبل بني بوسعيد المجاور لمدينة تنس، إذ يملك أهلـه "كميـة وافـرة مـن العسل والشعير والماعز".

لكن طبيعة التغذية تفرق هذا الحيوان عن غيره، ذلك أن أفضل المراعي بالنسبة للمعز هـي الغابات والمناطق الجبلية، وعلى العكس من ذلـك فـإن الضـأن تفضـل المراعـي المكشـوفة ذات الأعشاب القصيرة [1]، إضافة إلى أن المعز تتكيف مع التنقل أكثر من غيرها، حركة وسرعة، لكـن لكن الضأن يمكنها الانتشار في المناطق شبه الصحراوية التي يصعب على المعز العيش فيها [2].

والواضـح أن المعـز تضـع مـرة واحـدة في السـنة، لكـن إذا كـان مرعاهـا كـثير الخصـب تضع مرتين في السـنة [3]، كمـا أنهـا تُفَضَـل علـى الضـأن بغـزارة اللـبن وتُخـن الجلـد، "فـأنظر "فـأنظر إلى حكمـة البـاري تعـالى لهـا، لمـا خلـق جلـد الضـأن رقيقـا جعـل لهـا صـوفا كثيفـا دافعا للبرد والحر، ولما خلق جلد المعز ثخينا خلق لها الشعر" [4].

ب- الأبقار

حيوان كثير المنفعة، شديد القوة [5]، وأكبر الحيوان معونة للناس على معاشهم [6]، تحتـاج إلى تحتاج إلى مناخ ملائم نسبيا يضمن توفر المياه ونمو غطاء نباتي كثيف [7]، لذا نجـد انتشـار تربيتهـا بالمناطق الشمالية للمغرب الأوسـط، حيـث المراعـي دائمـة الخضـرة، لأنهـا تتطلـب الأعشـاب الكثيرة، والأراضي المستوية الخالية مـن السـفوح الشـديدة الانحـدار [8]، كمـا تحتـاج إلى أوسـاط

---

[1]- عبد العزيز شرف، مستقبل الثروة الحيوانية في الوطن العربي، دار الكاتب العربي، دون طبعة، 1957، ص100.

[2]- يوسف عابد، المرجع السابق، ج2، صص398-399.

[3]- ابن العوام، كتاب الفلاحة، ج2، ص476.

[4]- ابن البيطار، منافع الحيوانات وخواص المفردات، المكتبـة الوطنيـة الفرنسـية، بـاريس، مخطـوط تحـت رقـم Arabe 2771، ورقة30/ ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج20، ص40.

[5]- ابن البيطار، المصدر السابق، ورقة19.

[6]- ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، يصدرها فـؤاد سـزكين، دون طبعـة، 1984م، ج1، ص334.

[7]- لحسن بودرقا، المرجع السابق، ص208.

[8]- حساني مختار، المرجع السابق، ج2، ص39.

مروية، ليسهل عليها الحصول على ما يناسبها من الماء يوميا إلى جانب الغـذاء [1]، وتحـب الرعـي مجتمعة مع بعضها البعض [2].

وما من شك في أن الأبقـار اسـتخدمت بمختلـف العمليـات الزراعيـة إلى جانـب الفوائـد الأخرى، كتزويد الأهالي بالحليب ومشتقاته وباللحوم والجلود، ولا تعوزنا القرائن الـتي تفصـح عن هذه الأهمية والمنفعة، حيث ساهمت كثرة الماشية ورخص أثمانها بـوهران في وفـرة السـمن والزبد [3]، كما أدى كثرة البقر والغنم بقرى تاهرت إلى وفـرة المنتجـات الحيوانيـة [4]، ولم يقتصـر يقتصر استهلاك منتجات الأبقار على المدن بل تعدّاها إلى البوادي، مصدر المادة الأولية.

2- الدواب

الدواب أحسن البهائم صورة وأكثرها نفعا، وهـي مـن ذوات الحـافر، ولمـا كـان الإنسـان لطيف البدن، بطئ المشي كثير العدو من جنسه ومن غير جنسه، اقتضـت الحكمـة الإلهيـة خلـق هذا النوع من الحيوان للإنسان [5]، لقول تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالَحِميرَ لِتَرْكَبُوها وزِينـةً**﴾ [6]، **وزِينةً**﴾ [6]، ثم هداه إلى تذليلها وتصريفها تحته في أنحاء مقاصده ليقـوم لـه مقـام الجنـاح الطـائر، والقوائم للدواب، وجعل الله للدواب حافرا ولم يجعل لها قرنا، لأن المادة لا تنهض بهمـا جميعـا، والحيوان الذي له قرن له ظلف، لأن المادة انصرف بعضها إلى القـرن وبعضـها إلى الظلـف لتـتم بهما حاجة المشي والسلاح [7].

ولا يقتصر دور الدواب على الحمل والجر، وإنما تشـارك أيضـا في أعمـال فلاحيـة أخـرى وأهمها الدرس [8]، وكذا زبلها إذا برد ومرّ عليه عام كـان جيـدا لكـل بقـل ضـعيف [1]، ويـذكر

---

1 - J. Despois, R. Raynal, op. cit, p54

2 - ابن العوام، المصدر السابق، ج1، ص2.

3 - الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص252.

4 - المصدر نفسه، ص256/ J. Despois, R. Raynal, op. cit, p53

5 - ابن البيطار، المصدر السابق، ورقة4.

6 - سورة النحل، الآية 8.

7 - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج20، ص21.

8 - لحسن بودرقا، المرجع السابق، ص211.

الدمشقي خصائص الدواب قائلا: "ممّا يعمّ الجميع من الصفات المحمودة الفتاء فإنّ الفتيّ من جميعها الرباع أو القارح خير في الاستخدام والانتفاع. وممّا يعمّها أيضا نقاء الظهر وصحّة القوائم وجودة الأنف واستفاء العلف وكبر العنق وسعة الصدر وعرض الأوراك وقصر الظهر وما شاكل ذلك" [2]، وإن علفت الدواب القصيل عطشت، لدى وجب سقيها، ففي سقي الدواب مصالح كثيرة لها، منها أنه يبرد جوف الدابة ويكسر الحرارة عنه ويزيد في علفه ويوسع جلده ويعقد لحمه [3].

أ- الخيل

كسب البربر الخيل للركوب والنتاج منذ القديم [4]، وهي من الحيوان المشرف، وأحسنها صورة وأشدها عدوا وذكاءً، وله خصال محمودة [5]، استعمل ذكورها للغزو وإناثها للنسل [6]، وتستحب الخيل المروج والمواضع كثيرة المياه وشرب الماء الكدر، وإن كان الماء صافيا نقيا كدرته بحوافرها ثم شربت [7].

ومن أبرز القبائل التي اهتمت بهذا النوع من الحيوان "قبيلة زناتة"، فأكثرهم فرسان يركبون الخيل [8]، واتخذت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت من لواتة ومطماطة وزناتة العبيد والخيول [9]، كما اهتم أهل المسيلة بتربية "سوائم خيل وأغنام وأبقار" [10]، ويشير ابن حوقل إلى

---

[1]- الطغنري، المصدر السابق، ص96.

[2]- الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ص51.

[3]- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص524.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص116.

[5]- ابن البيطار، المصدر السابق، ورقة 5/ ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج20، ص22/ الأبشهي، المصدر السابق، ج2، ص388.

[6]- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص477.

[7]- المصدر نفسه، ج2، ص491.

[8]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص257/ ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج4، ص161/ محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون طبعة، 1984م، ص24.

[9]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص63.

[10]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص254/ ينظر ابن حوقل، المصدر السابق، ص85.

أن مدينة تاهرت كانت أحد معادن الدواب والبغال والبراذين* الفراهية [1]، ويؤكد الإدريسي ذلك قائلا: "بها ضياع جمة وبها من البراذين والخيل كل حسن" [2]، وهذه الميزة جعلت الحكام يقتنون أحسنها؛ إذ كسب يعقوب بن أفلح (284هـ/ 897م) "فرسا تضرب به الأمثال في المغرب" [3]، أما مدينة بجاية فوصفت من خلال أحدى المصادر المتأخرة [4] أن بها "من الخيل العراب المشابه لخيل برقة، والبغال والحمير".

ولا سبيل للشك، في وجود خيول عربية أصيلة بالمنطقة، دخلت إلى بلاد المغرب وتزايدت أعدادها بعد دخول الهلاليين، لأنهم كانوا يكسبون الكثير منها، وقد كتب "اليازوري" وزير الخليفة المستنصر (334هـ/ 945م) صاحب مصر إلى الأمير المعز بن باديس الصنهاجي (ت406هـ/ 1016) يخبره قائلا: "فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا" [5]، وبهذا يكون المغرب الأوسط قد اشتهر بتنوع دوابه عبر فترات زمنية مختلفة.

ب- البغال

أصل هذا الحيوان متولد من الفرس والحمار [6]، لذلك صار لها صلابة الحمار وعظم الخيل [7]، ويجعلها ابن الفقيه من أهم الثروات الحيوانية الموجودة لدى أهالي بلاد المغرب [8]، وكانت تجهز من المغرب إلى المشرق، وهو ما يؤكده صاحب "صورة الأرض" بقوله: "ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفره والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص" [9]، أما بالنسبة للمغرب الأوسط فقد اكتفت بعض المصادر الجغرافية [1]

---

*- البرذون (برذن) نوع من الخيل دون الفرس العربي، تعرف أنثاه بالرمكة. ابن منظور، المصدر السابق، م2، ص57.

[1]- ابن حوقل، المصدر السايق، ص86.

[2]- الإدريسي، المصدر السابق، ص256.

[3]- أبو زكريا، المصدر السابق، ص188.

[4]- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب، القاهرة، دون طبعة، 1922م ، ج5، ص112.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، م2، ص2325.

[6]- ابن الفقيه،المصدر السابق، ص77/ ابن البيطار، المصدر السابق، ورقة 7/ ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ج20، ص23.

[7]- ابن البيطار، المصدر السابق، ورقة 7/ الأبشهي، المصدر السابق، ص377.

[8]-ابن الفقيه، المصدر السابق، ص252/ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، دون طبعة، 1889م، 88.

[9]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص95.

بالإشارة إلى كثرة الدواب بمدينة المسيلة إلى جانب الأنعام، ووفرة الدواب والبغال بتاهرت، والظاهر أن الاهتمام بتربيتها استمر حتى الفترات الأخيرة من القرون الوسطى، وهذا ما يؤكده صاحب "وصف إفريقيا" [2] من خلال وصفه للحمير الجميلة، كبيرة القامة التي كانت تربى بوجدة، والمستعملة لإنتاج البغال، وكان هذا النوع يباع بتلمسان بأغلى الأثمان، وهذا دليل على أهميتها بالنسبة للأفراد، أما بالنسبة لفترة بحثنا فلم نقف عند نصوصا تشير إلى قيمتها المادية.

وتثبت بعض النصوص المؤرخة للمرحلة الوسطى من تاريخ المغرب الأوسط، أن البغال من الدواب المفضلة للركوب بالنسبة لأهل الورع والتقوى، للبساطة والتواضع الذي عرفوا به، كما أنها تتميز بشدة قوتها وتحملها، لهذا الغرض كانت تشارك في الأعمال الحربية [3]، ومن الشخصيات التي ركبت البغال دون الخيل "الياس أبو منصور" عامل يوسف بن محمد بن أفلح (ت294هـ/ 906م) على جبل نفوسة، والذي خرج في عسكر راكبا بغلته [4]، وركب أبو يزيد مخلد حمارا حين خرج على الفاطميين [5]، كما يكشف ابن مرزوق أن جده كانت له بغلة يركبها بالبرذعة [6]، واستعملت الحمير لنقل البضائع وركوب الفئات الشعبية الوسطى [7]، وهو ما تثبته العديد من النصوص الفقهية [8].

---

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، صص85- 86/ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، صص 256- 257.

[2]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص13.

[3]- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9- 10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، 1992م، ص67.

[4]- أبو زكريا، المصدر السابق، ص150.

[5]- القاضي عياض، المصدر السابق، ج2، ص145.

[6]- المناقب المرزوقية، ص160.

[7]- محمد حسن، المرجع السابق، ج2، ص457.

[8]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ج7، صص93- 94/ ابن رشد، محمد ابن أحمد (الحفيد)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحت إشراف محمد الأمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996م، ج2، ص226/ ابن العطار، المصدر السابق، ص111.

ج- الإبل

يرى ابن خلدون أن الإبل من مكاسب أهل النجعة [1]، ومن مميزاتها تحمل "الأثقال مدة أربعين أو خمسين يوما دون أن تستلزم علفا في المساء، وإنما تنزع عنها الأحمال وتترك ترعى في البرية قليلا من العشب والشوك وأغصان الشجر" [2]، غير أن أن مسارح التلول ونباتها لا تكفي الإبل في قوام حياتها [3]، خاصة وأنها تحمل أثقالا قد يصل وزنها من 150- 200كغ [4]، ولم يعرف بربر شمال إفريقيا هذا الحيوان حتى حتى القرن الرابع بعد الميلاد، لتتغير معه حياة سكان الصحراء تغيرا عظيما، وكان عاملا رئيسيا ساهم بقدر كبير في نمو التجارة [5]، خاصة الصحراوية، وأصبحت القوافل تسير على ظهر الإبل بين تاهرت وإفريقية مدة شهر [6].

إن الجمل من أهم وأكثر الأنواع الحيوانية انتشارا بالمنطقة، وهي الحقيقة التي يؤكدها ابن حوقل في معرض حديثه عن بلاد المغرب وصحاريها قائلا: "الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب" [7]، إن قوة احتمال الجمل على العطش وحمل الأثقال وقطع المسافات الطوال، يجعل منه الأكثر قربا لحياة عامة المناطق الصحراوية، وأهم حيوان في تلك الربوع الشاسعة إلى جانب الأغنام [8]، لكن يبقى هو الوحيد في أعماق الصحراء الصحراء حيث لا يوجد ماء ولا كلأ [9]، غير أنها تتأذى بالبرد الشديد [1]، ويشير أحد الباحثين [2]

1- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2387.

2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص259/ ينظر ابن البيطار، المصدر السابق، ورقة15.

3- محمد عبد الرحمن مرحبا، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، منشورات عويدات، بيروت، دون طبعة، 1988م، ص528.

4- J. Despois, R. Raynal, op. cit, p53

5- كارلتون كون، المرجع السابق، ص98/ محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، الدولة- المدينة- الاقتصاد، تنسيق محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1999م، صص397- 398.

6- ابن الفقيه، المصدر السابق، ص79.

7- صورة الأرض، ص95.

8- إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية (160- 296هـ/ 777- 909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات ألفا، الجزائر، ط3، 2010م، ص201.

9- J. Despois, R. Raynal, Op. Cit, p54

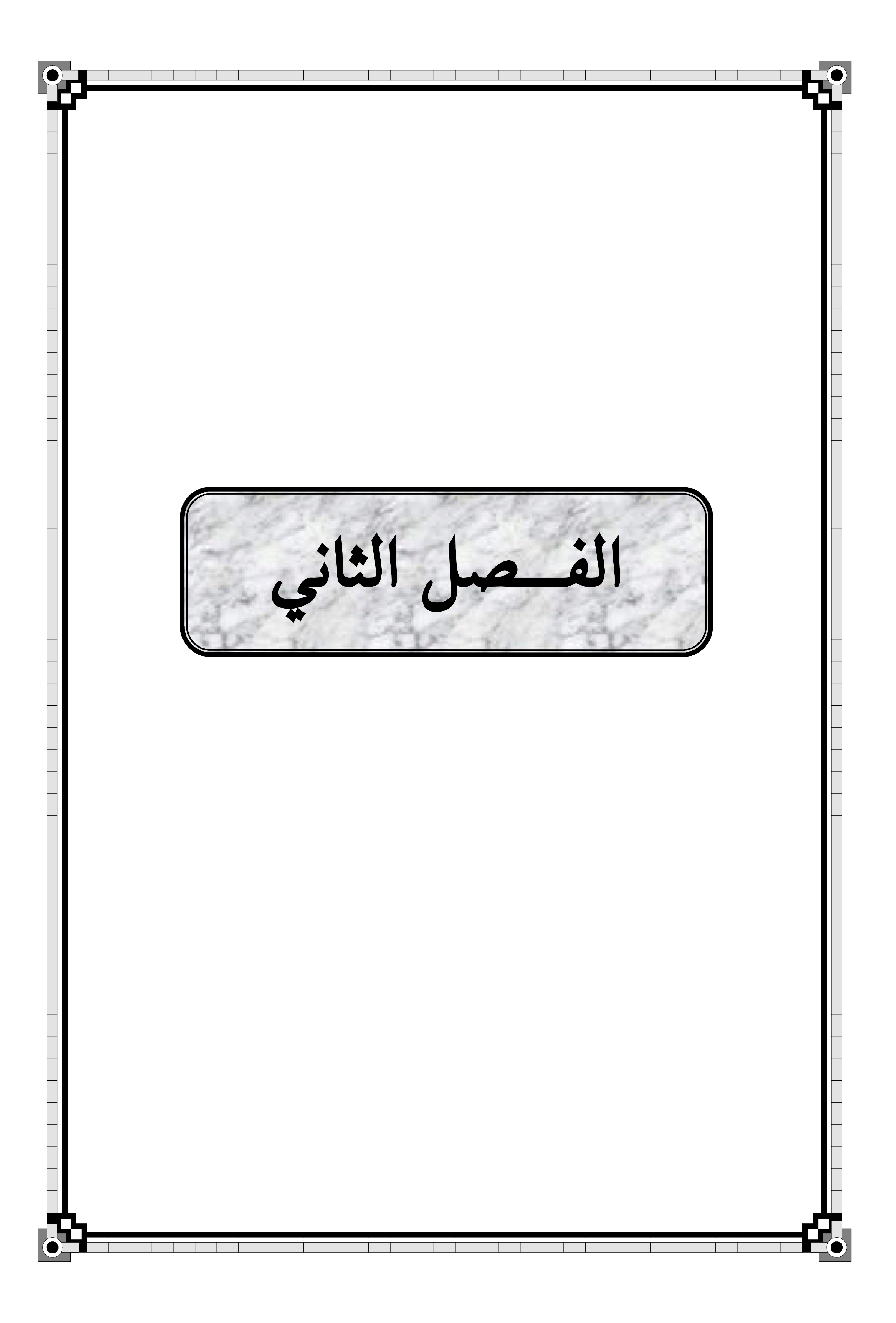
الباحثين [2] إلى الاهتمام بتحسين نوع هذا الحيوان عن طريق التلقيح، فظهر نوعان: يتميز الأول بقدرته على حمل الأثقال وقوته، فهو لذلك بطيء السير، ويمتاز الثاني بالرشاقة والخفة فهو سريع العدو، وربما عرف هذا النوع "بالمهارى" التي يشير إليها ابن حماد قائلا: "توغل ابن خزر في الصحاري فارا على المهاري" [3].

صفوة القول، تمكن سكان المغرب الأوسط من استئناس أنواع مختلفة من الحيوانات، ويعود ذلك إلى توفر جملة من الشروط الضرورية، وكانت هذه الثروة عاملا أساسيا في ازدهار عدة أنشطة اقتصادية واجتماعية، عادت بالفائدة العامة على كل أفراد المجتمع، كما ساهمت بشكل واسع في تنشيط حركة الرعي المستقر والمتنقل بالمنطقة.

[1]- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع السابق، ص528.

[2]- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص68.

[3]- تاريخ ملوك بني عبيد، ص24.



الفــصل الثاني

أولا- القبائل الرعوية ومجال انتشارها بالمغرب الأوسط

1- الوضع السياسي للمغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/ 10-11م)

2- القبائل الرعوية

ثانيا- الحركية القبلية ودوافعها

1- الصراع القبلي

2- النمط الرعوي

ثالثا- علاقة السلطة الحاكمة بالقبائل الرعوية

1- تحكم السلطة بالقبائل الرعوية

2- الضريبة والسلطة الزمنية

أولا- القبائل الرعوية ومجال انتشارها بالمغرب الأوسط

يعد الرعي وتربية الماشية من أقدم ما عرف الإنسان من مهن، وعليه قامت حياة شعوب كاملة طيلة حقبة من الزمان معتمدة على نباتات رعوية أوجدها الله سبحانه وتعالى ﴿**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾ [1]، ويؤكد الدمشقي أهمية الماشية بقوله: " تصلح لرجل له زرع ومواضع رعي إمّا في ملكه أو مستأجره ويقرّها في القرية التي زراعته فيها وله أعوان وكفاة، أو لرجل بدويّ يرحل في طلب المراعي يسكن بيوت الشعر ويستوطن البرّ وله عز من عشيرته" [2]، ومن هنا نستنتج أن الرعي نوعان: الرعي المختلط بمناطق الزراعة، ويكون صاحب القطيع هو المزارع أو صاحب الأرض، والرعي شبه الصحراوي ولا يمتهن صاحبه حرفة غيره [3]، وقد أدرك ابن خلدون هذه الحقيقة مشيرا إلى أن "اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش" [4].

وهذه الأنماط الرعوية انتشرت ببلاد المغرب الأوسط، إما عن طريق الرعي في المناطق العشبية أو المزارع التي تنتج الأعلاف، وإما عن طريق الرعي المتنقل في الأقاليم الصحراوية، وعليه لو قسمنا حرفة الرعي حسب ممارسة أصحابها لها وتحركاتهم بقطعانهم سنجد الرعاة المستقرين والرعاة الرحل.

غير أنه لا يمكن التطرق إلى أهم القبائل الرعوية بالمجال الجغرافي محل البحث، ولا العوامل المتحكمة في توزيعها بالمنطقة، دون تسليط الضوء على الوضع السياسي بها خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م، وأهم القوى السياسية التي تضاربت مصالحها ببلاد المغرب على وجه العموم، وتفاديا لأي عمل سردي يعتمد على سرد الأحداث بشكل ممل، سنعمد إلى جرد عينات لما وقع من أحداث بالمنطقة، ومن شأن هذه العينات أن تؤكد الحالة الغير مستقرة للقبائل الرعوية خلال هذه المرحلة.

---

[1]- سورة الأعلى، الآيتين 4- 5.

[2]- الإشارة إلى محاسن التجارة، ص52.

[3]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص198.

[4]- المقدمة، ص424.

1- الوضع السياسي للمغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م

إن الظروف السياسية التي مر بها المغرب الأوسط انطلاقا من أواخر القرن 3هـ/ 9م، حملت معها رياح التغيير، معلنة عن ظهور الدولة الفاطمية، مع تأثيرها بصورة جلية في أنشطة وتوزيع قبائله، لأن الأفراد لا يمكنهم أن يعيشوا بمعزل عن الأحداث المحيطة بهم، خاصة بالنسبة للبادية، علما أن هذا المجال- المغرب الأوسط- لم يكن كله تحت سلطة الدولة الرستمية، بل شاركها في هذا النفوذ إمارات أخرى، لا سيما المنطقة الشمالية الساحلية الممتدة من حمزة (البويرة الحالية) شرقا إلى وادي ملوية غربا، وهي المنطقة التي عرفت خلال القرن (3هـ/ 9م) إمارات علوية مختلفة [1]، لكن لم يكتب لهذه السلطات الاستمرار بالمنطقة.

وتجدر الإشارة أيضا إلى تفاقم الأوضاع في نهاية هذا القرن وبشكل خطير في دول المغرب، التي أصبحت تعاني من الثورات القبلية والنزاعات المذهبية والعصبية والانقسامات داخل أفراد الأسرة الحاكمة، وهذه الأوضاع ساعدت على قيام الدولة الفاطمية (296-365هـ/ 909-975م)، والقضاء نهائيا على الدولة الرستمية سنة 296هـ/ 909هـ [2]، بعد أن عمرت مائة وستا وثلاثين سنة (160- 296هـ/ 777- 909م) [3]، وبهذا دخلت بلاد المغرب مرحلة جديدة مع الفاطميين، كتغير الخارطة السياسية وما سيتبعها من انفجار القوى القبائلية البربرية؛ فامتد نفوذ الدولة الجديدة نظريا على جميع الأراضي التي شملها حكم الأغالبة، بعد أن قوض أبو عبد الله الشيعي ملكهم في سنة 296هـ/ 909م [4].

---

[1]- اليعقوبي، البلدان، صص107-109/ البكري، المصدر السابق، ج2، ص242- ص246/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص196- ص210/ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، صص376- 377.

[2]- ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص153- ص196.

[3]- الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص94.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، صص 197-198/ إسماعيل العربي، دولة بني حماد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1980م، ص44.

حتى الإمارات العلوية تمزقت، وطاردهم موسى بن أبي العافية (ت341هـ/ 953م) لما اخذ بدعوة بني أمية في الأندلس سنة [1]، متخليا عن دعوة الفاطميين [2]، وذلك سنة 319هـ/ 931م حسب ما أورده ابن عذاري [3]، وفي نفس السنة ملك ابن أبي العافية تلمسان، ومديونة، وجراوة [4]، والظاهر أن هذا الأخير كان يقوم بهذه التوسعات بتأييد من عبد الرحمن الناصر* وتشجيعه [5]، وقد حدا الخلفاء الأمويون من بعده نفس السياسة المغربية، التي تقوم على ضرورة الحفاظ على النفوذ الأموي شمال بلاد المغرب، ومصانعة أمرائه ورؤساء قبائله.

أما الفاطميون فقد اهتموا كثيرا منذ اعتلاء المهدي (297هـ/ 909م) العرش بالمغرب الأوسط الذي عمل على إخضاعه بكل ما أوتي من قوة، لأن هذا سوف يمكنهم بالضرورة من مد نفوذهم على المغرب الأقصى، لدى حرصوا على إخضاع تاهرت باعتبارها قاعدة المغرب الأوسط، والقلعة التي تُفرضُ من خلالها السلطة الفاطمية على باقي المناطق التابعة له، وكذا الحصن الذي تقاوم منه الخطر الزناتي المتكرر [6]، وقد اكتسبت تاهرت هذه الأهمية لدى الفاطميين طوال أيام تواجدهم بإفريقية وحتى بعد رحيلهم إلى مصر (361هـ/ 972م)، وهو ما يؤكده ابن خلدون قائلا: "ولم تزل تاهرت هذه ثغرا لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص194/ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص84.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص85/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص379/ بن معمر محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى من نهاية القرن الثاني إلى أواسط السادس الهجريين، شهادة دكتوراه دولة في التاريخ، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، السنة الجامعية 2001-2002م، ص125، غير منشورة.

[3]- البيان المغرب، ج1، ص199.

[4]- المصدر نفسه، ص199/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص379/ ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص1451، ج2، ص2326.

*- عبد الرحمن الناصر، توفي سنة 350هـ/ 961م. الحميدي، أبو عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون طبعة، 2008م، ص12/ الضبي، أحمد بن يحي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمان السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ص21.

[5]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص199/ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص1534/ عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص147.

[6]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، صص215- 216/ بن معمر محمد، المرجع السابق، ص108.

وتغلبت عليها زناتة مرارا" [1]، وبهذا تكون حدود الدولة الفاطمية قد شملت حسب ابن الخطيب "المغرب وإفريقية وما إليها إلى أحواز تلمسان إلى الصقلية" [2].

ويبدو أن التركيز على تاهرت كقاعدة عملياتية من طرف الفاطميين ومحاولات الزناتيين المتكررة للسيطرة عليها، قد جلب إليها المتاعب، وتغيرت أحوالها؛ حيث يصور صاحب صورة الأرض الحالة بقوله: "وقد تغيرت تيهرت عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت" [3].

ومما لا شك فيه أن الأهمية الإستراتيجية للمغرب الأوسط جعلت الفاطميين لا يركزون على تاهرت فقط، إنما أهدافهم التوسعية ومصالحهم الاقتصادية بالمنطقة دفعهم إلى إنشاء قاعدة أخرى في إقليم الزاب شرق المغرب الأوسط، وهي مدينة المسيلة، بهدف مراقبة تحركات القبائل البربرية، التي كثر خروجها على السلطة الفاطمية، خاصة بنو يفرن ومغراوة، وحتى تكون مركزا تتزود منه الجيوش الفاطمية بالإمدادات [4]، لتتبع بعدها بمدينة أخرى، وهي مدينة أشير، وقد بنيت لنفس الغرض الذي تأسست من أجله المسيلة، كما عد بناؤها على يد زيري بن مناد (ت360هـ/ 971م) كسب لحلف جديد يتمثل في التكتل الصنهاجي الشمالي في شرق المغرب الأوسط بزعامة زيري بن مناد، حتى يتسنى للفاطميين تعويض حلف كتامة الذي قامت على عاتقه الدولة، ويتمكنون من ضرب القبائل المعارضة في الجهات الغربية [5]، والموقف الفاطمي من بناء المدينة يصوره النويري قائلا: "فلما سمع القائم ببناء زيري هذه المدينة حمد الله تعالى على ذلك وقال مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر" [6].

---

[1]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2415.

[2]- أعمال الأعلام، ج3، ص319.

[3]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص93.

[4]- ابن حماد، المصدر السابق، ص25/ عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية، ص132.

[5]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص137.

[6]- نهاية الأرب- الجزء الخاص من تاريخ المغرب الإسلامي-، ص304.

وببناء هذه المدينة أصبح المغرب الأوسط يتكون من ثلاث قواعد إستراتيجية يركز من خلالها الفاطميون في بسط نفوذهم على الجهات الغربية ومراقبتها ومتابعة العصاة بها [1]، ومن الأمثلة الدالة على ذلك، الحملة التي قادها أبو الفتوح سنة 368هـ/ 979م من إفريقية في جيش ضخم وصل به "إلى فاس، واستولى عليها، وملك سجلماسة وبلاد الهبط، وطرد من جميعها عمال بني أمية، ثم رحل إلى سبتة في طلب من لجأ إليها من زناتة" [2]، كما أن مصلحة الفاطميين في قيام قاعدة لقبيلة قوية، مثل صنهاجة، يمكنهم أن يرتكزوا عليها لضمان استقرار حكمهم في المغرب الأوسط [3].

ولعل أهم ملاحظة يمكن إبداؤها حول الصراع الفاطمي الزناتي أو الصنهاجي الزناتي، هي نزوح زناتة وارتحالها إلى ما وراء وادي ملوية، بحيث صار المغرب الأوسط كله لصنهاجة، في حين عرف المغرب الأقصى تغييرا كبيرا في البنية السكانية ودخل عهدا جديدا في تاريخه [4]، وهو وهو ما يستشف من بعض النصوص التاريخية، منها إشارة صاحب البيان إلى فتح بلكين بن زيري لبلاد المغرب وأقام بها "وأهل سبتة من خائفون، وزناتة مشردون" [5]، ويكشف لنا ابن الخطيب عن أول تحركاته- بلكين- إلى المغرب "فهزم زناتة واستأصل شأفتهم، فتح معاقلهم وسبى أموالهم وذراريهم" [6].

ومما يثبت ذلك أيضا، ما ورد ذكره عند ابن خلدون قائلا: "وعقد معد- المعز- لبلكين بن زيري على حرب زناتة وأمدّه بالأموال والعساكر، وسوغه ما تغلب عليه من أعمالهم فنهض إلى المغرب سنة 361هـ/ 972م، وأوغر بالبرابرة منهم وتقرى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة وأجفلت زناتة أمامه، وتقدم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناتة ولحق بالمغرب الأقصى. واتبع بلكين آثار الخير بن محمد وقومه إلى سجلماسة، فأوقع بهم وتقبض عليهم،

---

[1]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص111.
[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص231.
[3]- إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص48.
[4]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص184.
[5]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص237.
[6]- أعمال الأعلام، ص320/ ينظر النويري، المصدر السابق، ص308 وما بعدها.

فقتله صبرا وفض جموعهم ودوخ المغرب وانكف راجعا. ومر بالمغرب الأوسط فاستلم بوادي زناتة ومن إليهم من الخصاصين، ورفع الأمان عن كل من ركب فرسا أو أنتج خيلا من سائر البربر.ونذر دماءهم، فأقفر المغرب الأوسط من زناتة وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى" [1].

والواضح من النصوص السابقة أن زناتة أصابها الكثير من الأضرار على يد القائد الصنهاجي بلكين بن زيري؛ فهو حين مر بتاهرت محا آثار زناتة من المغرب الأوسط، وأثناء عودته من المغرب الأقصى، أقفرهم من المغرب الأوسط، ولم يمنح الأمان لأي زناتي، خاصة وأنه كان يحمل غلا دفعه للثأر لمقتل والده، وطمعا فيما ملكه المعز له من أعمال زناتة.

وبالمقابل ظهر حلف زناتي بزعامة بني خزر، كان "ميلهم إلى بني أمية ونفرهم عن أضدادهم من بني عبيد الله العلوية" [2]، وبرز منهم خزر بن محمد بن خزر، "فملك جميع بلاد زناتة، وملك تلمسان وتاهرت، وجميع بلاد القبلة، وكانت بينه وبين ملوك الشيعة حروب عظيمة جهزوا إليه فيها أولياءهم من الصناهجة وقوادهم" [3]، وسار أبناء بني خزر المغراويين على نفس النهج بالولاء والطاعة لبني أمية بالأندلس، وحكموا سائر بلاد زناتة بدعوة الأمويين، وهذا ما أدخلهم في صراع مستمر مع صنهاجة [4].

ولا غرابة في أن يتبع بنو يفرن طريق إخوانه من مغراوة في تقديم الولاء لبني أمية بالأندلس، ويذكر ابن الخطيب منهم: الأمير يعلى بن محمد اليفرني (ت347هـ/ 958م)، الذي ملك "مدينة تاهرت، والمسيلة، وتلمسان، ومدينة البصرة من المغرب، وكان متمسكا بدعوة بني أمية" [5]، وقام بالأمر من بعده يدّو بن يعلى بن محمد اليفرني (ت381هـ/ 991م)، ملك الكثير

---

[1]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2442.

[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص358/ ينظر ابن عذاري، المصدر السابق، ص155- ص189 وما بعدها/ ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص1486.

[3]- ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص359

[4]- الإيلاني، المصدر السابق، ص107/ ابن الخطيب، نفسه، صص359-362.

[5]- ابن الخطيب، نفسه، ص364/ ينظر ابن أبي زرع، المصدر السابق، صص89-90/ ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص1456.

الكثير من بوادي زناتة، غير أن هذا جعله في مواجهة مع زيري بن عطية*، ودارت بينهم حروب عظيمة [1]، هلك فيها خلق كثير من القبيلتين مغراوة وبني يفرن [2]، وفي سنة 389هـ/ 999م بلغ زيري بن عطية الاضطرابات التي وقعت ببلاد صنهاجة، فاغتنم الفرصة وبعث "إلى قبائل زناتة فأتى منهم خلق كثير من مغراوة وغيرهم... وزحف بهم إلى صنهاجة، فأوغل في بلادهم وهزم جيوشهم، ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب، فملك ذلك مع تلمسان وشلف والمسيلة، وأقام بها الدعوة المؤيدية (المؤيد)، وحاصر مدينة أشير قاعدة بلاد صنهاجة" [3].

ومن الواضح أن الحكام الأمويين بالأندلس لم ترضهم التوسعات الفاطمية على حساب أراضي القبائل البربرية، في المغربين الأوسط والأقصى، لذا استعملوا نفس السلاح الذي استعمله الخلفاء الفاطميين أول الأمر، وهو النشاط الدعائي والثقافي [4]، ليعتمدوا بعدها على سياسة اصطناع رؤساء القبائل المغربية، خاصة الزناتية [5]، وهو ما يكشفه صاحب مفاخر البربر بقوله: "وتخطاهم عبد الرحمن (350هـ/ 961م) إلى من خالفهم من زعماء قبائل البربر يستألفهم، ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، مسدا لمن عجز برجاله، مقويا لمن ضعف بماله، متفقدا لهم في سائر الحالات بألطافه، متعهدا بوجوه رسله وخواصه إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه وارتسموا بطاعته" [6].

في الواقع مثلت القبائل البربرية حجر الشطرنج الذي يحركه الخصمان (الفاطميون والأمويون) كل حسب طريقته التي تمكنه من الفوز، مع استعمال مختلف الأساليب، على أن لا تضيع مصالحهم بالمنطقة، وهو الواضح من خلال استعداد أبي الفتوح للخروج على رأس ألف

*- زيري بن عطية، دعا لهشام المؤيد وحاجبه ابن أبي عامر، ملك مدينة فاس، وجميع بوادي المغرب، توفي سنة391هـ/ 1001م. ابن الخطيب، المصدر السابق، صص360-362.

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، صص104/ ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص364.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص105.

[3]- المصدر نفسه، ص107/ النويري، المصدر السابق، ص325.

[4]- عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية، صص134-137.

[5]- المرجع نفسه، ص139.

[6]-الإيلاني، المصدر السابق، ص106.

فارس إلى جهة الغرب بأمر من الخليفة في مصر، بسبب تغلب بني أمية أمراء الأندلس على بلاد الغرب، والدعاء لهم في المنابر [1]، ومن ثم أمكن تلخيص الصراع الفاطمي الأموي من خلال نص الإيلاني: "وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها، ووقائع يبعد تقصيها، هلك باختلافها من ملوك الدعوتين وزعماء الطائفتين جماعة" [2].

ولما عزم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله على الرحيل إلى مصر، ترك أمر المغرب إلى بلكين بن يوسف بن زيري، هذا المجال الذي أفقرته الحملات الفاطمية من زناتة، خصوصا حملة بلكين في أواخر سنة 360هـ/ 971م وأوائل 361هـ/ 972م، وأصبح المغرب تحت سلطة بني زيري الصنهاجيين ممثلي الفاطميين، وسيتعاقب على حكمه وحكم إفريقية خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 361هـ/ 972م تاريخ رحيل الفاطميين، وسنة 408هـ/ 1018م تاريخ قيام الحماديين، ثلاثة من أمراء بني زيري بلكين (361- 373هـ)، وابنه المنصور (374-386هـ) وحفيده باديس (386-406هـ) [3] الذي "ضايقه أعمامه وأعمام أبيه فلم يعطهم الدنية، ووقعت بينهم حروب قتل عم أبيه ماكسن بن زيري بن مناد... " [4].

أما الفترة الحمادية فلم تختلف عن غيرها من الفترات؛ إذ يذهب أحد الباحثين [5] إلى القول القول إن شأن حماد عظم بعد أن أخمد ثورة إخوته بقسوة ووحشية، وبعد أن قام ببناء مدينة القلعة، وأصبح السيد الفعلي للمغرب الأوسط، وكان باديس قد قام باختبار حماد في أمور أنكرها عنه؛ فكتب إليه سنة 405هـ/ 1015م يأمره برفع يده عما حازه من الأعمال، فامتنع حماد وساء ما بينهما، وكان بين باديس والعم حماد أهوال وحروب مبيدة [6]، ويمكن اعتبار اتفاق اتفاق شهر شعبان سنة 408هـ/ 1018م والصلح المبرم بين المعز وحماد بمثابة وثيقة تأسيس

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص238.

[2]- مفاخر البربر، ص106.

[3]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص186.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص210.

[5]- إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص97.

[6]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص322/ ينظر ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص261/ النويري، المصدر السابق، صص329-330.

الدولة الحمادية المستقلة في المغرب الأوسط، ولأن الدولة الزيرية أصبحت منذ ذلك التاريخ منقسمة إلى فرعين: فرع دولة المنصور بن بلكين وأحفاده أصحاب القيروان، وفرع دولة حماد بن بلكين وأحفاده في القلعة بالمغرب الأوسط [1].

لتبرز مرحلة جديدة من تاريخ المغرب بظهور دولة المرابطين؛ فعندما استلم يوسف بن تاشفين (ت500هـ/ 1107م) السلطة من ابن عمه أبي بكر بن عمر سنة 453هـ/ 1061م، لم تكن الجهات الشمالية والشرقية من المغرب الأقصى قد خضعت بعد لسلطة المرابطين، فكان عليه أن يتولى مهمة إتمام هذا الفتح، وهي المهمة التي أداها الأمير المرابطي بنجاح حيث استطاع أن يضرب على فاس الحصار الأول سنة 455هـ/ 1063م، ويتوغل في بلاد غمارة وبلاد فازاز، ودخلت في طاعته مدائن مكناسة، وركز في حملاته العسكرية على عاصمة المغرب الأقصى آنذاك وأم مدنه فاس التي ضرب عليها الحصار الثاني سنة 460هـ/ 1068م، ولم ينجح في فتحها نهائيا إلا في سنة 462هـ/ 1061م [2]، ويكشف لنا ابن خلدون أن زناتة لقيت نفس المصير مع المرابطين بقوله: "ثم صرف (بعد 454هـ/ 1062م) عزمه إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب، وجذب الحبل من أيديهم، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم، فقد كانوا من ذلك على ألم" [3].

وبعد فتح فاس وبعض المدن من المغرب الأقصى، وقبل إخضاع مدنه الشمالية والشرقية توجه الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين إلى غرب المغرب الأوسط حيث القاعدة الزناتية تلمسان الخاضعة لسلطة أبي يعلى المغراويين [4]، وكانت هذه الإمارة المغراوية تتعرض من حين حين لآخر إلى هجمات أمراء بني حماد فتقاومهم تارة، وتصالحهم تارة أخرى، وجهز في سنة 472هـ/ 1080م حملة عسكرية تتألف من عشرين ألف مرابطي أسند قيادتها للأمير أبي محمد

[1]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص230.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، صص139-141/ ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2466.

[3]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص2466.

[4]- ابن أبي زرع،المصدر السابق، ص143.

*- أبو محمد مزدلي بن سلكان، قائد مرابطي، تقلب في مختلف المناصب العسكرية والإدارية بالأندلس، ويصف ابن عذاري=

مزدلي* الذي توجه إلى تلمسان فدخلها وظفر بابن أميرها المغراوي يعلى بـن العبـاس بـن بختـي بن يعلى بن محمد ين خزر فقتله ثم عاد أدراجه إلى مراكش في نفس السـنة [1]، والظـاهر أن هـذه الحملة كانت خاطفة تهدف إلى ضرب التجمع الزناتي [2].

بعد فتح تلمسان اختطت بالجانب الغربي منها مدينـة جديـدة سميـت تـاجرارت، فغـدت بذلك تلمسان قاعدة عسكرية مرابطية وثغرا لملك المرابطين [3]، ليتوجه بعدها نحو الشرق فاستولى على وهران ثم تنس، كما أخضع أهالي جبال وانشريس واحتل منطقـة الشـلف وأنهـى جولتـه العسكرية هاته التي استغرقت سنة 474هــ/ 1082م كلـها بالاسـتيلاء علـى مدينـة جزائـر بـن مزغنة ، ثم قفل راجعا إلى مراكش [4].

ومما يلفت الانتباه في حركة التوسع المرابطي بأراضي المغرب الأوسـط هـو توقـف الأمـير المرابطي يوسف ين تاشفين عند مدينة جزائر بن مزغنة بالذات، لأن الأراضي التي استولى عليهـا كانت مجالا زناتيا، و مدينة جزائر بن مزغنة كانت تمثل بداية مضارب القبائل الصنهاجية، ولعـل الأمير المرابطي باعتباره من صنهاجة الجنوب راعى القرابة العرقية بينه وبين الحماديين وهـم مـن صنهاجة الشمال، فلم يدخل معهم في صراع [5]، عموما، تحـول المغـرب الأوسـط بعـد فتحـه إلى ولاية مرابطية قاعدتها تلمسان التي تداول عليها مجموعة من الولاة المرابطين، وظل الأمر كـذلك حتى سقوط دولة المرابطين على يد الموحدين [6].

وتتبعا لأحداث المنطقة اقتحم المرابطون فيما بين سنتي 490-495هـ/ 1097م-1102م مدينة أشير قاعدة الصنهاجيين الأولى [7]، وهنا أدرك المنصـور الحمـادي (481هــ/ 1088م) أنـه

=حنكته وبراعته قائلا: "وكان حسن السياسة صحيح المذهب عارفا بخدمة الملوك"، المصدر السابق، ج4، ص26.

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص143/ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2467.

[2]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص2467/ بن معمر محمد، المرجع السابق، ص255.

[3]-ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، صص2466- 2467.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص143/ ابن خلدون، المصدر نفسه، ص2467/ بن معمر محمد، المرجع السابق، ص259.

[5]- عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المـرابطين، دار النهضـة العربيـة، بـيروت، ط1، 1985م، ص52.

[6]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص260.

[7]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2459.

لابد من القيام بعمل حاسم يحد من أطماع المرابطين التوسعية في بلاده، فنهض إليهم بنفسه في جيوش عظيمة اشتملت على اثنتى عشرة محلة بتعبير ابن الخطيب [1]، وعلى عشرين ألف جندي حسب تقدير ابن خلدون [2]، وتكون هذا الجيش من صنهاجة، والعرب (الأثبج وزغبة وربيعة)، ومن زناتة؛ فانطلق المنصور على رأس هذه القوات في شوال سنة 496هـ/ 1103م يروم مدينة تلمسان قاعدة المرابطين وثغر ملكهم بالمغرب الأوسط ومصدر قلق الدولة الحمادية، وحقق انتصاره على والي المرابطين بها، ودخل الجيش المدينة وشرع في نهبها [3]، ولم يتم خروجه من المدينة إلا بعد إبرام صلح بين الطرفين سنة 497هـ/ 1104م، وهو ما يؤكده ابن الخطيب بقوله: "ونازل المنصور تلمسان وأقلع عنها صلحا" [4]، ويثبته ابن خلدون من بعده [5].

إن الفترة الممتدة ما بين 487- 497هـ/ 1094-1104م اتسمت باضطرابات ومناوشات بين المرابطين والحماديين؛ حيث أن يوسف بن تاشفين كان يسعى إلى تهدئة الأوضاع مع جيرانه الشرقيين (الحماديون) حتى لا ينشغل عن أعدائه الحقيقيين وهم نصارى الأندلس [6]، وإذا كان وصول الأمير المرابطي إلى جزائر بني مزغنة يعتبر توسعا توسعا على حساب بني حماد في المغرب الأوسط، فإن زعماء وساسة ذلك العصر لم يكونوا يضعون في الحسبان الاعتبارات والحدود والفواصل، ولا أي فرق من أي نوع كان بين سكان المغرب الأوسط وسكان المغرب الأقصى وإفريقية، وقد انتهج المرابطون نفس السياسة التي اتبعت من قبل الفاطميين وخلفائهم من بني زيري انطلاقا من المهدية، وكذلك الأمويون من قرطبة، واستغرقوا ثلاثين سنة (445-475هـ/ 1054-1083م) من أجل إخضاع المغربين، لأنهم قاوموا كيانات متعددة

[1]- أعمال الأعلام، ج3، ص97/ بن معمر محمد، المرجع السابق، ص264
[2]- تاريخ ابن خلدون، ص2459.
[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2469.
[4]- أعمال الأعلام، ج3، ص97.
[5]- تاريخ ابن خلدون، ص2469.
[6]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص266.

وواجهوا فوضى سياسية عارمة [1]، والصلح الذي أبرم بين الدولتين سنة 497هـ/ 1104م وضع حدا لتلك الأزمة وفتح عهدا جديدا بينهما اتسم بالهدوء والسلم وحسن الجوار واستمر حتى قيام الموحدين [2].

من خلال استقراء مضامين النصوص التاريخية المختلفة، يتضح لنا أن الوضع الأمني بالمغرب الأوسط لم يعرف استقرارا كاملا، مما يعني غياب السياسة الأمنية بالمنطقة على امتداد هذه المرحلة (4-5هـ/ 10-11م)، الأمر الذي زاد من حدة التوتر السياسي والعسكري في المنطقة، وتعرض الكثير من الأفراد خلالها لحالات من العيث والتخريب والنهب، وإلى حركية جبرية صوب مناطق أخرى أكثر أمنا، لكن وفي إطار دراسة موضوع نظام الرعي بهذه المنطقة سنجد صعوبة في ضبط خريطة القبائل الرعوية، خاصة الرحل منهم.

2- القبائل الرعوية

أ- المستقرون

شكل النظام القبلي [3] أساس البنية الاجتماعية والسياسية للمغرب الأوسط، وعمرته القبائل البربرية كباقي المناطق المجاورة له، والتي اتسمت بتشعب وتعدد بطونها؛ إذ "لا يُلحق عددهم ولا يُوقف على آخرهم، لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البراري وتبددهم في الصحاري... والمال فيهم من الماشية كثير غزير" [4]، ومن خلال استقراء مضامين بعض المصنفات التاريخية يتأكد لنا

[1]- المرجع نفسه، صص302- 303.

[2]- بن معمر محمد، المر جع السابق، ص271.

[3]- هناك العديد من الأبحاث والدراسات التي اهتمت بموضوع القبيلة نذكر منها: محمد مجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،ط1، 2002م، ص108/ محماد لطيف، بنية الأسرة البدوية وخصائصها في المغرب الأقصى خلال القرنين 8و9هـ/ 14و15م، ضمن منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية تحت عنوان "الأسرة البدوية في تاريخ المغرب"، سلسلة ندوات ومناظرات رقم2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، 2006، ص50/ هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص317/ د.عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، دراسة فلسفية واجتماعية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، صص264- 265/ محمد حسن، المرجع السابق، ص20.

[4]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص97.

لنا اختلاف نمط العيش لدى أفراد المجتمع بالمغرب الأوسط، وهو ما يبرزه ابن الصغير من خلال تقسيمه لمجتمع تاهرت إلى "أهل الحواجر والبوادي" [1]، والتقسيم نفسه يظهر في وصية المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ/ 953-976م) إلى بلكين بن زيري (372هـ/ 983م) قائلا: "لا ترفع الجباية عن أهل البادية... واستوص بالحضر خيرا" [2]، حتى الجهات المجالية الجغرافية التي يعيش فيها كل صنف من هذه الأصناف شمله الاختلاف والتباين، ما بين مناطق تحقق الاستقرار ولو كانت ظاهرة الرعي فيها محدودة، ومناطق تقتضي التنقل والترحال المتواصل [3].

كما تفصح بعض المصنفات الجغرافية [4] الهامة بالنسبة للمرحلة(4- 5هـ/ 10-11م) عن أهم القبائل البربرية التي استقرت بالمنطقة، خاصة وأن بعض المؤلفين تمكنوا من زيارتها، أو كتبوا معلوماتهم اعتمادا على مصادر ووثائق هامة بحكم منصبهم، ليكون فيما بعد ما دونه ابن خلدون حول توزيع القبائل البربرية بالمغرب الأوسط مكملا للمؤلفات السابقة الذكر، خاصة فيما تعلق بنمط عيش القبيلة البربرية، غير أن الفترة الزمنية التي عاصرها المؤلف كانت بعيدة، يضاف إلى ذلك تغير الخريطة البشرية على طول الفترة الوسيطة، نتيجة الحركية المستمرة للقبائل بسبب الضغوطات المفروضة عليها، لاسيما في فترة الاضطرابات والفوضى، أو لطبيعة عيشها المعتمدة على الترحال والتنقل، وهو ما استنبطناه من مُؤَلَّفِ ابن خلدون.

والظاهر أن قبائل هذا الحيز الجغرافي كغيرها من القبائل المستقرة ببلاد المغرب، "أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر" [5]، وبالاعتماد على اليعقوبي من خلال كتابه "البلدان"، باعتباره وثيقة وصفية معاصرة لبداية القرن 4هـ/ 10م، يمكن وضع قائمة بأسماء

[1]- أخبار الأئمة الرستميين، ص62.

[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص320. يفيدنا النويري بالنص نفسه غير أنه يذكر عبارة "واستوصى بأبي مضر خيرا" بدلا من "واستوص بالحضر خيرا ". المصدر السابق، ص311.

[3]- هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري- منتصف القرن العاشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دون طبعة، 1995م، ص266.

[4]- اليعقوبي، كتاب البلدان، ابن حوقل، صورة الأرض، البكري، المسالك والممالك.

[5]- ابن خلدون، المقدمة، ص182.

بعض القبائل التي اهتم بها في الطريق الذي عبره في المغرب الأوسط من الزاب إلى تاهرت ثم إلى تلمسان، مع وضع مقارنة هامة بما ورد لدى ابن حوقل والبكري، وغيرهم من المؤلفين، وتشمل ما يلي:

***جدول (02) يمثل بعض القبائل الرعوية بالمغرب الأوسط من خلال كتاب البلدان لليعقوبي**

القبيلة	الموطن	الحلف	ملاحظات	المصدر
هوارة	الجبل- يلل		لمملكتهم مزارع، وقرى، وعمارات، وزرع، وأشجار	اليعقوبي، البلدان، ص111
بنو برزال		زناتة		المصدر نفسه، ص108
بنو يرنيان	هاز	زناتة		نفسه، ص108
صنهاجة- زواوة	في مدن بعد مدينة هاز		بربر برانس، أصحاب زرع وضرع	نفسه، ص108
بنو دمر	على مرحلة من مدينة هاز	زناتة	بربر زرع وضرع	نفسه، ص109
مطماطة	ايزرج- فالوسن	زناتة		نفسه، ص112
مكناسة	تلمسان	زناتة		نفسه، ص112
ترجة- جزولة- صنهاجة- أنجفة- ابجره	فالوسن			نفسه، ص112

إذن، الرعي وتربية الحيوانات شكلا جزءا هاما من النشاط الريفي الزراعي المغربي، ويقوم أفراده بنشاطات أخرى إلى جانب الرعي، والمتمثلة غالبا في الزراعة، وهي الصفة المنتشرة تقريبا في المناطق الشمالية من المغرب الأوسط، وكثيرا ما وصفت أنها ذات "زرع وضرع" و"مزارع

ومسارح"، حسب ما ورد في الجدول، وهو ما تؤكده مصادر أخرى؛ فمدينة متيجة مثلا كانت على نهر كبير، ومزارع ومسارح [1]، وتلمسان "خزانة زرع، ومسرح ضرع" [2].

وفي هذه الحالة يمارس الرعاة عملهم أحيانا في الأراضي الزراعية، وذلك بعد عملية الحصاد لتنظيف الأرض، أي لا يبتعدون في طلب المراعي ولا يتجاوزون في الغالب حدود قراهم، وقد يبتعد الرجل منهم بماشيته منفردا [3]، أي عُرِفوا بالاستقرار مع نزول معظمهم في المناطق الساحلية القريبة من البحر والجبلية الممتدة عبر المغرب، وهذه المناطق تطيب فيها التربة وتكثر الأمطار، وتكون الزراعة فيها ميسورة والحياة مستقرة [4].

وبالمقابل، يؤكد ابن خلدون أن هذا النوع من القبائل "يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر" [5]، هذا النوع من البيوت يخبرنا عنه ابن حماد قائلا أنّ المنصور الفاطمي (334هـ/ 945م) أحرق "أخصاصا كثيرة لأصحاب أبي يزيد"، وتذكر بعض المصادر الاباضية تواجد الأخصاص في ضواحي تاهرت، من خلال زيارة أيوب بن العباس* للمعتزلة "فانزلوه في خص ورحبوا به" [6]؛ إذن المستقرون ليسوا أهل المدن فقط، إنما استقر بعضهم المدن، المدن، والبعض الآخر سكن البادية أو ما يطلق عليه اسم "القرية"، واختلفوا عن القبائل الرحل أو الظواعن في درجة التحضر التي وصلوها بفضل استقرارهم، وعيشهم في الأرياف والقرى يعود لاتساعها لما لا تتسع له الحواضر من المزارع والمسارح للحيوان وغير ذلك [7].

---

[1]- المقدسي، المصدر سابق، ص228/ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1984م ، ص523.

[2]- المقري، المصدر السابق، ج7، ص135.

[3]- المازوني، المصدر السابق، ص220.

[4]- محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص110/

/Gautier, le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscures, Payot, paris, 1973, p224.

طاهر بخدة، التحركات والهجرات القبلية في المغرب الأوسط خلال القرنيين 4- 5هـ/ 10- 11م، شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم العلوم الإنسانية، جامعة معسكر، السنة الجامعية 2010- 2011م، ص35، غير منشورة.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2387.

[6]- الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص63/ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص285.

[7]- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع السابق، ص528.

ويتجلى من خلال استقراء مضامين عدد من المصنفات الجغرافية تمركز هاته القبائل حول أهم المدن بالمغرب الأوسط، وفي الواقع هم حلقة وصل بين الظواعن وأهل الحواجر، ويميل أحد الباحثين [1] إلى القول إن أساس التقسيم يكون على نمط السكن، وهو المقصود بعبارة "أهل الحواجر" التي ذكرها ابن الصغير [2]، والتي يقصد بها هؤلاء الناس الذين يسكنون في بيوت من الحجر أي في المدن.

وتظل أبرز القبائل المستقرة هنا قبيلة "**صنهاجة الشمال**"، التي كانت لها مواطن بالمغرب الأوسط؛ حيث سكنوا البسائط وبعض الجبال فيما يقرب الساحل، أي كانوا مستقرين، وامتدت مواطنهم من المسيلة إلى حمزة إلى الجزائر والمدية ومليانة، وتاهرت [3]، أما عن مناطق انتشارها خلال فترة البحث يمكن معرفتها من خلال استقراء مضامين عدد من المؤلفات الجغرافية، من ذلك ما يفيدنا به اليعقوبي حول مدينة فالوسن قائلا: "وهي مدينة عظيمة، أهلها بطون البربر من مطماطة، وترجة وجزولة، وصنهاجة، وأبجره" [4]، ويضيف المؤلف نفسه أنه بعد مدينة هاز مدن "سكانها صنهاجة، وزواوة يعرفون بالبرانس، وهم أصحاب عمارة، وزرع وضرع" [5]، وحسب ابن الخطيب كان يسكن القلعة "من فرسان صنهاجة اثنا عشرة ألف فارس" [6].

إذن، صنهاجة كان لها بطون كثيرة يكشفها لنا ابن خلدون قائلا: "هذا القبيل من أوفر قبائل البربر، وهو أكثر أهل المغرب لهذا العهد وما قبله لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم من أمم البربر" [7]، أما الاصطخري فيشير إلى أن "سائر البربر الذين هم من البرانس

---

[1]- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ص250.

[2]- أخبار الأئمة الرستميين، ص62.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، م2، ص1864، ص2398/ الناصري السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص176/ محمد حسن، القبائل والأرياف، ص23/ Golvin. L, op. cit, p23

[4]- البلدان، ص112.

[5]- المصدر نفسه، ص108.

[6]- أعمال الأعلام، ص332.

[7]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2439/ موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية- منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1979م، ص80.

فمفترشون في سائر المغرب من شرقي بحر الروم" [1]، ويقدر أحد الباحثين [2] عددها بسبعين فرعا، وبهذا تكون صنهاجة قد شملت مدنا عدة بالمغرب الأوسط كأشير وجزائر بني مزغنة، المدية، متيجة ومليانة، ثم حمزة والمسيلة، ويضاف إليها المراكز والقرى الصغيرة المنتشرة بين هذه الحواضر.

وكان لهذا القبيل بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين، والأخرى دولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس [3]، وتفيدنا إحدى الدراسات الحديثة [4] المهتمة بتاريخ المغرب الأوسط إلى أنّ أشهر أشهر قبائل صنهاجة بالمنطقة الشمالية هي "تلكاتة"، وهي حقيقة يؤكدها ابن خلدون بقوله: "وكان الملك في صنهاجة في طبقتين: الطبقة الأولى تلكاتة (أهل مدر) ملوك إفريقية والأندلس، والثانية مسوفة ولمتونة من الملثمين (أهل وبر) ملوك المغرب المسمون المرابطين" [5]، وكان لهم مشاركة عسكرية إلى جانب جيش حماد سنة 389هـ/ 999م ضد زيري بن عطية [6].

ومن مجموعة القبائل المستقرة، **"قبيلة كتامة"**، ارتحل منهم أعداد مع المعز صوب مصر، وبقي آخرون بجبل أوراس وجوانبه من البسائط وكلهم رعايا معبدون للمغارم إلاّ من اعتصم بفتنة الجبل [7]، ويكشف لنا البكري عن مواطن استقرارهم قائلا: "ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطيلة، وهي لقبائل من كتامة" [8]، ويضيف الإدريسي إلى أن عمارة هذه قبيلة تمتد إلى "أن تجاوز أرض القل

---

[1]- الاصطخري، المصدر السابق، ص44.

[2]- الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية- تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م، ج1، ص36.

[3]- الناصري السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص176.

[4]- Golvin. L, op, cit, p24

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2440.

[6]- النويري، المصدر السابق، ص325.

[7]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2437.

[8]- المسالك والممالك، ج2، ص245.

وبونـة" [1]، أمـا ابـن خلـدون فيـوطن قبيلـة كتامـة بقولـه: "وتشـعبوا في المغـرب وانبثـوا في نواحيـه إلاّ أن جمهـورهم كـانوا لأول الملـة بعـد تهيـيج الـرّدة وطيخـة تلـك الفـتن مـواطنين بأريـاف قسـنطينة إلى تخـوم بجايـة غربـا إلى جبـل أوراس مـن ناحيـة القبلـة" [2]، غـير أن هـذا هـذا التحديـد يـترك الحـد الشـرقي لمدينـة كتامـة دون توضـيح [3]، ويبقـى الطـابع الغالـب على أرض كتامة البيئة الجبلية في مجموعها [4].

ومن بطون كتامة نـذكر "زواوة"، صـنفهم اليعقـوبي مـن أصـحاب الـزرع والضـرع إلى جانب صنهاجة بعد مدينة هاز [5]، ويشير الإدريسـي إلى أنهـم مـن القبائـل الـتي اسـتقرت بجبـل وانشريس [6]، أما ابن خلدون فيفيد بأنها أكبر بطـون البربـر، ويـوطنهم مـن بجايـة إلى تـدلس في جبال شاهقة وأوعار متسنمة، ويضيف أن مواطنهم متصلة بمواطن كتامة [7].

ومن المستقرين حسب ما ورد لدى اليعقوبي من خلال الجدول أعلاه، هوارة، ولهـا بطـون حسب المؤلف نفسه في منطقـة الأوراس [8]، ويصـنفهم ابـن خلـدون ضـمن بطـون الـبرانس [9]، وكانت لهم مواطن بتاهرت في قرارات إلى جانب لواتة [10]، واستقر البعض مـنهم بـالقرب مـن مدينة الغدير "في ستين ألفا" [11]، وكانت لهم مواطن أيضا بالقرب من مدينة المدية [12]، أما نمـط عيشهم فيعرفنا به ابن خلدون بقوله: "ومن قبائل هوارة أمم كثيرة في مواطن من أعمـال تعـرف

[1]- نزهة المشتاق، م1، ص269.

[2]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2436.

[3]- موسى لقبال، المرجع السابق، ص98.

[4]- المرجع نفسه، صص98-100.

[5]- البلدان، ص108.

[6]- نزهة المشتاق، م1، ص253.

[7]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2439.

[8]- البلدان، ص111.

[9]- تاريخ ابن خلدون، ص2428.

[10]- البكري، المصدر السابق، ص249/ ابن خلدون، المصدر نفسه، ص2430.

[11]- البكري، المصدر نفسه، ج2، ص240، ص258.

[12]- F. Pharaon, notes sur les tribus de la subdivision de Médéa, revue africaine, volume1, Année 1856, p393

بهم، وظواعن عن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها، وقد صاروا عبيدا للمغارم في كـل ناحيـة. وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسـبب الكثـرة، وصـاروا إلى الافـتراق في الأودية بسبب القلة" [1]، وربما هذا مـا جعـل **Gautier** [2] يصـنفهم ضـمن قبائـل الـبتر الـذين عرفوا بالترحال، لكن دون أن يوضح المصدر الذي اعتمده في هذا الرأي.

إذن، بحكم تنوع المجال الجغرافي الذي وجدوا فيـه كـان مـنهم الظـواعن والآهلـين [3]، أي يوجد داخل القبيلة أسلوبان للحياة الاجتماعية، وربما يعود هذا التعود إلى ما أقـدم عليـه هـؤلاء من مساندتهم لأبي يزيد، وبعد هلاكه أثخن المنصور الفاطمي فيهم وعوقبـوا علـى ذلـك [4]، أي تنوعت أنماط عيشهم، وكذا مواقفهم السياسية والمذهبية، وحتى مـواقفهم الولائيـة، فهـم رحـل ومستقرون، وخوارج وشيعة وسنة، وتجار في حركة القوافل [5].

ومن قبائل المنطقة التي لم يذكرها اليعقوبي، أزداجة (يزداجة)، وضمت هي الأخرى بطونـا كثيرة، من أشهرها بني مسقن [6] ومسطاسة [7]، ولهم أيضا قصر ابن سنان الأزداجـي بـالقرب مـن من يلل [8]، أما وضع القبيلة خلال القرن 4هـ/ 10م فيوضحه ابن حوقل بقوله : "وهم في وقتنـا وقتنا هذا في ضمن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي خليفة صاحب المغرب" [9]، وقام هـؤلاء

---

[1]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2432.

[2]- le passé de l’Afrique, op.cit. p215.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2430.

[4]- المصدر نفسه، ص2431.

[5]- نفسه، ص2431 وما بعدها/ هاشم العلوي، المرجع السابق، ص84/ محمد حسن، القبائل والأرياف، ص82/ موسى لقبال، المرجع السابق، ص75.

[6]- البكري، المصدر السابق، ص252/ يذكرهم المشرفي باسم "مسرقين"، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دون دار نشر، دون طبعة، دون تاريخ، ص12.

[7]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2433.

[8]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص327/ موسى لقبال، المرجع السابق، ص69.

[9]- صورة الأرض، ص79.

هؤلاء بدور كبير في حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين [1]، ولا يزال هناك بقايا لبني مسقن مسقن إلى يومنا هذا بالناحية الغربية لمدينة وهران [2].

كما يرى الباحث إبراهيم بحاز أنه من المحتمل جدّا أن بعض القبائل البربرية البترية تحولت خلال الحكم الرستمي للبلاد إلى قبائل شبه مستقرة، مرتبطة بالأرض، تسكن المدن أو أحوازها، وتمارس الزراعة إلى جانب الرعي، وقد يكون النشاط الرعوي محدودا بحيث لا يؤدي إلى التنقل من مكان إلى آخر، وإنما هو رعي مقيد بمكان [3]، ولعل هذا ما يؤكد رواية ابن الصغير حول انتشار القبائل حول تاهرت، بقوله: "وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم" [4]، ويوضح المؤلف نفسه [5] في صفحة أخرى أن القبائل المنتشرة حول المدينة اكتسبت اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول، ومن ثم تبقى مسألة نعت القبائل الصنهاجية بالاستقرار، والقبائل الزناتية بالبداوة والترحال نسبية قابلة للاعتراض والجدل، خاصة أمام الظروف التي مرت بها كل قبيلة.

ب- الرحل

شكل الرعي نمطا حياتيا تحكمت فيه ثلاثة أسس رئيسية هي: "الحيوان" ويعد الملكية الخاصة الوحيدة، والكلأ، إلى جانب "القبلية" كتنظيم اجتماعي، وتجدر الإشارة إلى أن هذه العناصر الثلاثة مثَّلت إستراتيجية للتفاعل مع كل من المحيط الطبيعي والفضاء الاجتماعي؛ فالأول تميز أساسا بطغيان الجفاف، وعدم انتظام الأمطار، أما الثاني فقد اتسم بظهور النزاعات والحروب بين المجموعات القبلية [6]، وهنا يشكل المكان أو الأرض المحور الرئيسي الذي انتظمت

---

[1]- موسى لقبال، المرجع السابق، ص68.

[2]- بهلولي سليمان، الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط (173-342هـ/ 789-954م) وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، ط1، 2011م، ص211.

[3]- الدولة الرستمية (160-296هـ/ 777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات ألفا، الجزائر، ط3، 2010م، ص196.

[4]- أخبار الأئمة الرستميين ، ص62.

[5]- المصدر نفسه، ص63.

[6]- محمد بالراشد، الرعي من نمط حياتي إلى حرفة رجالية، حالة الظّاهر التونسي، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة، الجمهورية التونسية، السنة26، العدد121، جانفي2001م، ص27.

انتظمت عليه العلاقات الاجتماعية داخل القبيلة، ومحور التحامها؛ فعليها تقام الفواصل بين الجماعات القبلية عن طريق علاقات القرابة والتحالف أو الانشقاق، وفضلا عن ذلك، فهي وسيلة الإنتاج الرئيسية لبعض القبائل، والمجال الحيوي الذي يوفر لبعضها الآخر ما يتطلبه تنقلها وترحالها [1].

وفي الواقع هذا الوضع ما هو إلاّ امتداد لنظام قديم عرفه سكان بلاد المغرب؛ بحيث كانوا ينتقلون بقطعانهم من الصحراء إلى المناطق القريبة من السواحل والأكثر خصوبة، منهم قبائل الجيتول التي شكلت خطرا على السلطة الرومانية باقتحامها للأراضي الزراعية [2]، ويري البشير شنيتي أن ظاهرة البداوة هاته كما يسميها "ظاهرة طبيعية حتمتها العوامل الجغرافية القاهرة، إلاّ أنّ الاحتلال الروماني وسياسة الاستيطان البشري، التي انجر عنها توسيع الخريطة الزراعية على حساب أراضي الرعي ساهمت في مضاعفة ظاهرة البداوة، بتحول الكثير من أشباه البدو إلى بدو خُلّص، بعد أن انتزعت منهم أراضيهم وأجبروا على امتهان أسلوب التحرك كسبا للقوت" [3].

كما يعتقد أحد الباحثين [4] أن المفهوم العام للبداوة الرعوية يشمل "نمط الحياة القائم على على التنقل الدائم للإنسان في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها، من ناحية، وعلى كفاية الوسائل الفنية المستعملة في استغلالها من ناحية ثانية، وعلى مدى الأمن الاجتماعي والطبيعي الذي يمكن أن يتوافر فيها من ناحية

[1]- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني- 609-869هـ/ 1212-1465م-، إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، دون طبعة، 2010، ص99.

[2]- بشير شنيتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 149ق.م/ 40م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985م، ص120/ C. Vanacker, géographie économique de l'Afrique du nord selon les auteurs arabes, du IX[e] siècle au milieu du XII[e] siècle, annales économique, sociétés, civilisations, 28[e] année, N3, 1973, p675.

[3]- نوميديا وروما الإمبراطورية، تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال، كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2012م، صص 184-292.

[4]- السويدي محمد، بدو الطوارق بين الثبات والتغيير- دراسة سوسيوانثربولوجية في التغيير الاجتماعي-، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون طبعة، 1986م، ص32.

ثالثة"، إذن، حاجات القطيع للكلأ والماء هي التي تحدد التنقلات السنوية والموسمية للرحل، لـذا نجد الكثير منهم يرحلون داخل الصحراء أثناء فصل الشتاء المطر، ويستقرون بالقرب من مصادر المياه وعند أطراف الصحراء خلال فصل الصيف، ومن ثم أمكن تقسيم البـدو الرحـل بـالمغرب الأوسط إلى:

1- البربر

لا شك أن الواقع الاجتماعي بملحمه الاقتصادي قد فرض على الكثير من القبائل المقيمـة بالمغرب الأوسط حالة تنقلٍ دائمٍ طلبا للرعي، مـع اسـتقرارهم بالأريـاف والأطـراف، وهـم في الغالب متمردون على السلطة [1]، وأعدادهم لم تختلف عـن غيرهـم مـن البربـر، وكـان أكثـرهم جموعا وانتشارا "**قبيلة زناتة**"، وهو ما يعبر عنه صاحب صورة الأرض قائلا: "ولو قلـت انـي لم أصل إلى علم كثير من قبائلهم لقلت حقـا، إذ الـبلاد الـتي تحيط بهـم مسـيرة شـهور في شـهور والعلماء بأنسابهم وأخبارهم وأثارهم هلكوا" [2]، والواضح أن المغرب الأوسط مثل أغلب ديـار زناتة [3]، من ذلك المجمع الذي كان لهم "قريبا من تيهـرت، وكـان عـددهم نحـو ثلاثـين ألفـا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها" [4].

ويثبت ابن خلدون هذا النمط المعيشي بقوله: "اتخذوا من شعائر العرب في سـكنى الخيـام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين" [5]، وهـذا تماشـيا والأحـوال المناخية التي جعلت أفرادا منهم "يتبعـون القطـر، وينتقلـون في الـبلاد بمواشـيهم وإبلـهم كفعـل

[1]- محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، صص110- 111/ عمار غرايسـة، المدينـة الدولـة في المغـرب الأوسـط- وارجـلان أنموذجا (ق4هـ- 5هـ)،شهادة ماجستير في حضارة المغرب الأوسط في العصر الإسلامي، جامعة الأمير عبـد القـادر، قسـنطينة، السنة الجامعية 2007م- 2008م، ص142، غير منشورة.

[2]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص103.

[3]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2398.

[4]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص249/ محمد حسن، القبائل والأرياف، ص12.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2689.

الأعراب" [1]، لذا عاشت معظم القبائل الزناتية ببلاد المغرب على التنقل والتوغل في الصحاري، وهم في الغالب متمردون على السلطة.

إن النصوص التي أوردها اليعقوبي ترسم لنا صورة عن أهم القبائل التي اندرجت تحت زناتة، وكانت لها مواطن بالمغرب الأوسط، منهم بنو برزال، أدرجهم صاحب كتاب البلدان ضمن مجموعة بني دمر قائلا: "وهم فخذ من بني دمّر من زناتة" [2]، أما ابن حوقل فيعتبرهم من القبائل المستقرة الممارسة للنشاطين الفلاحي والرعوي، إلى جانب بني زنداج وهوارة ومزاتة [3]، ويوطنهم البكري مع عجيسة وهوارة بأرض المسيلة [4]، وهو ما يثبته الإدريسي (ق6هـ/ 12م) [5]، ويوطنهم ابن عذاري (ق7هـ/ 13م) "بأرض المسيلة والزاب الأسفل مدينة سطيف طبنة وميلة والمسيلة" [6]، وعليه لم يكن بنو برزال الزناتيون من الرعاة الرحل، وإنما كانوا كانوا من المستقرين المزارعين [7]، لكن بعد وفاة زيري أصبحوا مطاردين من قِبل صنهاجة، فهاجر عدد كبير منهم إلى الأندلس [8].

وعلى الشاكلة نفسها انتشرت قبيلة "مطماطة"، ضمن حركية تمت من جنوب المغرب الأدنى إلى شمال المغرب الأوسط، واستقرت بعض بطونها في غرب حوض نهر شلف، لأسباب اقتصادية، اجتماعية مرتبطة بعملية تكوين "الحلف الزناتي" الذي عرف أهم مراحل تكوينه في آخر القرن 2هـ/ 8م وبداية القرن 3هـ/ 9م [9]، ومطماطة

[1]- الإيلاني، المصدر السابق، ص209.

[2]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص108.

[3]- صورة الأرض، ص85/ وهي نفس القبائل التي يشير إليها الادريسي خلال القرن (6هـ/ 12م)، غير أنه يضيف قبيل آخر وهو صدراتة، أما قبيلة زنداج يذكرها باسم دنداج. المصدر السابق، ج1، ص254

[4]- المسالك والممالك، ج2، ص239.

[5]- نزهة المشتاق، ج1، ص254.

[6]- البيان المغرب، ج3، ص267.

[7]- هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص83.

[8]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، صص267-269/ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج2، ص92/ هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، صص82-83.

[9]- هاشم العلوي، المرجع نفسه، ص88.

ومطماطة من القبائل التي استقرت بجوفي مدينة تاهرت [1]، وكانت مواطن جمهورهم بتلول منداس عند جبل وانشريس [2]، غير أنها كانت حسب إشارة ابن الصغير من القبائل التي شكلت خطرا على الإمام أفلح (208-256هـ/ 823-871م)، الذي "أرش ما بين كل قبيلة وما جاورها فأرش بين لواتة وزناتة وما بين لواتة ومطماطة" [3].

أما لواتة فهم بطن عظيم متسع وأكثرهم مزاتة، ويشير ابن خلدون إلى أنهم كانوا ظواعن في مواطنهم بنواحي برقة، وكان منهم بجبل أوراس أمة عظيمة، وكذا بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة وكانوا ظواعن على وادي ميناس [4]، ويوجد بضواحي بجاية "قبيلة يعرفون بلواتة ينزلون ينزلون بسيط تاكرارت من أعمالها ويعتمرونها فدانا لمزارعهم ومسارح لأنعامهم" [5]، كما توطن توطن ببلاد المغرب الأوسط جمهور من لماية بتخوم مما يلي الصحراء [6].

ومن القبائل التي ذكرها "صاحب البلدان" قوم يقال لهم "بنو دمر"، وهم من زناتة في بلد واسع به الزرع والماشية [7]، ويوطنهم البكري عند وصفه لمدينة الخضراء (قرب مدينة تنس) قائلا: "ويكتنفها من البربر: مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريفن" [8]، وعنهم يقول ابن عذاري: "ومن جراوة إلى تيهرت ثلاثة مراحل، وإلى حصن تامغلت مرحلتان، يسكنه بنو دمر" [9]، ومديونة هذه يصفها ابن خلدون بقوله: "كانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بني راشد لهذا العهد إلى الجبل المعروف بهم قبلة وجدة يتقلبون بظواعنهم في ضواحيه

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص249/ ابن خلدون، المصدر السابق، ص2416.

[2]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص2416.

[3]- أخبار الأئمة الرستميين، ص63.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2410.

[5]- المصدر نفسه، ص2411.

[6]- نفسه، ص2413.

[7]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص109

[8]- المسالك والممالك، ج2، ص258.

[9]- البيان المغرب، ج1، ص200.

وجهاته" [1]، ويضيف المؤلف نفسه أن الوضع اختلف لما تغلب بنو توجين وبنو راشد من زناتة زناتة على ضواحي المغرب الأوسط، حيث داخلتهم-زناتة- على الضواحي من مواطنهم وتملكوها، وصارت مديونة إلى الحصون بجبل تاسالة وجبل وجدة [2]، كما كان لكومية مواطن بالمغرب الأوسط "لسيف البحر من ناحية أرشكول وتلمسان. وكان لهم كثرة موفورة وشوكة مرهوبة" [3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن حوقل عرض قائمة إحصائية بأسماء القبائل الزناتية، والتي تضم 144إسما قبليا، ما بين صلب زناتة، وعصبها والملحقة بها أو المتحالفة [4]، وبالرغم من أنها قائمة إحصائية إلاّ أن مؤلفنا لم يوطنها مثلما فعل صاحب "نزهة المشتاق"؛ بحيث أحصى هذا الأخير حوالي اثنتي عشرة قبيلة من زناتة المستقرين بين تلمسان وتاهرت، وأكد بقوله: "وكل هذه القبائل بطون زناتة وهم أصحاب هذه الفحوص وهم قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى مكان غيره" [5].

وتفاديا لأي عمل سردي يعتمد على استعراض قائمة كل القبائل الرحل الموجودة بالمنطقة بشكل ممل، سنكتفي في هذا العنصر بإضافة نماذج على ما ذكره اليعقوبي، ظهرت أهميتها بتاريخ المغرب الأوسط، منهم بنو يفرن، ويعد هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونها، وكان منهم لأول الفتح بافريقية وجبل الأوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب [6]، وكان لهم بعد ذلك بالمنطقة بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد [7]، ويوطنهم البكري بالقرى المحيطة بمدينة جراوة [8]، أما مغراوة فكانت حسب ما ورد ذكره لدى ابن خلدون "أوسع بطون زناتة، وأهل البأس

[1]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2418.
[2]- المصدر نفسه، ص2418.
[3]- نفسه، ص2418.
[4]- صورة الأرض، صص102- 103.
[5]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص257.
[6]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2696.
[7]- المصدر نفسه، ص2697.
[8]- المسالك والممالك، ص326/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص196.

والغلب... وكانت مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها" [1].

ويكشف لنا ابن خلدون أنّ "سائر ولهاصة من ورفجومة وغيرهم هم لهذا العهد أوزاع لذلك أشهرهم قبيلة بساحل تلمسان اندرجوا في كومية وعدوا منهم بالنسب والخلط" [2]، ومن ومن أشهر قبائل ولهاصة أيضا "قبيلة أخرى ببسيط بونة يركبون الخيل ويأخذون مذاهب العرب في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم" [3]، ولا يزال إلى يومنا هذا منطقة بضواحي بني صاف (ولاية عين تموشنت) تعرف بولهاصة، أما نفزاوة فكان لها بقايا بطون منهم زاتيمة، ويذكر ابن خلدون أن لهم بقية بساحل برشك [4].

ويبدو أن هذا الجرد يمثل انتشارا قبليا ريفيا وبدويا في معظمه، يشمل مجموعة بشرية متشابهة في نمط عيشها الرعوي، ولا تعرف نوعا آخر من الملكية الأرضية غير الملكية الجماعية، بينما تملك كل أسرة قطيعها ودوابها وخيامها وأمتعتها [5]، معتمدين في ذلك على الإبل والأغنام، ولعل هذا ما يفسر سبب خروج الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان* من وارجلان متبعا إبلا له في نواحي أدرج**، ومكث في تلك النواحي نحو سبع سنين [6].

والواضح أن الإبل تساعد في عملية التنقل والحركة، ولا تحتاج إلى كميات كبيرة من العلف، لكن لا يمكنها الاستغناء عن مراعي التلال، والتي تهرب إليها القطعان في فصل الشتاء محتمية بالدفء، مجتنبين الجبال أثناء الذهاب والإياب [7]، وهذه إحدى الأسباب التي دفعت قبائل

[1]- تاريخ ابن خلدون، ص2707.

[2]- المصدر نفسه، ج2، ص1409.

[3]- نفسه، ص2409.

[4]- المصدر نفسه، ص2409.

[5]- عبد المجيد مزيان، المرجع السابق، ص265.

*- أبو صالح جنون بن يمريان السدراتي، فقيه إباضي من ورغلة، وصاحب كرامات، عاش أواخر ق3هـ/ 9م- وبداية ق4هـ/ 10م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص951.

**-أدرج تقع بين تيسف وسناون بجبل نفوسة. الوسياني، المصدر السابق، ج2، الهامش 5، ص275.

[6]- سير الوسياني، ج2، ص373.

[7]- Golvin, L ,op. cit, p32

قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهم إلى التنقل للانتجاع من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الكلأ وغيره [1]، وحالة الانتجاع والترحال جعلت ابن خلدون يصدر الحكم بأن عمران إفريقية والمغرب كان كله أو أكثره بدويا، وأهله أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال [2]، لكن النمط الحياتي تغير مع الوقت؛ حيث عرف البعض منهم حالة الاستقرار لممارسته النشاط الزراعي وخدمة الأرض في الجبال والرعي في الأراضي السهلية [3]، والمُنتَجِع لا يخرج أبدا من ممتلكاته، إلاّ في حالة القحط الشديد [4].

ويرى أحد الباحثين [5] المهتمين بتوزيع القبائل البربرية، أن زناتة تنتشر في مناطق السهوب السهوب والمراعي، كما ينتشر قسم منها بمناطق الاستقرار وأقاليم الزراعة في الجهات الشمالية من البلاد الغربية على البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى وجود كثير من قبائلها في الجهات الجنوبية الصحراوية المتاخمة لمجال الانتشار الصنهاجي الجنوبي، ولكن يبقى تحديد مواطن صنهاجة أدق من مواطن زناتة، لأن هذه الأخيرة غير مستقرة في مكان واحد [6].

وبموازاة ذلك، وفي الوقت الذي عاشت فيه صنهاجة الشمال حياة مستقرة متطورة وبنت الأمصار والمدن وعرفت الأنماط الحضرية المتقدمة والتفكير السياسي المبكر، نلاحظ أن "**صنهاجة الجنوب** " الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرِّمال الصحراوية بالجنوب أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يُعرف أوّلها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد، وهجروا التلول وجفوها " [7]، قد حافظوا على أنقى صور البداوة، وشظف عيشهم راجع إلى تحملهم مشاق المناخ الصحراوي الشديد الحر والشديد البرد، ويذكرهم صاحب روض

[1]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص37.

[2]- المقدمة، ص396.

[3]- E. Carette, op. cit, p50 /Golvin. L, op. cit, p32

[4]- Golvin. L, Ibid. p33

[5]- هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص108.

[6]- الإدريسي، المصدر السابق، ص257/ محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون طبعة، 1984، ص18.

[7]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2463/ إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة بيروت، ط1، 1998م، ص16/ Golvin. L, Op, Cit, p23

القرطاس قائلا: "منهم قوم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا ثمارا، وإنما أموالهم الأنعام، وعيشهم اللحم واللبن "[1]، ومن ثم يعتبر الترحال من أبرز مظاهر الحياة في المجتمعات البدوية، وهو من صنع البيئة الطبيعية التي يحيا فيها البدوي.

كان لهؤلاء اكتساح كبير خلال القرن 5هـ/ 11م انطلاقا من الصحراء إلى شمال بلاد المغرب بزعامة قبائل لمتونة ومسوفة الصنهاجيتين، لذلك انتعشت حياة الرعي بسبب انتشار تربية الإبل وانتقالها إلى جبال الشمال كجبال بني راشد[2]، وأسفر ذلك عن مزاحمة سكانية بين القبائل الصنهاجية وباقي القبائل التي تقطن تلك المناطق، وأكثر من ذلك فإن بعضها تقدمت جماعات جماعات نحو سهول دكالة ووهران وحاصروا قبائل غمارة في جبالها، ومنعوا قبائل مصمودة من النزول إلى السهول المجاورة فحرموا من مراعيها الشتوية ومزارعها التكميلية[3].

2- العرب

لم يكن البربر العنصر الوحيد الذي خص بممارسة حرفة الرعي المتنقل بالمغرب الأوسط؛ حيث ظهر إلى جانبهم الهجرات العربية (5هـ/ 11م)، هؤلاء البدو الرحل كانوا يربون المواشي والخيل ويطلبون المراعي[4]، وكانت الإبل متاعا لهم ومالا معروفا عندهم في بلادهم[5]، وهو ما ما يؤكده الحسن الوزان قائلا: "وتكون الإبل ثروة الأعراب وأرزاقهم... إذ بها يستطيعون الإقامة

في الصحارى التي لا يقدر ملك أو أمير أن يذهب إليها لجفافها "[6]؛ فالتنقل الدائم عبر صحراء صحراء الحجاز من عوائدهم بالمشرق، وأحيانا كثيرة كانت لهم إغارة على القوافل العابرة، ولما

---

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص120/ موسى لقبال، المرجع السابق، ص81.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2418.

[3]- يوسف عابد، الموحدون في بلاد المغرب 515هـ -595هـ / 1120م -1199م، دراسة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ج2، شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2006 -2007م، ص391، غير منشورة.

[4]- جورج مارسيه، المرجع السابق، ص237/ يسرى الجوهري، المرجع السابق، ص69.

[5]- الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص688.

[6]- وصف إفريقيا، ج2، ص259.

تمادى هؤلاء في تصرفاتهم، أمر الخليفة الفاطمي المستنصر بترحيلهم إلى صعيد مصر ومنعهم من عبور النيل [1] كما سبق ذكره.

في الواقع دخل الهلاليون بلاد المغرب مندفعين من أجل بسط نفوذهم على الأراضي الرعوية باعتبار أنهم بدو يحتاجون إلى مراع، ومحدودية مساحة هاته المسارح تلزم الوافد طرد من سبقه إليها، فاضطر الأهالي القاطنين بالسهول إلى التراجع أمامهم، منها بالمغرب الأوسط، أين قاموا-العرب- بتخريب مدينة القلعة وطبنة والمسيلة وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن على حد تعبير ابن خلدون [2]، وحسب رواية المؤرخ نفسه كان لهم مع القبائل البربرية من صنهاجة وزناتة مواقف، يذكرها قائلا: "ولما غلبوا-العرب- صنهاجة وزناتة اجتهد زناتة في مدافعتهم بما كانوا أملك للبأس والنجدة بالبداوة فحاربوهم وزحفوا إليهم من إفريقية والمغرب الأوسط. وجهزّ صاحب تلمسان من بني خزر قائده أبا سعد اليفرني فكانت بينهم وبينه حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب، وتغلبوا على الضواحي في كل وجه. وعجزت زناتة عن مدافعتهم بإفريقية والزاب. وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب من بلاد المغرب الأوسط " [3].

ومن الواضح أنّ بني حماد عجزوا عن التصدي للمغيرين، واضطروا إلى التفاهم معهم عن طريق التحالف مع الأثبج والتنازل عن البوادي لفائدتهم [4]، وربما سياسة الترويض التي اتبعها اتبعها الحماديون كانت أفضل من سياسة أبناء عمومتهم بني زيري، وهذا ما جعل الأضرار التي ألحقت بالمغرب الأوسط أقل مما مس المغرب الأدنى، أما عن استغلال الحماديين للقبائل العربية من أجل رضخ العناصر المعارضة يشير ابن عذاري لأحداث سنة 457هـ/ 1065م قائلا:

---

[1] - Paul Casanova, histoire des berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, traduite de l'Arabe par le baron de slane, librairie orientaliste, paris, 1968, t1, pp28- 29.

[2] - تاريخ ابن خلدون، ج2، صص 2328- 2329/ عبد الاله بنمليح، المرجع السابق، ص355.

[3] - ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2328/ مفتاح خلفات، المرجع السابق، ص98.

[4] - الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص289.

"خرج- الناصر بن حماد- في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثبج؛ فلقيتهم رياح وزغبة وسليم؛ فانهزم الناصر، وقتل من أصحابه خلق كثير، ونهبت أمواله ومضاربه " [1].

لذا يعتقد بعض الباحثين [2] أنه من دوافع بناء مدينة بجاية، تخوف صاحبها الناصر بن علناس (454- 481هـ/ 1062- 1088م) من الأعراب، والذين حُكِمَ عليهم بأنهم كارثة لا تختلف عن بقية الكوارث الطبيعية [3]، وهو موقف مرتبط بطبيعة العلاقة بين المدينة وباديتها وخصوصا أعرابها، أما الهادي روجي إدريس فيرى أنهم "كارثة سياسية واقتصادية " [4]، وربما هي آراء مبالغ فيها، عموما، العناصر العربية الوافدة على بلاد المغرب على غرار العناصر الرومانية التي سبقتها، فكل منهما وجد داخل هذا الإطار الجغرافي الشروط الأساسية اللازمة للاستقرار [5].

كما لا تعوزنا الدلائل الكاشفة عن استقرار الهلاليين بالمغرب الأوسط، ولا الأضرار التي خلفوها، من ذلك إشارة الإدريسي (ق6هـ/ 12م) إلى الحيز الجغرافي الذي شغلوه قائلا: "وإلى ها هنا تصل غارات العرب وضررها... ثم إلى حصن الناظور إلى سوق الخميس وبه المنزل وهذه الأرض كلها تجولها العرب وتضر بأهلها" [6]، أما ابن سعيد (7هـ/ 13م) فيشير قائلا: "والبلاد- المسيلة- التي حولها مجالات لعرب رياح " [7]، أما الوسياني فقد خصص بابا بعنوان "ما قيل في الذي في أيدي العرب من الأموال من قول المشايخ من المسلمين "، ويروي أن امرأة (خلال ق5هـ/ 11م) من تماواط* قالت: "كل الذي في أيدي العرب من الجمال هي لنا قد

[1]- البيان المغرب، ج1، ص299.

[2]- رابح بونار، المغرب العربي- تاريخه وثقافته-، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1981م، ص210/ عبد الحليم عويس، الدولة الحمادية- صفحة رائعة من التاريخ الجزائري-، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991، ص100.

[3]- محمد حسن، المدينة والبادية، ج2، ص641/ عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص220.

[4]- الدولة الصنهاجية، ج1، ص245.

[5]- E. Carette, exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842, imprimerie impériale, paris, p13.

[6]- نزهة المشتاق، م1، ص262.

[7]- الجغرافيا، ص126.

أخذوها منا غصبا " [1]، خاصة وأن الإبل "ثروة الأعراب وأرزاقهم " [2]، ولا غرابة فيما قد يحدثه هؤلاء من خراب بالمناطق التي وصلوها، لأن المستنصر لما أباح لهم اجتياز النيل قال لهم: "قد أعطيتكم المغرب، ومُلْكَ المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفترقون " [3]، لذا ما أحدث من خراب ببعض المناطق تعود اليد الأولى فيه لخليفة مصر.

وبهذا شكل الأثبج** أهم القبائل الهلالية بالمنطقة؛ فبعد أن تمكنوا من إخضاع صنهاجة استقروا بجبال أوراس الشرقية [4]، وكان لهم عدة بطون، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر **كرفة**، ويخبرنا ابن خلدون أنهم رحل جائلون في القفار يقيمون في معاشهم من الحبوب على زروع أهل الجبل [5]، أما قبيل **دريد** فكانوا أعز الأثبج وأعلاهم كعبا حسب المؤلف نفسه، وكانت مواطنهم ما بين بونة وقسنطينة إلى قرية طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر، وبدورهم ينقسمون إلى عدة بطون، منهم **أولاد عطية**، وكانت رئاستهم في أولاد بني مبارك بن حباس، واستقر هؤلاء بتلة بن حلوف من ضواحي قسنطينة فزحفت إليهم توبة من مواطنهم بطارف مصقلة فاندثروا وتلاشوا، فاستقرت توبة على تلة بن حلوف " ثم عجزوا عن رحالة القفر وتركوا الإبل واتخذوا الشاة والبقر " [6].

كما استقر قبيل **عياض بن مشرف بن أثبج** بجبل قلعة بني حماد بعد أن "ملكوا قبائله وغلبوهم على أمرهم، وصاروا يتولون جبايتهم " [7]، أي تمكنوا من هزيمة قبائل صنهاجة بالمنطقة، وأصبحوا عمالا يقومون بجمع الجباية، ويلحق بالأثبج "**العمور** "، وهما بطنا قرة وعبد

---

*- تماواط، واحة من واحات وارجلان (ورقلة) اندثرت حاليا. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص840.

[1]- سير الوسياني، ج2، ص688.

[2]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص259.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2324.

**- يزعمون أنهم من ولد الأثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال وكانوا أوفر القبائل الهلالية الداخلة إلى لافريقية عددا وأكثرهم بطونا. ابن خلدون، المصدر السابق، ص2330.

[4]- المصدر نفسه، 2331.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2331.

[6]- المصدر نفسه، ص2332/ عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص418.

[7]- نفسه، ص2332.

الله، ويوطنهم ابن خلدون قائلا: "هم ساكنون بالضواحي والجبال، وفيهم الفرسان وأكثرهم رجّالة، وموطنهم ما بين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد، وكان كل ذلك من ناحية الحضنة والصحراء، وأما التلول فهم مدفوعون عنها بقلتهم وخوفهم من حامية الدول، فتجدهم أقرب إلى مواطن القفر والجدب " [1].

بالمقابل، ظهر إلى جانب الأثبج قبيلة رياح* من بني هلال، وكانت لهم بطون دائبة الحركة والتنقل بين الجريد إلى القيروان إلى الزاب إلى المسيلة إلى ورقلة (وارجلان)، ولهم إقطاع بالحضنة ونواحي قسنطينة وبجاية [2]، ولهم بطون يبعدون الرحلة في القفار والرمال [3]، ومن الواضح أن هذه القبائل لا تزال لها بقايا ليومنا هذا ببعض المناطق من الجزائر والغالب عليها اسم "حميان"، وهم بطن من بني يزيد بن زغبة، وأكثر هذا القبيل يعيش في القفر، أتوا مع بني عامر وانتقلوا إلى ضواحي تلمسان [4]، وتكشف لنا إحدى المصادر المتأخرة أن الإسبان لما دخلوا وهران انحاز إليهم طوائف من الأعراب، منهم حميان وبنو عامر، وهم من جملة جندهم، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب لكثرتها عندهم، وكذا الأقوات [5].

غير أنّ هناك العديد من البطون التي لم ندرجها رغم دورها البارز بالنسبة لتاريخ المنطقة، لكن هذا الدور يبدو أكثر وضوحا مع الفترة الموحدية حسب ما يفيدنا به ابن خلدون، وكانت لها حركية تلقائية من منطقة إلى أخرى، وحركية جبرية تحت قوة السلطة الموحدية، وتوظيف مثل هذه النصوص يبعدنا عن الإطار الزمني لبحثنا المنحصر بين القرنين 4و5هـ/ 10-11م.

---

[1]- نفسه، ص2333.

*- يرجع نسبهم إلى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر وهو أخو الأثبج. ابن خلدون، نفسه، ص2339.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، صص 2339-2340/ مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين (564-876هـ/ 1130-1476م)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، ص1983م، ص202.

[3]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص2340 وما بعدها/ مصطفى أبو ضيف، المرجع نفسه، ص203.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2347.

[5]- المشرفي عبد القادر، المرجع السابق، صص25-37.

و قد لا نبالغ إذا قلنا إن الغزو الهلالي كان عاملا في انتقال أكثر أهل إفريقية إلى مناطق المغرب الأوسط، خاصة بعد خراب القيروان [1]، وما يثبت ذلك وُصول أسرة المرازقة إلى تلمسان أيام الحصار المرابطي لها؛ إذ يشير صاحب المناقب المرزوقية أن خروجهم من القيروان "لمزعج أزعجهم " [2]، وهو ما يحدده محقق "المسند الصحيح " بنزول بني هلال [3]، كما يخيل إلينا اقتحام القبائل الهلالية للمنطقة مجال البحث خلال القرن 5هـ/ 11م قد أحدث صدمة عنيفة بالنسبة للنشاط الزراعي والرعوي، وأسهم في ارتباكه وتراجعه، خاصة وأنهم لم يكونوا يعرفون الحرث والفلاحة، وما يثبت أن الفلاحة كانت المتضرر الأول من غزو هذه القبائل هي تحركاتهم الهادفة لمحاولة اكتساب مراعي جديدة لقطعانهم، ومجالات أخرى لانتجاعها.

كما يتجلى من خلال استقراء بعض النصوص، أن الهجرة الهلالية أعادت صياغة العناصر البشرية المكونة للمجتمع المغربي عامة، ووقوع تأثيرات متداخلة، والتي برز تأثيرها الفعلي بعد القرن 5هـ/ 11م، حيث أصبح التوازن القبلي سيد الموقف [4]، وبعد تخريب معالم الاقتصاد بالمغرب، وشل نشاط المزارعين البربر فيه مدة طويلة، وبعد فترة من حياتهم بالمغرب اخذوا يقلدون البربر ويأخذون عنهم أساليب الزراعة والتجارة [5]، وبذلك تسنى لهم تزويد المدن وتمويل سكانها بالحبوب [6]، حتى حتى حياة البداوة والترحال تغيرت بعد استقرارهم، واهتموا بتربية الحيوانات، وساهموا في إدخال الخيول العربية، وعوضوا ما اقترفوه من إفساد وتخريب من خلال

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص226.

[2]- ابن مرزوق، المصدر السابق، صص 146-147.

[3]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص15.

[4]- محمد حسن، الجغرافيا التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع هـ VII- XVم، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ط1، 2004م، ص42/ ينظر للمؤلف نفسه المدينة والبادية بإفريقية، ج1، ص38.

[5]- رابح بونار، المرجع السابق، ص200.

[6]- الإدريسي، المصدر السابق، م2، ص291.

ما قدموه من خدمات للسلطة المغربية، كما شكلوا القوة الضاربة في الجيش المغربي، بل إن حضورهم في الكثير من الأوقات كان بإيعاز من الحكام المغاربة أنفسهم [1].

ومن نافلة القول، إنّ القبيلة عامة سواء كانت تعيش بالرعي أو الزراعة، فإن كيانها الاقتصادي كان معتمدا أساسا على خصب التربة وتوفر العشب والماء؛ فإذا وجدت القبيلة في أرض قاحلة، أو قليلة الخصب، وفي هذه الحالة غالبا ما تتخذ من الرعي الوسيلة الأولى لكسب عيشها، فإنها تضطر إلى التنقل من مكان إلى آخر، ومن منطقة إلى منطقة أخرى طلبا للعيش والكلأ، مما يجعلها تصطدم في الغالب مع القبائل صاحبة الأرض الخصبة، والنتيجة هي الصدام المسلح، والصراع من اجل البقاء.

ثانيا- الحركية القبلية ودوافعها

تعد القبيلة الوحدة الأساسية للتنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي عند سكان المغرب الأصليين، سواء كانوا بدوا رحلا أو مستقرين في المدن والقرى [2] وطبيعة الحياة القائمة عليها- القبيلة- فرضت نزاعات كانت لها نتائج سلبية، وقد تكون هذه الصراعات مصطنعة تهدف إلى تحقيق مصالح سياسية واقتصادية؛ فإذا كانت القبائل البدوية تتنازع حول الكلأ والمراعي، والمجموعات الريفية حول ملكية الأرض، فإن الماء هو العنصر الفاعل في الصراع داخل الواحات، أي التنافس القبلي يكتسي في الغالب طابعا اقتصاديا بوجه خاص [3].

أما المغرب الأوسط فقد عُمِر باستمرار بعناصر بشرية وافدة ومتحركة تبعا للمؤثرات الطبيعية من توفر المياه ومناطق للرعي، أو جفاف وقحط، كما أن الجهة بطبيعتها منطقة للعبور، طاردة وجاذبة، ودليلنا على وجود حركية مستمرة بين أقطار بلاد المغرب الثلاث هو تشابه أسماء القبائل، مثلا قبيلة مطماطة التي انتشرت ببلاد المغرب، وتسمى بها أكثر من موقع، فهم

[1]- العلوي أبا سيدي، البدو والبادية في الفكر الخلدوني، مجلة البادية المغربية، مكتبة دار السلام، الرباط، العدد1، السنة الأولى، 2006م، ص48.

[2]- محمد حسن، القبائل والأرياف، ص20/ حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني- 609-869هـ/ = =1212-1465م-، إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، دون طبعة، 2010م، ص95.

[3]- محمد حسن، المدينة والبادية، ج2، ص402/ قاسم هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص287.

كما ذكر ابن خلدون بنواحي فاس، ومنهم بجهات قابس، وتحدث اليعقوبي عن بني مطماطة بالمغرب الأوسط، فيما يذكر البكري بالمغرب الأوسط مطماطة أمسكور [1]، لكن حركية القبيلة واستقرارها كانت له انعكاسات على طبيعة السكان وأنماط معيشتهم.

1- الصراع القبلي

يعد الصراع بين القبائل أكثر الظواهر الاجتماعية حضورا خلال العصر الوسيط، مع العلم أن معظم القبائل المغربية كانت مولعة بممارسة الحرب [2]، لاسيما إذا تعلق الأمر بمجال التوسع، وإذا شعرت القبيلة بالقوة فإنها تحاول إزاحة ما جاورها من القبائل، لكن تَوسُع هذه الأخيرة على حساب مراعي بعضها البعض، وطرد العنصر القادم لمن سبقه بالمنطقة، أدى إلى عدم الاستقرار، وهذا ما حصل مع زناتة المغرب الأوسط الذين طردوا ولجأوا إلى ما وراء نهر ملوية، ومن ذلك أيضا محاربة مطماطة لمنداس، فلما غلبوهم أخرجوهم واعتمروا مواطنهم [3].

يخيل إلينا أن مثل هذا الإجراء يضايق الزراعة والغرس، فيتحول الحقل إلى مرعى، عندئذ تقلّ الأشجار، ويضعف الغطاء النباتي، وتذهب الرياح بالتربة، فيتعذر العودة إلى الإنتاج الزراعي، وتفرغ القرى والمداشر، ويتناثر السكان، وتتباعد الأحياء وتحل الخيام محل الدور، لترتبط الحرب أو الصراع أشد الارتباط بالفقر وتصبح في هذه الحالة قوام معاش البدويين، ومصدرا عاديا للكسب والعيش [4].

وما من شك أن هذه الصراعات قد تكون مصطنعة لتحقيق أغراض سياسية واقتصادية؛ فالقبائل المنتشرة حول تاهرت اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة، فخاف الإمام أفلح (258هـ/ 871م) أن تجتمع عليه الأيدي وتزيل ملكه، فأرش ما

[1]- المسالك والممالك، ج2، ص337/ محمد حسن، الجغرافيا التاريخية لإفريقية، ص11.

[2]- حميد تيتاو، المرجع السابق، ص84.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، م2، ص1849.

[4]- حميد تيتاو، المرجع السابق، ص91/ عبد الله العروي، المرجع السابق، ج2، ص95.

بين كل قبيلة وما جاورها، حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب [1]، لكن الأحقاد بقيت في نفوس هؤلاء وهو ما يكشفه صاحب أخبار الأئمة الرستميين بقوله: "وبقيت الضغائن في الصدور إلى أن اخترمته المنية " [2].

وفي الحقيقة، أفضل أنموذج بالنسبة للصراع القبلي بالمنطقة، "قبيلة زناتة " وتحرشها بغيرها، ولا نعدم من النصوص ما يدعم ذلك، من ذلك نص النويري حول ما قامت به هذه القبيلة بالقرب من مدينة أشير، قائلا: "قد استطالت على أهل تلك الناحية من أيام بنى الأغلب ثم تزايد ضررهم في أيام المهدي والقائم " [3]، ويؤكد ابن خلدون ضررهم بمدينة تاهرت قائلا: "ولم تزل ...هذه ثغرا لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم، وتغلبت عليها زناتة مرارا " [4].

ويخبرنا الوسياني بغارة بني توجين* على رأس وادي أريغ، فساقت لهم غنمهم، وهذه القبيلة كانت تشن الغارات وتسطو على القبائل باتفاق مع عرب بني عدي في أواسط القرن 5هـ/ 11م [5]، وعن نفس القبيلة يقول ابن خلدون: "لما تغلب بنو توجين وبنو راشد من زناتة على ضواحي المغرب الأوسط، وكان مديونة هؤلاء قد قلّ عددهم وفلّ حدّهم فداخلتهم زناتة على الضواحي من مواطنهم وتملكوها، وصارت مديونة إلى الحصون من بلاده بجبل تاسالة وجبل وجدة المعروف بهم، وضربت عليهم المغارم وتمرست بهم الأيام، فلم يبق منهم هناك إلاّ صبابة محترفون بالفلح " [6]، ليس هذا فحسب بل كانت زناتة تعترض طريق القوافل القادمة من من المشرق نحو المغرب الأوسط [7].

1- ابن الصغير، المصدر السابق، ص63.

2- المصدر نفسه، ص64.

3- نهاية الأرب- الجزء الخاص بالمغرب الإسلامي-، ص304.

4- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2415.

*- بنو توجين من زناتة على الساحة السياسية بالمغرب الأوسط، وحكم منهم عبد القوي بن زمار بن توجين بن تميم بن علي، وملك سنة 442هـ/ 1051م بلاد وانشريس وشرشال وشلف والجزائر إلى تلمسان. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص210.

5- سير الوسياني، ج1، ص390/ الشماخي، السير، ج2، ص609، ويفيدنا الوسياني بأن الشيخ ماكسن بن الخير وجماعة أخرى اتبعوا غارة بني توجين، ولم يرجعوا حتى أعادوا الغنم التي أخذت. نفسه، ج1، ص390.

6- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2418.

7- ابن الصغير، المصدر السابق، ص104.

نسوق هذه النصوص هنا للمثال فقط، لإثبات أن زناتة كان لها بالغ الأثر على القبائل الأخرى، وفي كل الأحوال، لا غرابة من النتائج المترتبة عن تصرفات القبائل الزناتية، والتي أصبحت محل مطاردة من قبل أي سلطة قائمة بالمنطقة، الأمر الذي دفعها لاتخاذ الجبال والبراري أماكن للاحتماء في كثير من الأحيان، وهو ما يبدو جليا من خلال نص ابن الأثير قائلا: "وكانت زناتة تفسد في البلاد، فإذا طلبوا احتموا بالجبال والبراري، فلما بنيت أشير صارت صنهاجة بين البلاد وبين زناتة والبربر "[1]، ويعتقد عبد الله العروي أنه ربما هذا ما جعل غوتيه يصف زناتة بالأعراب وأنهم إخوان في البداوة، وعنصر تخريب وفوضى وثورة دائمة على كل سلطة منظمة قارة[2].

كما أضر حكم الزناتيين (مغراوة وبني يفرن) بالأمن والاستقرار، لسلوكهم سياسة تعسفية اتجاه السكان وخاصة الفلاحين، فأهملت الأراضي الفلاحية وتعطل الإنتاج بجميع أشكاله في مناطق نفوذهم وبلغ بهم الجور والتعسف إلى حد مصادرة أقوات الناس في بيوتهم[3]، لهذا عمل عمل زيري على توفير الأمن بعد بناء مدينة أشير "فاطمأنت نفوس أهل البادية للحرث والزراعة وصانهم زيري مما كان ينالهم من زناتة"[4]، خاصة بالنسبة لاقتناء أصناف الماشية، الذي الذي يكون

صالحا حسنا نافعا مع الأمن الشامل وقلّة الأعداء وكثرة الناصر[5].

وفي مثل هذه الأوضاع غير المستقرة، كثيرا ما تعرضت الأملاك للغصب والتعدي نتيجة التحرشات والفتن، الأمر الذي أدى إلى ظهور صراعات بين الأفراد والقبائل، لذا اضطر الفقهاء إلى الإفتاء بعدم جواز رعاية أهل القرية لمواشيهم وسقيها في أرض مغصوبة[6]، ومن اغتصب أرضا وزرعها وحصدها، وبقيت في الأرض فضلة التبن أباحوا رعي الأغنام فيها إذا كان ما لا

[1]- الكامل في التاريخ، ص1268.

[2]- مجمل تاريخ المغرب، ص251.

[3]- الطويل محمد حجاج، البادية المغربية غداة الفتح الإسلامي، ص41- 42.

[4]- النويري، المصدر سابق، ص305.

[5]- الدمشقي، المصدر السابق، ص52.

[6]- الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص553.

يَرجِعُ إليه صاحب الأرض [1]، وتسجل نصوص فقهية أخرى قضية المسارح التي يقع فيها التعدي، إذ سئل ابن القاسم (191هـ/ 807م)عن مسرح مواشي نشط إليه بعض أهل قرية ليعمره فكره ذلك ولم يره لهم، على أن يترك كما هو [2].

كما سئل القاضي عياض (ت544هـ/ 1150م)عن رجل غاب عنه بقره عندما ضرب عليهم العدو وادّعى بهم على أهل قرية، فشكا ذلك إلى حاكم الجهة فوجه فيهم، فأتى بمن أمكن منهم، فأقر بعضهم وغرم بعض العدة، وأنكر الباقون، فسجنوا وطال سجنهم نحو الشهرين، وهما أخوان من أهل العافية لا يعرف لهما مثل هذا، وأبى صاحب البقر أن يخرجهما حتى يغرما. بين لما وجه الحكم في ذلك وهل يجوز إقرار هذا الغارم عليهما أم لا؟ فأجاب: إذا لم يتعين أخذ المذكورين للبقر وإنما سجنا بتهمة عامة أهل القرية وهما كما وصفت أحلفا أطلقا [3]، والنص نفسه أثبته الونشريسي [4].

والواقع أن الظروف السياسية للمغرب الأوسط خلال (ق4-5هـ/ 10-11م) لم تكن مستقرة، بسبب تعدد القوى المتنافسة، والتي كانت تهدف إلى بسط نفوذها ببلاد المغرب، مستغلين في ذلك العلاقة بين ملوك زناتة وأمراء صنهاجة جيرانهم بحدود المسيلة من مليانة، والجزائر، والحدود التاهرتية فما وراءها، والتي شهدت حروبا عظيمة، وأضرارا متصلة، وحسائف ظاهرة وكامنة [5].

صفوة القول، إنّ هذه القبائل ظهرت خلال القرن 5هـ/ 11م كأهم مجموعة سكنية لا من حيث الطاقة البشرية، بل من حيث الدور السياسي الذي جعل أحد الباحثين [6] يصف المرحلة

---

[1]- المصدر نفسه، ج6، ص149.

[2]- ابن سهل، المصدر السابق، ص45.

[3]- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص67.

[4]- المعيار، ج10، ص240.

[5]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص319.

[6]- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي...، ص26.

بعصر "السيادة الزناتية "، أمّا الحرب القبلية فتبقى ظاهرة اجتماعية حاضرة بالقدم والشيوع والاستمرار، تعود جملة من دوافعها لظروف طبيعية- جغرافية بالخصوص.

2- النمط الرعوي

تميزت بلاد المغرب خصوصا هضابها الفسيحة بسيادة ظاهرة اقتصادية واجتماعية، مما نعني بها ظاهرة البداوة، ذلك أن سكان هذه المناطق من القبائل البربرية والعربية لا يستطيعون الاعتماد على موارد الإقليم النازلين فيه فيضطرون إلى النقلة والترحال انتجاعا للكلأ وطلبا للعيش [1]؛ منها ببلاد المغرب الأوسط التي تميزت ببيئة طبيعية ومناخية متنوعة ساعدتها على أن تكون مكانا مناسبا لتربية الماشية ومسارح لرعيها، وهو ما يؤكده العديد من الجغرافيين، منهم اليعقوبي (ق3هـ/ 9م) [2] وابن حوقل(ق4هـ/ 10م) [3] والبكري(ق5هـ/ 11م) [4]، ويثبته الإدريسي المتأخر عنهم (ق6هـ/ 12م) [5]، ويلخصه صاحب الاستبصار (ق6هـ/ 12م) بقوله: "وهي كثيرة الخصب والزرع، كثيرة الغنم والماشية طيبة المراعي، ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها " [6].

وهذه الإمكانيات (بيئية، مناخية) تحكمت في حركة السكان وتنقلاتهم عبر المناطق خلال فصول السنة؛ فإذا أقبل الصيف اشتد الجفاف في الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية، ويجف العشب ويقل الماء، فلا يجد الإنسان مفرا من شد الرحال صوب الشمال حيث يتوفر المطر ويطيب المرعى وتتيسر الحياة، لكن بحلول فصل الخريف المرفق بالأمطار المنبتة للكلأ ببطاح الهضاب تعود الجموع المهاجرة مرة أخرى لديارها لقضاء فصل الشتاء [7]، وهذا ما يفسر اختيار

[1]- مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص240

[2]- البلدان، صص 108-113.

[3]- صورة الأرض، صص78-79

[4]- المسالك والممالك، ج2، ص231 وما بعدها.

[5]- نزهة المشتاق، ج1، ص239 وما بعدها.

[6]- مجهول، المصدر السابق، ص179.

[7]- مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، صص240-241.

اختيار معظم بطون زناتة سكنى الجبال والبادية [1]، كما أن تضرر جهات المنطقة بسبب التقلبات المناخية فيه تفاوت، وهذا ما يؤدي بالقبائل المتضررة إلى التحرك صوب الجهات الأقل تضررا، إدراكا منها لضرورة التكتل والتجمع من أجل تأمين العيش والبقاء في بيئة يتميز مناخها بعدم الثبات.

ويعطي ابن خلدون الظاهرة أهمية فيقول: "ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويسمونهم شاوية... وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا... وفي معناها ظعون البربر وزناتة بالمغرب " [2]، هذه التقسيمات التي كانت محل اهتمام العديد من الباحثين [3]، ومن ثم لا يمكن تجاهل ما مثله الحيوان بالنسبة للأفراد، خاصة الإبل بالنسبة لأهل لأهل القفر وسكان الخيام، "لأنهم لما لم تستقر بهم دار، ولم تضمهم أمصار، افتقروا إلى الأموال المتنقلة معهم، وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة، فاقتنوا الحيوان، لأنه يستقل في النقلة بنفسه، ويستغني عن العلوفة برعيه " [4].

إذن، الأراضي القاحلة الجدباء تفرض على سكانها نمطا معينا من العيش، وبالتالي شكلا معينا من الحياة الاجتماعية، وربما هذا ما يفسر انتجاع قبائل سدراتة وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الكلأ وغيره [5]، كما سكنت أمة عظيمة من لواتة بضواحي بضواحي نفس المدينة إلى ناحية القبلة، وكانوا ظواعن على وادي ميناس [6]، ويشير صاحب "نزهة المشتاق " إلى ثمانية عشر بطنا من زناتة المستقرين بين مدينتي تلمسان وتاهرت قائلا:

[1]- الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص57/ أبو زكريا، المصدر السابق ، ص102

[2]- المقدمة، ص297.

[3]- علوي أبا سيدي، البدو والبادية، صص44- 45/ مصطفى الفوال، المرجع السابق، صص351- 352/ محمد محفل وآخرون، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، المكتب التنفيذي للإتحاد العام للفلاحين، سوريا، د ون طبعة، دون تاريخ، م2، ص412.

[4]- الماوردي، آداب الدين والدنيا، تحقيق علي عبد المقصود رضوان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010م، ص314.

[5]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص47.

[6]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2411.

"وكل هذه القبائل بطون زناتة وهم أصحاب هذه الفحوص وهم قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى مكان غيره" [1].

وسكنت مزاتة وبنو برزال المسيلة مع غيرهم من القبائل، وكثرت عندهم المواشي [2]، فضلا عن أنها كانت تنتجع منطقة تاهرت وأحوازها في أشهر الربيع [3]؛ فكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت، وكان عددهم ثلاثين ألفا في بيوت يحملونها [4]، وكلمة "يحملونها" دليل على على سكن الخيام، لذا أطلق على المعتزلة حسب ما ذكره صاحب كتاب "سير الأئمة وأخبارهم" أصحاب العمود، وكانوا من زناتة، وسكنوا الجبال قرب تاهرت [5].

ولا تعوزنا الدلائل لتأكيد الصفة الرعوية لبعض المدن وأحوازها، على رأسها مدينة تاهرت التي قال عنها ابن حوقل "وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية " [6]، وبقيت هذه الصفة الرعوية قائمة حتى زمن الإدريسي الذي ذكر أنّ لها "من نتاج نتاج البراذين والخيل كل حسن وأما البقر والغنم بها فكثيرة جدّا " [7]، إذن هؤلاء الرحل كانوا كانوا مضطرين إلى التنقل من مكان لآخر طلبا للعشب والماء لحيواناتهم التي بها قوام حياتهم؛ ومن هنا أمكن القول إن المجال الطبيعي، باعتباره مصدرا للثروة والوفرة، أو للندرة والحاجة، قام بدور هام في تحديد أنماط العيش، وأنواع الأقوات وكمياتها.

وبالموازاة، كانت كثرة الثروات أو قلتها، وحالات الوفرة أو الندرة، رهينة بما تجود به الأرض، ويسمح به المناخ من موارد وإمكانيات، فضلا عن أساليب الاستغلال وأنظمته، والمعوقات الطارئة التي قد تعصف بالإنتاج، وهدر مجهود الإنسان وأمواله بشكل ينعكس سلبا

[1]- الإدريسي، المصدر السابق، ص257.
[2]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص85.
[3]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص47/ الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص57.
[4]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص249.
[5]- أبو زكريا، المصدر السابق، ص102.
[6]- صورة الأرض، ص86.
[7]- نزهة المشتاق، ص256.

على الحركة الاقتصادية والحياة الاجتماعية، وما يترتب عنه من ظواهر اجتماعية عدة مثل الفقر والمجاعة والموت، أو الحرب والصراع على الموارد وتنازع البقاء [1]، خاصة وأن التاريخ البشري لا تفسره الصّراعات العرقية- العنصرية ولا المذهبية- الدّينية بقدر ما تكمن وراء التحوّلات التي تشهدها عوامل موضوعية مرتبطة بالبنية الاقتصادية والتشكيلة الاجتماعية والأوضاع السّياسيّة والثقافيّة [2].

من جانب آخر، شكلت سنوات القحط والجفاف التي ضربت المنطقة خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م خطرا كبيرا على الأهالي وحيواناتهم، إذ تقل الأغذية ويهلك الناس، لأنّ موارد الإنسان المغربي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأرض، من زرع وماشية، وفي ظروف المجاعة والقحط تقل الزروع الرئيسية من قمح وشعير ويصبح الاعتماد على ما يعلف للحيوانات، أي الحبوب التي كانت تعطى للماشية والطيور، مثل الذرة البيضاء والشعير والسلت والدخن [3]، وكثيرا ما تكون فاسدة تتسبب في تفشي الأوبئة، وانتشار الحمى التي تنتقل عدواها للحيوان، ليكون مصيره كمصير الإنسان.

وفي الاتجاه ذاته، ونتيجة لحالة القحط والجفاف برز دور "المطامير الجماعية"، التي كانت تقام في الغالب في المناطق المرتفعة المنيعة، لكن الهجوم عليها من طرف قبائل الجهات المتضررة يخلق أشكالا أخرى من أشكال الصراع القبلي، الذي يدخلهم أحيانا في نزاعات مع المجموعة البدوية أو القروية المتواجدة في المكان [4]، خاصة في فترة فترة القحط، ويظهر وكأنه نزاع تقليدي بين الجبل والسهل، ويستفحل أمره عندما يشتد ضغط المجاعة والقحط ومطالب بيت مال الدولة [5].

---

[1]- حميد تيتاو، المرجع السابق، ص99.

[2]- محمد حسن، القبائل والأرياف، ص24.

[3]- ابن زهر أبو مروان، كتاب الأغذية، تحقيق إكبيراثيون غارثيا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، دون طبعة، 1992م، ص11.

[4]- محمد حسن، المدينة والريف، ص627/ بن منصور عبد الوهاب، المرجع السابق، ص286.

[5]- هاشم العلوي، المصدر السابق، ج2، ص287.

إذن، من الطبيعي أن تكون الظروف المعيشية القاسية التي مست هؤلاء قد انعكست آثارها على طباعهم وأخلاقهم وأنماط سلوكهم، ويقدم عابد الجابري وصفا للظاهرة قائلا: "إنّ جدب الأرض وخلوها من الأرزاق، جعلهم يمدون أيديهم إلى ما بأيدي الناس، يسلبونهم أموالهم ومتاعهم، ولا يجدون في ذلك منكرا ولا ظلما" [1]، ويضيف الباحث نفسه أن العمل في انحراف أخلاقهم وعاداتهم وسلوكهم الاجتماعي هو "العامل الطبيعي بمعناه الواسع" [2]، ولعل هذا ما يفسر اعتماد الاقتصاد القبلي على تربية الماشية في المناطق المستفيدة من الماء والكلأ، في المناطق الجبلية والأودية [3]، بينما اقتصرت القبائل الصحراوية على تربية الإبل لقلة المياه، "فمنهم من لا يقدر على غير الإبل واليسير من المعز لنأي الماء عنه " [4].

كما يعمل الخطر الخارجي على تعزيز التلاحم الداخلي للقبيلة، لأن ذلك قد يهدد استمرار وجودها، وتؤدي علاقات القرابة والتحالف الموجود بين أعضاء القبيلة الواحدة إلى إقامة الفوارق بين المجموعات القبلية، التي كثيرا ما تتسبب في عمليات التنافس الحاد والصراع على الموارد ومصادر العيش، وهذا ما يدفع إلى إضفاء طابع الصراع الدائم والمستمر على المجتمع القبلي [5].

ومجمل القول، إنّ طبيعة المغرب الأوسط الجغرافية، وما تميزت به من خصائص جعلته يجمع بين الزراعة وتربية الماشية، لذا نجد العديد من المؤلفين الجغرافيين يجمعون بين وفرة "الزرع والضرع"، وهذا دليل على أن تربية الماشية لم تكن حكرا على القبائل المتنقلة فحسب، وإنما تعدتها إلى غيرها بحكم وفرتها من جهة، وبحكم وفرة المراعي الصالحة لإنتاجها في البلاد من جهة أخرى، لكن الطابع الرعوي كان الصفة الغالبة على المنطقة، كما أن كثرة الحروب والاضطرابات يتبعها مصادرة الأراضي وتوزيعها على رجالات الدولة، هذه السياسة يترتب

[1]- العصبية والدولة، ص148، ص150.

[2]- المرجع نفسه، ص149

[3]- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي... ،ص228.

[4]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص100.

[5]- محمد مجيب بوطالب، المرجع السابق، ص56.

عنها تحولات اقتصادية واجتماعية، يسفر عنها انعدام الأمن وترك سكان القرى والأرياف للأراضي، مما يؤثر سلبا على الإنتاج الزراعي، إضافة إلى إبادة الثروة الحيوانية خاصة الخيل.

ثالثا- علاقة السلطة الحاكمة بالقبائل الرعوية

لم تكن الحروب التي عرفتها المنطقة مجال البحث خلال القرنين (4-5هـ/ 10-11م) العامل الوحيد الذي أضر بالأفراد الذين مارسوا النشاط الحرفي بمختلف أشكاله (رعي أو حرف تابعة لهذا النشاط)، بل كانوا مرغمين من جهة ثانية على أداء الضرائب، التي تنوعت وزادت حسب حاجة الدولة لها، هذه المسألة التي أولها ابن خلدون أهمية كبيرة مشيرا إلى أن "الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة،... وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية والحضارة الداعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية " [1]، وربما هذا ما يفسر الصراع القائم بين القبائل الرعوية والسلطة القائمة، خاصة وأن دفع المجبى بالنسبة إليهم في مختلف المراحل هو تعبير عن الخضوع إلى المركز السياسي.

غير أن علاقة السلطة بالقبائل الرعوية لم تكن دائما تتسم بالصراع والمجابهة، لأن السلطة الحاكمة هي الراعي الرسمي لكل أفراد المجتمع، ولها مسؤولية حمايتهم من مختلف التظلمات القائمة ضدهم، ومن ثم وجب إبراز قوة وضعف الدولة ومدى تأثير ذلك على وضعها وسط القبائل، قبل أن نتناول مسألة الضرائب وما أحدثته من اضطرابات بين السلطة والقبائل في البادية على وجه الخصوص، مع التركيز على بعض العينات لإبراز طبيعة العلاقة بين السلطة الزمنية والقبائل.

1- تحكم السلطة بالقبائل الرعوية

[1]- المقدمة، ص309.

عاشت القبائل المغربية خلال الفترة الوسيطة على شكل تجمعات سكنية قريبة من بعضها البعض، ذلك أن سيادة البنى القبلية فيها تكمن في شعور أهل البادية بضرورة تأمين العيش، وحماية الذات في ظل غياب السلطة المركزية، الأمر الذي دفعهم إلى السكن في أماكن محصنة من أجل قهر عوارض الحياة [1]، خاصة بالنسبة للمغرب الأوسط، أين شهد البربر تجارب سياسية، جعلتهم في تقلب مستمر، لا سيما خلال مرحلة البحث.

والظاهر أنّ استمرار العداوة بين صنهاجة وزناتة أخذ فيما بعد صبغة دينية بالدرجة الأولى، لكن السبب الرئيسي هو الصراع حول المناطق الرعوية وارتاع مواشيهم فيها؛ فاستغل الفاطميون الوضع وأججوا الصراعات القبلية إلى صراعات إبادة، خاصة بعد شعورهم بعدم جدوى سياسة جعفر بن علي بن حمدون، وفشله في الوقوف في وجه قبيلة زناتة، التي ظلت تؤرق الدولة الفاطمية بثوراتها ورفضها لسلطتها، الأمر الذي جعلها ترمي بهذه المسؤولية على عدو زناتة اللدود قبيلة صنهاجة وزعيمها زيري بن مناد، وأنشأت له ولاية على حدود ولاية جعفر وجعلت قاعدتها مدينة أشير [2]، التي قال القائم الخليفة الفاطمي عند بنائها: "مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر " [3]، وكانت هذه السياسة سببا في حدوث مذابح شنيعة ضد زناتة داخل المدن وخارجها [4].

ويعتقد حسين مؤنس أنّ الخلافة الفاطمية بسياستها هذه كانت "في حقيقتها إعصارا عنيفا هب على بلاد المغرب كلها فقضى على ما كان قائما من الدول في إفريقية والمغرب، وأثار

[1]- مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الوسط ما بين القرنين- 6هـ- 9هـ/ 12م- 15م-، دراسة في دورها السياسي والحضاري، الأمل للنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص58.

[2]- مجاني بوبة، النظم الإدارية للخلافة الفاطمية -في مرحلتها المغربية خلال العصر الفاطمي (296- 362هـ/ 909-973م)، دار بهاء الدين، الجزائر، ط1، 2009م، 280.

[3]- النويري، المصدر السابق، ص304.

[4]- محمد ولد دادة، مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1977م، صص102- 103

القبائل بعضها على بعض لما ألقى من الفتن بينها " [1]، وهذا التخريج جاء بعد استقراء الباحث لمضامين أهم المصادر التاريخية التي وصفت الحملات الفاطمية، خاصة وأنهم كانوا في أعقاب كل حملة يحرزون فيها انتصارا يقومون بعمليات سبي واسعة، في الوقت التي شكلت فيه منطقة "وطن زناتة " (3هـ/ 9م) فسيفساء شاسعة من الإمارات القبلية [2]، خرجت إليها جيوش الخليفة العبيدي للقضاء على الفتن والثورات.

ولا تعوزنا القرائن التي تفصح عن هذا الواقع، ففي سنة 312هـ / 924م مثلا "خرج مصالة بن حبوس من تيهرت إلى زناتة، فأداخ بلدهم وقتل وسبي، وأخرج خيلا إلى بعض نواحي ابن خزر " [3]، وفي سنة 315هـ/ 927م "شن القائم حملة ضد زناتة وبني كملان وكيانة بقيادة جعفر بن عبيد، وحاصرهم بقلعة عقار، وأحاط بهم الجيش من كل ناحية وقاتلهم أبرح قتال وأحرقوا ديارهم ونهبوا ما كان بالقلعة من النعم والخيول والأثاث " [4].

واستمر زحفه سنة 316هـ / 928م على قبائل البربر بالمغرب، فنزل ببرقجانة على "حصنها المعروف بأغزر...فقاتلهم ونقب السور عليهم حتى سقط، وهلك ممن كان تحته وفوقه عدد كبير...وقاتلوا الشيعة حتى قتلوا، وأسر منهم من استأسر وانتهب ما في الحصن" [5]، وفي سنة 347هـ/ 958م خرج جيش كثيف فيه زيري بن مناد، فسار إلى تاهرت، "وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس " [6]؛ فزيري كان شديدا على البربر وأقام على ذلك ستا وعشرين سنة [7].

[1]- حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته- من القرن السادس ميلادي إلى القرن التاسع عشر ميلادي-، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1992م، م1، ص445.
[2]- هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص56.
[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص189.
[4]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، صص216- 217.
[5]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص193.
[6]- المقريزي، المصدر السابق، ص115.
[7]- النويري،المصدر السابق، ص309.

وبعد رحيل المعز إلى مصر (362هـ/ 973م) استخلف يوسف بن زيري على افريقية والمغرب، وهو ما يكشف الشماخي قائلا: "استخلف يوسف بن زيري الصنهاجي، وأوصاه أن يشفي نفسه من زناتة ومزاتة. وقال: تركت لك بإفريقية مائة ألف منزل، فاجعل في كل منزل فارسا تكتفي بذلك، وتأتي على كل من يحاربك" [1]، وعلى هذا الأساس كانت صنهاجة تتجبر وتغصب أموال الناس حسب ما يفيدنا به صاحب كتاب السير [2]، لأن الخلفاء كانوا واثقين من حلفائهم البربر، خاصة وأنهم اعتمدوا على وسائل الإغراء بالمناصب العليا وبالمال الكثير، وتقريب شيوخ القبائل وإقطاعهم الأراضي وإعفائهم من الجبايات [3]؛ فتحرك زيري إلى المغرب المغرب أول حركاته "فهزم زناتة واستأصل شأفتهم، فتح معاقلهم وسبى أموالهم وذراريهم " [4].

ولما هلك زيري بن مناد سنة 360هـ/ 971م، نهض ابنه بلكين سنة 361هـ/ 972م من أشير إلى زناتة ودارت بينهم حروب شديدة، وبعد أن تقلد ما كان لوالده من أعمال، "أثخن في البربر أهل الخصوص من مزاتة وهوارة ونفزة وتوغل في المغرب في طلب زناتة فأثخن فيهم" [5]، فيهم" [5]، ويعبر الإيلاني عن ذلك قائلا: "فأوغل في ديار زناتة وقتل منهم في مواطن كثيرة خلقا خلقا لا يحصيهم إلا الله، واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغاي* وبجاية وبسكرة وجميع المدن بالمغرب حتى لم يبق لزناتة في شيء منها أمر " [6]، ويخبرنا المؤلف نفسه عن زحف بلكين بن زيري إلى المغرب زحفته المشهورة في أول سنة 369هـ/ 1006م بقوله: "فأجفل قدامه ملوك

---

[1]- السير، ج2، ص533.

[2]- المصدر نفسه، ج2، ص589.

[3]- مفتاح خلفات، المرجع السابق، ص63، ص79.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص320.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2442.

*- باغاي، مدينة بإفريقية أولية جليلة بالقرب من مسكيانة. الحميري، المصدر السابق، ص67.

[6]- مفاخر البربر، صص109-110.

زناتة وأرزوا بقياطنهم إلى حائط بسبتة... وهو في جموع عظيمة وقد رهبوا بلقين (بلكين) أشد رهبة مع علمهم أنه في ستة آلاف فارس لا زيادة" [1].

ولا سبيل إلى الشك، في أن مرور الجيوش، وعلى ضخامة أعدادها، وطبيعة تنقلها بمناطق فلاحية، لا يمكن إلا أن يحدث خسائر بالفلاح ومنتوجه النباتي والحيواني، خاصة إذا وقع اختيار الجيوش على الأماكن الطيبة في تنقلاتهم، وانتقائها في استراحتها أفضل "الأرض نزلا، وأكثرها مرعى وماء ومنافع " [2]، ومن غير المستبعد تضرر الرعاة بسبب تحرشات الجيوش، وجمعهم لغنائم شملت الماشية والأغنام، هذه الأخيرة التي كانت أكثر تضررا نتيجة الاضطرابات السياسية التي شهدتها الفترة الممتدة من بداية القرن 4هـ/ 10م إلى غاية نهاية القرن 5هـ/ 11م.

والواضح أنه من الأمور التي كانت تهدف إليها هذه الحملة، هو السيطرة على المجال الحيوي للقبائل الرعوية المغربية وكذلك الجهات الفلاحية، كأنها موجهة نحو ضبط وإخضاع أنصاف الرحل [3]، وكذا نحو ضرب قبائل التجمعات القبلية المغربية، بالتجمع الصنهاجي الشمالي، وقد يتأكد ذلك بإعطاء بني مناد سلطة قبلية تمكنهم من تحقيق هذا المشروع [4]، وهي السياسة التي ترتب عنها انتقال ونزوح قبائل مختلفة من المغرب الأوسط إلى الأقصى، وقد تم هذا الانتقال على شكل هجرة تطوعية خلال المرحلة الأولى الممتدة ما بين 305- 312هـ/ 918-925م، في حين عرفت المرحلة الثانية الواقعة ما بين 315- 361هـ/ 927-972م حركة أكبر وأشمل بالنسبة لقبائل المغرب الأوسط، لأنها كانت هجرة قسرية وهروبا من الانتقام الفاطمي [5].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحركية تكون أحيانا جبرية، ترتكز على نقل القبائل من مواطنها الأصلية وتقريبها من مركز السلطة لمراقبتهم، والأمثلة عن ذلك كثيرة، منها ما أقدم عليه علي بن حمدون لما بنى المسيلة، حيث أمره القائم الفاطمي "أن يتخذها دارا

[1]- الإيلاني، المصدر السابق، ص118.

[2]- ابن هذيل، عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم581 د، ورقة 21.

[3]- هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص360.

[4]- المرجع نفسه، ص335.

[5]- بن معمر محمد، المرجع السابق، ص178.

وينزلها مع عجيسة وجماعة من العبيد" [1]، كما جهز المعز الفاطمي جيوشا إلى أرض المغرب "لتتبع كلّ من مال إلى بني أميّة بالقتل واجتياحهم عن جديد " [2]، فخرج زيري على رأسها متجها "إلى طبنة والمسيلة وحمزة فنقل منها وجوه الناس إلى مدينة أشير فعمرت وجاءت حصنا منيعا " [3]، ولما وصل خبر نزول زناتة على تلمسان خرج إليهم أبو الفتوح (يوسف بلكين) "فهربوا بين يديه فحصر تلمسان مدة فنزلوا على حكمه فعفا عنهم من القتل ونقلهم إلى أشير فبنوا بقربها مدينة سموها بلنسان " [4].

الراجح أنّ العبيديين تعمدوا إخلاء المغرب الأوسط من القبائل التي كانت تهدد وجودهم في المنطقة، على رأسهم سكان جبل أوراس، الذين أظهروا العصيان ولم يدخلوا تحت "طاعة السلطان لامتناع جبلهم العريض الطويل، ولما عندهم من الخيل والرجالة والأسلحة " [5]، الأمر الأمر الذي دفع بالفاطميين إلى إتباع سياسة التهجير القسرية، أو عملية تخريب المدن، فترتب عن ذلك انعكاسات سلبية، خاصة بالنسبة للثروة الحيوانية، إذ تأثرت من حيث التوزيع وعملية الإبادة في كثير من الأحيان.

ولم يكن الفاطميون الوحيدين الذين أقدموا على هذا العمل؛ فحماد لما اختط مدينة القلعة بجبل كتامة، نقل إليها أهل المسيلة وحمزة وخربهما [6]، بهذا تكون الحروب والفتن قد بلغت حدا حدا أهلك الزرع والحرث والنسل، فلا بيئة تراعى، ولا عمران يصان، ولا حيوان يرفق به [7].

والظاهر، أنّ عملية الإجلاء كانت سببا في ظهور مشاكل بين الأفراد، الأمر الذي استدعى تدخل الفقهاء؛ حيث سئل الداودي عن "قوم أجلوا عن أرضهم وأسكنوا بلدا كُرها بذراريهم قد منعه أهله أن يسكنوه بذراريهم. فأخذ عليهم أن لا

[1]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص217.

[2]- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1997م، ص158.

[3]- النويري، المصدر السابق، ص305.

[4]- المصدر نفسه، ص312.

[5]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص145.

[6]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2455.

[7]- قطب الزيتوني، المرجع السابق ص38.

يـزول منـه أحـد مـنهم. وخـاف مـن زال مـنهم وقـوع السـلطان بـه، كيـف يعمـل مـن أراد التحري؟ قال: إن وجد من يحلله مـن أهـل ذلـك البلـد فليفعـل. ويحـل لـه محـل مـا حلـل لـه مـن سـكنى أو حـرث أو غلـة، وإن لم يجـد ذلـك والقـوم معلومـون فليسـكن أقـل مـا يكفيـه هـو وأهلـه، ويـؤدي كـراء ذلـك إلى أهلـه إن عـرفهم أو إلى المسـاكين إن يـئس مـن معـرفتهم" [1]، وهـذا دليـل علـى مـدى سـوء الأحـوال الاجتماعيـة لـبعض الأفـراد المجـبرين على ترك مواطنهم صوب مناطق أخرى.

وفي نفس السياق لا ننسى الاضطرابات التي عرفتهـا العلاقـات الصـنهاجية الداخليـة، أي بين بني زيري بالمغرب الأدنى وأبناء عمومتهم الحماديين بالمغرب الأوسط، على سـبيل المثـال لا الحصر المعركة التي وقعت سنة 406هـ/ 1016م بين باديس بـن المنصـور (ت406هــ/ 1016) وابن حماد، وانهزم هذا الأخير هزيمة مستأصلة، وانتهب عسكره، فاتنى راجعا إلى قلعته، مخربا ما يقابله في الطريق من مدن [2]؛ فالحروب والتقلبات السياسية والاجتماعيـة الـتي دارت في المغـرب الأوسط كان لها دور خطير في تراجع العمران وانهياره، دون أن ننسى دورها الفعـال في تقلـص المساحات المزروعة وتراجع الإنتاج الزارعي، فاضطر الكـثير مـن الفلاحـين إلى سـكنى الجبـال، بينمـا أصـبحت السـهول الخصـبة مجـالا للرعـي والانتجـاع، وهـذا دليـل علـى غيـاب الأمـن والاستقرار، وأصبح الأفراد غير قادرين علـى حمايـة ممتلكـاتهم، وهـو مـا توضـح العديـد مـن النصوص التي تؤكد على تفشي ظاهرة الغصب والتعدي خـلال فـترة البحـث (4-5هــ/ 10-11م).

واضـطر الكـثير مـن أهـل القـرى هجـرة ديـارهم وتـرك أملاكهـم، لينزاحـوا إلى أمـاكن أخـرى، في مـأمن مـن الـبطش والتعـدي، أو مـن شـبح الجـوع والوبـاء وشـتى الكـوارث البشـرية والطبيعيـة، هـذا الوضـع الـذي يصـوره الوسـياني مـن واقـع المجتمـع بـالمغرب الأوسط بقولـه: "وقـال بعضـهم لـبعض: علمـتم أريـغ بلـد العافيـة، لـيس فيـه غصـب، وقـد

[1]- الأموال، تحقيق رضا محمد سالم شحاده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، ص182.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص263 وما بعدها.

انتجعها الناس من المشرق إلى المغرب" [1]، ويضيف المؤلف نفسه أن غنما حراما جلبها بنو سنجاسن في أريغ، فطردهم الشيوخ [2]، وهو تأكيد على وجود ظاهرة الغصب والتعدي على أموال الناس.

كما يضيف المؤلف نفسه من خلال إشارته لرجل "أعطى غنما له لآخر ألجأه إليه وطمأنينة خوف العدو، فلما زال ما التجأ إليه طلب غنمه، فأبى عليه أن يردها، فاختصما إلى أبي صالح*، فقال له أبو صالح: رد له غنمه، فقال أعطاها لي، فقال له: ردّ عليه غنمه، فقال أعطاها لي، فقال له متهجما: اردد عليه غنمه يا مشؤوم، فردها عليه" [3]، حتى أن القرية في وضع كهذا لا تعمر طويلا، وتتحول إلى خراب، مثلما حدث بتاهرت، ومدينة أشير التي خربها يوسف بن حماد بن زيري وذلك بعد 440هـ/ 1049م، واستباح أموالها، وفضح حرمها، ثم تراجع الناس إليها بعد سنة 455هـ/ 1063م [4]، وربما تعمد جماعات أخرى إلى أخذ مكان غيرها وحوز الملكية.

ومن النصوص الفقهية التي تثبت ذلك، جواب الداودي عن الذي اغتصب بقرا ليحرث أرضا حلالا بزريعة حلالا، هل يجوز أن يشتري منه ما رفع من ذلك الحرث؟ قال: "اشتراؤه منه مكروه حتى يصلح شأنه في... البقر" [5]، ويضيف المؤلف نفسه: "وقول أصحابنا: إن من اغتصب شيئا من الحيوان، الذي يجوز أكله فذبحه، وأدركه ربه لحما لم يطبخ، أن ربه مخير في أخذ اللحم، أو قيمة شاته" [6]، أما نتاج المغصوب من الدواب وسائر الأنعام، التي ماتت أمهاتها وبقي الأولاد، أو العكس، يطلعنا عنه قائلا: "قول أكثر أصحابنا أن ربها مخير في أخذ ما بقي،

[1]- سير الوسياني، ج1، ص462.

[2]- المصدر نفسه، ج2، ص682.

* أبو صالح، جنون بن يمريان السدراتي، فقيه إباضي من وارجلان، وصاحب كرامات، عاش أواخر القرن 3هـ/ 9م وبداية القرن 4هـ/ 10م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص951.

[3]- السير، ج1، ص286.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص216.

[5]- الداودي، المصدر السابق، ص185.

[6]- المصدر نفسه، ص186.

ولا شيء له فيما مات أو أخذ قيمة ما هلك بسبب الغاصب "[1]؛ فقضايا الغصب خلال عصر الداودي كانت كثيرة، اقتصرنا على بعضها، ويذكر ابن الحاج أن "الديون من الغصوب والعداء فإن كان أرباب ذلك المال معلومين فوجد ما بيده أن يرده إلى أربابه ولا يتصرف منه بشيء وصاحبه حاضر عالم وأما إن كان أصحابه مجهولين غير معلومين فوجهه أن يتصرف به ولا يأكله ولا يمسكه"[2]، إذن، غياب السياسة الأمنية فتح المجال أمام تمردات وتحرشات القبائل ذات النجعة والحرب على المناطق الفلاحية، ورافق ذلك ضروب من الغصب والتعدي.

لقد ساهمت هذه الأوضاع في توتر العلاقة بين السلطة القائمة والقبائل، مما أدى إلى ظهور حركات مناهضة لها، كان لها آثار بالغة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، علما أن "استصلاح أحوال الرعية والعدل فيهم، والإنصاف لهم، والرفق بهم، والعون لهم، والتوسعة عليهم، والتخفيف عنهم، هو السبب في عمارة البلاد، وعمارة البلاد هي السبب في استكثار الفوائد والغلات وتنمية المال وزيادة الخراج"[3].

وهو ما يمكن أن تحققه القبائل البدوية التي عرفت حالة الاستقرار بممارستها للنشاط الزراعي وتربيتها للماشية، أي استقرارها بالبادية التي سهلت عليها عملية الاحتكاك بالمدن، مركز الإشعاع الحضاري، وهذا ما ساعدها على تطوير أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، ومنطقة الهضاب الشمالية، سواء بشرق نهر ملوية أو بغربيه إلى نهر شلف، تعتبر منطقة عبور ومرور للقوافل التجارية، وجهات جذب وطرد للسكان، لذا كانت إقليما لتكوين التجمعات البشرية، فكلما استولت مجموعة على هذه الجهات، إلاّ وتطرد الذين كانوا قبلها، وكانت تقع مثل هذه الظواهر كلما حدث ضعف في السلطة المركزية، وانعدم الأمن [4].

في هذه الحالة تبرز سياسة الدولة القائمة بالرغم مما أخذ عنها من سلبيات، إلاّ أنها تلعب دورا هاما في ضبط العلاقة بين القبائل، خاصة بالنسبة للبدو الرحل، الذين يعيشون بمنأى عن

[1]- الداودي، المصدر السابق،ص186/ ينظر البرزلي حول مسائل الغصب، المصدر السابق، ج5، صص120-127.

[2]- نوازل ابن الحاج، ورقة 330.

[3]- ابن سماك العاملي، رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير، تحقيق د. سليمان القرشي، منشورات، محمد علي بيضون، ط1، 2004م، ص149.

[4]- هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص90.

السلطة المركزية، ولا يدفعون ضرائب ولا يخضعون للمراقبة وإنما تكتفي منهم الدولة، حتى في إبان قوتها، بمجرد الولاء والتبعية الاسمية، ولا تعوزنا الأدلة الكاشفة عن مدى أهمية قوة الدولة في إخضاع القبائل، من ذلك نص الإدريسي الذي يصف من خلاله إحدى القبائل [1] المتواجدة بين مدينتي قسنطينة وبجاية قائلا: "وهذه القبيلة من البربر قوم يعمرون هذه الجهات ولهم منعة وتحصن وهم أهل خلاف وقيام على بعض الجبايات التي تلزمهم لا تؤخذ منهم إلاّ بعد نزل الخيل والرجال عليهم" [2].

كما يكشف لنا ابن الصغير عن موقف الإمام أفلح من بعض القبائل المحيطة بعاصمته قائلا: "خاف أفلح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل ملكه، فلما رأى ذلك أرش ما بين كل قبيلة ومجاورها فأرش بين لواتة وزناتة وما بين لواتة ومطماطة وما بين الجند والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب، وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفا من أن يعين صاحبتها عليها" [3]، غير أن الخطوة التي أقدم عليها أفلح سيكون لها سلبيات خلال المراحل القادمة من عمر الدولة، والحلول الاستثنائية التي وضعها لم تمكنه من إزالة خطر القبائل المحيطة بتاهرت.

ومن النصوص الدالة على دور السلطة في إخضاع القبائل إشارة ابن الصغير أيضا إلى أنّ أبا حاتم (281هـ/ 894م- 294هـ/ 907م) خرج في جيش مع وجوه زناتة "ليجروا قوافل قد أقبلت من المشرق، وفيها أموال لا تحصى قد خافوا من قبائل زناتة" [4]؛ فهذا تأكيد على خطر القبائل المتمردة، الأمر الذي دفع بأبي حاتم إلى الخروج على رأس جيش ليراقب ويؤمن وصول القافلة إلى تاهرت، ولن تختلف الفترات اللاحقة عما سبقها.

وتجدر الإشارة إلى ثورة أبي يزيد مخلد وأثارها البشرية الخطيرة حيث قتل فيها الآلاف، وكانت سببا في اختلاط أملاك الناس في الغنم [5]، ولولا قوة الدولة ومكانتها السياسية

[1]- يذكر الإدريسي المكان ب "سوق بني زندوي". المصدر السابق، ج1، ص267، أما صاحب الاستبصار فيسميه "جبل زلدوي" وتشير إلى أنه كثير الخصب وفيه قبائل كثيرة من البربر. المصدر السابق، ص128

[2]- نزهة المشتاق، ج1، صص267-268.

[3]-أخبار الأئمة الرستميين، ص63.

[4]- المصدر نفسه، ص104.

[5]- القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2، ص149.

والعسكرية لا انتهكت أموال الناس وأعراضهم، لأن القبائل التي خرجت مع هذا الخارجي كانت تهدف إلى نهب الأموال [1]، كما يصور صاحب افتتاح الدعوة خطورة الوضع قائلا: "...والناس بعقب فتنة. وإطراف المملكة على سبيل المعصية، والسبل خائفة، ولما تنجل طخواء الظلمة ولا خمد لهيب نار الفتنة، ورؤساء القبائل الذين كانوا أهاجوا الحرب وأوقدوا نارها ممتنعون في معاقلهم من الجبال والأطراف..." [2].

وبالقضاء على هذه الثورة انكسرت شوكة زناتة، وانزاحت أعداد كبيرة منها إلى الغرب، كهجرة بني يفرن إلى تلمسان [3]، وكذا فرار قبيل هوارة الذين قاموا بنصرة أبي يزيد من جبل أوراس أمام المعز وجيوشه بقيادة بلكين بن زيري بن مناد، "فهزمهم بلكين وفرق جموعهم وشتتهم فتمزقوا أيادي سبأ وتبددوا في بلاد الزاب وغيرها، ومنهم من وصل إلى بلاد السودان فأقام بها، فما التقى رائح منهم بمبكر" [4].

ولما أصبح حماد أميرا على الزاب والمغرب الأوسط تتبع هو الآخر زناتة، متوليا لحربهم "وكان نزوله ببلد أشير والقلعة متاخما لملوك زناتة وأحيائهم البادية بضواحي تلمسان وتاهرت" [5]، كما استعان الحماديون بالقبائل العربية واستعملوها في قتال المرابطين الذين شكل شكل لهم المغرب الأوسط أهمية كبيرة لأنه كان يحرس المغرب الأقصى [6]، وتحكمت في علاقتهم علاقتهم المصالح وظروف الامتداد المرابطي، الأمر الذي جعل الحماديين يتبعون سياسة يكتنفها الحذر، والوقوف ضدهم [7]، كما حاصر الناصر بن علناس بمساعدة الأثبج من العرب مدينة الأربس سنة 460هـ/ 1068م، وبقي عليها حتى افتتحها [8].

---

[1]- الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص100.

[2]- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، دون تاريخ، ص335.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص ص2072.

[4]- ابن حماد، المصدر السابق، صص48- 49.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2455.

[6]- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص178.

[7]- المرجع نفسه ، ص182.

[8]- نفسه، ص299.

ومن الأمثلة أيضا ما قام به يوسف ابن تاشفين، بعد بناء مدينة مراكش، وجعلها مدينة المرابطين؛ إذ صرف عزمه "إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب، وجدب الحبل من أيديهم، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم" [1]، واللافت إلى الانتباه هو السياسة التوسعية المرابطية على المغرب الأوسط للقضاء على بقايا الزناتيين، لينصرفوا بعد ذلك إلى فتح السهول الشمالية باطمئنان، لكنهم اصطدموا ببني عمومتهم من بني حماد، الذين أرهقتهم المشاكل الداخلية، زد على ذلك توسع القبائل الهلالية وتهديدها لهم بما أحدثته من خراب ببعض مدن الجهة الشرقية للمنطقة، الأمر الذي دفع بالمرابطين إلى التدخل لأنهم أيقنوا أن الحماديين لم تعد لهم القوة الكافية من أجل رضخ قبائل زناتة.

وبموازاة ذلك، ساهم بسط الدولة اللمتونية لنفوذها على النصف الغربي من المغرب الأوسط في تجنيب المغرب الأقصى شر بني هلال [2]، غير أن عبد الحليم عويس عويس يرجح تعليلا آخر يرتكز على أن الناصر بن علناس الذي قاد الدولة الحمادية خلال هذه الفترة، رأى من الحكمة أن يترك القوتين المنافستين له في الجهة الغربية ينهكان بعضهما البعض، ورأى أن من مصلحة دولته التي كانت تروض القبائل العربية وتخشاها، ألا تدخل في صراع مباشر مع دولة المرابطين التي كانت في أوج تقدمها الحربي [3]، وفي نفس الوقت لم ترقهم فتوحات الأمير يوسف لجهة الشرق عند عند حدود بجاية حيث يتواجد الحماديون، وأخذوا يتحينون الفرص للوثوب على أطراف مملكة المرابطين [4].

إذن، قوة الدولة ومكانتها السياسية والعسكرية يلعبان دورا كبيرا في حفظ أمن وسلامة الرعية، وكذا ضبط مصالحها الداخلية، وتساهم بدرجات متفاوتة في إبقاء هذه القبائل في

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، صص2466- 2467.

[2]- حمدى عبد المنعم محمد حسن، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، دون طبعة، 1997م، ص230.

[3]- الدولة بني حماد، ص126.

[4]- عباس نصر الله، المرجع السابق، ص157.

منتجعاتها بالقفر تطارد العشب في تنقلاتها، أو في أماكن استقرارها تنتج ما يكفيها من المعاش، أو تقوم بدور المرشد والحامي للقوافل التجارية، أو تغزو بعضها بعضا [1].

ولا سبيل إلى الشك، في أن ضعف السلطة المركزية، وعجزها عن فرض نفوذها على الأطراف، يجعل القبائل تسرع باتجاه المناطق الخصبة، وتتوغل في أراضي الدولة، مزاحمة أهلها، بل مستأثرة بخيرات الأرض، سالبة الأموال من زرع وماشية، والنتيجة هي الحرب الدائمة [2]، قد تنتهي بفناء هذه القبائل وتشتتها، أو فرارها إلى منتجعاتها، أو انتصارها وتطلعها لأدوار أخرى تحافظ بها على ما اكتسبته من أموال، وربما هذا ما ينطبق على تاهرت، التي اشرأبت أعناق القبائل البدوية في أواخر حكم الرستميين إلى السلطة، بعد اختلال موازين القوى الاجتماعية [3]، وهي النتيجة المتوقعة من سياسة أفلح المشار إليها سالفا.

صفوة القول، إن الاقتصاد الرعوي يضايق الزراعة والغرس بتحول الحقل إلى مرعى، لا سيما خلال فترة الاضطرابات والفوضى السياسية، حسب ما أفادتنا به المصادر التاريخية المعول عليها من خلال موضوع البحث، لتكون النتيجة الحتمية المترتبة عن ذلك هي قلة الأشجار، وضعف الغطاء النباتي، وبالتالي يتعذر العودة إلى إنتاج زراعي، وتهجر القرى، ويغادر السكان مواطنهم، وتتباعد الأحياء وتحل الخيام محل الدور، أي سيطغى الرعي المتنقل على المستقر، هذا الأخير الذي سيفقد كل الشروط اللازمة لممارسته.

2- الضريبة والسلطة الزمنية

أ- المرحلة الفاطمية

مثلت بلاد المغرب أحد المصادر المالية الهامة بالنسبة للخلافة الفاطمية خلال القرن (4هـ/ 10م)، واستعملت شتى الوسائل لجمعها، حتى وإن جاء عبئها ثقيلا على الأفراد، وهذه السياسة تتضح من خلال شهادة ابن حوقل، حول الجباية الفاطمية التي كانت مطبقة في إفريقية قبل بضع سنوات من رحيل المعز لدين الله إلى القاهرة، هذا الجغرافي استقى مباشرة من الداعي

[1]- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص24/ حميد تيتاو، المرجع السابق، ص113.

[2]- المرجع نفسه، ص25.

[3]- إسماعيل محمود، المرجع السابق، ص77.

أبي الحسن بن أبي علي، صاحب بيت مال أهل المغرب أنه "في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه عن خراج عشر وصدقات ومراع وجوال ومراصد، وما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والأندلس فيعشر على سواحل البحر، وما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر ويلزم ما يرد منها من بقيمة العين والعين المجتبى من هذه الوجوه، فيكون من سبع مائة ألف دينار إلى ثمان مائة ألف دينار؛ قال: ولو بسطت يده فيه لبلغ ضعفه" [1].

ويصرح المؤلف نفسه أن زيادة الله أبي نصر بن عبد الله بن القديم قد أفاده سنة 360هـ/ 971م بنفس المعلومة التي استقاها من الداعي أبي الحسن بن أبي علي، وكان زيادة الله صاحب الخراج بافريقية وجميع المغرب وكأنهما تفاوضا القول وعلما وجوه ذلك [2]، وذِكر الصدقات والمراعي ورد جنبا إلى جنب لدى المقريزي، حيث أشار قائلا: "بعث المعز خفيفا الصقلبي إلى شيوخ كتامة، يقول: يا إخواننا قد رأينا أن ننفذ رجالا من قبلنا إلى بلدان كتامة، يقيمون بينهم يأخذون صدقاتهم ومراعيهم، ويحفظونها علينا في بلادهم" [3]، أي الضرائب مست كل القطاعات الاقتصادية النشطة من زراعة وصناعة وتجارة، وعلى الداخل والخارج.

أما الدلائل التي تثبت شمولية الضرائب لكل القطاعات الاقتصادية بالمغرب الأوسط إشارة صاحب صورة الأرض لمدينة تنس قائلا: "وهي من أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها. ولسلطانها بها وجوه من الأموال كثيرة: كالخراج والجوالي والصدقات والأعشار ومراصد على المتاجر الداخلة إليها والخارجة والصادرة والواردة، علمًا أن لها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها أموال جسيمة غزيرة" [4]، وكان على البربر بالقرب من المسيلة "صدقات وخراج غزير" [5]، واقترن هذا بما

---

[1] - صورة الأرض، ص94.

[2] - المصدر نفسه، ص94.

[3] - إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر، دون طبعة، 1948م، ص140.

[4] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص78.

[5] - المصدر نفسه، ص85.

توفرت عليه من محاصيل زراعية وثروات حيوانية، عموما هذه النصوص تشير إلى بعض ما جمع من أموال بالمغرب الأوسط خلال القرن 4هـ/ 10م، وهي فترة التواجد الفاطمي بالمنطقة.

والظاهر أنّ جباة الدولة قد حرصوا على تحصيل الأموال؛ حيث يكشف لنا الشماخي ذلك قائلا: "وخرج عامل الظلمة إلى قبيلته* وهم أهل مواشي، وقال: كلما بتّ، ضاعفت عليكم الطلب. فلم يكترثوا بقوله حماقة وخرقا، لا قدرة ولا عزّا. فقال أبو محمد للعامل: "امنعهم من أن يسرحوا مواشيهم حتى يعطوك، ففعل وفعلوا" [1]، وموقف هذا الشيخ فيه صلاح للقبيلة، لأن الساعي كان مصرا على جمع أموال بيت المال الفاطمي، والنص أعلاه يؤكد ذلك، يضاف إلى ذلك، أنه كلما طال مكث الجابي بينهم إلاّ وزاد عليهم قيمة ما سيجمعه، الأمر الذي دفع بالشيخ للتدخل رأفة بحالهم، حتى العلماء تضرروا من الاستبداد الضريبي، منهم على سبيل المثال "أبو جعفر بن أحمد بن زياد" (ت 318هـ/ 930م) الذي "امتحن في آخر عمره بمغارم السلطان الحادثة على أهل الضياع فانكشف وأكبّ عليه الغرم" [2].

بالمقابل، كان القاضي النعمان حريصا على وصول الأموال إلى بيت المال الفاطمي، وهو ما وضحه في كتابه "الهمة في آداب أتباع الأئمة"، في الفصل العاشر الذي تحدث فيه عن "ذكر ما يجب للأئمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات"، مستهلا الحديث عن الصدقات، كأول مورد مالي في الإسلام، لتتبع باقي الموارد من غنيمة وغيرها مقتصرا على التعرض إلى الآراء التي ترى وجوب دفعها، ولو كان إلى إمام جائر، أو عامل ظالم [3]، وتطبيقا لهذه السياسة يحدثنا ابن عذاري عن أحداث سنة 307هـ/ 652م، فيقول: " وفي سنة 307هـ كان بإفريقية [وما والاها إلى مصر] طاعون شديد وغلاء سعر، مع الجور الشامل من الشيعة، والتعلل على أموال الناس في كل جهة" [4].

*- قبيلة الفقيه أبو محمد جمال المزاتي المديوني. دعا تحت إمرة أبي خزر يغلا بن زلتاف للقيام على المعز لدين الله الفاطمي إثر مقتل أبي القاسم يزيد بن مخلد، الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص1007.

[1]- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص452.

[2]- أبو العرب التميمي، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ ، ص168.

[3]- تحقيق مصطفى غالب، مكتبة الهلال، بيروت، دون طبعة، 1985م، ص75 وما بعدها.

[4]- البيان المغرب، ج1، ص181.

وأصبح لقواد الجيش الفاطمي الحرية في إتباع الأساليب التي يرونها لجمع الأموال، مثلما فعل أبو الفتوح يوسف بن زيري في أول حركة له إلى المغرب "فهزم زناتة واستأصل شأفتهم، فتح معاقلهم، وسبى أموالهم وذراريهم" [1]، وأصبح جمع العمال للأموال الطائلة لفائدة بيت المال الفاطمي وسيلة للحظوة لدى الخليفة وتولي المناصب العليا [2]، وعاملا في الحكم على نجاح العامل أو فشله، ويمكن للمتقبلين أن يطالبوا بتولي شؤون عمل من الأعمال عن طريق ضمان مبالغ أكثر من الضرائب، وهذا ما دفع الأستاذ جوذر أن يبعث كتابا للمعز يخبره بتطاول العمال إلى الزيادة على جعفر بن علي يقول فيه: "يا مولاي، صلى الله عليك، هذا بلد كثر القول فيه وتطاول المتقبلون إليه فالواجب عقده على من طلبه، ولا يذهب مال مولانا خسارة" [3].

ومن المؤكد أن هذه السياسة جاءت لصالح عناصر معارضة للسلطة للقيام بحركات ضدها، منها ثورة أهل نفوسة سنة 310هـ/ 923م بسبب المغارم والإتاوات على أهل بوادي وقرى نفوسة، والثورة التي قادها أبو يحي زكريا الأرجاني* "أبو بطة"، وهزم الشيعة عند قريتي الجزيرة** وتركت***، غير أن الثورة فشلت ودفع أهل نفوسة المغارم والإتاوات التي غالى الفاطميون تقديرها [4]، ومن مظاهر هذه السياسة

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص320.

[2]- الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص76.

[3]- سيرة الأستاذ جوذر، ص129.

*- أبو يحيى زكريا الأرجاني، من أرجان (جبل نفوسة)، تولى إمامة الدفاع، كان قاضيا لنفوسة مدة خمسة عشرة سنة تقريبا وحاكما لها بعد نهاية إمامة أبي حاتم يوسف بن رستم (296هـ/ 909م)، قتل سنة 311هـ/ 923م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص1046.

**- الجزيرة حصن ذو موقع استرتيجي، غرب جبل نفوسة. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص849.

***- يذكر البكري "بنو زمور ولهم حصن يسمى تيرقت في غاية المناعة"، المسالك والممالك، ج1، ص181، كما يفيدنا محقق كتاب سير الشماخي أن تركت قصر شرق لالوت، غرب جبل نفوسة، وقعت فيه معركة بين نفوسة والفاطميين سنة 310هـ/ 922م. المصدر السابق، ج3، ص838.

[4]- الشماخي، المصدر نفسه، ج2، صص389- 390/ يذكر ابن عذاري الأحداث التي وقعت بين الطرفين، المصدر السابق، ج1، ص187.

أيضـا، الأمـر الـذي أصـدره المهـدي سـنة 309هـ / 921م بـأن يكـون طريـق الحـج علـى المهدية لأداء ما وظف عليهم من المغارم، وألا يتعدى الطريق أحد [1].

كما جعل البعض من هذه السياسة ذريعة لجمع الأنصار، مثلما فعل أبو يزيد مخلد "صاحب الحمار" الذي ذكرناه في مواطن سابقة من هذه الدراسة؛ حيث أتاه البربر من كل ناحية ينهبون ويقتلون ويرجعون إلى منازلهم [2]، ودخلت بذلك الدولة الفاطمية مع أبي يزيد في معارك دمرت وخربت وقتل فيها المئات من سكان بلاد المغرب [3]، فأصيب الناس بالذعر، وتعطلت الكثير من الأنشطة الاقتصادية، وخربت المدن واستنفدت الأموال، واهلك الزرع والضرع عبر العديد من المناطق، وأسباب التذمر وقيام القبائل، خاصة الزناتية، يعود في الواقع إلى العامل الاقتصادي والاجتماعي، وهذا ما تثبته نتائج المناظرة التي جرت بين أبي يزيد والمنصور الفاطمي عندما ألقى عليه القبض سنة 336هـ / 947م، ولما سئل عما نقم فيه على الخليفة الفاطمي، كان رده: "هذه القبالات التي فيها الجور على المسلمين. فقمت منكرا لذلك، أريد إصلاح أمور الناس" [4]، أي مسألة الضرائب دفعت بالأهالي إلى الانتفاضة، كما حملت بعضهم إلى تأييد الخوارج واعتناق مبادئهم بسبب موقعهم إلى جانب الناس البسطاء، وكفاحهم لرفع الظلم الاجتماعي عنهم وتحقيق المساواة والعدل لجميع أفراد الرعية [5]، خاصة وأن عددا كبيرا من الأفراد بالبادية قد تضرروا من هذه الضرائب.

غير أن النظام الجبائي عرف تغيرا في بعض الحالات، أي اضطر الخليفة أن يخفف من ثقله لأسباب سياسية أو اقتصادية، قصد إصلاح الوضع، ومن ذلك محاولة الإصلاح التي قام بها المنصور الفاطمي بعد الأحداث الخطيرة التي عاشها المغرب أثناء انتفاضة صاحب الحمار، ويخبرنا عماد الدين إدريس عن ذلك قائلا: "فقد ترك الأمير أعزّه الله، ما يجب عليكم في هذه السنة الآتية 335هـ/ 947م، من العشر والصدقات وجميع اللوازم، وفعل ذلك في جميع الناس

[1]- ابن حماد، المصدر السابق، ص28/ ابن عذاري، المصدر نفسه، ص186.

[2]- ابن الأثير، المصدر السابق، ص1217.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص217 وما بعدها.

[4]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص447.

[5]- محمد محفل وآخرون، المرجع السابق، ص414.

مسلمهم وذميّهم، ورفقا بهم، وعونا بهم على عمارة أرضهم وبواديهم، فليبلغ الشاهد الغائب، وليرجع كلّ بدوي منكم إلى باديته بلا مرزئة (الداهية والمصيبة) عليه ولا كلفة، ثم إنّه لا يؤخذ منهم في إقبال السنين إلاّ العشر والصدقة من الطعام، والشاة والغنم، والثور من البقر، والبعير من الإبل على فرائض الله سبحانه، وسنّة جدّي رسول الله" [1]؛ فالإشارة إلى "جميع اللوازم" واضحة، وهي تجاوزات دفعت بأهل المغرب إلى إطلاق العنان لثوراتهم، فاضطر المنصور إلى تغير أوضاع المغرب، بإعفائهم من ضريبة العشر والصدقة وغيرها من المغارم الشرعية وغير الشرعية، من المسلمين والذميين، رفقا بهم وعونا لهم على تعمير بواديهم.

رغم محاولات تخفيض الضرائب من حين إلى آخر تماشيا والظروف الخانقة التي حلّت بالبلاد إلاّ أنّ مداخيل بيت المال ظلت مرتفعة، واستمر الجباة في إرهاق السكان بالمطالب الضريبية، مع الحرص على جمعها وعدم رفع السوط عن أصحابها، ولم يقبل تأخير دفعها؛ فالمعز لدين الله الفاطمي منع العمال من جمع جباية أكثر من سنة، وطالبهم أن يدفعوا جباية كل سنة عند انقضائها خوفا من أن يؤدي التأخر في دفعها إلى العجز عن الوفاء بها بعد ذلك، فكتب إلى جوذر بقوله: "وأمرنا أصحاب الدواوين أن لا يقبلوا من العمال إلا اتصال ما لكل سنة عند انقضائها، فمن عجز في أول سنة كان عنه في التي تليها أعجز وتلافى النظر في الأول أحق من النظر في أدبار الأمور" [2]، أي لم يراع ما قد يقع فيه الأفراد من أزمات، وهو ما عبر عنه ابن السماك قائلا: "إن تقرر أنّ كورة من الكور عجزت عما وظف عليها لحادث حدث من طول قحط، أو دوام مطر، أو رخص سعر، أو داء أسرع في الناس، أو آفة عظيمة أصابت المواشي والثمار، فيبعث لذلك من ينظر فيه ممن يثق بنصيحته، ويستناب إلى رأيه، ويأتي ببياناته، ويرفع تسمية أهله، ويأمره بتخفيفه وحط ما ينبغي له حطه" [3].

إذن، السياسة الفاطمية ببلاد المغرب قامت على الجشع المالي، والحصول عليه بشتى الطرق، مستهدفة خيرات الأرض والثروة الحيوانية، والواضح أن هدفها في

[1]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، صص379- 380.

[2]- الجوذري، المصدر السابق، ص96.

[3]- رونق التحبير، ص150.

الاستيلاء على الخلافة العباسية دفعها إلى تكوين جيش قوي يتطلب مصاريف كبيرة لا تستطيع أموال الزكاة تغطيتها، ومن ثم وقع خلفاؤها في نفس الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة الأغلبية قبلهم بفرضهم ضرائب باهظة لم يتقبلها الأهالي، خاصة وأنها تخالف الشرع [1].

لكن محمود إسماعيل [2] ينفي هذه الفكرة، مؤكدا على أنه اتهام من فئة سنية صودرت ضياعها بعد قيام الدولة الفاطمية، التي سعت جاهدة للتوفيق بين مصلحة الدولة والعدل في الرعية، في حين نجد رأيا آخر [3] يؤكد أنه بفضل ثروات بلاد المغرب أمكن للفاطميين أن يقيموا ملكهم بمصر، وأن يقيموا إمبراطورية عظيمة لها شأن، علما أن أغلب الفلاحين كانوا العصب المحرك للحياة الاقتصادية، لما في إنتاجهم- النباتي والحيواني- من تأثير على النشاط التجاري، وهذا رأي يمكن الأخذ به، لأن المصادر السنية والإباضية المطلع عليها تتفق في هذا الجانب، وبالعودة إلى ما ألفه القاضي النعمان، ومن خلال حرسه على جمع أموال الرعية لصالح بيت المال الفاطمي، يتأكد لنا أن فكرة محمود إسماعيل تحتاج إلى مبررات لإثباتها.

ب- المرحلة الصنهاجية

1- العهد الزيري

استمرت السياسة الضريبية المجحفة ببلاد المغرب حتى بعد رحيل الفاطميين، وهو ما توضحه وصية المعز لدين الله لخليفته على بلاد المغرب قبل توجهه صوب مصر، قائلا: "لا ترفع الجباية عن أهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر... واستوص

[1]- Alfred Bel, La religion musulman en berbérie, -esquisse d'histoire et de sociologie religieuse-, paris, 1938, t1, pp159- 160.

[2]- سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، صص123- 124.

[3]- عبد العزيز مجدوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، دار ابن سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2008م، 252/ وهو نفس ما يذهب إليه إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص67.

بالحضر خيرا" [1]، وقد تعود هذه الوصية للخطة الجديدة التي رسمها المعز لاسترداد ما ضاع من أموال خلال ثورة أبي يزيد مخلد، كما يشير القاضي النعمان إلى مسألة ناقشها هو والمعز فيما يخص دفع الضرائب قائلا": والله للقليل الذي يأتي به هؤلاء وأمثالهم من كسب أيديهم على ضيق معايشهم وغباوتهم لا يريدون بذلك سُمعة ولا رياءً ولا يبتغون به نيل منزلة من منازل الدنيا، لأزكى عند الله تع (تعالى) وعندنا من كثير مما يأتي به أهل السعة والغني والجدة ممن نعرفه [2]."

وبهذا يكون بنو زيري قد حافظوا على الضرائب التي فرضها الفاطميون على السكان، لا سيما ببلاد المغرب الأوسط، الذي أصبح تحت سلطة بني زيري الصنهاجيين ممثلي الفاطميين، وسيتعاقب على حكمه وحكم إفريقية خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 361هـ/ 972م تاريخ رحيل الفاطميين، وسنة 408هـ/ 1018 تاريخ قيام الحماديين، ثلاثة من أمراء بني زيري بلكين (361- 373هـ) وابنه المنصور (374-386هـ) وحفيده باديس (386-406هـ)، وهو ما يثبته ابن حوقل (ق4هـ/ 10م) قائلا: "أما ما حاذى أرض افريقية إلى آخر أعمال طنجة عن مرحلة إلى عشر مراحل، فزائد وناقص فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه، والولاة والسلاطين والملوك والحكام والفقهاء، وكل ذلك في جملة صاحب المغرب وحوزته وقبضته أو في يد خليفته" [3].

إذن لا تعوزنا الدلائل لإثبات خصائص السياسة الضريبية للزيرين؛ حيث رجع بلكين بن زيري (361-373هـ/ 972-984م) بعد توديعه للمعز لدين الله الفاطمي إلى المنصورية ودخل قصر السلطان في 362هـ/ 375م، وأخرج "العمال وجباة الأموال إلى سائر البلدان" [4]، وكان عامل افريقية يوسف بن أبي محمد سنة 379هـ/ 979م حريصا ومتشددا مع أهل الريف

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص320.

[2]- المجالس والمسايرات، ص477.

[3]- صورة الأرض، ص83.

[4]- النويري، المصدر السابق، ص311.

في الجباية، حتى أصبح "أهل الحضر في أمن وعافية. وأهل البادية في عذاب وغرامة" [1]، منها مغارم على المراعي وغيرها، وهو ما أشار إليه كل من ابن حوقل والمقريزي، لكن سكان البوادي لا يستطيعون أن يؤدوا نقدا الخراج على المراعي إلا إذا شاركوا بكيفية ما في التجارة [2].

غير أن محمود إسماعيل [3] ينفي الاستبداد الضريبي الفاطمي، مؤكدا أن صاحب "البيان المغرب" أشار إلى إعفاءات بني زيري للأهليين من الضرائب، في أوقات الشدة والملمات، لكننا وجدنا نصا يثبت عكس ذلك؛ فعبد الله الكاتب عامل إفريقية والقيروان نادى سنة 366هـ/ 977م، "فاجتمع الناس إليه، فأخذ من أعيانهم نحو الستمائة رجل من أغنيائهم وأغرمهم الأموال بالتعيين، يأخذ من الرجل الواحد عشرة آلاف دينار، ومن آخر دينارا واحدا. فاجتمعت له بالقيروان أموال كثيرة، وعمّ هذا الغرم سائر أعمال إفريقية ماعدا الفقهاء والصلحاء والأدباء وأولياء السلطان" [4]، أي الوضع بقي على حاله، ولم ينجو من هذه الضرائب إلاّ المقربون من السلطة، ولم يتغير إلاّ بعد وصول الأوامر من مصر إلى أبي الفتوح، وهو ما يؤكده صاحب البيان قائلا: "وبقي الأمر كذلك في الطلب، إلى أن وصل الأمر من مصر إلى أبي الفتوح برفع الغرم عن الناس" [5]، بالرغم من أن ابن عذاري يشير بعدها إلى توجيه هذه الأموال إلى مصر في صرر، والبعض منها رجع إلى أربابه، إلا أن السياسة التي استعملت من اجل جمعها توقفت على التمييز بين الأشخاص حسب مكانتهم الاجتماعية.

ويضيف صاحب البيان أن عامل إفريقية (يوسف بن أبي محمد*) كان "يخرج في كل سنة. فيدور على كور إفريقية، ويجبي الأموال، ويأخذ الهدايا من كل بلد، ويرجع" [6]، وهذا تأكيد على حرص الزيرين الشديد من أجل جمع الأموال، التي لم تكن توضع في بعض الأحيان في

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص245.

[2]- عبد الله العروي، المرجع السابق، ص247.

[3]- سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ص123.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص230.

[5]- المصدر نفسه، ج1، ص230.

*- يوسف بن أبي محمد، ولي أعمال إفريقية من قبل أبي الفتح المنصور، وكان عاملا على قفصة، فأعطاه البنود وولاه إفريقية مكان عبد الله بن محمد الكاتب سنة 377هـ/ 987م. ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص343.

[6]- ابن عذاري، المصدر نفسه، ص245.

مكانها المناسب حسب ما أفادنا به الرقيق القيرواني بقوله: "كنّا إذا درنا مع يوسف بن أبي محمد على البلدان، واستطاب موضعا، وأعجبه حسنه، أقام فيه مصطبحا الشهر والشهرين، وأبو الحسن البوني يجبي الأموال، ويقبض الهدايا... وكان يعطي لخاصة يوسف في كل يوم خمسة آلاف درهم، وينفق على يوسف لمطبخته وفاكهته نحو هذا المال" [1].

ومن البراهين الدالة على التعسف الجبائي ببلاد المغرب الأوسط إشارة الوسياني إلى أن أبا "الخير الزواغي* جعل عليه مولى للمعز بن باديس يقال له: تمصولت**- وكان فاجرا مريدا عنيدا عنيفا- مائة دينار" [2]، والشيخ ليس له مال حسب رواية الشماخي [3]، والذي يفيدنا في رواية ثانية أنّ أبا الخطاب عبد السلام المزاتي*** اشترى خرفين من إفريقية، ثم تصدق بهما "تحرجا من رزق صنهاجة لتجبرهم، وغصبهم للناس أموالهم" [4]، كما نجد صدى لهذه السياسة السياسة الضريبية في نوازل المرحلة؛ فقد سئل القابسي (403هـ/ 1012م)**** عن "عامل السلطان الجائر الظالم يأخذ العشر يأكلها ويغرم الناس بلا حق قال له وجعلني أودع له ذلك المال عندي ففعلت ذلك مداراة. فأجاب إن أكرهك على الإيداع ولم تقدر على الامتناع

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص245.

*- أبو الخير توزين الزواغي، شيخ إباضي من زواغة، معاصر (406-453هـ/ 1015-1061م). كان يتحول غالبا لجبل نفوسة لزيارة المشائخ، الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص919.

**- يذكر محقق سير الشماخي أن إسمه تمصولت بن بكار، تولى بونة، ثم عينه بلكين بن زيري سنة 367هـ/ 978م حاكما على طرابلس، حتى سنة 390هـ/ 1000م. الشماخي، نفسه، ج3، ص900. ويشير الهادي روجي إدريس إلى أنه عين على طرابلس بعد عزل عاملها يحي بن خليفة الملياني، المرجع السابق، ج1، ص87، غير أنه لم يشر إلى المصدر الذي عول عليه في نقل قل هذه المعلومة "وفي هذه السنة (367هـ) أنعم العزيز بالله على أبي الفتوح باطرابلس ونواحيها، فقدم عليها أبو الفتوح يحي بن خليفة الملياني؛ فأقام بها شهورا ثم عزله". ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص231.

[2]- سير الوسياني، ج2، ص545/ الشماخي، السير، ج2، ص511.

[3]- السير، ج2، ص511.

***- أبو الخطاب عبد السلام، فقيه إباضي من مزاتة طرابلس، تحول إلى قلعة درجين، ثم انتقل إثر محاصرتها سنة 440هـ/ 1048م إلى وادي أريغ حيث توفي هناك، الشماخي، نفسه، ج3، ص917.

[4]- السير، ج2، ص589.

****- أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري، المعروف بأبي الحسن القابسي، الفقيه النظار الأصولي المتكلم الإمام في علم الحديث وفنونه وأسانيده، ولد سنة 324هـ/ 936م، تفقه عليه أبو عمران الفاسي وغيره، توفي سنة 403هـ/ 1012م. مخلوف بن قاسم، المرجع السابق، ص145.

وأكرهك على الأخذ منك لم يلزمك غرم والمغارم في بلد لابد فيه من هذا غير صواب" [1]، وهي شهادة حول التجاوزات المتنوعة الناجمة عن التعسف الجبائي، كأن يستحوذ أحد عمال السلطان على "العشر" ثم يفرض الضرائب على الناس بلا موجب شرعي.

وغير بعيد عن عصر القابسي يفيدنا الداودي (402هـ/ 1012م) عن سلطان وضع على أهل البلدة، وأخذهم بمال معلوم يؤذونه على أموالهم. فقال: "ذلك له. ويدل على ذلك قول مالك في الساعي: يأخذ من غنم لأحد الخلطاء شاة وليس في جميعها نصاب أنها مظلمة، دخلت على من أخذت منه لا يرجع على أصحابه بشيء" [2].

وبعد غزوة بني هلال تفاقمت المصاعب المتعلقة بتطبيق التعاليم الشرعية المتعلقة بالزكاة، وهو الواضح من خلال السؤال الذي طرح على السيوري (460هـ/ 1068م)* عن "الغصاب يعطون زكاة غنمهم ولا يقدر على رد ما في أيديهم إلى أربابها؟ فأجاب: تؤخذ منهم وتعطى لأهل الحاجة إذا لم يقدر على ردها لأربابها، ولا يعرفون ولا تمكن معرفتهم" [3]، أي أجاز الزكاة التي يؤديها مغتصبو الأنعام للفقراء وسمح للملاكين بأن يطرحوا من الزكاة الأداءات العينية التي يفرضها عليهم الأعراب.

2- العهد الحمادي

أما الفترة الحمادية فلم نجد إشارة واضحة ومباشرة حول طبيعة الجباية بها، لكن لا نستبعد تعدد مصادرها بالنسبة لدخل خزانة الدولة، خاصة وأنها كانت تعيش حروبا مع زناتة، ومع المدن التابعة للمرابطين بالمغرب الأوسط كتلمسان، وهذا في الواقع يكلف أموالا لكسب الأنصار وضمان الحلفاء، وتوفير الأسلحة والمعدات الحربية اللازمة، وكان الخراج أحد المصادر

---

[1]- المعيار، ج1، ص387/ ج9، ص572.

[2]- الأموال، ص181.

*- أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري، خاتمة علماء إفريقية وآخر شيوخ القيروان وذو الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب، كان له عناية بالحديث والقراءات، له تعليق حسن على المدونة وكان يحفظها، توفي سنة 460هـ/ 1067م أو سنة 462هـ/ 1069م.الدباغ، المصدر السابق، ج3، صص185- 187/ مخلوف بن قاسم، المرجع السابق، ج1، صص 172-173.

[3]- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص364.

الهامة [1]، عين ولاة لجمعه [2]، ناهيك عن أموال الصدقات لوفرة زروعها وكثرة السوائم والدواب بها [3].

ومن الدلائل التي تكشف لنا قيمة ما دخل بيت المال الحمادي خلال القرن 5هـ/ 11م، إشارة البكري التي يكشف من خلالها أن "مستخلص مدينة بونة غير جباية بيت المال: عشرون ألف دينار" [4]، أما جباية مدينة مرسى الخرز بشرقي مدينة بونة فكانت عشرة آلاف دينار [5]، ولا شك في أن القصور التي بناها الحماديون بمدينتي القلعة وبجاية دليل واضح على عظم الدخل الذي كان يرد إلى الخزانة الحمادية [6]، ويطلعنا الإدريسي أن القلعة من "أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن وأعمها فواكه وخصبا" [7]، ويضيف أنها "كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع أموالهم مختزنة" [8].

أما نعته لمدينة بجاية فلا يقل عن مستوى وصفه للقلعة بقوله: "وأهلها مياسير تجار بها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد" [9]، وبرز فيها العرب كعمال للدولة الحمادية، يقومون على جباية الأموال، وتنظيم الأمور [10]، وهو ما يثبته ابن خلدون قائلا: "وملكوا عليهم الضواحي يتحيفون جوانبها ويقعدون لهم بالمراصد، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرف في أوطانهم" [11].

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص2458.

[2]- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص211.

[3]- المرجع نفسه، ص261.

[4]- المسالك والممالك، ج2، ص234

[5]- المصدر نفسه، ص234.

[6]- مجهول، الاستبصار، صص129-130.

[7]- نزهة المشتاق، ج1، ص255.

[8]- المصدر نفسه، ص261.

[9]- الإدريسي، المصدر السابق، ص260.

[10]- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص222.

[11]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2329.

غير أننا لم نستطع إثبات شرعية الضرائب أو عدم شرعيتها خلال هذا العهد لغياب مادة مصدرية حول الموضوع، ماعدا إشارة ابن خلدون إلى إعفاء الناصر سكان بجاية من الخراج عندما أراد تعمير المدينة [1]، لكن عبد الحليم عويس [2] يرى وجود أنواع أخرى من الضرائب دون ذكره للمصدر الذي استند عليه، ولا المعطيات التي جعلته يستنتج ذلك، ومن جهتنا نوافقه الرأي لأن أي دولة في بداية ظهورها تحتاج إلى مصادر مالية متنوعة من أجل تحقيق غاية سياسية، وهذا حال الدولة الحمادية، وربما لم تسجل لها المصادر تعسفا جبائيا مثلما حدث مع بني الزيري، لأن حكامها حاولوا استغلال الأوضاع التي كانت تمر بها المنطقة بسبب الصراعات القبلية، والانفصال الرسمي بين الحماديين والزيرين الذين أظهروا استمرارية التعسف الجبائي الفاطمي ببلاد المغرب، وذلك من أجل كسب تأييد ودعم سكان المنطقة ضد أبناء عمومتهم، لكن هذا لا يمنع من تقلب الوضع المالي للدولة الحمادية بين مراحلها المختلفة بتأثير العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية المحيطة بها.

من جهة أخرى، كان حماد يملك أموالا كثيرة قبل قيام الدولة الحمادية، وهو ما ينوه إليه ابن عذاري عندما يتناول أحداث سنة 406هـ/ 1015م، ويشير إلى هزيمة حماد أمام الزيرين قائلا: "وأخذ الناس من الأموال والغنائم ما لا يحصى عددا وكثرة؛ ووجد رقعتين فيهما: "إن الذي عند فلان صندوق فيه خمسون ألف دينار وسبعمائة، ومن الورق ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ومن الأمتعة خمسون صندوقا"، غير ما كان في بيت حماد وخزائنه" [3]، لكن النصوص المطلع عليها لم توضح الكيفية التي حصل بها حماد على كل هذه الأموال.

ج- المرحلة المرابطية

تثبت الكثير من النصوص أن العهد المرابطي الأول لم تفرض فيه إلاّ الضرائب الشرعية، وهذا ما نستشفه من قول ابن الخطيب حول فترة يوسف بن تاشفين: "لم ينعقد باياالته ما بين

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص2458.

[2]- دولة بني حماد، ص212.

[3]- البيان المغرب، ج1، صص263-264.

الأندلس والعدوة إلى جبال الذهب ببلاد السودان مكس ولا قرر جور" [1]، والظاهر أن عبد الله بن ياسين قد أمر عماله على النواحي" بإقامة العدل وإظهار السنة فيها وألزمهم إعطاء الزكاة والعشر، واسقط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة" [2]، خاصة تلك التي فرضها الزناتيون من قبل [3].

وهو النهج الذي سار عليه الأمير يوسف بن تاشفين اللمتوني (ت500هـ/ 1107م) لما ملك البلاد "من بلاد العدوة من جزائر بنى مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبل الذهب من بلاد السودان، ولم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين" [4]، ويضيف المؤلف نفسه أنه لم "يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة" [5]، لأن السياسة الضريبة المجحفة من الأسباب الرئيسية في قيام ثورات العامة، التي تؤدي في نهاية المطاف إلى نتائج وخيمة يصعب السيطرة عليها، وهذا ما سيحدث مع سياسة المرابطين الجبائية فيما بعد، لأن سياسة الجهاد ضد نصارى الأندلس جعلتهم في حاجة إلى ضرائب متعددة لضمان استمرارية تدفق الأموال لبيت المال [6].

في الواقع، لا يمكن تعميم الوضع إلا على عهد يوسف بن تاشفين، حيث أولت إحدى الدراسات الحديثة اهتماما بالموضوع، ونستخلص منها الفكرة التالية: "ويخيل إلينا أن العمل الجهادي ليوسف بن تاشفين أعمى المؤرخين، فخلطوا بين إلغائه بعض المغارم الجائرة التي

[1]- أعمال الأعلام، ج3، ص388.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص129.

[3]- عباس نصر الله، المرجع السابق، ص179.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص136- 137.

[5]- المصدر نفسه، ص167.

[6]- إبراهيم القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، دون طبعة، 2001م، ص87.

سادت في عصر الطوائف والمرحلة الزناتية، وما قام له من محاولات لإرجاع تلك المغارم نفسها، وإن لم تكن بالحجم نفسه الذي ساد سابقا" [1]، ونحن نشاطر صاحب الفكرة الرأي؛ فبغض النظر عن مسألة الجهاد بالأندلس، كانت المحاولات الأولى للدولة المرابطية تشمل بسط نفوذها ببلاد المغرب، وهذا بحد ذاته يكلف أموالا ليس بالقدر الذي تحتاجه في الأندلس، لكن يبقى دائما تكاليف ومصاريف تخرجها الدولة بالاعتماد على صدقات الرعية، خاصة وأن المنطقة غنية من حيث ثروتها النباتية والحيوانية وحتى الحرفية، التي ستتحول فيما بعد إلى احد المصادر المالية الهامة من خلال الضرائب المفروضة على محترفيها.

وعليه، فترة المرابطين محل البحث لا تتوفر على معلومات كافية فيما يخص مسألة الضرائب، التي ستتغير عما كانت عليه خلال فترة حكم يوسف بن تاشفين، بتعرض الرعاة المستقرين والممارسين للنشاط الزراعي لتعسف المتقبلين والخراص الذين أمعنوا في تحصيل الأعشار، ومختلف المكوس غير الشرعية، التي اجتهد المتقبلون في تحديدها، مغتنمين الفرصة لفرض ما شاؤوا من الضرائب، حتى ابن عبدون يصفهم بأنهم "أكلة سحت أشرار" [2]، ويضيف أنه "يجب لمن اشترى أضحيته أن لا يغرم عليها قبالة، فإن القبالة قد أخذها من الجلابين، وإن لم يقدر على ذلك، فتكون حبة على الكبش من المشتري" [3].

وتفصح بعض المصادر في الحسبة على المسائل المتعلقة بالقبلات، من ذلك ما يكشف عنه صاحب كتاب رسالة في القضاء والحسبة قائلا: "يجب أن يكون ما يغرم في القبالة على الدابة والبهيمة معلوما لئلا يزاد في ذلك كل وقت" [4]، وهذا يعني انه فرضت ضرائب على دواب النقل، بل حتى على أضحية العيد كما يوضح النص أعلاه، وإن كانت هذه النصوص لا تتناسب مع فترة البحث لكن استعمالها كان بهدف توضيح السياسة المالية للمرابطين بالمنطقة (ق6هـ/ 12م)، وأن التعسف الضريبي لا يمكن أن تسلم منه السياسة المالية لأي دولة إسلامية

[1]- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي...، ص205.

[2]- رسالة في القضاء والحسبة، ص42.

[3]- المصدر نفسه، ص83.

[4]- نفسه، ص84.

كانت، سواء بالمشرق أو المغرب، خاصة خلال المرحلة الثانية من عهدها، ومهما كانت الدولة وما ذكرته عنها المصادر فيما يخص السياسة المالية إلاّ أنها تتفق تقريبا في نقطة واحدة، وهي أنها تحتاج في مرحلة الازدهار والقوة إلى تدفق مالي دائم، بسبب ما تشهد من توسعات، وتحتاجه لدعم عساكرها، ومصاريفهم.

من جانب آخر، إنّ ما كان يؤخذ من أهل البادية، زكاة الماشية، وربما أغرمت الأزواج الحارثة، وحتى الأراضي الرعوية أخذت عليها إتاوة أطلق عليها بالمغرب الأوسط بخراج الجبال [1]، وعانت الفلاحة بما فيها من ثروة حيوانية كثيرا من الضرائب، وفي ظل اقتصاد معاشي مهدد بالآفات الطبيعية والاجتماعية، فإن المغارم المفروضة على الفلاحين جعلت النشاط الفلاحي في تراجع مستمر، قد يصل لدرجة تخلي الفلاحين عن أراضيهم بسبب عجزهم عن أداء ما في ذمتهم من ديون، وحتى الثروة الحيوانية تأثرت من جراء ذلك، مع العلم أنه لا يمكن للمواشي أو الدواب العيش بدون مساعدة الإنسان لها، ويؤكد ابن الأزرق [2] إلى أن العدوان في الجبايات والأموال والفتن الحادثة من انتقاض الرعايا هي من بين الأسباب المؤدية لكثرة وقوع المجاعات، الناتجة عن قلة الأقوات.

كما سببت هذه المسألة التمرد لدى القبائل التي كانت تعيش على الحل والترحال دون أن تضبطها حدود، وكانت تعتبر نفسها كيانا حرا شبه مستقل، وكثيرا ما كانت تظهر التمرد، كما أسفر عن تلك السياسة تدهور العمران والزراعة، وهو ما يفسره ابن خلدون بقوله: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيدهم، إذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك" [3].

وخلاصة القول، مسألة الضرائب وما رافقها من تشريعات فقهية وما ارتبط بها من إجراءات تطبيقية، التي كانت لا تتماشى مع النظرية التشريعية الإسلامية العليا، أثرت كثيرا على

[1]- محمد حسن، المدينة والبادية، ج1، ص534.

[2]- ابن الأزرق، المصدر السابق، ج2، ص694.

[3]- المقدمة، ص286.

النشاط الفلاحي والرعوي ببلاد المغرب الإسلامي على وجه العموم، بما فيها المغـرب الأوسـط كجزء هام من جغرافية المنطقة الجيوسياسية.



الفـــصل الثالث

أولا- أهمية المراعي

1- قرب المرعى

2- علاقة المدينة بالريف

ثانيا- رعاية الحيوانات

1- تعليف الحيوانات

2- إيواء الحيوانات

3- الحفاظ على النوع الحيواني

4- الرفق بالحيوان

ثالثا- الرعي والرعاة

1- الفئات الرعوية

2- تنظيم الرعي

أولا- أهمية المراعي

إن معالجة نظام الرعي بالمغرب الأوسط ليس بالأمر السهل، خاصة خلال فترة بحثنا (ق4-5هـ/ 10-11م)، الأمر الذي جعلنا نعتمد على مؤلفات فقهية من المغرب الإسلامي عامة، وهذا لاعتماد مؤلفيها على أمهات مصادر الفقه المالكي الذي انتشر ببلاد المغرب، والتي لا نستبعد إطلاقا تماثل أحكامها بالمغرب الأوسط باعتباره جزءا مهما من خريطة بلاد المغرب، لكونه يتوسطها، ويضاف إلى هذا النوع من المصادر المؤلفات المناقبية، التي اختلفت أهميتها عن سابقتها، خاصة فيما يتعلق بتحديد الفئات التي مارست النشاط الرعوي بالمجال الجغرافي محل الدراسة، فاعتمدنا أحيانا على نصوص من المغربين الأدنى والأقصى تخص فترتنا، أخذين بعين الاعتبار الوحدة الجغرافية بين المناطق الثلاثة، والتشابه الموجود بينها في الكثير من الأمور، أما النصوص المتعلقة بالمصادر المحلية- المغرب الأوسط- فأغلبها بعيدة عن فترة البحث، إلاّ أننا ارتأينا توظيفها قصد تحديد العناصر التي ساهمت في تنشيط هذه الحرفة بالمنطقة، وتأكيد أن ممارسة الرعي لم تنحصر في فئة معينة.

كما اعتمادنا على نوع آخر من المصادر المتعلقة بالسير، وكان أبرزها سير شيوخ وعلماء الإباضية بالمنطقة، باعتبار أن أول عاصمة لهم ببلاد المغرب كان مركزها تاهرت بالمغرب الأوسط، والعلاقة التي ربطت بين شيوخ جبل نفوسة وتاهرت وبلاد الجريد وطرابلس وأريغ ووارجلان ثم سدراتة بقيت مستمرة حتى بعد سقوط الدولة الرستمية.

1- قرب المرعى

اشتهرت القبائل الرعوية في المغرب الأوسط بتربية الماشية، ولكل قبيلة قطيعها وأراضيها الرعوية التابعة لحدودها خارج المدينة، وهو ما يكشفه لنا الوسياني بقوله: "إن امرأة كانت ذات يوم، وقد خرج الناس إلى الجَشْر*، وهو خضرة نبات الربيع، فقالت في نفسها: الناس خرجوا ولم يبق إلا أبو مرداس" [1]، إذن النص يكشف عن

*- الجشر إخراج الدواب للرعي، وأن تَنْزُوَ خيلك فترعاها أمام بيتك. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص365.

[1]- سير الوسياني، ج1، صص 258- 259.

خروج الأفراد من المدينة إلى المراعي في البادية، لذا عُدّ القرب من أطيبها أحد الشروط الواجب توفرها عند بناء المدينة، لأن كل قرار لابّد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب [1]، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالاستقرار وباستمرار ممارسة النشاط الزراعي وتطوره، أو النشاط الفلاحي بصفة عامة [2]، وهي خاصية توفرت عليها مدن المغرب الأوسط حسب وصف "صاحب الاستبصار" لها قائلا: "كثيرة ...وأكثرها ساحلية، وهي كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم والماشية، طيبة المراعي ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها" [3].

أما جنوب هذه المنطقة الساحلية السهلية، فتوجد منطقة التل والنجود الهضبية، والتي تكون الوجه الجبلي للمغرب الأوسط الذي يحاذي البحر الأبيض المتوسط، وتعد الواجهة الشمالية منه من أخصب جهاته وأغناها من حيث نوع التربة، ووجود المراعي وزراعة الحبوب والمغارسة؛ فاشتهرت المسيلة بمزارعها الممتدة، وقابلها امتلاك سوائم الخيل والأغنام والأبقار [4]، وأهل وهران في خصب، والبقر والغنم رخيصة [5]، ومدينة جراوة كان "حواليها بسائط عريضة للزرع والضرع" [6]، بينما تميزت مراعي القلعة بجودتها وخصوبتها وصلاحيتها للسوائم والدواب، لأنها بلاد زرع وخصب [7].

واختصت أراضي مدينة تاهرت بمزارع وضياع جمة ، مما سهل عليها "نتاج البراذين والخيل كل حسن وأما البقر والغنم بها فكثير جدّا" [8]، أي تواجدها بالقرب من منطقة سباسب شاسعة

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ص387.

[2]- الطويل محمد حجاج، دور الفلاحة في تأسيس المدن وتطورها، أشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نوفمبر 1988م، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانيةII، ابن مسيك، الدار البيضاء، ص168.

[3]- مجهول، المصدر السابق، ص179.

[4]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص85.

[5]- الحميري، المصدر السابق، ص613.

[6]- المصدر نفسه، ص163.

[7]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص251/ الحميري، نفسه، ص126.

[8]-الإدريسي، المصدر نفسه، م1، ص256.

صالحة للرعى، وهذا ما جعلها مركز اتصال مستمر بين البدو الرحل وسكان المدن والريف [1]؛ حيث كان وجوه ورؤساء قبائل مزاتة وسدراته وغيرهم إذا انتجعوا بالقرب من تاهرت دخلوا المدينة "يبرون ويكرمون ثم يخرجون إلى شياههم وبعيرهم" [2]، كما أن بعض القبائل استقرت خارج أبواب المدينة والأخرى كانت تؤمها في فصل الربيع من أجل الرعي والتجارة، وأصبحت المنطقة منتجعا لقبائل شمال الصحراء، فكثرة مراعيها أكسبتها صفة الرعي أكثر من الفلاحة [3]، الفلاحة [3]، وفي الواقع هذه حقيقة لا يمكن إنكارها عن مجتمعنا، خاصة وأن الظاهرة لها استمرارية لحد اليوم؛ حيث نجد مثلا جنوب ولاية تلمسان الآلاف من رؤوس الماشية ملكا لبدو رحل، يعيش المئات منهم في سهوب القور، العريشة، أولاد سيدي الجيلالي وصولا إلى حدود النعامة ورأس الماء، يمارسون حرفة الرعي كنشاط رئيسي دون سواه، ولا تربطهم بالمجتمع الحضري إلاّ حاجة التسوق، واقتناء الحاجيات الاستهلاكية، وهذا ما تؤكده الصورة من واقع مجتمعهم.

---

[1]- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي- الحياة الاقتصادية والاجتماعية-، الدار التونسية للنشر، تونس، دون طبعة، 1977م، صص103- 104.

[2]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص47.

[3]- حباني محمد، خصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1986- 1987م، ص140.



صورة تمثل الكسابة جنوب ولاية تلمسان
http://www.ech-chaab.net/ar

أما مراعي وجدة حسب وصف البكري (ق5هـ/ 11م) لها كانت "أنجع المراعي وأصلحها للظلف والحافر، ينتهي شحم شاة من شياههم مائتى أوقية" [1]، وهو ما يؤكده صاحب الاستبصار (ق6هـ/ 12م) من خلال إشارته إلى صلاحية المراعي للماشية [2]، ونفس الأهمية يبديها الحميري (900هـ/ 1495م) بقوله: "ومراعيها أنجع المراعي وأصلحها للسائمة" [3].

وغالبا ما عدت المراعي ملكا مشاعا بين الأفراد، لأن الكلأ والماء من الأشياء الثلاثة التي يشترك فيها الناس؛ فالكلأ النبات رطبا كان أو يابسا، وإباحته موضع إجماع في الأرض المباحة والجبال التي لم يحرثها أحد، إلا ما حماه الإمام، ويحرم منع المياه المجتمعة من الأمطار في أرض مباحة غير مملوكة لأحد، وإذا كانت في أرض مملوكة لابد لصاحب الأرض أن يرسل الفاضل بعد كفايته منها [4]، وفي هذا النوع من الأراضي يخرج كل راع بمواشيه على حدة أو يخرجون معا، وهناك يجتمعون، إلا أن الغالب على طريقة البربر هي التربية الجماعية، فتعهد القبيلة أو

[1]- المسالك والممالك، ج2، ص264.

[2]- مجهول، المصدر السابق، ص177.

[3]- الروض المعطار، ص607.

[4]- محمد الطنجي، نظرة التشريع الإسلامي في استغلال المراعي والمياه والغابات، مجلة دعوة الحق، وزارة عموم الأوقاف، الرباط، العدد7، السنة3، شوال 1379هـ/ 1960م، ص13.

مجموعة من السكان إلى راع مسؤول يساعده عدد من الرعاة، ذوي معرفة ودراية عامة بـالمراعي، وهذا النظام يسمى "المشتى" وكان على أصحاب الأغنام أن يسموها للتمييز بينها ومعرفتها [1].

وعليـه، لم يكـن النشـاط التجـاري العامـل الوحيـد في ظهـور المـدن، بـل وفـرة المنتجـات الفلاحيـة ومـا حققتـه مـن فـائض سـاهم في جلـب التجـار الأجانـب، وكَـوَّن مـادة للتصـدير جـذبت المحـاور التجاريـة الكـبرى نحـو تلـك المـدن؛ فالحركـة العمرانيـة عملـت علـى نمـو حركـة اقتصـادية أساسـها الزراعـة وتربيـة المواشـي حـول المـدن والرعـي الواسـع بعيـدا عنهـا [2]، مـع العلـم أن المغـرب الأوسـط كمجـال جغـرافي اسـتوطنته مجموعـات قبليـة متنوعـة، مزجـت في نظـام حياتهـا بـين "نظـام الرعـي" و"الاسـتقرار الفلاحـي" و"الحيـاة التجارية" [3].

2- علاقة المدينة بالريف

أحيطت مدن المغرب الأوسط بقرى سـاهمت بتـوفير المسـارح والمراعـي اللازمـة لمختلـف الحيوانات، باعتبارها النواة السكنية في المجال الريفي، وهي متميـزة بأهميـة وظائفهـا الاجتماعيـة والاقتصادية، غير أنها تختلف عن المدن في كونها تفتقر إلى مؤسسات إداريـة وإلى سـلطة سياسـية هامة [4]، ومن قرى المغرب الأوسط نذكر جرتيل*، والتي يخبرنا عنها ابن حوقـل (ق4هـ/ 10م) قائلا: "قرية كبيرة كثيرة الزرع والمياه" [5]، ويصف المؤلـف نفسـه القـرى المتواجـدة بـين مـدينتي تلمسان وأفكان بقوله: "ومنها- تلمسان- إلى قرية تعرف أيضا بالعلويين وهي قرية عظيمة آهلـة على نهر ولها أجنة وعيون، ومنها إلى تاتانلوت وهي قرية جليلة كثيرة ذات أجنـة وأرحيـة علـى

[1]- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ص72.

[2]- الطويل محمد حجاج، المرجع السابق، ص172.

[3]- هاشم العلوي، المرجع السابق، ج2، ص72.

[4]- محمد حسن، المرجع السابق، ص18.

*- جرتيل قرية تبعد 126كم عن مدينة المسيلة. ابن حوقل، المصدر السابق، ص86.

[5]- صورة الأرض، ص86.

**- المرحلة تساوي حسب المسافات الحديثة 42كم. محمود الجليلي، المكاييل والأوزان والنقود العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005م، ص55.

واديها وفواكه مرحلة**، ومنها إلى عيون سي قرية كبيرة لها عيون وأنهار تطرد مرحلة، ومنها إلى وادي الصفاصف وهو الوادي النازل من أفكان إلى أفكان مرحلة" [1]، وعلى مرحلة من مدينة تنس قرية بني واريفن وهي على نهر شلف [2]، ويؤكد صاحب نزهة المشتاق أن قرية بني واريفن "كبيرة لها كروم وجنات ذوات سوان" [3]، والواضح من النصوص أعلاه اقتران وفرة المياه بتنوع الإنتاج الزراعي، الذي سيكون عاملا في تنوع الثروة الحيوانية الرعوية، المرتبط انتشارها في أغلب المصادر الجغرافية بالمدينة أكثر منها بالقرية.

كما اجتهد البكري (ق5هـ/ 11م) في وصف بعض القرى الرابطة بين مدينتي أشير ومليانة قائلا: "وتسير من مدينة أشير إلى قرية تسمى سوق هوارة، ومنها إلى قرية تسمى سوق كرام وهي على نهر شلف، ومنها إلى مليانة" [4]، غير أن المؤلف لم يعطنا معلومات عن المسافة الرابطة بين هذه القرى والمدن، ولم يقدم أوصافا لها مثلما فعل ابن حوقل، هذا الأخير أفادنا أن سوق كرام حصن أزلي له مزارع وسوان، وهو على نهر شلف، وبينه وبين مدينة مليانة مرحلة [5]، إذن إذن هو تابع لمجالها الريفي، ويضيف المؤلف نفسه أنه "من سوق كران إلى ريغة وهي قرية،... ولها فواكه وأجنة وأنهار تطرد ومزارع مرحلة، ومنها إلى رطل مازوغة قرية لطيفة حسنة فيها ماء عذب مرحلة؛ ومنها إلى أشير" [6]، ويثبت الإدريسي (ق6هـ/ 12م) أن ريغة قرية لها "أرض متسعة وحروث ممتدة وفواكه وبساتين" [7]، ويفصل أن مدينة مازوغة [8] "قرية حسنة لكنها

---

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص88.

[2]- المصدر نفسه، ص89.

[3]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص253.

[4]- المسالك والممالك، ج2، ص241. يذكر ابن حوقل سوق كران بدلا من سوق كرام. المصدر السابق، ص89.

[5]- صورة الأرض، ص89.

[6]- المصدر نفسه، ص89.

[7]- نزهة المشتاق، م1، ص254.

[8]- يذكر الإدريسي المدينة باسم ماورغة بدلا من مازوغة. المصدر نفسه، ج1، ص254.

لطيفة القدر وبها زراعات وخصب ومياه جارية ومنها إلى أشير زيري مرحلتان" [1]، أي بينهما مسافة 84كم.

أما شرشال فكان لها بادية اكتسب أهلها مواشي وغنما كثيرة، وأكثر أموالهم الماشية، وهذا يعود إلى وفرة الحنطة والشعير عندهم، وهو الغذاء الأول بالنسبة لهذا النوع من الحيوانات [2]، وساهمت وفرة الحنطة والشعير ببادية جزائر بني مزغنة في كثرة كثرة المواشي من البقر والغنم [3]، ويشير الاصطخري (ق4هـ/ 10م) إلى كثرة قراها، ويؤكد الإدريسي (ق6هـ/ 12م) كبر باديتها وكثرة مواشيها [4]، وينبه إلى الحصون التي التي أحاطت بمدينة بجاية على مراع ممتدة [5]، في حين يؤكد الحميري (ت900هـ/ 1495م) أن بها بوادي ومزارع، والحنطة والشعير كثير [6].

فتربية الماشية بالبادية لا تقع بطريقة مستقلة عن مصالح أهل المدينة، بل تأسست علاقة عضوية بين الطرفين، زيادة على الاستهلاك اليومي لأهل الحضر، من لحوم وحليب ومشتقاته وجلود وصوف وغيرها [7]، هذا ما يعبر عنه صاحب المقدمة بقوله: "... الدنانير والدراهم مفقودة لديهم- البادية- وإنما بأيديهم أَعْوَاضُهَا من مغلّ الزراعة واعيان الحيوان أو فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعاراً وإهابا ممّا يحتاج إليه أهل الأمصار فيّعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم" [8]، والدراهم" [8]، وهو ما يتأكد لنا من خلال حديث النويري عن مدينة أشير بقوله: "ولم يكن

[1]- نفسه، ص254.

[2]- نفسه، ص258.

[3]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 78.

[4]- نزهة المشتاق، ص258.

[5]- الإدريسي، المصدر السابق، ص262.

[6]- الروض المعطار، ص81.

[7]- محمد حسن، المرجع السابق، ج2، ص454/ جيلالي صاري، مساهمة ابن خلدون في تحليل علاقة المدينة والدولة، الأصالة، السنة 4، العدد64، محرم 1399هـ ديسمبر 1978م، صص14- 15/

=C.Vanacker, géographie économique de l'Afrique du nord selon les auteurs arabes, du IX^{e} Siècle au milieu du XII^{e} Siècle, annales économique, Sociétés, Civilisations, 28^{e} Année, N3, 1973, p673.

[8]- المقدمة، ص169.

الناس إذ ذاك يتعاملون بالذهب والفضة وإنما بالبعير والبقر والشاة، فضرب زيري السكة وبسط العطاء في الجند وجعل لهم الأرزاق فكثرت الدنانير والدراهم في أيدي الناس واطمأنت نفوس أهل البادية للحرث والزراعة" [1].

والواضح من خلال وصف المصادر الجغرافية الوسيطية للثروات الزراعية المختلفة، أن قرى المغرب الأوسط غلب عليها الطابع الفلاحي؛ إذ لا توجد مدينة إلا ولها منطقة زراعية أو قابلة للزراعة، كما وجدت الأنشطة الاقتصادية للقبائل المستقرة تكاملا مع النشاط الرعوي للقبائل الرحل بما وفره هؤلاء من مواد أولية ذات أصل حيواني، وما قدموه من محاربين للدفاع عن المدن والمراكز الحضرية لحساب أهاليها المستقرين، الذين قدموا بالمقابل القمح والشعير والمنتجات المصنعة للرحل، وتوفير التربية الدينية والثقافية لأبناء مشايخهم [2].

لكن خصوبة المراعي لم تكن طوال فصول السنة، لذلك كانت فضلة التبن التي تبقى في الحقول بعد الحصاد تضمن لأصحاب المواشي مراعي غنية، والواضح أنها كانت عادة بتاهرت؛ فبعد أن يحصد الناس زروعهم، ويلتقط اللقاطون السنابل، تُدْفَعُ المواشي لترعى ما تبقى [3]، وهي ظاهرة لا تزال متبعة ليومنا هذا بالكثير من المناطق كما توضح الصورة، كما أجاز ابن أبي زيد القيرواني (386هـ/ 996م) "رعي فضلة التبن لأنها ممّا لا يرجع إليه صاحبه" [4]، وربما تعدى الأفراد على أرض غيرهم، الأمر الذي دعا تدخل الفقهاء؛ من ذلك جواب المازري* (516هـ/ 1122م) عن أرض مغصوبة في قرية هل لأهلها أن يرعوا فيها مواشيهم ويسقوها من

[1]- نهاية الآرب- الجزء الخاص من تاريخ المغرب الإسلامي-، ص305.

[2]- محمد محفل وآخرون، المرجع السابق، ص412.

[3]- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص259.

[4]- الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص149.

غُدُرها؟، فأجاب: "إذا كان أهلها محتاجين إلى الرعي فيها فلا يحل لأحد رعيها وإن كانوا مستغنين عنها ففيه اختلاف" [1].

صورة تمثل رعي الغنم لفضلة التبن
http://www.eldjoumhouria.dz/ar/article.php?id=18306



أما المنطقة الجنوبية الواقعة بين المناطق التلية من بلاد المغرب وبلاد السودان، فقد تميزت بكونها صحراء جافة، لا تسمح للإنسان بالاستقرار، تشكو من شح المياه، وانعدام التربة الخصبة الصالحة للزراعة، ما عدا بعض الواحات، والمراعي الموسمية، وهذا ما يؤكده صاحب "صورة الأرض" بقوله إنها "مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي لا تسلك إلّا في الشتاء" [2]، ويضيف الإدريسي أن أكثرها" صحار متصلة غير عامرة وجهات وحشة وجبال حرش جردٌ لا نبات فيها، والماء بها قليل جدا، لا يوجد إلا في أصل جبل، أو في ما اطمأن من سباخها،وبالجملة أنه هناك قليل الوجود، يتّزود به من مكان إلى مكان" [3].

لكن هذه القساوة لا تعني انعدام حياة رعوية، بل في بعض المناطق "يقع أقوام رحالة ينتقلون في أكنافها ويرعون مواشيهم في أدانيها وأطرافها وليس لهم ثبوت في

*- أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري، المعروف بالذكي، صقلي الأصل، وسكن قلعة بني حماد، ثم رحل إلى المشرق، ودخل العراق، وسكن أصبهان إلى أن مات بها سنة 516هـ/ 1122م، أخذ عن شيوخ بلده، وأخذ بالقيروان عن الشيخ أبي القاسم السيوري وغيره.الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م، ج3، صص203-205/ مخلوف بن قاسم، المرجع السابق، ج2، صص 184- 185.

[1]- الونشريسي، المعيار، ج9، ص553.

[2]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص99.

[3]- نزهة المشتاق، ج1، ص109.

مكان ولا مقام بأرض وإنما يقطعون دهرهم في الرحلة والانتقال دائما، غير أنهم لا يخرجون عن حدودهم ولا يفارقون أرضهم ولا يمتزجون بغيرها ولا يطمئنون إلى من جاورهم... "[1]، ومن المغرب الأوسط نذكر بلاد أريغ (ريغ) شرق مدينة وارجلان "وهي بلاد نخل ومحمضات ومياه تنبع على وجه الأرض... ويسيح في المزارع" [2].

وكان الرعاة يخرجون إلى الجشر لوفرة الكلأ، ليعودوا إلى الصحراء في الشتاء عندما تكثر الأمطار والثلوج، التي تؤثر سلبا في الحيوان، خاصة حديث الولادة [3]، ويخبرنا الوسياني أن ماكسن بن الخير* كان يخرج من أريغ على ظهر بغلته زمن خصب الربيع [4]، كما كانت لهم عادة "إطلاق إبلهم في الشعراء ترعى فيأتي يوم تشرب فيه الماء فيسقي كل إنسان جمله ويخلّيه يرجع إلى المرعى ولا راعي لهم" [5]، وهو نمط عيش البدو الرحل بولاية البيض والأقاليم الصحراوية الأخرى؛ ولا يزالون محافظين على الخيمة المنتصبة وسط تضاريس طبيعية خالية ومعزولة عن جميع مظاهر التمدن المعروف في عصرنا هذا، ويعتمد البدو الرحل في حالتهم هذه على ما تجود به الطبيعة من كلأ حسب ما تشير إليه الصور أدناه.

[1]- المصدر نفسه، م1، ص109.

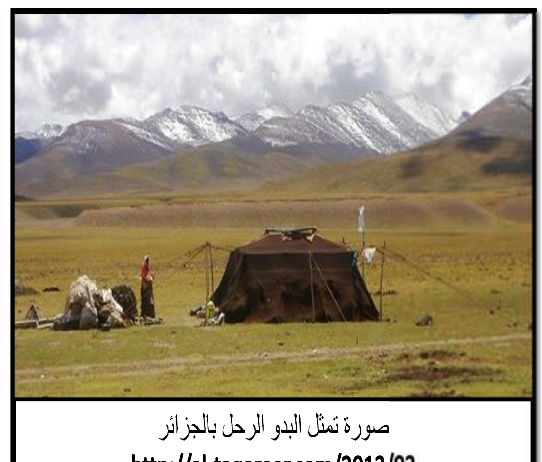
[2]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص126. يذكر ابن سعيد المدينة باسم وركلان بدلا من وارجلان.

[3]- Vanacker, op. cit, p674

*- أبو محمد ماكسن بن الخير الوسياني، محدث إباضي من قبيلة زناتة، من بني وسيان، عاش في النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م، استقر في ورغلة وفي وادي ريغ، اعتمد على رواياته أبو الربيع الوسياني، الدرجيني، الشماخي. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص1016، ويذكر الوسياني أن وفاته كانت سنة 491هـ/ 1097م. المصدر السابق، ج1، ص387.

[4]- سير الوسياني، ص385، ص402.

[5]- الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص572.



صورة تمثل البدو الرحل بالجزائر
http://al-taqareer.com/2013/03



http://www.al-fadjr.com/ar/Index.php?news
=152095%3FPrint صورة تمثل البدو الرحل بالبيض

من جانب آخر، كان الرعاة يؤمون المراعي الجبلية الخصبة، ويقضون فيها معظم أيام السنة، وتميز منها بالمجال الجغرافي صدد البحث جبل الأوراس، الذي كان به "المراعي الكثيرة، والمياه الغزيرة الدائمة" [1]، علما أن أفضل المراعي للمعز ما كان في الجبال [2]، كما اشتهرت مدينة جزائر بني مزغنة ببادية كبيرة وجبال فيها الكثير من البربر، وأكثر أموالهم "المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال" [3]، وإذا كانت هذه الأراضي الرعوية ملكا خاصا، فمن حق أصحابها منع كلئها عن غيرهم إذا احتاجوا إليه، ماعدا في الصحاري والبراري التي بقيت ملكا مشاعا، وبالتالي يحق لمن سبق إليها استغلالها والاستفادة منها.

وبما أن المغرب الأوسط شاسع والمسافة العامرة قلما تزيد في الغالب عن مسيرة نصف نهار بين القرية والقرية، فهذا يعني أن أكثر البلاد أرض مشاعة، وهو ما يؤكده ابن الصغير بقوله: "قبائل مزاتة وسدراته وغيرهم، كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الكلأ وغيرهم" [4]، كما يمكن

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص84.
[2]- قسطوس بن اسكولستيكه، المصدر السابق، ص279.
[3]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص78.
[4]- أخبار الأئمة الرستميين، ص47.

تحويل السباخ إلى مراع للسائمة والدواب والبغال والخيول [1]، أما الملكية الخاصة فكانت مقسمة إلى فردية وجماعية حيث تكون مساحات واسعة من المراعي ملكا لأهل القرية الواحدة، يتوارثونها ويستغلونها جماعيا، كالفحوص المنتشرة بين تاهرت وتلمسان التي كانت لقبائل زناتة المنتشرة بها [2]، ولهوارة وبني برزال أرض المسيلة [3]، ومدينتي سوق حمزة وسوق ماكسن لصنهاجة [4] وشلف بني واطيل إلى بني واريفن لمطغرة على نهر شلف [5]، وتلمسان "دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر" [6].

ويكشف لنا ابن خلدون أن لواتة كانوا ينزلون بسيط تكرارت- نواحي بجاية- "يعتمرونها فدنا لمزارعهم ومسارح لأنعامهم" [7]، أما إقليم بني راشد فامتد "على طول طول نحو خمسين ميلا من الشرق إلى الغرب، وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلا، جهته الواقعة جنوبا كلها سهول، والواقعة شمالا كلها تقريبا مرتفعات، لكن أراضيهما معا صالحة للزراعة. ...فأهل هذه المرتفعات ....يزرعون الحقول والكروم، ...وسكان السهول، يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم، ولهم عدد وافر من الجمال والخيل" [8]، لكن كثيرا ما كانت تقع خلافات بين أهل القرى حول ملكية المراعي، لأن البدو بحاجة إليها لمواشيهم، الأمر الذي يدفع بالعناصر الوافدة إلى طرد من سبقها إليها [9].

[1]- أحمد الطاهري، الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، دون طبعة، 2004م، ص198.
[2]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص257.
[3]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص239.
[4]- نفسه، ص240.
[5]- نفسه، ص251.
[6]- نفسه، ص259.
[7]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2411.
[8]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص26.
[9]- عبد الله العروي، المرجع السابق، ج2، ص95.

ويبين لنا صاحب المعيار قول ابن رشد في مراعي القرى وغامرها إلى مما ليس بمعمور ما مفاده: "أحدها أنه يحمل على أنه ملك لهم وبه قال ابن القاسم* (191هـ/ 807م)، الثاني أن حكمها حكم موات الأرض إلا أن يدعيه أهل القرية فيصدقون أنه ملكهم ولم ينسبه، الثالث أنه موات لجميع المسلمين ولا يصدق أهل القرية أنه ملكهم إلاّ بإثبات دعواهم بالبينة به" [1].

نافلة القول، الزراعة عماد الاقتصاد، والأرض تمثل المصدر الرئيسي للكسب والثروة لدى سكان الأرياف، في حين ملكية قطعان الماشية هي المصدر الاقتصادي داخل المجتمع الرعوي، الذي أحدث تجمع قبائله حول المدن والمراكز العمرانية الريفية نوعا من النشاط داخل مجتمع المغرب الأوسط بصورة طيبة للغاية، ولو قارنا بين الأنشطة الاقتصادية بهذا المجال الجغرافي لوجدنا نوعا من التكامل بين توفير المواد الأولية وترويج السلع مصنعة ومادة خام، إذن، تربية الحيوانات بالبادية لا تقع بطريقة مستقلة عن مصالح أهل المدينة، وهذا نتاج العلاقة العضوية بين الطرفين، وزيادة على الاستهلاك اليومي لأهل الحضر، من لحوم وحليب ومشتقاته وجلود وصوف، فإن المدينة بالمغرب الأوسط لعبت دورا بارزا في عملية تسويق إنتاج الماشية، أي مثلت الوسيط بين المدن التجارية الأندلسية والمشرقية وبين البادية.

ثانيا- رعاية الحيوانات

إن الحيوانات كائنات حية مسخرة لخدمة الإنسان وتحصيل منافعه، فهي لم تُخلق عبثا، وإنما للنهوض بوظائف حيوية، نذكر منها: تأمين المصدر الغذائي للإنسان، تأمين المواصلات، توفير الدواء المستخلص من بعض الأجزاء الحيوانية كالقرون والعظام، القيام بعروض ترفيهية ورحلات صيد، لكن من الصعب جدا تحديد الكيفية التي عامل بها الأفراد بالمغرب الأوسط دوابهم ومواشيهم لانعدام إشارات مصدرية حول ذلك، مع هذا يبقى الحيوان ثروة طبيعية حية وموردا بيئيا خصبا، لا سيما ما كان منه أليفا مستأنسا.

---

*- عبد الرحمن بن القاسم العتقي، من فقهاء مصر وكان أحد أصحاب مالك، توفي سنة 191هـ/ 807م. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1، 250-259/ مخلوف بن قاسم، المرجع السابق، ج1، ص88.

[1]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص35.

بالمقابل، وضع الإسلام مبدأ الرفق بالحيوان، فما كان على الأفراد إلاّ الاهتمام بتربيته ورعايته، واتخاذ الأساليب الملائمة للتعامل معه؛ إذن ما الطرق المتبعة في ذلك؟.

1- تعليف الحيوانات

قال تعالى: ﴿**اَلّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا من نَّبَات شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾ [1]؛ فالله سبحانه وتعالى سخر الحيوان لتلبية حوائج الإنسان واستيفاء منافعه، لذا أناط مسؤولية الإنفاق عليه والرفق به بعهدة صاحبه، منها دواب الركوب، التي يستحب الإحسان إليها في العلف والسقي، ويكره ركوبها والسير عليها جائعة أو عطشى [2]، ولا تختلف الماشية عن الدواب، لأن ملكيتها تحتاج إلى عناية فائقة وتوفير التغذية اللازمة، حتى تحافظ على قوتها، خاصة أثناء فترة الجفاف وجدب الأرض، ويكشف لنا الدمشقي عن ذلك بقوله: "إقتناء الماشية على أصنافها صالح حسن نافع مع الأمن الشامل وقلة الأعداء وكثرة الناصر وتفقّد المالك لها ومراعاته مصالحها في كلّ وقت ووجود الأعوان الخبيرين بسياستها وادخار ما ترفق به من علوفاتها في صميم الشتاء وما يصلح رعاتها به من المؤن والكسوة" [3].

وتمثلت أهم مادة للتعليف في الشعير والعشب والحشائش الخضراء والتبن؛ فقد وردت إشارة لدى ابن الصغير عن تقديم الخادم علفا لفرس أبي اليقظان محمد بن أفلح (ت281هـ/ 894م) من بيت المال [4]، لكن دون تحديد نوع هذا العلف، غير أن

[1]- سورة طه، الآية 53- 54.

[2] - السخاوي، تحرير الجواب عن ضرب الدواب، تحقيق وتعليق أبو عبيدة مشهور حسن، أبو حنيفة السيقرات، بحث منشور في مجلة الحكمة، جمادى الأولى، 1415هـ/ 1994م، ع4، ص230.

[3]- الإشارة إلى محاسن التجارة، ص52.

[4]- أخبار الأئمة الرستميين، ص101.

*- أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب ين سعيد بن عبد الله المناوي أصلا، الورنيدي مولدا ودارا، توفي حوالي سنة 930هـ/ 1524م. التنبكتي، المصدر السابق، ص236/ ابن مريم، المصدر السابق، صص61-80.

ابن مريم المتأخر عن فترة بحثنا يبين نوعه من خلال ترجمته لأحمد ابن الحاج اليبدري* قائلا: "يخدم فرسه بيده،... ويعلف لها الشعير، ويعطيها التبن ويسقيها" [1]، ويضيف المؤلف نفسه أن فرس محمد بن العباس** كان مربوطا وأمامه التبن [2]، كما تفيدنا بعض النصوص النوازلية بأهمية هذا النوع من العلف من خلال السؤال الذي طرح على ابن لبابة (ت314هـ/ 926م) عن البقر التي لا تأكل العلف ولا التبن. فأجاب: "هو عيب إلا إن عرفه البائع ببلده وعلم أن ذلك البلد، لا تعلف فيه البقر فليس له القيام" [3]، وهو نفس ما ذكره الونشريسي [4].

وتزداد الحاجة إلى العلف في فترة الحرب أكثر من غيرها، لأنّ الحيوانات تبذل مجهودا مضاعفا وتزيد الحاجة إلى قوّتها ونشاطها، لذا كان التبن من المواد التي يجب الاعتناء بتحصيلها في إبانها وحفظها [5]، ولا نستبعد اهتمام الأفراد بتخزينه لوقت الحاجة، حتى الحكام كانت لهم هذه المبادرة، منهم الإمام عبد الرحمن بن رستم (ت171هـ/ 788م) الذي قام بتخزين مختلف الأقوات؛ حيث يشير ابن الصغير إلى أن الإمام الرستمي كان يقوم "بإحصاء ما في الأهراء من الطعام" [6]، خاصة وأن المنطقة معروفة بزراعة الحبوب لكثرة مياهها وبرودة مناخها ووقوعها قرب التلول الصالحة لزراعة تلك الغلة، الأمر الذي جعلها "أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية" [7]، وهذا الثراء الزراعي يؤكده نص الوسياني عند ذكره

---

[1]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص79.

**- محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي، كان إماما ومتفقها ومتفننا في العلوم، تتلمذ عليه أكابر علماء المنطقة منهم المازوني والونشريسي، ونقلوا عنه عدة فتاوي، توفي سنة 871هـ/ 1467م. التنبكتي، المصدر السابق، ص547/ ابن مريم، نفسه، ص357.

[2]- ابن مريم، نفسه، ص100.

[3]- الشعبي، المصدر السابق، ص292.

[4]- المعيار، ج6، ص190.

[5]- محمود فؤاد بدر، تغذية الحيوانات المزرعية، دار المطبوعات الجديدة، مصر، دون طبعة، 1973م، صص216- 217.

[6]- أخبار الأئمة الرستميين، ص41.

[7]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص86.

لأبي مرداس مهاصر* الذي تَعَوَّدَ على الذهاب إلى مدينة تاهرت في وقت الحصاد، وكانت عادته فيها أنه "إذا حصد الناس زروعهم ولقط اللقاطون السنابل ورعوا مواشيهم عقبهم فيلقط نفقة سنة لأن ذلك متروك" [1].

ولأهمية فضل التبن وما قد يقع من اختلاف حولها سئل ابن أبي زيد عما بقي منه بالأرض المغصوبة، هل يجوز رعيه بمنزلة الكلأ أم لا؟ فكان جوابه: "إن كان ما لا يرجع إليه فلا بأس برعيه، والفقير به أسعد وأحب إلي من الغني" [2]، كما جمع أبو اليقظان حفيد عبد الرحمان بن رستم (ت281هـ/ 894م) العلف في بيت المال، وتورع عن إطعامه لفرسه [3]، ضف إلى ذلك الإشارات الواردة ضمن بعض المصنفات الاباضية الدالة على اهتمام الأفراد بإطعام دواب الضيوف باعتبار أن "علف دابة الضيف أهم من طعامه" [4]، لكنها لم تحدد نوع العلف.

وفي الواقع، أهمية هذه الأقوات المخزنة تظهر وقت الشدة من مجاعات وحروب، لذا حرص أبو القاسم الخليفة الفاطمي(322هـ- 334هـ/ 934م- 946م) على أن يُدَّخر بالمسيلة كل ما يُحْتَاجُ إليه وقت الضرورة من حبوب، وظلت كذلك إلى غاية فتنة أبي يزيد [5]، لتكون مددا للمنصور ابنه فيما بعد، خاصة وأنه "ليس بالموضع مدينة سواها" [6]، كما خُصت تلمسان بأماكن لتخزين القمح والشعير، وقد يبقى "في مخازنها ست سنين ثم يخرج بعد ذلك فيزرع فينبت" [7]، وبقسنطينة تقيم الحنطة في "مطاميرها مائة سنة لا تفسد" [8]، والحنطة ببجاية "تختزن

*- أبو مرداس مهاصر السدراتي، فقيه إباضي من سدراته، صنفه الدرجيني ضمن الطبقة الخامسة (200-250هـ/ 815-864م)، لزم عبد الوهاب بن رستم عند زيارته للجبل سنة 196هـ/ 811م. الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص291.

[1]- سير الوسياني،ج1، ص258/ الدرجيني، المصدر السابق، ص100.

[2]- الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص149.

[3]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص101.

[4]- البغطوري مقرين بن محمد، سيرة مشائخ نفوسة، تحقيق توفيق عباد الشقروني، مؤسسة تاوالت الثقافية، دون طبعة، 2009م، ص109/ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص594.

[5]- ابن حماد، المصدر السابق، ص25.

[6]- المقريزي، المصدر السابق، ص105.

[7]- القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص150.

[8]- المصدر نفسه، ج5، ص100.

...فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير" [1]، ونحن هنا لسنا بصدد إحصاء عدد المطامير أو أنواع الحبوب القابلة للتخزين، ولكن هدفنا هو إبراز أهمية المطامير، ومدى اهتمام أهالي المغرب الأوسط بإنشائها، وكذا استعانتهم بها من أجل تخزين الطعام ليستغل عند الحاجة من أجل الإنسان والحيوان معا، لا سيما في فترات القحط والجفاف، وفي حالات الحروب والفتن، وهي ظواهر معروفة بالمنطقة.

وعليه مثلت الحبوب أهم مخزون للأهالي، على رأسها الشعير كمادة أساسية لعلف الدواب [2]، وتعيش البهائم عليه في كل الأوقات إلى غاية بداية فصل الأمطار، حيث تزرع بعض بعض الحقول بالشعير المبكر، حتى إذا ظهرت خضرته وغطّت الأرض ترك المواشي والدواب لترعاه ويعرف عندئذ "بالقصيل" [3]، وينوه الغبريني إلى أنه "علف الدواب" [4]، ويترك في الغالب الغالب للفترة التي يعاني خلالها الرعاة المستقرون بسبب استهلاك المراعي وتقلصها خلال فترة الصيف، والقصيل "يجب أن يُعتَمَد بزراعته الأرض الطيبة الكثيرة الدمن، وأن تكون مدمنة أُزْبِلَت زبلا جيدّا قويا" [5].

ولو قسمنا حاجة الحيوان للغذاء سنجد أن المعز والأبقار تحتاج إلى التبن في الشتاء، وهو ما يؤكده صاحب كتاب "الزرع" بقوله: "وينبغي أن يدّخر للأغنام والأبقار من العلف ما يقوم بها في أيام اشتداد البرد ونزول الثلج والجليد. وأجود العلاف ورق شجر البلوط أتبان الفول... فإذا اشتد البرد ونزل الثلج أعطيت هذا العلف وجعلت في أماكن كنينة تقيها من الأمطار وخاصة المعز فإنه لا فلاح له في زمان المطر والبرد والثلج إلا في الكنّ الكنين الدافئ فأنه إن

---

[1]- الإدريسي، المصدر السابق، ص261.

[2]- أبو العرب، المصدر السابق، ص65/ مجهول، كتاب البيطرة وما يتعلق بالدواب، قسم المخطوطات، مكتبة جامعة الرياض، تحت رقم45، ورقة 35.

[3]- أبو الخير، كتاب الفلاحة، نشره الفقيه سيد محمد التهامي، طبعة فاس، 1938م، ص 135.

[4]- عنوان الدراية، ص165.

[5]- الطغنري، المصدر السابق، ص407.

تمكن منه البرد قتله" [1]، غير أن أبقار الحليب وثيران الجر اللازمة للحرث تكلف طعاما كثيرا لثقل عظامها، وحبها للماء، لذا وجب توفير الحشائش والذرة والشعير لها في بعض الأحيان [2]، أما نبات الكرسنة* وحبها فيقويها، وإذا أعلفت الإناث منه وإناث المعز وغيرها من ذوات الأربع كثر لبنها، وليس يوافق حوامل الضأن، أما الغنم، فالداخن منها تعلف الفواكه والحبوب، والراعية تأكل الحشيش الرطب [3].

بالمقابل، لا يتساوى الخيل في العلف، إذ تحتاج المستخدمة للركوب من ثلاثة عشر إلى خمسة عشر رطلا [4]، مع العلم أن الدابة ليس لها حد محدود في العلف، بل تأكل حتى ترفع رأسها عن شبع [5]، خاصة وأن منها "الرغيب فيه ومنها الزاهد فيه ومنها قليل الأكل من الشعير" [6]، ويفضل تعليف الدواب الشعير الجديد في فصل الشتاء، والشعير البالي في زمن الحر [7]، ويفيدنا الشماخي في سيره عن قدوم ثمانين فارسا زمن الشدة والقحط إلى أبي يعقوب البغطوري*، فبعد أن أطعمهم "أعطى ويبة شعير لعلف كل فرس" [8]، والويبة تساوي 22,416 لترا [1]، وربما هذا ما يعادل بالتقريب 23 كغ، لأن لترا واحدا من الماء يساوي واحد كغ.

---

[1]- قسطوس بن اسكولستيكه، كتاب الزرع، تحقيق بواري الطرابلسي، بيت الحكمة، قرطاج، دون طبعة، 2010م ، ص279.

[2]- كارلتون كون، المرجع السابق، ص249.

*- الكرسنة، شجيرة صغيرة دقيقة الورق والأغصان لها ثمر في غلف. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، 2001م، ج4، ص323.

[3]- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، صص468-469.

[4]- المصدر نفسه، صص519-520 / مجهول، البيطرة، ورقة 36.

[5]- عمر بن يوسف، المغنى في البيطرة في الخيل والجمال وغيرها، تحقيق د.محمد التونجي، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، دون طبعة، 2004م، ص342.

[6]- مجهول، البيطرة وما يتعلق بالدواب، ورقة35.

[7]- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص522.

*- أبو يعقوب البغطوري: فقيه إباضي من بغطورة، أواخر ق4هـ/ 10م والنصف الأول من ق5هـ/ 11م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص1052.

[8]- السير، ج2، ص502/ البغطوري، المصدر السابق، ص109.

أما عن كيفية إطعام الفرس وسقيها يفيدنا صاحب مخطوطة "البيطرة "بقوله: "ينبغي أن يكثر عليه سقي الماء في كل وقت وساعة، في أول النهار وآخره ثم يعلفه بالغداة ثلث علفه من الشعير وفي وسط النهار يشبعه من اللفت وفي آخر النهار يعلفه ثلثى شعير" [2]، أما إذا مر بها صاحبها بالأرض الخصبة بالكلأ المباح نزل عنها لترعى [3]، وهذا من باب الرفق بها، كما أن الدواب "تشبع من البقل فينفعها ذلك وينفع ما في بطونها" [4].

وبهذا يكون القمح والشعير وسائر الحبوب "أصل معاش الناس والبهائم وسر حياتهم" [5]، لذا استغل سكان المغرب الأوسط تنوع التضاريس والمناخ الملائم لزرع الحبوب، وهذا ما يفسر حسب ابن حوقل (ق4هـ/ 10م) كثرة الزرع والحنطة والشعير ببرشك، حتى أنها فاقت حاجتهم [6]، وهو ما يؤكده الإدريسي (ق6هـ/ 12م) [7]، وغلة مدينة وهران من القمح والشعير كانت كثيرة [8]، كما اهتم أهالي المسيلة بزرع الحبوب من الحنطة والشعير [9]، وتوفرت تاهرت على ضروب من الغلاّت [10]، حتى أنها خصت بباب عرف باسم "باب المطاحن" [11].

غير أن أوصاف البكري (ق5هـ/ 11م) تختلف عما ذكره ابن حوقل (4هـ/ 10م)؛ فصاحب المسالك والممالك يكشف عن كثرة الحبوب ووفرتها ببلاد المغرب الأوسط من خلال

---

[1]- محمود الجليلي، المرجع السابق، ص116/ يشير محقق سير مشائخ نفوسة في هامش412، صفحة 109 إلى أن الويبة تساوي ستة كيلوغرام.

[2]- مجهول، المصدر السابق، ورقة 35.

[3]- السخاوي، المصدر السابق، ص241.

[4]- قسطوس بن اسكولستيكه، المصدر السابق، ص274.

[5]- الطغنري، المصدر السابق، ص400.

[6]- صورة الأرض، ص78.

[7]- نزهة المشتاق، ص258.

[8]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص79.

[9]- المصدر نفسه، ص85.

[10]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص86.

[11]- البكري، المسالك والممالك، ص248.

إشارته للأرحاء والمطاحين، كمدينة مليانة التي كانت ذات "أنهار تطحن عليها الأرحاء" [1]، وقزرونة "على نهر كبير عليه الأرحاء" [2]، وبمستغانم "طواحين ماء" [3]، ولمدينة تلمسان أنهار أنهار عليها طواحين [4]، أما الإدريسي (ق6هـ/ 12م) فقد اتبع منحى صاحب "صورة الأرض" الأرض" من خلال وصفه لمدينة تنس قائلا: "ولها أقاليم وأعمال ومزارع وبها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها إلى كل الآفاق" [5]، ويضيف واصفا مدينة المسيلة بقوله: "ولأهلها... مزارع قطن وقمح وشعير" [6]، أما حنطة قلعة بني حماد فكانت رخيصة [7]، ولأهل ولأهل شرشال "من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد عن الحاجة" [8]، وزراعة بربر جزائر بني مزغنة "الحنطة والشعير" [9].

كما علفت البهائم ببلاد المغرب نوى التمر حسب ما أفادنا به الونشريسي قائلا: "سئل السيوري (460هـ/ 1067م)عمن دق النوى ببيته لبقره وبيتهم في الشتاء في بيته فأراد الجار منعه من ذلك. فأجاب يمنع من دق النوى لأنه يضر بالبناء وحس سماع الضرب يضر بالساكن إلاّ في بعض الأوقات وإذا تكرر الأمر منع منه، أما تبيت البقرة في بيت المالك فلا مقال له وليس عليه في ذلك ضرر" [10]؛ إذن هناك طريقة أخرى لتوفير مادة العلف للدواب، والظاهر من خلال أحدى النصوص النوازلية أنها كانت تباع في الأسواق بثمن معقول [11]، أما بالنسبة

[1]- المصدر نفسه، ص241.
[2]- نفسه، ص247.
[3]- نفسه، ص251
[4]- نفسه، ص259.
[5]- نزهة المشتاق، ج1، ص252.
[6]- المصدر نفسه، ص254.
[7]- نفسه، ص255.
[8]- نفسه، ص258.
[9]- نفسه، ص258.
[10]- المعيار، ج8، ص445/ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج2، ص245.
[11]- المصدر نفسه، ج8، ص445.

للمغرب الأوسط فلا نستبعد تعليف النوى، على الأقل بالمناطق الصحراوية المعروفة بقلة حبوبها ووفرة تمورها.

مجمل القول، ساهمت الأعلاف ووفرة المراعي في الحفاظ على مختلف المواشي والدواب، التي استغلها سكان المغرب الأوسط في تحويل المحاصيل الخضراء إلى منتجات حيوانية من لحم ولبن وصوف، ويبقى رعي المواشي في المسارح الخضراء أفيد من علفها بالأعلاف الجافة [1].

2- إيواء الحيوانات

عمل سكان المغرب الأوسط على إيواء حيواناتهم، حفاظا عليها من السرقة أو السباع أو العوامل الطبيعية المختلفة، فمنهم من اتخذ إسطبلات، ومن النصوص الدالة على اتخاذ الإسطبلات ما أفادنا به صاحب "رياض النفوس" عن "عبيد الله المهدي" الذي غضب على أحد وزرائه، فدفعه في إسطبل الدواب تمشي عليه [2]، أما العامة من الناس فعملوا على وضعها وضعها خلف بيوتهم، كالذي اتخذه عبد الرحمن بن رستم؛ إذ كان يملك فرسا وحيدة، يربطها في ناحية من داره [3].

وربما يلجأ الأفراد إلى ربط دوابهم في مواضع خربة بالقرب من منازلهم حتى يتجنبوا ضررها من زبل ورائحة، ولكنها كانت تسبب الأذى للجيران خاصة إذا أحدثت عند بيت أحدهم، فيتضرر ببولها وزبلها وحركتها في الليل المانعة من النوم [4]، النوم [4]، الأمر الذي كان يدفع بالأشخاص إلى دفع شكواهم إلى الفقهاء، منها جواب جواب القاضي ابن عبد الرفيع (ت733هـ/ 1333م)* عمن أحدث خلف بيت جاره

[1]- تشير إحدى الدراسات الحديثة إلى أن كمية اللبن التي يمكن أن تردها بقرة تزن 1200رطل بنحو 10000رطل من اللبن في السنة، وهذا إذا رعت من المساحات الخضراء. محمود فؤاد بدر، المرجع السابق، ص344.

[2]- المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1993م، ج2، ص54.

[3]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص29.

[4]- ابن الرامي البناء، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق ودراسة فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، دون طبعة، 1999م، ص64/ ميّارة الفاسي، شرح ميارة الفاسي على تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، ج2، ص311.

رواء لدابة صغيرة. فأجاب: "بوجوب زواله وإخراج الدابة منه" [1]، ومن النصوص الدالة أيضا على اتخاذ الدواب قرب المنازل، الكتاب الذي وصل أصبغ بن سعيد (ت401هـ/ 1011م) "في رجل يسكن الرجل داره في البادية في بلدة لا يعرف فيها للدور كراء، فسكن ذلك الرجل في تلك الدار بغنم وبقر ودواب فعمل الزبل الكثير، فيريد صاحب الدار أخذ الزبل، ويأبى الساكن أن يعطيه الزبل، ويحتج عليه بعمله، فيدعوه صاحب الدار إلى أخذ الكراء منه لسكناه. فأجاب: الزبل لصاحبه، وعليه كراء الدار" [2]، وربما عرف مكان وضع الحيوانات بالعريش**، هذا المصطلح ذكره الشماخي قائلا: "قال- أبو عبد الله محمد بن بكر-: أنظروا العريش: يعني عريش داره، فنظروا فإذا فيه كبش عظيم" [3]، إذن العريش هو الزريبة التي تؤخذ عادة جنب البيت لوضع الماشية من الغنم والبقر وغيرها.

كما منع المحتسبون الناس من اتخاذ مرابط الدواب على الطرق [4]، وعنه يفيدنا ابن عبد الرؤوف (242هـ/ 857م) ضمن فصل "النظر في الطرق" قائلا: "ويمنع حمال الحطب... وغيرهم عن توقيف الدواب بأحمالها حتى يباع ما عليها، ويؤدبون إن عادوا" [5]؛ فالأحكام الفقهية كانت متشددة في ذلك، وظهر تأثيرها على تحديد مواضيع الإسطبلات المستقلة أو

*- أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع التونسي، قاضي الجماعة بتونس، ألف كتابا سماه "معين الحكام" قصد به اختصار المتيطية، وله اختصار أجوبة القاضي أبي الوليد ابن رشد. يشير ابن فرحون أن وفاته كانت سنة 734هـ/ 1334م. الديباج، ج1، ص245-246/ أما الونشريسي فيحدد وفاته سنة 732هـ/ 1332م. الوفيات، ص26/ وفي شجرة النور الزكية ب 733هـ/ 1333م، ج1، ص296-297.

[1]- ابن الرامي البناء، المصدر السابق، ص65/ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص8.

[2]- الشعبي، الأحكام، ص323.

**- العريش: وهو مكان تخيم الدواب. الزمخشري، المصدر السابق، ص414.

[3]- السير، ج2، ص570.

[4]- العقباني، المصدر السابق، ص275/ ينظر ابن الرامي البناء، المصدر السابق، ص150.

[5]- آداب الحسبة والمحتسب، ص106/ ابن الرامي البناء، المصدر نفسه، ص150.

الملحقة بمنشآت أخرى، وتوجيهها توجيها معماريا معينا ليمنع حدوث الضرر [1]، وربما عرفت عمارة الإسطبلات تطورا خلال فترة البحث، لأن المغرب الأوسط لم يخرج عن باقي بلدان المغرب الإسلامي في مجال التطور العمراني؛ فاشتملت هذه المنشأة بالإضافة إلى مواضيع رؤوس الخيل على المتبن وأماكن لحفظ الأدوات التي تسرج بها الخيول كالسراج والمهاميز وغيرها، خاصة وأن الفرس يحتاج إلى معدات لركوبه [2].

وإذا تحدثنا عن إسطبلات الدواب، أو مرابض الإبل يجب أن نؤكد على نظافتها، لما في ذلك من ضرر لها، لذا كان أحمد ابن الحاج اليبدري (ت930هـ/ 1000م) "يخدم فرسه بيده، يرمي عليها الزبل، ويعلف لها الشعير" [3]، مع العلم أن الخيول تحتاج إلى فرش إسطبلها بسرحين (زبل الدواب) يابسا مغربلا، أو رملا، ولا يترك في البيت روث ولا بول، وإذا حدث شيء من هذا أخرج، ويرمي ما ابتل من الرمل ويعاد مكانه آخر يابسا أو سرحينا [4]، ويضيف الأصمعي (216هـ/ 381م) أن الناقة التي تبرك على بول أو ندى، فإن لبنها يتعقّد في ضرعها فيخرج خاثرا متقطعا [5].

أما الرعاة الرحل فلم يكونوا بحاجة لبناء إسطبلات لتنقلهم الدائم، و حافظوا على حيواناتهم بطرق تتلاءم مع ظروفهم؛ فيحيطها بعضهم بسياجات عالية جدا من الأشواك [6]، مثلما يفعل البدو الرحل في وقتنا الحالي، بينما يقوم رعاة الجبال حسب ما تشير إليه إحدى المصادر المتأخرة [7] ببناء شبه اسطبلات منخفضة مغطاة بأغصان الشجر يخبئون فيها حيواناتهم

---

[1]- محمد عبد الستار عثمان، ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دون طبعة، 2002م، ص139.

[2]- محمد عبد الستار عثمان،المرجع نفسه ص139/ عبد السلام الجعماطي، النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316- 483هـ)، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2010م، ص175.

[3]- ابن مريم، المصدر السابق، ص79.

[4]- مجهول، البيطرة ، ورقة 35/ السرحين حسب ما يفيدنا به ابن العوام يقصد به زبل الدواب. المصدر السابق، ج1، ص9.

[5]- كتاب الإبل، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر، سوريا، ط1، 2003م، ص75.

[6]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص365.

[7]- المصدر نفسه، ج1، ص187.

بالليل، وفي أيام الثلج يدخلونها في كهوف يجعلون فيها كميات كبيرة من العلف لأن الثلج يستمر هناك لفترات طويلة [1]، كما لا يبكر الراعي بالماشية في فصل الشتاء إلى المسارح لقوة البرد [2]، وفي هذه الحالة تبقى "البراذين أصبر على البرد والثلج والخيل أصبر منها على الحر" [3].

الحر" [3].

3- الحفاظ على النوع الحيواني

من الهدي الإسلامي الراشد في المحافظة على البيئة الحيوانية صون الجنس الحيواني من الانقراض، خاصة وأن هذه الظاهرة انتشرت خلال الحروب أين يمثل السلب والنهب والقتل السمة المميزة لها، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما أقدم عليه أبو يزيد مخلد بجبل أوراس أثناء محاصرة القائم الفاطمي له (334هـ/ 946م)، حيث "أمر بخمسمائة ثور، وأمر أن يشد على قرن كل ثور منها حزمة من حلفاء، وإلى ذنبه حزمة أخرى، قال: فاختار خمسمائة رجل من أصحابه،....حتى إذا قربوا من العسكر، أي جيش العبيديين ألقى كل واحد منهم في حزمات ثوره نارا. فلما بلغت حرارة النار إلى الثيران، ركضت أمامها" [4]، وهذه صورة من صور الإفساد وإهدار طاقات وموارد وموارد من غير نفع يرتجى أو مصلحة ترام.

كما تفصح كثير من النصوص أن الحفاظ على النوع وجودته يظهر من خلال الهدايا المتبادلة بين الحكام وولاتهم، خاصة إذا تعلق الأمر بالخيول العتيقة، والإبل النّجّب، وأنواع الأبقار الجيدة، كالتي كسبها أبو باديس أبحت*، إذ كانت له "ثلاثمائة بقرة طروقة الفحل كلها... وعنده

---

[1]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص74.

[2]- ابن عاصم، كتاب الأنواء والأزمنة القول في الشهور، تحقيق ميكيل فوركادة نوغيس، معهد مياس. فاليكروزة للتراث العلمي العربي، برشلونة، دون طبعة، 1993م، ص9.

[3]- مجهول، البيطرة، ورقة 50.

[4]- أبو زكريا، المصدر السابق، ص179.

*-أبو باديس أبحت بن باديس اليشكني، فقيه سكن فحص بونة، كانت له علاقات حسنة مع المعز بن باديس (ت454هـ/ 1062م). الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص895. ذكر في سير الوسياني، ج2، ص855 باسم أفحب بن زيدان.

رعائل خيل فيها تسعون فرسا قد أعدّها للظهور" [1]، والاهتمام بجودة الدواب يظهر أيضا من خلال الهدية التي بعث بها أمير زناتة محمد بن خزر في آخر سنة (318هـ/ 930م) للناصر لدين الله الأموي (ت350هـ/ 961م)، ضمت "عشرة نُجُب مخصيّة عجيبة الخلق متَخيّرة في جنسها،... وعشرون ناقة، حوامل عشارا وغيرها، معها فحل لها جليل الخلقة البِنْية، معها راعيها عبد أسود ماهر برعي الإبل بصير بأدواتها، وثمانية عشر فرسا من جياد الخيل العربية، منها فرس أصفر أسود العرف والذيل مهضوم، وفرس أشقر خماسي أغر مخضب الأربع، وفرس أشهب خماسي بأذنيه وطرف ذنبه وردة، وأربعة من عتاق الخيل، قيود للعيون ... " [2]؛ فالنص يشير إلى مدى اهتمام الأفراد بالدواب الجيدة، باختيارهم أفضلها قوة وجملا وأصالة، وأقدرها على الحمل والتنقل، مع مراعاة الجمع بين أفضل الذكور والإناث للحصول على الفصائل المتميزة، وخصت هذه الأنواع برعاة من أهل الحرفة لهم دراية بالدواب.

من جانب آخر، يعد النهي عن ذبح الحلوب من أبواب الحفاظ على النوع، حتى لا يتضرر الصغير بعد ذبح أمه، لقوله صلى الله عليه وسلم لمضيفة الأنصاري الذي أراد أن يكرمه بذبح شاة: "إِيَّاكَ وَالْحَلُوب" [3]؛ فملكية الشاة لا يعطي صاحبها الحق بأن يقوموا بجلب كل ما بها حتى لا يضروا بولدها [4]، لدى كان الكثير من الأفراد يفضل ذبح الكبش بدلا من الشاة، منهم أبو أيوب* الذي أنفق على وفد من نفوسة الجبل مما أعطاه الله، "وكان يذبح لهم كبشا غذاء، وكبشا عشاء، شهرا" [5]، أي كان

[1]- الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص588/ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص567.

[2]- ابن حيان، المصدر السابق، ج5، صص267، 278.

[3]- النووي يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2006م، (كتاب الأشربة)، رقم الحديث 2038، ج13، ص177.

[4]- أحمد القرالة، حقوق الحيوان وضماناتها في الفقه الإسلامي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، العدد 1، 2009م، ص30.

*- أبو أيوب بن كلابة الزواغي، إباضي من زواغة، من شيوخ ق4هـ/ 10م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص894.

[5]- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص443.

يـذبح الـذكر مـن الضـأن ولـيس أنثاهـا، حتـى النصـوص الفقهيـة أكـدت علـى المسـألة، خاصة وأن بعض الأفراد يقومون بشراء الشاة أو البقر لانتفاع بلبنها [1].

4- الرفق بالحيوان

أنـاط الإسـلام وجـوب الإحسـان إلى بعـض الحيوانـات لمنافعهـا المعنويـة وصـفاتها الحميـدة، فأوجـب الرفـق بهـا، وأن يكـون عارفـا بعللـها، كمالـك الفـرس الواجـب عليـه أن "يكـون عارفـا بعللـها وعلاجهـا إذ كـان لا يـأمن العلـل الحادثـة الـتي تصـيب الخيـل في الأسـفار وفهمـه بأوقـات الأعـلاف وسـقي المـاء، فربمـا سـقى الفـرس في وقـت لا يصـلح لـه فكـان سـبب عطبـه" [2]؛ فكـل مـا خلقـه الله سـبحانه وتعـالى مـن حيـوان لِيُنْتَفَـعَ بـه إلاّ وفيـه بركة، ووجب الرفق به في مأكله ومشربه وحتى منافعه.

ولعل الرفق بالحيوان يتجلى في باب التذكية؛ فالله سبحانه وتعالى أجاز للإنسان أن يستعمل حقه في الانتفاع بالحيوان، لكن اشترط لذلك أن يتم على الوجه المشروع، أي من حـق الإنسـان أن يذبح الحيوان المأكول للاستمتاع بالطيب من لحمه، ولكنـه مـأمور بالإحسـان في ذبحـه، ومـن ذلك حدّ الشفرة لقوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّه كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِـنُوا القِتْلَـةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَبْحَةَ، وَلْيُحدَّ أَحَـدكُم شَـفْرَتَهُ، وِلْيُـرِح ذَبِيحَتَـهُ﴾ [3]، ومـن هـذا المنطلـق واعتمادا على ما ورد في الكتاب والسنة المحمدية اقتبس الفقهاء أحكامهم، كتلك التي أفادنـا بهـا الشعبي بقوله :"سئل- سحنون- عن الرجل يذبح بمنجل الزرع الذي يحصد به؟. قـال: إذا كـان قاطعا لا يعذب البهيمة فذلك جائز" [4]، وينوه ابن عبد الرؤوف إلى مسألة الذبح قائلا: "يتوارى عنها إذا قدمها للذبح، ويرفق بها عند ضجعها، ولا يُعَنِـفْ عليهـا، ولا يقـرع قوائمهـا بالسـكين قبل الموت...، ويؤمرون أن لا يذبحوا شاة وأخرى تنظر إليها" [5]، وهو نفس ما ينبه إليه ابن

[1]- ابن سهل، المصدر السابق، ص354/ ابن عاصم، المصدر السابق، ص45/ السقطي، المصدر السابق، ص32.

[2]- مجهول، البيطرة، ورقة 14.

[3]- النووي، المصدر السابق، (كتاب الصيد والذبائح)، رقم الحديث1955، ج13، ص90.

[4]- الأحكام، ص198.

[5]- آداب الحسبة، ص80.

الصواف (489هـ/ 1096م) [1].

ومن معاني الرفق أن يُستثمر الحيوان فيما خلق له، ولا يكلف من الأعمال غير ما عرف بتأديته، فما خلق للحرث أو الدر والنسل لا يجوز استعماله في الركوب وحمل الأثقال إلاّ لحاجة ملحة تنزل منزل الضرورة، و"ألا يذبحوا الحوامل ولا ذوات الدّرّ..." [2]، وإذا حلبت الشاة يراعي صاحبها أن يبقي شيئا من اللبن لولدها، ويجب تقليم الأظافر حتى لا تعطب ضروع المواشي [3]، ومن الأمور المنهي عنها في حق الحيوانات ألاَّ يُذبح ولد الناقة وهو صغير عند ولادته، فلا ينتفع بلحمه، ولا بلبن الناقة، لأنه يجف حزنا على ولدها [4]، كما نهي عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، أو كراسي، إذ يوقفها صاحبها وهو راكب عليها غير سائر عليها ولا نازل عنها [5].

فكتُب الفقه الإسلامي طافحة بالأحكام المتعلقة بالحفاظ على حقوق الحيوان وهي كثيرة، خاصة وان الله سبحانه وتعالى أجاز السفر بالدواب، وحمل الأثقال عليها، ولكن على قدر ما تحمله من غير إسراف في الحمل مع الرفق في السير، وهنا يبرز دور السلطة، من خلال ما يقوم به المحتسب من مراقبة التجاوزات التي يقوم بها الأفراد في حق دوابهم؛ فابن الصغير يفيدنا بما كان يقوم به المحتسب داخل أسواق تاهرت قائلا: "إن رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها، وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها" [6]، لأنّ بعض الناس الناس يعاملون البهائم بعنف، كإثقالها بالأحمال وإرهاقها في سرعة المشي بالضرب والزجر الشديد حتى يستخرج منها فوق وسعها، مثل ما أعتاد فعله الحمالون للزرع والنقالون للحجارة

[1] - الخصال الصغير، اعتنى به جلال علي الجهاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 2000م، صص61- 62.

[2] - السقطي، المصدر السابق، ص32.

[3] - السخاوي، المصدر السابق، ص235.

[4] - يوسف القرضاوي، المرجع السابق، ص125.

[5] - السخاوي، المصدر السابق، ص239/ قطب الريسوني، المرجع السابق، ص111.

[6] - أخبار الأئمة الرستميين، ص88.

والجص والخدمة من الرمالين بتلمسان حسب إشارة العقباني [1]، خاصة داخل الأسواق أين يتم إيقاف الدواب بالخشب والحطب [2]، ويعالج الونشريسي المسألة نفسها تحت عنوان "إرهاق البهائم والإنسان بالأثقال منكر يجب تغييره" [3].

إذن، من واجب الأفراد "أن يتقوا الله سبحانه وتعالى في استعمالها، وأن يريحوها في كل يوم وليلة لحاجتها إلى الراحة والسكون" [4]، وهو الفعل الذي أقدم عليه أبو يعقوب بن أبي عبد عبد الله* حسب رواية الوسياني بقوله: "إن مواشي والدي كانت في أفدود** ، فكنت أزورها وأتفقدها، وأنا راكب جملا، وربما أجد في الجمل العياء، وأرأف به، وأنزل وأسعى على رجلي" [5]، ولم يكن أبو صالح*** أقل منه رفقا "إذا كان وقت الحصاد ينقل الزرع إلى الأندر بالشباك على ناقة، حتى إذا حان وقت صلاة الضحى أناخ ناقته، ثم حط عنها ثم عقلها، وحل إزاره ثم يأخذ في الصلاة حتى يصلي ما كان يصلي قبل ذلك، فيرحل بناقته" [6].

حتى كيفية وضع الأحمال على ظهور الدواب أخذت بعين الاعتبار، ليكون عونا لها على السير، ويجب المبادرة إلى حل الرحال عند النزول عنها، لتأخذ حقها من الراحة هي الأخرى؛ فهذه مناكر يجب الاحتساب فيها والمنع منها، ولا حجة لمالكها في

[1]- تحفة الناظر، ص272/ سعيد بنحمادة، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية بالغرب الإسلامي من خلال "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر"، للقاضي العقباني التلمساني- 871هـ/ 1467م، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، ع5، ربيع 1433هـ/ 2012م، ص77.

[2]- ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص106/ ابن أبي فراس القيرواني، أكرية السّفن، تحقيق عبد السلام الجعماطي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2009م، ص81/ ابن الحاج، المصدر السابق، ورقة227/ العقباني، المصدر السابق، ص274.

[3]- المعيار، ج2، ص501.

[4]- ابن الأخوة، المصدر السابق، ص152.

*- يوسف بن محمد أبي عبد الله بن بكر، أبو يعقوب، وهو ابن أبي عبد الله بن بكر بن أبي بكر يوسف، وكان من إباضي وادي أريغ. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص1055.

**- لم نتمكن من تحديد موقعه.

[5]- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص360.

***- أبوصالح، شيخ إباضي من أريغ، تحول إلى أوغلانت سنة 471هـ/ 1341م إثر قيام فتنة في أريغ. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص951.

[6]- الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص777.

كونها ملكه، لأن الحيوان محترم وحفظ النفوس واجب، ومن القضايا الفقهية التي تناولت مسألة حمل الدابة للأثقال ما ذكره صاحب النوادر والزيادات قائلا: "ومن العتبية، روى أبو زيد عن القاسم: ومن اكترى بعيرا يحمل عليه ثلاثمائة رطل فحمل عليه أربعمائة رطل فقدم وقد أعجفه فنحره ربّه ولم يعلم بالزيادة ثم علم، ربّ البعير مخير أن يأخذ منه كراء ما زاد فقط أو يأخذ منه ما بين قيمته يوم تعدى عليه وبين قيمته يوم قدم به" [1].

وقد تستعار الدابة ليحمل عليها الحنطة، فيحمل عليها حجارة فتعطب، وهنا يفيدنا ابن أبي زمنين (ت359هـ/ 970م) بجواب ابن القاسم قائلا: "إذا كان أمرا مخالفا فيه ضرر على الدابة فوق ضرر ما استعارها له فهو ضامن، ولو حمل عليها ما يشبه الذي استعارها له لم يكن له ضمان" [2]، لهذا يجب الترفق بالبهائم، ومراعاة ما تحمله على ظهرها من ثقل، والتوسط في قدر المحمول "فخير الأمور أوسطها" [3]، واحترام المسافة المقطوعة حتى لا تتعب، وهو ما يفيدنا به ابن أبي زيد القيرواني قائلا: "في مكترى الدابة يزيد في المسافة فقيل: إنّه ضامن ولو زاد خطوة" [4].

وتجدر الإشارة إلى دور المحتسب للنظر في بعض الأمور ذات صلة بالدواب، وعدم مراقبته لها فيه ضرر، كالصفائح التي يجب "أن تكون وافرة الرؤوس... فبرؤوسها تمسك الصفيحة" [5]، الصفيحة" [5]، أما مكايير التسمير، فيجب "أن تكون مطبوخة قاطعة جدا، فأن زيادتها، مع شدة شدة الضرب عليها تصدع الحافر وتبطل الدواب" [6]، "ومتى رق حافر الدابة احتيج إلى ركوبه ركوبه وينبغي له نعل مطبق

---

[1]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ج7، ص118.

[2]- المنتخب، ص306.

[3]- العقباني، المصدر السابق، ص272.

[4]- النوادر والزيادات، ج7، ص383.

[5]- ابن عبدون التجيبي، المصدر السابق، ص89.

[6]- المصدر نفسه، ص89.

ويطبق على حافره كله" [1].

ومن أبواب الرفق بالحيوان وإراحته، مراعاة التفقد لعلفه وسقيه [2]، ووردت في ذلك أحاديث نبوية عديدة، منها قولهﷺ: ﴿بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ. فَوَجَدَ بِئْراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ. ثُمَّ خَرَجَ. فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرى من العطَشِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً. ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رقِيَ. فَسَقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ "قالوا: يا رسول الله ! وإنَّ لنَا فَي البَهائِمِ لأَجْرٌ؟ فقال: "فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ﴾ [3]، وهذا يعني أن الإحسان إلى كل حيوان بسقيه ونحوه فيه أجر، وإذا قصر مالك الدابة في ذلك أجبره القضاء عليه، فإن لم يقم بما يجب عليه من حسن تغذيتها وسقيها باعها القاضي ولم يتركها تحت يد صاحبها تقاسي، وهو ما يثبته صاحب الأحكام السلطانية بقوله: "وإذا كان من أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تطيق الدوام عليه، أنكره المحتسب عليه ومنعه منه، وإن لم يكن فيه مستعد إليه، فإن ادّعى المالك احتمال البهيمة لما يستعملها فيه، جاز للمحتسب أن ينظر فيه، لأنه وإن افتقر إلى اجتهاد فهو عرفي يرجع فيه إلى عرف الناس وعاداتهم، وليس باجتهاد شرعي" [4].

كما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب والوسم في الوجه واللعن، وفي رواية: مرّ على النبي ﷺ حمار قد وسم في وجهه. فقال: ﴿لَعَنَ اللَهُ الَّذِي وَسَمَهُ﴾ [5]، لكن يجوز الوسم في مكان آخر كالفخذ، خاصة بالنسبة للخيول المحبسة للجهاد في سبيل الله [6]، ويشير ابن حماد إلى أن أبا عبيد الله الشيعي وسم في أفخاذ

---

[1]- مجهول، البيطرة، ورقة 66.

[2]- ابن عبدون التجيبي، المصدر السابق، ص96/ حسام خلف الصفيحي، أحكام الحيوان في الفقه الإسلامي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006م، ص17.

[3]- النووي، المصدر السابق، (كتاب السلام)، رقم الحديث2244، ج14، ص202/ عالجت بعض الدراسات المسألة بتفاصيل أكثر. قطب الريسوني، المرجع السابق، ص109 وما بعدها /أحمد القرالة، المرجع السابق، ص29.

[4]- الماوردي، المصدر السابق، ص336.

[5]- النووي، المصدر السابق، (كتاب اللباس والزينة)، رقم الحديث2117، ج14، ص81.

[6]- ابن العطار، المصدر السابق، ص206.

الخيل عبارة "الملك لله" [1]، أمّا الضرب في الوجه فمنهى عنه في كل الحيوان المحترم من الآدمي والحمير والخيل والإبل والبغال والغنم [2]، لكن يجوز ضرب دابة الركوب ضربا مباحا، لتقوم وتسير [3]، ويشير صاحب مخطوطة البيطرة إلى طريقة ضرب الدابة قائلا: "إذا أردت ضرب الدابة بالسوط في الوقت الذي تحتاج إليه فليكن ضربك لها غفلة... من حيث لا تشعر فيكون أجمع لنفسها" [4].

وضرب الدابة حسب رأي أحد الفقهاء [5] يكون "على النفار ولا تضرب على العثار*، العثار*، لأن العثار لا يد لها فيه بخلاف النفار والحرونة، ولا تضرب في الوجه، ولا تضرب بحديدة أو بمقرعة في أسفلها حديدة"، لأن الدابة قد تتأذى من الضربة، من ذلك نص السؤال الذي ورد ذكره ضمن مذاهب الحكام في نوازل الأحكام "عمن ضرب بطن بهيمة فألقت"، فكان جواب القابسي (403هـ/ 1012م) في المسألة ما يلي: "عليه ما نقص ذلك من قيمتها يوم ضربها. وهو قول مالك" [6]، ونقلت النازلة بتمامها في المعيار [7].

لكن هذا لا يمنع من تأديب الحيوان بالضرب في وقت الضرورة، إذ يذكر جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله ﷺ: "قال: سَافَرْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ- قَاَل أَبُو عَقِيل: لاَ أَدْرِي غَزْوَة أَمْ عُمْرَةً- فَلَمَّا أَنْ أَقْبَلْنَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: مَنْ أَحَبَ أَن يَتَعَجَل إِلَى أَهْلِهِ فلْيَعْجِلْ، قَالَ جَابِر فَأَقْبَلْنَا وَأَنَا عَلَى جَمَلٍ لِي أَرْمَك لَيْسَ فِيهَا شِيةٌ وَالنَّاسُ خَلْفِي، فَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِك إِذْ قَامَ عَلَيَّ فَقَالَ لِي النَبِيُّ صَلَى الله عَلَيْه وَسَلَم: يَا جَابِر اسْتَمْسِك، فَضَرَبَهُ بِسَوْطِهِ

[1]- أخبار ملوك بني عبيد، ص19/ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص151.

[2]- النووي، المصدر السابق، صص81-82.

[3]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص296.

[4]- مجهول، المصدر السابق، ورقة 50.

*- العثار: من عثر، ودابة بها عثار، لا تزال تعثر. الزمخشري، المصدر السابق، ص409.

[5]- يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، مصر، ط1، 2001م، ص 132.

[6]- القاضي عياض وولده، المصدر السابق، ص86.

[7]- الونشريسي، المصدر السابق، ج2، صص532- 533.

ضَرْبَةً، فَوَثَبَ البَعِيرُ مَكَانَهُ... " [1]، ويروي الشماخي قصة عن أبي محمد الدّرفي قائلا: "ركب حمارته ذات يوم، فبركت، فأخذ يصفق نعليه عند أذنيها. وذهب أصحابه، ولم تقم، فقال بعض أصحابه: ما أظن إلا حمارته بركت، فرجع، فضربها فقامت، والورع منع الشيخ من ضربها" [2]، والمؤلف نفسه يفيدنا أن بعض أهل الحي اشتكى إلى أبي صالح بكر بن قاسم اليراسني* "شاة تشرب اللبن من الآنية. فأتوه بها، فضربها ضربة واحدة بين أذنيها، فصاحت صيحة منكرة. فلم تعد تشرب اللّبن" [3].

لكن ثمة طرق أخرى يمكن للمرء أن يتبعها بدلا من الضرب عند سوق الدواب، كالحُداء- الغناء- بالنسبة للإبل، وجرت العادة أن تسرع السير إذا حُدي بها [4]، كما نهي عن خصي الخيل، وأجيز ذلك في الغنم لما فيه من صلاح لحومها، و البقر للحرث والعمل [5]، لكن في ذلك تعذيب ومشقة، وربما مرضت أيامها [6].

وإن وجدت شاة على وشك الموت عرف صاحبها أم لم يعرف، فإنها تذبح، وهذا ما أفادنا به أبو الحسن الصغير (ت719هـ/ 1319م)* قائلا: "انظر من ذبح شاة لغيره وجدها تموت فخاف عليها ولم يؤذن لم يضمن" [7]، ويتأكد نص الفتوى من خلال ما أقدم عليه أبو صالح بكر بكر اليراسني حين "سار ذات مرة في بعض شؤونه ومعه ابنه أبو محمد، فلما كانا ببعض الطريق

---

[1]- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1998م ، رقم الحديث 2861، ص81/ أحمد القرالة، المرجع السابق، ص31.

[2]- السير، ج2، ص445/ البغطوري، المصدر السابق، صص138- 139.

*- أبو صالح بكر بن قاسم اليراسني يصنفه الدرجيني ضمن الطبقة الثامنة 350هـ- 400هـ. الدرجيني، المصدر السابق، ص356/ من فقهاء الإباضية بجربة، أخذ من سليمان بن ماطوس النفوسي، عاش في النصف الثاني من القرن 4هـ/ 10م، له عدة فتاوى، الشماخي، المصدر نفسه، ج3، ص951.

[3]- المصدر نفسه، ج2، ص548.

[4]- السخاوي، المصدر السابق، ص244.

[5]- ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة الفقهية، ص284.

[6]- البرزلي، المصدر السابق، ج1، ص613.

*- القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي، عرف بالصغير، كان له المفزع في المشكلات والفتوى، توفي سنة 719هـ/ 1319م. مخلوف بن قاسم، المرجع السابق، ج2، ص309.

[7]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص344.

وجدا شاة لا يدري أحد منهما لمن هي والشاة على آخر رمق، فقال أبو صالح لأبنه: اذبحها، فامتنع، فكرر عليه، فامتنع. وكان الشيخ راكبا فنزل عن مركوبه، فذبح الشاه، فتركها وانصرف... " [1]، و النص نفسه ورد ضمن سير الشماخي [2].

ويفيدنا فقهاء المذهب المالكي بفتواهم في المسألة، من ذلك جواب أبي عبد الله بن مرزوق (782هـ/ 1380م) "عن ثور مرض وصار يرمي مصارينه قطعا قطعا من دبره وخيف عليه الموت، فهل تنفع فيه الذكاة أم لا؟ فأجاب: تنفع الذكاة في الثور إن كان ما أصابه من المرض" [3]، لكن صاحب الدابة أو الماشية قد يحتج على ذبح بهيمته، من ذلك قول الونشريسي الونشريسي في المسألة: "سئل القابسي (403هـ/ 1012م) عن رجل أصاب جمل رجل مريض يريد أن يموت أو انكسر أو انهدم وليس فيه مطمع فأرادا أن يذكيه ليحرز على مولاه بعض ثمنه ليلا يموت جيفة فيذهب خسارة فنحره، فقال مولاه تعديت في نحره بغير أمري فتضمن. فأجاب صاحب الجمل بالخيار إن أحب أخذه وإلاّ ضمنه قسمته حين نحره على حالته من الهلكة في المكان الذي نحره فيه" [4].

حتى دواب السفر تعقر إذا كانت مريضة ولم تتمكن من السير، وهذا ما يوضحه ابن أبي زيد القيرواني قائلا: "من وقف له بعير في سفر ولا يحتاج إلى لحمه أو لما به من العجف والمرض فليدعه ولا يعقره إلاّ أن يبلغ مرضه أن لا يبقى فيه نهضة، أو كسر أو أسقطه الجوع فلينحره إلاّ أن يكون مما يعاف ويستقذر ويخاف على آكله فلا يذبحه وليقتله" [5]، ويضيف "والدابة التي لا يؤكل لحمها إذا بلغت مبلغا لا يرجى فليقتلها بغير ذبح ببلد الإسلام أو الكفر، وأما التي تُرجَى

[1]- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص287/ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص356.
[2]- المصدر السابق، ج2، ص548.
[3]- الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص19
[4]- المصدر نفسه، ج9، ص572.
[5]- النوادر والزيادات، ج4، ص383.

فليدعها ببلد الإسلام وإن كان موضعا لا رعي فيه" [1]، ولعل هذا التصرف من أجل التخفيف من معاناة الحيوان.

نافلة القول، إن القرآن الكريم والأحاديث النبوية المستفيضة تحرض على الرحمة بالحيوان، وترهب من القسوة عليه، أو إضاعته وإهماله، منذرة بوعيد شديد لمن اقترف شيئا من هذه الأعمال، كما تنبئ بجزيل المثوبة عند الله لمن أحسن إلى هذه المخلوقات، من ذلك قول النبي ﷺ: "مَنْ احتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ الله، إيمَانًا بالله وتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فإِنَّ شِبعَهُ وريَّهُ وَرَوَثَّهُ وَبَوْلَهُ فِي ميزَانِهِ يَوْمَ القِيَامة" [2]، ومنع المفسدة التي تلحق بالحيوان سواء بحقه في الحياة أو الغذاء، أو غيرها، هو أحد مقاصد الشريعة، وهو ما تؤكده المصادر الفقهية المتقدمة والمتأخرة، من خلال ما عالجته من قضايا تم الإجابة عنها اعتمادا على أمهات مصادر المذهب المالكي.

ثالثا- الرعي والرعاة

يحتل الراعي مكانة هامة في ظل المجتمعات الرعوية، إذ يمثل عنصرا أساسيا في الإنتاج، من خلال تعهده للماشية تربيةً وحراسةً، لكن ما يشد الانتباه هو تغيب دور الراعي من المصادر التاريخية المتنوعة، ماعدا بعض الأمور المتعلقة بقضايا تضمينه إن فرط أو تعدى، وقد يرجع السبب حسب ما أفادتنا به الباحثة بلهواري فاطمة في أحدى مقالاتها [3] إلى طبيعة إهمال الكتابة التاريخية لهذا الصنف من الفئات الاجتماعية، والذي ظل تغييبها وتهميشها يخضع لتأثير النزعة الاستعلائية لدى مؤرخي الإسلام عن طبقة العوام، وموقعها الدوني ضمن معمار مجتمع العصور الوسطى.

1- الفئات الرعوية

[1]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ص383/ أحمد القرالة، المرجع السابق، ص33.

[2]- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، رقم الحديث 2853، ج6، ص71.

[3]- بلهواري فاطمة، النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي، دورية كان التاريخية، ع8، يونيو 2010م، ص29.

لم يكن الرعي من الحرف المحتقرة داخل المجتمعات الإسلامية عامة، لأنّ جميع الأنبياء مارسوا هذه الحرفة لقول الرسول ﷺ: ﴿مَا بَعَثَ اللَهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ؟. فَقَالَ: نَعَم عَلَى قَرَارِيطْ لأَهْلِ مَكَّة﴾ [1]، لذلك اشتغل به الخاصة والعامة من الفقهاء وأهل العلم، غير أن النصوص المصدرية المعول عليها في تحديد الفئات التي مارست النشاط الرعوي بالمغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م شحيحة، وغير مباشرة، ولم تحدد مكانة الراعي داخل المجتمع (عالم، صبي، عبد، صاحب القطيع...)، ولسد هذه الثغرة تم التركيز على كتب السير الإباضية، باعتبار أن جزءا هاما من بلاد المغرب كان تحت ظل حكم الأئمة الرستميين [2].

وحتى بعد سقوط الدولة على يد الفاطميين، تمركز الكثير من أصحاب المذهب الإباضي بأريغ، أسوف، وارجلان، سدراتة، كما ساعدتنا المؤلفات الإباضية على الخروج من النصوص النظرية إلى واقع معيش بمنطقة هامة من بلاد المغرب الأوسط، اعتمد أفرادها على التنقل إبان فصل الربيع إلى المناطق الخضراء.

ومن النصوص المستند عليها في هذا العنصر رواية الوسياني إلى "أن أبا مهاصر* خرج إلى الربيع والجشر هو وعمروس بن فتح**، فلبثا فيه ما شاء الله" [3]، النص في غاية الأهمية لكن إشارته إلى ممارسة أبي مهاصر حرفة الرعي غير مباشرة وينتابها الغموض، لكن بالعودة

---

[1]- أبو الفدا إسماعيل بن الكثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999م، م5، ص478.

[2]- يخبرنا ابن الصغير من خلال روايته واصفا فترة حكم عبد الوهاب "أنه قد بلغت سمعته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملأ المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان"، غير أن إبراهيم بحاز يفصل في الحدود السياسية للدولة، معتمدا على نص ابن الصغير المذكور أعلاه، إضافة إلى مصادر ودراسات أخرى. ابن الصغير، المصدر السابق، ص45/ إبراهيم بحاز، المرجع السابق، صص 127-140.

*- أبو مهاصر موسى بن جعفر، أورده الدرجيني ضمن الطبقة الخامسة (200-250هـ/ 815-864م)، توفي قبل سنة 283هـ/ 896م. سير الوسياني، ج2، ص536 وما بعدها/ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص306 وما بعدها/ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص333 وما بعدها.

**- أبو حفص عمروس بن فتح المساكني، توفي في معركة مانوا سنة 283هـ/ 896م. الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص89.

[3]- سير الوسياني، ج2، ص536/ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص306/ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص333.

للمعاجم اللغوية نلاحظ أن كلمة الجشر تعني إخراج الدواب إلى المرعى، ومن ثم لا نستبعد إخراج أبي مهاصر لدوابه للبادية أوان الربيع لترعى من خضرته، كما اكتسب يبيب بن زلغين "ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنا عشر ألف حمار. وإذا جاءه العامل وقت الصّدقة، قال للرعاة: اختاروا خيار الإبل، فغيبوها ويأمر العامل بأخذها" [1]، ومدحه عبد الوهاب قائلا: "لولا أنا ومحمد بن جرني، ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين: أنا بالذهب ومحمد بالحرث، وابن زلغين بالأنعام" [2]؛ فمن غير المعقول أن تكون هذه الثروة قد تكونت لابن زلغين دفعة واحدة، خاصة وأن رواية الشماخي تشير إلى أن يبيب لم يكن ميسور الحال في بداية حياته، لذا نرى أنه قد مارس حرفة الرعي قبل أن يتخذ رعاة لهذا العدد الهائل من المواشي.

ويخبرنا المؤلف نفسه أن أبا عثمان المزاتي*** كان له رؤوس كثيرة مختلفة الألوان، يذبح منها لإخوانه، وإذا سافر إلى الحج، أودعها الجبل، تبقى هناك إلى غاية عودته دون أن يلمسها سبع أو لص [3]، ويفيدنا أيضا أنّ أبا نوح سعيد بن زنغيل**** كان يرعى إبلا [4]، كما كانت هذه الحرفة إحدى اهتمامات جد المرازقة الأول حين دخل تلمسان (ق5هـ/ 11م) واستقر ببايتها ممارسا الفلاحة والحرث [5]، ولما توفي والد أبي مدين شعيب (ت593هـ/ 1196م) كلفه إخوته برعي مواشيهم، وكان أصغرهم سنا [6].

---

[1]- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص340.

[2]- المصدر نفسه، ص341.

*- أبو عثمان المزاتي، فقيه وشاعر باللسان البربري، من دّجي (جبل نفوسة)، عاش في النصف الأول من القرن 3هـ/ 9م. الشماخي، نفسه، ج3، ص981.

[3]- نفسه، ج2، 345-346.

**- أبو نوح سعيد بن زنغيل المزاتي، فقيه إباضي من الجريد قام على أبي تميم المعز الفاطمي إثر مقتل أبي القاسم يزيد بن مخلد. الشماخي، نفسه، ج3، ص1036.

[4]- نفسه، ج2، ص529.

[5]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص147.

[6]- ابن قنفذ، أُنس الفقير وعز الحقير، تحقيق أبي سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة، ط1، 2002م، ص45.

*- إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام بن عيشون المطماطي، توفي بتلمسان ، وكانت ترد عليه أسئلة من تلمسان وبلاد إفريقية كلها، ولم نقف له على تاريخ ميلاد أو وفاة. ابن مريم، المصدر السابق، ص140 وما بعدها.

ومن الشواهد الدالة أيضا على ممارسة فئة العلماء حرفة الرعي ما أفادتنا به بعض المصادر المتأخرة من معلومات، منهم عيش إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام بن عيشون المطماطي*، الذي كان يقوم بالحراثة واكتساب الماشية في بادية تلمسان [1]، ويطلعنا صاحب "البستان" أنّ أبا جمعة الكواش المطغري** كان "من أكابر الأولياء العاملين... كان في ابتداء أمره يرعى المعز في مطغرة" [2]، ونعتقد أن ممارسة هؤلاء للنشاط الرعوي يعود لما فيه من الكسب الحلال، وحتى لا يكونوا عالة على الغير.

لكن هذا لا يعني أن الرعي كان حكرا على هذه الفئة دون غيرها، فمنهم الأميون كشيبان الراعي (ت 170هـ/ 787م) [3]، الذي كان يذهب إلى الجمعة فيخطّ على غنمه ثم يجيء فيجدها بحالها [4]، ويشير صاحب "تحفة القضاة" إلى اتخاذ السفهاء أو الصبية الرعي، والواضح أنه لا ضمان عليهم فيما أتلاف من الغنم عمدا، لكن إن استرعي أحدهما بإذن أهله فباع الشاة أو ذبحها يضمن ذلك المال [5]، والملاحظ أن هذه المسائل لم تكن مجرد قضية نظرية، إنما كان لها حضور داخل واقع مجتمع المغرب الأوسط؛ حيث يخبرنا الوسياني قائلا: "أنّ بُهُماً للشيخ داود بن أبي يوسف* دفعها للصبيان للرعاء، فغفلوا عنها وهم في خوضهم يلعبون، وذلك نزل (بياض في الأصل) في جشر أيام الربيع وخصب البلاد، فغابت عن الصبيان فحسبوها رجعت إلى الحي، فوجدوها لم ترجع، فتحيروا منها، والليل أظلم، فاجروا إلى الشيخ أبي سليمان، فأخبروه فقال لهم، دعوها، فقرأ عليها آيات من القرآن، فلما أصبح طلبوها فوجدوها رابضة

---

[1]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص273.

**- أبو جمعة الكواش، من أكابر الأولياء، وله في الفتوى، لازم ابن غازي نحوا من تسع وعشرين وأخذ عنه وانتفع به، توفي سنة 951هـ/ 1544م. ابن مريم، المصدر السابق، ص149/ التنبكتي، المصدر السابق، ص 345- 346/ مخلوف، المصدر السابق، ص346.

[2]- ابن مريم، المصدر السابق، ص149.

[3]- الغبريني، المصدر السابق، ص80/ ابن صعد التلمساني، المصدر السابق، ص116.

[4]- الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2000م، ص118.

[5]- البويعقوبي، المصدر السابق، ورقة8.

*- أبو سليمان داود بن أبي يوسف الوارجلاني، محدث وفقيه إباضي، سكن تماواط (وارجلان) توفي سنة 462هـ/ 1070م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص945.

تحت شجرة والذئاب تدور حولها ممنوعة" [1].

وربما يتولى مهمة الرعي بعض أفراد العائلة؛ فأهل البادية منهم من كان يملك بقرا وغنما فيبعثها رفقة أولاده يطلبون المواضع الخصبة، فلا يأوون إلى القرية إلا في بعض الأيام [2]، وهنا تكون المراعي إما بجوار الأرض الزراعية، وتكون غالبا ملكا لصاحبها، يترك فيها سائمته ترعى على هداها، أو عامة مشاعة للجميع، وهذا النوع أكثر شيوعا نظرا لطبيعة المنطقة القبلية، وهو ما يؤكده العزيزي الجوذري قائلا: "هذه المسارح مشتركة لكافة أهل المنازل، التي تجاورها" [3].

كما تواجدت عناصر ذمية ببلاد المغرب دخلت المنطقة منذ عهود قديمة، إنهم اليهود، هذه الفئة دخلت مع الفينيقيين في موجات متعاقبة، وعلى مراحل عديدة، ولما فتح المسلمون بلاد المغرب وجدوا هذه الجاليات تقطن مناطق ومدنا مختلفة [4]، واستقر هؤلاء مقابل دفع الجزية، وتمكنوا من ممارسة عدة أنشطة اقتصادية، أهمها التجارة والتي برزوا فيها خاصة خلال العهد الزياني بالمغرب الأوسط، كما مارسوا النشاط الرعوي ببلاد المغرب، باعتبارهم من العناصر المكونة لفئات المجتمع بالمنطقة، ومنهم عناصر أقامت على مسافة عشرة أميال من القيروان، وامتلكت المزارع والحدائق والمراعى لتربية الدواب [5]، إلى جانب استخدامهم الثيران لجر الساقية والمحراث، وعندما يأتي يوم السبت يقوم اليهودي بتأجيرها إلى المسلمين [6]، وهو ما يكشفه لنا الشعبي قائلا: "سئل ابن أبي زيد (ت333هـ/ 944م) عمن أكرى من يهودي دواب، فيأتي يوم السبت فيريد اليهودي السبت، هل يقضي لليهودي على المسلم بالسير معه؟

[1] - سير الوسياني، ج2، صص755- 756.

[2] - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص70/ البويعقوبي، المصدر السابق، ورقة8.

[3] - سيرة الأستاذ جوذر، ص97.

[4] - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 2002م، ج1، ص193.

[5] - الونشريسي، المصدر السباق، ج8، ص262.

[6] - عطا أبو ريه، اليهود في ليبيا وتونس والجزائر، تقديم سنوسى يوسف إبراهيم، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2005م، ص107.

فأجاب: لا يقضي عليه، وكذلك لو كان بينهما خصومة فجاء يوم السبت فليقض على اليهودي معه، أو يوكل وكيلا لأنه حكم بين مسلم وذمي" [1]، والنازلة نفسها أوردها الونشريسي ضمن المعيار [2].

كما اهتموا بأنواع الحيوانات التي تساعدهم على نقل بضائعهم من مكان إلى آخر؛ فربى اليهود البغال نظرا لتحملها عناء السفر مسافات طويلة، وتحمل الأحمال الثقيلة، خاصة وأنهم فئة معروف عنها التجوال بين القرى، لا سيما في مواسم الحصاد للشراء والبيع، وهذا ما دفعهم أيضا للعمل بنخاسة البغال، كما مارسوا حرفة المكارى لحمل البضائع وتوصيل الركائب [3]، وكانوا حريصين على امتلاك أكبر عدد من الماشية لأنها كانت تعتبر أجرا ماديا تدفع منها الجزية أو تقدم مهرا للعروس، وفي أغلب الأحيان يهادى بها [4].

ونظرا لتواجد العناصر اليهودية ببلاد المغرب عامة، وكثرة تعاملاتهم مع بربر المنطقة نجد مؤلفي المصادر النوازلية قد اهتموا بهذه الفئة وعلاقتها بالسلطة وأفراد المجتمع، كتلك التي أفردها لنا الونشريسي، وتمثلت احداها في السؤال الذي طرح على قاسم العقباني عن يهود سكنوا البادية ويتجرون في أنواع المتاجر وبعضهم سكنوا الحاضرة وتطول إقامتهم في البادية، هل تؤخذ الجزية من جميعهم؟ [5].

أما الفئة الأخرى فتمثلت في العبيد، هذه العناصر التي إِسْتغلت ببلاد المغرب في الكثير من الحرف، وكان الرعي واحدا منها [6]، أما ببلاد المغرب الأوسط فقد ظهروا

---

[1]- الأحكام، ص274.

[2]- المصدر السابق، ج8، ص262.

[3]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص262.

[4]- عطا أبو ريه، المرجع السابق، ص107.

[5]- المعيار، ج2، ص253.

[6]- بشاري لطيفة بن عميرة، الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين (ق1- 4هـ/ 7- 10م)، شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2007م- 2008م، ص358، غير منشورة.

كرعاة خلال العهد الرستمي بتربيتهم للمواشي بحصن "نماليت" بطرف لواتة [1]، وكان يبيب بن زلغين (ق3هـ/ 9م) يرسل بهائمه المكونة من ثلاثين ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثني عشر ألف حمار لترعى رفقة عبيده [2]، حتى بعض الأئمة الرستميين أنفسهم كانوا من مالكي الماشية واتخذوا لها العبيد، وهو ما يذكره ابن الصغير عن يعقوب بن أفلح بقوله: "كانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه في إناء جديد" [3]، إذن العبيد شكلوا شريحة من شرائح مجتمع المغرب الأوسط يعول عليهم في رعاية الحيوانات، وأعمال أخرى.

2- تنظيم الرعي

أ- اتخاذ الرعاة

مارس الأفراد المستقرون على رأسهم بعض العلماء حرفة الرعي، لكن الكثير من أصحاب الماشية يفضلون البقاء داخل المدينة، وتسريح ماشيتهم خارجها، إذ ليس من المعقول أن يقضي صاحب الماشية حياته خلف قطيعه إذا كان من أصحاب الوظائف أو الحرف، أو كان من الميسورين، مثل الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر*، الذي جاءه ضيوف وغنمه مع رعاته في البراري [4]، والشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي*، الذي كان يقيم بوارجلان وله غنم

---

[1]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص107.

[2]- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص304.

[3]- أخبار الأئمة الرستميين، ص112.

*- أبوعبد الله محمد بن بكر الفرسطائي من أعلام إباضية المغرب، أصله من فرسطاء بجبل نفوسة، تحول إلى وادي أريغ، حيث أنشأ حلقة العزابة وتمكن من إحياء المذهب الإباضي، توفي في ورغلة سنة 440هـ / 1049م. الدرجيني، المصدر السابق،ص 392/ الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص970.

[4]- الدرجيني، المصدر السابق، ص377.

*- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، فقيه ومؤرخ إباضي، من مزاتة تمولست، توفي سنة 471هـ/ 1078م، الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص925.

**- أندرار، قرية من قرى وارجلان، ذكرت في القرن 5هـ/ 11م. الشماخي، المصدر نفسه، ج3، ص831، ويضيف محقق سير الوسياني، هامش1، ص432، أن المنطقة واد ترعى به الغنم.

كثير ب "أندرار**" [1]، لذلك كان يسد مثل هؤلاء أمر رعايتها إلى رعاة من العبيد أو المستأجرين، ومن النصوص الفقهية الدالة على اتخاذ الرعاة ما أفادنا به صاحب "الدرر المكنونة" حين أشار إلى رجل اشترى بقرة لتصحب البقر، وبعدما أخذها لمحله وجد أنها لا تصحبهم، فاحتج على بائعها، وكان رد البائع: "يرعاها الراعي وأرعاها أنا أيضا يوم دولتي وما رأى بها هذا العيب" [2]، أي اتخاذ الرعاة من الأمور المتعارف عليها داخل مجتمع المغرب الأوسط، ويشير الشماخي إلى استئجار رجل من بني غمرت*** راعيا من بني واشية**** [3].

ومما لا شك فيه، أن الراعي المستأجر كان على معرفة ببعض الأمور الخاصة بالقطيع؛ فمثلا إذا أدركها المطر لا تتحرك من موضعها إذا لم يلحقها الراعي، بل قد تهلك في مكانها، فهنا يُحضر لها ذكورا لتتبعه سائر الغنم [4]، ويرى أحد المؤلفين في مجال الفلاحة (ق4هـ/ 10م) أن "أفضل من رعى البقر كل طويل شديد جهير الصوت من الرجال فإنّه كذلك كان مشرفا على أوائل البقر والشّاذ منها. وكانت تعينه مع ذلك أنه إذا كان جهير الصوت كان ذلك أهيب لما يرعى من البقر. وأفضل راع للشاة لا يستغني عن هذه الخصال لكثرة عدوّ الشاة من النسر والسباع" [5].

والواضح أن الطغنري له نفس الفكرة، ويضيف أن راعى البقر إذا كان "قصيرا لم ير أوائلها إذا كان في آخرها، وأفضل ما يستعمل في رعى الشياه كل قصير خفيف كريم طلق اللسان شجاعا صابرا. فلا يأمن أن يطرقه العدو فيضيعه. وإذا كان شجاعا فلا يأمن أن يطرقه

[1]- الشماخي، نفسه، ص187.

[2]- المازني، المصدر السابق، ج3، ص153.

***- بنو غمرت، قبيلة زناتية وهبية، انتقلت إثر الانتشار الهلالي من جنوب إفريقية إلى ناحية المسيلة، واشتهرت بين القرنين 4هـ- 6هـ/ 10- 12م بالغارة في وارجلان وجبال بني مصعب. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص863/ ويذكرها الإدريسي بين تاهرت وتلمسان. المصدر السابق، م1، ص256.

****- بنو واشية، قبيلة إباضية قرب وارجلان في القرن 5هـ/ 10م. الشماخي، المصدر نفسه، ج3، ص878.

[3]- السير، ج2، ص543.

[4]- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص473.

[5]- قسطوس بن اسكولستيكه، المصدر السابق، ص71.

العدو من البشر، أو السباع في ليله ونهاره" [1]، لكن لا نجد من خلال استقرائنا لمضامين النصوص التاريخية والفقهية ما يثبت ذلك بالنسبة للمغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/ 10- 11م) .

وأحيانا أخرى يمكث الراعي المستأجر بالقطيع في المراعي طول النهار، ثم يعود في آخره، أو يمكث فترة طويلة قد تصل إلى عدة شهور، ثم يرجع بها، وهو ما يكشف لنا الدرجيني عن "راعي غنم أبي محمد بن مانوج* قدم عليه فسأله عن حال الغنم فقال: هي صالحة الحال. وان وهب الله لها العافية إلى قابل فستكمل مائة" [2]، وكأن صاحبها لم يرها منذ مدة طويلة، كما يمكن للراعي اصطحاب حيواناته الخاصة عند خروجه لرعي ما استأجر له، وهذا حال أبي عبد الله محمد بن بكر، الذي كان يبعث غنمه لترعى في البادية [3]، وأرسل يوما رجلا من لمطة "في غنم له بجبال بنى مصعب** سائمة، فخرج فكانت الغنم تحت يده وله فيها غنم قد جمعها فيها جميعا، فأغارت خيل بني غمرة عليه، فاستاقوا الغنم كلها" [4].

ومن الواضح أن استئجار أهل الحضر رعاة من البادية كان يكتنفه الكثير من المشاكل حسب ما تورده العديد من النصوص الفقهية، منها المسألة التي طرحت على أبي عمر بن المكوي (ت401هـ/ 1011م) "عمن استأجر راعيا لغنمه فلما خرج الراعي بها المسرح ترك

---

[1]- زهرة البستان، ص142.

*- أبو محمد بن مانوج، شيخ إباضي من لماية، ومن فقهاء غار أمجماج. الدرجيني، المصدر السابق، ص400/ الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص1012.

[2]- الطبقات، ج2، ص401.

[3]- المصدر نفسه، ج2، ص570.

**- بنو مصعب، جبل بني مصعب، قبيلة بربرية تحولت من الواصلية إلى الوهابية زمن أبي عبد الله محمد بن بكر (5هـ/ 11م)، سكنت وادي ميزاب، ويشير محقق سير الشماخي ضمن الجزء الثالث إلى أن الخريطة تشير إلى اسم قرية مصعب في وادي سوف. أما جبل بني مصعب فإنه يقع في ناحية وادي ريغ. المصدر السابق، ج3، ص872.

[4]- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص390/ الشماخي، المصدر السابق، ص576.

الغنم ورجع إلى المدينة ثم انصرف إليها عشية فوجدها قد نقصت ولم يدر متى زالت أوقت رجوعه أم قبل. فأجاب بأنه لا ضمان عليه إلا أن يقيم رب الغنم البينة أنها إنما ضاعت في وقت تعديه ذلك" [1]، وربما يطلب رب الماشية في مثل هذه الحالة من الراعي ليثبت موت الغنم أو البقر، كأن يأتيه بجلدها [2]، ونفس الأحكام استندت عليها احدى الدراسات الفقهية الحديثة [3]، ويثبت الوسياني ترك الرعاة للماشية في المسارح قائلا: "ثم إن زيري* نزل يوما من الأيام خلف الكدية، وإذا ثلاث عشرة ناقة ليس معها أحد، فجلبها زيري... " [4].

كما سئل ابن لبابة (ت314هـ/ 926م) "عن راعي غنم وَكَّلَ غيره مثله في الكفاية (وكيف إن لم يكن مثله في الكفاية) فضاع منها شيء عند الوكيل؟ فأجاب: إذا لم يوكل كافيا ولا غير كاف فهو ضامن لأنه تعدى وإن كان كافيا لم يضمن" [5]، وسئل أيضا عن راعي بقر دفعها إلى غيره بغير إذن أهلها فرعاها يوما فلما كان آخر الشهر ذهب الراعي إلى البقر فقبضها وقال صاحبها إنما ضاعت عند الذي رعاها لك وقد تعديت. فأجاب ابن لبابة: إن قامت لصاحبها البينة أنها ذهبت عند الآخر فالأول ضامن وإلاّ حلف الراعي الأول بالله لقد ضاعت عندي بغير تضييع فإذا حلف لم يضمن [6]، نفس النازلة والحكم ورد استند عليه صاحب المعيار [7]، كما كما أجاب الفقيه نفسه عمن استعار بقرا أو استؤجر عليها للرعاية فأفسدت بالليل، أن عليه

---

[1]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص330.

[2]- الفرسطائي النفوسي، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق الشيخ بكير بن محمد الشيخ بلحاج، الدكتور محمد بن الحاج ناصر، المطلعة العربية، غرداية، ط2، 1997م، ص98/ البويعقوبي، المصدر السابق، ورقة2.

[3]- الخنقي، محمد بن محمد الطيب بن أحمد بن المبارك (ت1154هـ/ 1741م)، مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي- أو عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام، تقديم وتعليق محمد موهوب بن أحمد بن حسين، دار الهدى، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص43 .

*- زيري بن محسن المستولي، رئيس من رؤساء مغراوة، مخالف لدعوة المسلمين من أهل أسوف. الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص353.

[4]- سير الوسياني، ج1، ص354.

[5]- الشعبي، المصدر السابق، ص288.

[6]- الشعبي، المصدر السابق، ص288.

[7]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص331.

الضمان دون رب البقر. ويرى ابن الحاج أن الضمان تعلق بالرعاة، ويحتمل تعلقه بأربابها ويحلف الراعي ما فرط ولا ضيع [1].

أما المستوى المعيشي لمن مارس حرفة الرعي فلم يكن جيدا، والغالب على أصحابها الفقر؛ فالمالكي يشير عند ترجمته للفقيه أبي جعفر القمودي (324هـ/ 936م)، إلى شباب استأجروا أنفسهم في غنم يرعونها، لكنهم كانوا يأخذون من صوفها بغير إذن أصحابها [2]، ويخبرنا اللبيدي* من خلال ترجمته للجبنياني** أنه استأجر نفسه عند أحد الشيوخ يرعى له بقرًا [3]، لكن رب الماشية كان يمارس في أحيان أحيان كثيرة سلطة لا حدود لها على الراعي؛ حيث يشير صاحب "ترتيب المدارك" إلى أن الفقيه "الجبنياني" جاءه رب الأنعام الذي استأجره يوما بفأس فقال: "اقطع خشبة من هذه الشجرة"، وحين رفض الفقيه القيام بهذا العمل، قال له: "إنما عليك أن تسمع ما آمرك به فتعمله" [4].

وفي نفس السياق، يفيدنا الفقيه ابن فرحون* نقلا عن سحنون أن الجزارين كانوا يجمعون شياههم في قطيع ويؤجرون عليها رعاة [5]، والنص نفسه يستند عليه كل من الونشريسي [6]

---

[1]- المصدر نفسه، ج8، ص352.

[2]- رياض النفوس، ص229.

*- اللبيدي، عبد الرحمن أبو القاسم، من مشاهير علماء إفريقية ومؤلفيها وعبادها، توفي بالقيروان سنة 440هـ/ 1049م، ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة التراث، القاهرة، ط2، 2005، ج1، صص 313، 315/ قاسم مخلوف، المرجع السابق،ج1،ص142.

**- الجبنياني، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي البكري، أحد أئمة المسلمين توفي سنة 369هـ/ 979م، وقبره بجبنيانة معروف متبرك به. ابن فرحون المالكي، المصدر السابق، ج1، ص240/ قاسم مخلوف، المرجع نفسه، م1، ص142.

[3]- اللبيدي، المصدر السابق، ص6/ القاضي عياض، المصدر السابق، ج2، ص149.

[4]- القاضي عياض، المصدر نفسه، ج2، ص139.

*- ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي، قاضي قضاة المدينة المشرفة توفي سنة 799هـ/ 1397م. الونشريسي، وفيات الونشريسي، المصدر السابق، ص72/ قاسم مخلوف، المرجع السابق، م1، ص291.

[5]- ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصوب الأقضية ومناهج الأحكام، تحقيق الشيخ جمال مرغشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص248.

[6]- المعيار، ج8، ص341.

والبويعقوبي [1]، أما إقدام الجزارين على هذا التصرف قد يعود إلى صعوبة حرفة الرعي، والتنقل وراء القطيع من مكان إلى آخر متحدين في ذلك عوامل الطبيعة وقساوتها، الأمر الذي دفع بهم إلى اتخاذ الرعاة.

عموما، المذهب المالكي هو الأساس المعتمد من قبل علماء وفقهاء المغرب الإسلامي عامة بما فيه المغرب الأوسط كمجال جغرافي لموضوع بحثنا، و النهج نفسه سارت عليه الدراسات الفقهية الحديثة [2] باعتماد مؤلفيها على نصوص فقهية متقدمة وأخرى متأخرة، خاصة فيما تعلق بمسائل تضمين الرعاة.

ب- أجرة الراعي وشروط عقد استئجاره

أخضَعَت عملية استئجار الرّعاة لتعاليم الشريعة الإسلامية، وضبطتها كتب الفقه وبينت ما للأجير وما عليه، وقد تحدد أجرتهم على حسب عدد المواشي [3]، التي تستدعي أحيانا وجود راعيين لحرزها، لأن الراعي يحتاج إلى طعام أو له مصلحة يقوم بها، فلا بد له من مساعد [4]، ولا ولا يجوز لرب الغنم أن "يشترط على الراعي ضمان ما تلف من غير تفريط منه وتنفسخ الإجارة مع الشرط المذكور، وله أجرة المثل فيما رعى" [5]، ومثل هذه المسائل كثيرة الوقوع في البادية، منها "الدخول مع الراعي على انه إن خرج قبل تمام المدة بغير عذر فلا شيء له وإن أخرجه رب الغنم أعطاه جميع الأجرة" [6]، لهذا كان إثبات عقد الاستئجار ضروريا، لتفادي

---

[1]- تحفة القضاة، ورقة 12.

[2]- الخنقي، المرجع السابق، ص8 وما بعدها/ الوزاني الفاسي، أبو عيسى سيدي المهدي (ت1342هـ/ 1924م)، تحفة أكياس الناس بشرح عمليات فاس، تقديم وإعداد هاشم العلوي القاسمي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دون طبعة، 2001م، ص364.

[3]- ابن سحنون، المصدر السابق، ص370/ المازوني، المصدر السابق، ج3، ص383/ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص263.

[4]- الشعبي، المصدر السابق، ص292.

[5]- البويعقوبي، ورقة 2.

[6]- المصدر نفسه، ورقة 3.

*- تين يلسي، قرية في وادي ريغ، قرب أجلو وبني ويلل، على طريق ورقلة. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص847، وحاليا تبعد بمسافة 25كم عن تقرت من الناحية الجنوبية. عبد القادر موهوبي السائحي، المرجع السابق، صص40-43.

الضرر والنزاع القائم بين الراعي ورب الماشية، خاصة بالبادية، وعلى ما يبدو أنها من المسائل التي لقيت اهتمام القضاة؛ إذ يخبرنا الوسياني أن أبا الربيع سار ذات يوم من تين يسلي* إلى وارجلان إلى عبد الله بن زورزتن** ليسأله عن رجل رعى ماشية بأجر لرجل آخر، فتبين له أن الغنم التي بين يديه حرام. فكان جوابه: "إذا تبين أنها حرام تركها ويمضي في شأنه" [1].

أما مدة استئجار الراعي قد تكون ثلاثة أشهر، وفي الغالب تكون سنة واحدة؛ حيث سئل ابن لبابة (ت314هـ/ 953م) عن راعي غنم اتخذ سنة للرعاية بعشر دنانير، فلما كان في بعض السنة باع صاحب الغنم غنمه، أو تلفت، فلم يطلب الراعي صاحبه أن يأتي بغنم مثلها، ولا صاحب الغنم دعاه إلى ذلك، ولكنه جلس بلا عمل أو آجر نفسه من غيره في بقية السنة ثم جاء بعد السنة أو قبل تمامها إلى صاحب الغنم يسأله العشرة دنانير، فقال له صاحب الغنم: ليس لك عليّ إلا قدر ما رعيت عندي لأنك قد غفلت حتى انقضت السنة، ولم توف بخدمتي، وكيف إن طلب ذلك قبل تمام السنة؟ وقد آجر نفسه من غيره؟ فقال له صاحبه: أوفني خدمتي أو اخرج عن الذي أنت عنده، فقال: من الواجب عليه في ذلك أن يأتيه بغنم مثلما يتم له شرطه فيها أو يؤاجره من غيره في رعاية مثلها، فإذا لم يفعل حتى مضت المدة فإن كان الراعي آجر نفسه من غيره فالأجرة للمستأجر الأول، وعلى المستأجر الأول أن يوفيه أجرته الأولى التي عامله عليها.

وإن كان الراعي لم يدخل عند غيره حتى مضت السنة كلها، ولم يؤاجره المستأجر الأول، ولم يخلف له الغنم التالفة ولا التي باع فالأجرة كلها للراعي كاملة، إلا أن يكونا تفاسخا قبل مضي السنة على أن يعطيه قدر ما رعى عن تراض بينهما جميعا، فلا بأس به، ولا قول لواحد منهما بعد ذلك [2]، والنازلة نفسها يعتمدها الونشريسي [3]، مما يعني أن عمومية الحكم وتطبيقه جريان حتى ببلاد المغرب الأوسط.

الشماخي، نفسه، ص1011.

**- أبو محمد عبد الله بن زورزتن الوسياني، فقيه إباضي من كنومة بني وسيان، عاش في النصف الثاني من ق5هـ/ 11م.

[1]- سير الوسياني، ج2، ص874.

[2]- الأحكام، صص288- 289.

[3]- المعيار، ج3، ص263

كما سئل أبو الفضل العقباني (ت 854هـ/ 1450م)* "عن رجل استأجر على رعاية غنم بأعيانها سنة من غير تعرض لاشتراط خلف كفعل أهل البادية فهل هبتي فاسدة؟ فإن قلتم بفسادها فهل يرد إلى أجرة المثل فيما أخذ بحسبها حين الفسخ وحين المشاجرة أو لاشيء إلا بعد تمام المدة إن على ذلك خلاف. فأجاب: الإجارة فاسدة لما لم يشترط فيما من هلك منها هذا لابن القاسم، وأشهب يجيز هذا ويقضي بالخلف فيما ضاع وإنما يمنع عنده لو صرحا بالخلاف فيما ضاع ثم محل القضاء بالفساد تفسخ الإجارة ويقضي فيما فات بأجرة المثل فبما عمل على الفور لا يحسب ذلك من المسمى" [1].

ومن المسائل التي قد تقع بين الراعي ورب الماشية أن يستأجر هذا الأخير راعيا لغنمه إلى أمد معلوم، فلما كان في بعض الأجل، أو عند انصرامه اختلفا في عدد الغنم، فقال ربها: "استأجرتك على مائتي شاة- وهي جملة ما بيد الراعي وقت التنازع-، وقال الراعي: بل على مائة وخمسين، والخمسون الزائدة التي بيدي هي مالي وملكي، كانت عندي وقت الاستئجار أو أفدتها بعد ذلك بوجه سائغ يدعيه"، وفي هذه الحالة لا يصدق الراعي المستأجر إلاّ بعد أن يأتي بسبب يدل على صدقه، فيحلف معه، وإن أقر بشيء منها لغير الذي استأجره فهو له شاهد تقبل له شهادته إن كان عدلا [2]، وهذه كلها أمور تحتاج إلى توثيق وضبط بعقد قانوني يتفق الطرفان على ما يرد فيه من شروط، لتجنب ما قد يقع بينهما من نزاع.

أما كيفية كتابة عقد الإيجار يفيدنا بها القاضي أبو إسحاق الغرناطي (ت579هـ/ 1183م) في كتابه "الوثائق المختصرة "قائلا: "تسمية المستأجرين، والمستأجر فيه، وصفته، ومدة الإجارة، وعدد الأجرة، وصفتها، ووقت وجوبها، والشروع في العمل، ووصفها بالصحة، والمعرفة بقدر ذلك، وعقد الإشهاد عليهما،

*- قاسم بن سعيد العقباني، أبو الفضل، ولي قضاء تلمسان، توفي سنة 854هـ/ 1450م. الونشريسي، وفيات الونشريسي، ص95/ التنبكتي، المصدر السابق، ص365.

[1]-المازوني، المصدر السابق، ج3، ص383.

[2]- ابن رشد، فتاوى ابن رشد، السفر3، صص1304-1316/ البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص558.

والتاريخ" [1]، وفي بعض العقود يوصف الراعي وصفا دقيقا، فيذكر لونه، ولون عينيه، وشكل حاجبيه، وأنفه وقامته [2].

غير أن عقد استئجار الرّعاة ينقسم إلى شروط يشترطها ربّ الماشية، وأخرى يشترطها الراعي، فربّ الماشية له أن يشترط على من يرعى حيواناته الرفق بها، وتخيّر المسارح لها، وألاّ يرعى مع غنمه غيرها لأحد من الناس، وهو ما يثبته ابن أبي زيد القيرواني قائلا: "إن واجره على رعاية عدد معلوم، فله أن يرعى غيرها، ويكون للراعي أجرها إن لم يضر بالأول، إلاّ أن يكون شرط عليه أن لا يرعى معها غيرها، فله شرطه" [3]، وإن خالف ورعى معها غيرها، فأجرة ما رعى لرب الغنم الأول، وقد يشترط على الرّاعي إخراج غنمه مدّة شهور الشتاء إلى مواضع معينة، وفي الصيف إلى مواضع أخرى محددة [4]، ويجوز لرب الماشية أن يشترط الحلاب على الرّاعي إن أراد ذلك، ويجوز له أن يشترط عليه أن لا يسقي أحدا من لبن ماشيته [5]، ولا يجوز للراعي أن يأخذ من زبد ما يرعى، بل يجوز له شراؤه من بعد التذويب [6].

لكن ليس للمالك اشتراط الخلف من الراعي إذا مات، وإذا استرعاه جمع من الناس فإن كل واحد منهم يأخذ ماله إذا تبين، وإن تبينت لهم أعيانهم الأولى وتشاكلت عليهم الغلات والنسل فإنهم يقوِّمُون النسل على جميع ما يكون له النسل، والغلة وعلى جميع ما تكون له الغلة، وذلك مثل الصوف يقسمونه على جميع ما يكون له الصوف، والنتاج يقسمونه على جميع ما يكون له نتاج [7]، كما لا يجوز له اشتراط الضّمان فيما هلك من الغنم أو غيرها، لأنه لا ضمان على الرعاة إلاّ إن تعدوا أو فرطوا، سواء كانوا أحرارا أو عبيدا، والمسائل المتعلقة بهذه

[1]- أبو إسحاق الغرناطي، المصدر السابق، ص34.

[2]- عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، ط1، 1977م، ص481.

[3]- ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، ج7، ص54.

[4]- عبد الواحد المراكشي، المرجع السابق، ص480-481.

[5]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ج7، ص54.

[6]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص261.

[7]- الفرسطائي النفوسي، المصدر السابق، ص98.

القضية اهتم بها جل المؤلفين النوازليين منهم ابن أبي زيد القيرواني (386هـ/ 996م) وقوله "من الواضحة لا يضمن الراعي عند مالك إلاّ ما تعدى فيه أو فرط" [1]، وعن المؤلف نفسه: "قال ابن حبيب ولا يضمن إن قام فضاعت الغنم وإن نام نهارا في أيام النوم إلاّ أن يأتي من ذلك مما يستنكر، وما يجر إلى الضيعة فيضمن أو يكون بموضع مخوف" [2]، ونفس المسألة نقلها البرزلي (ت841هـ/ 1438م) عن صاحب النوادر والزيادات [3].

وهذا الواقع الفقهي اتفق مع ما ورد من أحكام ضمن المراجع الفقهية الحديثة، التي اعتمد مؤلفوها على أمهات المصادر المالكية؛ إذ يذكر أحد المؤلفين [4] أن النوم وقت القائلة من شأن الرعاة، لكن الصباح والعشي فلا نوم فيه، وهنا يخص فصل الصيف، أما أيام الشتاء فلا نوم فيها، وإن حدث ونام الراعي في هذه الأوقات يضمن.

وقال أبو عمر بن المكوي (ت401هـ/ 1011م): "من استأجر راعيا لغنمه، فلما خرج الراعي بها إلى السرح ترك الغنم ورجع إلى المدينة، ثم انصرف إليها عشية، فوجد منها غنما قد نقصت، ولم يدر متى زالت أوقت رجوعه أم قبل، فإنه لا ضمان إلاّ أن يقيم رب الغنم البينة، أنها إنما ضاعت وقت تعديه ذلك" [5]، والنازلة نفسها استند عليها صاحب المعيار [6].

حتى كتب الوثائق والسجلات احتفظت لنا ببعض الأحكام فيما يخص ضياع الحيوان من الماشية أو الدواب، من ذلك وثيقة ابن العطار (330هـ/ 942م- 399هـ/ 1008م)، والتي جاء فيها : "يشهد من تسمى في هذا الكتاب من الشهداء أنهم يعرفون فلان بن فلان الفلاني بعينه واسمه، وأنه أحضرهم بغلا أشهب صفة كذا أو حمارا أخضر أو فرسا وردا أو ما كان،

---

[1]- النوادر والزيادات، ج7، ص53.

[2]- المصدر نفسه، ص53.

[3]- فتاوي البرزلي، ج3، صص557- 558. "وسئل عن الراعي إذا ضاع له شيء وسط النهار في الصيف وهو نائم أو آخر النهار، هل يضمن أم لا؟"، فكان الجواب: "إن ضاع شيء وهو نائم وقت القائلة ونحوه، فلا ضمان عليه، وإن تعمد النوم في غير وقته ضمن"، "ووقت القائلة عند الرعاة لا يضمن إلا أن يطول فيضمن، أو في موضع يخاف عليها لكثرة الوحش العادي".

[4]- الخنقي بن المبارك، المرجع السابق، ص43.

[5]- الشعبي، المصدر السابق، ص273/ ابن فرحون، التبصرة، ص247.

[6]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص330.

قارحا في سنه صفته كذا، وذكر أنه وجده وعرفه ولم يُلفِ له صاحبا، وطال عليه نفقته وعلفه ومؤونته، فعرفه للبيع بحضرتهم وطلب فيه الزيادة في مظانها، فكان أقصاها ما بلغه كذا وكذا، وظهر السداد في بيعه بهذا الثمن، فأنفذ فيه البيع وقبض الثمن المذكور إن جاء بها، وإن يئس منه تصدق به عنه، شهد على ذلك كله من عرفه وشاهده" [1]، ويضيف المؤلف نفسه: "وتعقد مثل ذلك في البقر إذا وجدها وكان الموضع مخوفا من السباع ولا يصلح من ذلك تسريحها وإطلاقها" [2].

أما عن شروط الراعي على المستأجر، فعليه نفقته ومؤنة أكله، وكسوته إلى انقضاء أمد الإجارة [3]، أما اشتراطه خلف ما نقص من الماشية أو بيع خلال مدّة الإجارة، فهو من الشروط الواجب توفرها في العقد إذا حددت الشياه بأعيانها، ولا يصح العقد إلاّ به، حيث جاء في المدونة: "أنّ الرجل لو اكترى راعيا يرعى له مائة شاة بأعيانها سنة، فإنّه إن لم يشترط أنّ ما ماتت من الغنم فعليه أن يأتي ببدلها فيرعاها له الراعي فالكراء فاسد، لأنه لا يدري أتسلمُ الغنم إلى رأس السنة أم لا" [4].

كما يعتبر العقد شرطا أساسيا خاصة في حالة الشركة لما قد يقع فيها من مشاكل، ونذكر منها الحالة التي سئل عنها الفقيه ابن رشد (ت520هـ/ 1126م) عن "شريكين في بقر، كان لأحدهما عشرون رأسا وللآخر اثنا وعشرون رأسا، وشاركه بعشرين وبقي اثنان لا شركة فيهما، فعطب من البقر واحد فقال صاحب العشرين: هي من الرأسين الزائدين، وقال الآخر: هي من بقر الاشتراك ففي هذه الحالة على صاحب الاثنين وعشرين من مصيبتها ثلاثة أرباعها، وعلى الشريك الذي أنكر أن تكون من بقر الشركة ربعها" [5]، المسألة نفسها نقلها البرزلي [6]،

---

[1]- الوثائق والسجلات، ص135.

[2]- ابن العطار، المصدر السابق، صص135- 136.

[3]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص497.

[4]- سحنون بن سعيد، المدونة الكبرى، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، دون طبعة، 1986م، م3، ص422.

[5]- فتاوى ابن رشد، السفر 2، ص872.

البرزلي [1]، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نستثني المغرب الأوسط عن تطبيق هذه الأحكام باعتباره مركز وسط بالنسبة لبلاد المغرب، وكان محل تأثر وتأثير لباقي مناطق الإقليم.

3- كراء الدواب

ملّك الله سبحانه وتعالى الأنعام والدواب وذللها للإنسان وأباح له تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه، وما ملك له الله لنا من الحيوان جاز تسخيره وكراؤه، لكن "يلزم المتكاريين الكراء بالعقد ولا يكون لأحدهما خيار في ذلك ...ولابد من تسمية الكراء وضرب الأجل إن اكترى الدابة مدة ما أو تسمية الموضع إن اكتراها إلى موضع ولابد من تسمية الحمل على الدابة أو ما يسخرها فيه إلاّ أن يدخلا على عرف قد علماه فيقوم العرف في ذلك مقام التسمية" [2]، وتكون كتابة العقد في هذا الباب على شاكلة ما ورد ذكره ضمن كتاب "الوثائق والسجلات"، وجاء نصه كالأتي:

"أعار فلان بن فلان الفلاني فلان بن فلان الفلاني دابته الكذا أو فرسه الورد أو بغله الكذا أو حماره الكذا أو برذونه الكذا ليركبه شهرا كذا من سنة كذا في حاضرة كذا، يتصرف به في حوائجه عليه أو يسافر عليه إلى موضع كذا أو إلى ضيعته فلانة من إقليم كذا، أو يستخدم بحماره أو ببغلته كذا وكذا يوما أو شهرا كذا من سنة كذا، وعرف المؤونة في ذلك والتصرف فيه، وأسلم المعير فلان الدابّة الموصوفة إلى المعار فلان، وقبضها منه واحتازها دونه، شهد على إشهاد المعير فلان والمعار فلان على أنفسهما بما ذكر عنهما في هذا الكتاب من عرفهما وسمعه منهما" [3].

إذن العقد ليس في استئجار الرعاة، وما اتُفِقَ عليه من شروط، بل حتى في كراء الدواب أو ما يصطلح عليه في كتب النوازل بالرواحل [4]، والمسائل الفقهية في هذا

---

[1]- فتاوي البرزلي، ج3، 430.

[2]- ابن رشد، المقدمات والممهدات، ج2، صص637- 638.

[3]- ابن العطار، المصدر السابق، ص110.

[4]- الرواحل جمع الراحلة (رحل)، وتعني عند العرب كل بعير نجيب، سواء كان ذكرا أو أنثى، والراحلة من الإبل: البعير القوي على الأسفار والأحمال، ابن منظور، المصدر السابق، م6، ص123.

البـاب كـثيرة، منهـا جـواب ابـن أبـي زيـد فـيمن اكـترى دابـة إلى موضـع "فتهلـك بـبعض الطريـق فـلا ينبغـي أن يعطيـه دابـة أخـرى يركبهـا بقيـة سـفره إلاّ أن يصـيبه ذلـك بفـلاة وموضـع لا يوجـد فيـه كـراء فـلا بـأس بـه...ومـن أكـرى دابـة بعينهـا فـلا يجـوز أن يتحـول منهـا إلى غيرهـا، فـإن فعـل فعليـه في الثانيـة كـراء مثلـها مـا بلـغ ويبقـى كـراء الأول قائمـا بينهما، ولو كانت إجـارة علـى أيـام معلومـة جـاز ذلـك بينهمـا إذا انقضـت تلـك الأيـام" [1]، وإذا ادعـى المسـتعير إفـلات الدابـة أو سـرقتها فهـو مصـّدق في ذلـك مـع يمينـه، ولا ضـمان عليه [2].

إذن اختلاف المتكاريين في الدواب والرواحل لا يخلو أن يكون في قـدر المسـافة أو نوعهـا، أو قدر الكراء أو نوعه.

4- من عادات الرعاة

اتبع الرعاة خلال العصر الوسيط بعض العادات عند قيامهم بعملية الرعي، والتي لا يـزال يمارس البعض منها حتى وقتنا الحالي، كالغنـاء أو رمـي القطيـع بالحجـارة ...الخ؛ فعـن الغنـاء يخبرنا الوسياني من خلال ترجمة أبي محمد ويسلان المزاتي* قائلا: "كان في شبابه راعـي غـنم،... وكان يتغنى خلف غنمه قبل غروب الشمس ، فيختم غناءه بكلمات، يدعو فيهن الله لنفسه" [3]، والرواية نفسها يعتمد عليها الشماخي، غير أنه يشير إلى ممارسة ويسلان المزاتي حرفـة الرعـي في صغره وليس شبابه [4].

كما اعتاد الرعـاة رمـي الغـنم بحجـر أو عصـا إمـا لتجميـع القطيـع أو إبعـاده عـن مكـان خطـر، وهـذا شـأن الرمـي عنـدهم، لكنهـا كانـت تصـاب أحيانـا بـأذى، وفي المسـألة يفيـدنا

[1]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ج7، صص93- 94/ ابن رشد (الحفيد)، بداية المجتهد ، ج2، ص226.

[2]- ابن العطار، المصدر السابق، ص111.

*- أبو محمد ويسلان بن يعقوب الدّمجي المزاتي، شيخ إباضي، عاش في النصف الثـاني مـن القـرن الرابـع الهجـري الـدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص269.

[3]- سير الوسياني، ج2، صص779-780.

[4]- السير، ج2، ص560.

ابن لبابة (ت314هـ/ 926م) أن الراعي ضامن إذا ضرب البقرة أو الشاة بعصا كبيرة أو يرميها بعصا صغيرة فيقتلها، أو يضربها بحجر، وإن رمى بناحية عن الغنم فارتفعت العصا من الأرض أو الحجر فقتلها أو نفرت الشاة أو البقرة فوقعت في مهواة فانكسرت أو ماتت فلا ضمان عليه في هذا، وهذا شأن الرمي من الراعي [1]، ولم يضمنه ابن أبي زيد القيرواني(386هـ/ 996م) أيضا [2]، والنازلة نفسها ذكرها الونشريسي في المعيار [3].

أما عن اتخاذ العصا نذكر قوله عز وجلّ عن قصة موسى عليه السلام ﴿**قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ [4]، والعصا من الأدوات التي لا يزال الرعاة يستخدمونها لحد الآن عند خروجهم على رأس القطيع إلى المرعى، لأن الذئاب تترصدهم، وقد تستغل فترة نومهم لتنقض على إحدى الشياه، وما يزيد من خطورة الوضع عند وقوع هذه الحوادث عدم تمكن الراعي من الحصول على المساعدة، لبعده عن المناطق الآهلة، مما يدفعه إلى الاستعانة بعصاه للدفاع عن نفسه وعن قطيعه، كما يعلم الرعاة الغنم الجري لتتبعهم إذا أحست بدوي أو رعد شديد [5].

ومن خلال مضامين النصوص الفقهية كان بعض الرعاة المستأجرين يخرجون بالغنم إلى السّرح ويتركونها ويرجعون إلى المدينة، ثم ينصرفون إليها عشية، لكن أحيانا يجدونها نقصت، ولم يدر متى زالت أوقت رجوعه أم قبل، فإنه لا ضمان عليه إلا أن يقيم رب الغنم البينة، أنها إنما ضاعت في وقت تعديه ذلك [6].

---

[1]- الشعبي، المصدر السابق، ص292.

[2]- النوادر والزيادات، ج7، ص53/ ابن فرحون، المصدر السابق، ص248.

[3]- المصدر السابق، ج8، صص331- 332.

[4]- سورة طه الآية 18.

[5]- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص473.

[6]- الشعبي، المصدر السابق، ص273/ ابن فرحون، التبصرة، ص248.

ومـن الظـواهر الـتي لا تـزال تمـارس ليومنـا هـذا، استعانة الرعـاة بكلـب أثنـاء رعـيهم لمواشـيهم ليسـاعدهم في حراسـة القطيـع أو إنـذارها في حالـة الخطـر، وحتـى في الـدُّور خوفـا مـن اللصـوص: يفتحـون البـاب ويخرجـون الـدواب، والكـلاب لا تؤخـذ لغـير ضـرع ولا زرع، لأنّ الرسـول الكـريم نهـى عـن اتخـذها لغـير ذلـك قـائلا: ﴿مَـنِ اقْتَنَـى كَلْبـاً لاَ يُغْنِـي عَنْـهُ زَرْعـاً وَ لاَ ضَـرْعاً، نَقَـصَ مِـنْ عَمَلِـهِ، كُـلَّ يَـوْمٍ قِـيرَاطٌ﴾ [1]، و في المسـألة يفيـدنا المـازوني قـائلا: "وسـئل سـيدي عبـد الرحمـان الوغليسـي (ت786هــ/ 1384م) هـل يجـوز اتخـاذ كلـب في الباديـة يحـرس الماشـية بالليـل أم لا؟ وهـل مـن أهـل العلـم مـن يقـول بجـواز اتخـاذه في الباديـة مطلقـا أم لا؟ فأجـاب: اتخـاذ الكلـب للماشـية لـيلا ونهـارا، ولم أقـف علـى جواز ذلـك لغـير الماشـية والـزرع والصـيد" [2]، غـير أن صـاحب "النـوادر والزيـادات" يشـير إلى أنّ مالـك كـره لأهـل الريـف اتخـاذه في دورهـم لـدوابهم، ولا بـأس بـه للـذين يرعـون الدواب، وكرهه للمسافرين ولدور البادية [3].

أما عن زي الراعي فقد يكون خاصا بهذه الحرفة، لأن أبـا زكريـا في سـيره يشـير إلى "أبـي نوح يرعى إبلاً لابسا عباءة متنكرا في زى راع" [4]، ولم نعثر حسب ما اطلعنا عليـه مـن نصـوص ما يوضح نوعية هذا اللباس بالنسبة لباقي مناطق المغرب الأوسط، ونرى أن نوع اللباس تتحكم فيه طبيعة المنطقة المناخية، كما لم يكن الرعي في بلاد المغرب حكرا على الرجال فقط، بـل حتـى المرأة كانت تخرج بادية الوجه وترعى [5]، ولا تـزال تقـوم بهـذا العمـل إلى جانـب الرجـل، ولـو توجهنا نحو جنوب ولاية تلمسان بحوالي 80كلم لوجدنا البدو الرحل يكلفـون أحيانـا نسـاءهم

---

[1]- النووي، المصدر السابق، (كتاب المساقاة)، رقم الحديث 1576، ج10، ص202/ ابن أبي زيد القيرواني، كتاب الجـامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، تحقيق محمد أبو الأجفان، عثمان بطـيخ، مؤسسـة الرسـالة، بـيروت، ط2، 1983م، صـص 244- 245/ ابن سهل، المصدر السابق، ص629.

[2]- الدرر المكنونة، ج1، ص282/ ينظر الشعبي، المصدر السابق، ص261/ الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص7.

[3]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ج4، ص384.

[4]- سير الأئمة وأخبارهم، ص219.

[5]- الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص193.

وأطفالا لم يتجاوز سنهم الحادية عشر برعاية القطيع في غيابهم، وهذا حال بعض الأقاليم الصحراوية بالبيض والأغواط أيضا.

كما يضم أهل القرى في أحيان كثيرة مواشيهم ليرعوها بالدولة، لكل واحد يومه، ويكشف لنا الشعبي (ت497هـ/ 1104م) ما قد يقع من مشاكل في ذلك بقوله: "وسئل عن قوم لهم غنم لكل واحد منهم جزء يتداولون على حرزها فيكتري مثله في قوته وكفاءته، وكيف إن أكرى دون نفسه في الكفاءة فيذهب من الغنم رأس أو رأسان ما يجب في ذلك" [1]، لكن صاحب الأحكام لم يعط جوابا للنازلة وتركه لصفحة أخرى، مع مسألة لها نفس الحكم، وذكر صاحب المعيار (ت914هـ/ 1508م) جوابها أيضا قائلا: "إذا كان المعروف عندهم المعلوم أن يكري من أحب الكراء منهم وذلك معلوم عندهم فلا ضمان على المكتري إذ إنما يحمل الناس على المتعارف من أمورهم، وقال ليس هذا مثل الراعي المستأجر على رعاية الغنم لنفسه ويسلمها إلى غيره يرعاها عنه، الراعي ضامن إذا استرعى غيره" [2]، وهو ما أثبته صاحب النوادر والزيادات قبلهم من خلال توضيحه أن الراعي ليس له أن يسترعي غيره إلا بإذن رب الغنم، وإن فعل ضمن، حتى وإن كان مثله في أمانته وعنايته [3]، ويضمنه صاحب كتاب الأحكام أيضا [4]، ومن ثم لا نستبعد وقوع مثل هذه المسائل ببلاد المغرب الأوسط، خاصة وأن مصطلح "الدولة "ورد ذكره لدى المازوني في مسألة غير التي أشرنا إليها [5].

وربما عرف الراعي هنا بالراعي المشترك أو الخاص [6]، ينطلق بالقطيع في النهار إلى مراعيها ليرعاها ويسقيها، فإذا كان الليل انقلب بها إلى دور أصحابها، والدور مفترقة تبيت

---

[1]- الأحكام، ص296.
[2]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص330.
[3]- ابن أبي زيد القيرواني، المصدر السابق، ج7، ص54.
[4]- الشعبي، المصدر السابق، صص261- 262.
[5]- الدرر المكنونة، ج3، ص153.
[6]- الوزاني الفاسي، المرجع السابق، ص364.

عندهم يحلبونها ويحفظونها، ويسمى هؤلاء الخلطاء لأنهم يخلطون مواشيهم [1]، لكن هـذا النـوع من الرعي عرف بعض المشاكل، مثل قضية تغريم أحدهم إذا تلفت المواشي بالضـياع أو المـوت في نوبته، وهي المسـألة الـتي سـئل عنهـا الونشريسـي سـنة 874هــ/ 1566م إثـر وروده مدينـة فاس [2]، أو أن يكتري أحدهم رجلا يرعى عنه المواشي في اليوم الذي كـان يجـب عليـه الدولـة، فتتلف جميعها أو بعضها، وفي هذه الحالة يصبح الراعي ضامنا إذا استرعى غيره [3]، مع العلـم أنّ البقر يكفى لرعيها راع واحد حتى وإن كانت كثيرة العدد [4]، وهذا لثقـل حركتهـا علـى عكـس الأغنام.

إذن، مواطن تضمين الراعي في حالة تفريطه يمكن تلخيصها من خلال نص ابن سـحنون، الذي ضمنه في حال "اشتغاله بغير ما رعى، ...أو الجلوس حتى تتـوارى عنـه الغـنم أو يشـتغل بالصيد أو اللهو، أو يخلط معها غيرها بغير إذن أربابها، ويضمن أيضا إذا خالف صـاحب الغـنم في المسرح..." [5]، غير أن بعض المصادر الفقهية [6] لا تضمنه في حالة إذا ما ذهبت له شاة فخـاف فخاف إن طلبها على بقية الغنم.

ومن القضايا الفقهية التي عالجتها المصادر النوازلية، أهل قرية يؤاجرون رجـلا علـى حـرز أغنامهم ثلاثة أشهر، فيخرج أحدهم غنمه قبل الأجل، فأجاب ابن لبابـة (ت314هــ/ 926م): "وجب عليه ما صار له قبله من الأجرة" [7]، وقد يمتنع الراعي من جهته عـن الرعايـة لبعضـهم،

---

[1]- ابن سحنون، المدونة الكبرى، م3، ص277.

[2]- المعيار، ج8، ص342/ الونشريسي، "**إضاءة الحلك في الرد على من أفتى بتضـمين الراعـي المشـترك**"، مكتبـة آل سـعود، المغرب، مخطوطة تحت رقم 228ح، ورقة3.

[3]- الشعبي، المصدر السابق، ص261-262.

[4]- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص461.

[5]- فتاوى ابن سحنون، تحقيق مصطفى الأزهري، دار ابن عفان، مصر، ط1، 2011م، ص372.

[6]- ابن فرحون، المصدر السابق، ص248/ اليزليتني القروي، أحمد بن عبد الرحمان، مختصر فتاوي البرزلي، اعتنى به أبو الفضـل الدمياطي، أحمد بن علي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2011م، ص308.

[7]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص263.

وله ذلك [1]، أو يترك القطيع قبل نهاية مدة خدمته، مثلما حدث مع أبي خزر يغلى بن زلفات*، حيث ترك له الراعي الغنم قبل تمام الأجل الذي اتفقا عليه في الرعاية، فقال له أبو خزر: "تعالى أدفع لك حقك كله، ولو أن من العلماء من يقول: ليس لك علينا شيء، ومنهم من يقول: لك تحاصصك بما فعلت" [2].

5- قضايا فقهية حول تضمين الرعاة

اهتمت كتب الأحكام والنوازل بمسائل تضمين الرعاة، وأخذ ذلك حيزا واسعا ضمن هذا النوع من المصنفات، بسبب الخلاف الواقع بين الراعي ورب الماشية، أو أن يكون الخلاف بين صاحب الماشية وصاحب الزرع، وفي هذه المسألة سئل محمد بن سحنون عن البقر والغنم يخرجها أربابها من الديار، أو خرجت بنفسها إلى مراحها التي تجمع فيها حتى يخرج راعيها فوقعت في زرع أو حائط فأفسدته، فعلى من ترى ضمان ما أفسدت؟ هل على الراعي أم على أربابها؟، قال: "ينظر في ذلك إلى عادة أهل المنزل إن كانت عادتهم يخرج الراعي إلى المراح ويحفظها أو ينتظر اجتماعها وإحلابها، فالضمان على الراعي، وإن كانت عادتهم لا يخرج الراعي حتى تجتمع وتحلب فلا ضمان على الراعي ولا على أرباب الماشية. " وقيل: إذا كانت الماشية ضارية للزرع والحوائط إذا رأتها بادرت وأسرعت إليها، سواء كان معها ذائد يردها أم لا، فالضمان على أرباب الماشية، وإن كانت غير ضارية فلا ضمان على أحد، وكان ما أفسدته هدر، لأن التفريط من أرباب الحوائط" [3].

وسئل أيضا: "فعلى من تكون قيمة ما أفسدته الماشية؟ قال: على رب الماشية، يقوِّم الزرع والحوائط على الرجاء والخوف ويغرم القيمة بلغت ما بلغت، سواء كانت أكثر من قيمة الماشية أو اقل منها، وليس لرب الماشية أن يقول: أنا أسلم الماشية فيما

---

[1]- المصدر نفسه، ج8، ص302.

* أبو خزر يغلى بن زلفات فقيه إباضي، سكن الحامة، انهزم أمام عامل المعز الفاطمي سنة 358هـ/ 969م، ثم وقع الصلح بينه وبين المعز سنة 359هـ 970م، وتحول معه إلى القاهرة سنة 363هـ/ 973م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص916.

[2]- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص488.

[3]- ابن سحنون، المصدر السابق، صص306- 307.

أفسدت، ولا يلزمني غير ذلك، ولا يكون له ذلك، إلا في جناية العبد، وأما الماشية فقيمة ما أفسدت ولو كانت أكثر من قيمتها بأضعاف كثيرة" [1]، لكن هل يحكم ذلك على ظاهره في كل بلد أم لا؟ في هذه الحالة يرعى ثلاثة أوجه:

- إما أن يكون البلد كله مسارح ومزارع.
- أو يكون فيه مسا رح ومزارع، فإن البلد كله مسارح فغرس فيها أو حُرث شيء قليل فلا ضمان على أرباب المواشي فيما أفسدت من ذلك لا في ليل ولا في نهار، فعلى أرباب الزرع والحوائط حفظها؛ لأنهم حين حرثوا أو غرسوا في بلد ليس فيها إلا المسارح فقد عرضوها للفساد.
- وإن كان فيها مزارع كلها أو جنان، فما أفسدت الماشية في الليل أو في النهار فعلى أربابها غرمه، سواء كان معها ذائد يذودها أو لا؛ لأنهم حين كسب مواشي في بلد ليس فيها مسارح فقد تعرضوا لفساد أموال المسلمين، وإن كان البلد فيها مسارح ومزارع فما أفسدت الماشية بالليل فعلى أربابها، وما أفسدت بالنهار ففيه تفصيل [2].

وهذا النوع من البلد أشار إليه المازوني بصورة غير مباشرة من خلال نازلة وقعت بتلمسان؛ حيث سئل أبو الفضل العقباني حول "أرض معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا ينتفعون بها بالحراثة وغيرها ويؤدون خراجها للإمام الخليفة ثم إن الإمام ملكها لرجل من شيوخ العرب لما رأى فيه من المصلحة تمليكا مطلقا عاما والأرض المذكورة مشتملة على محروث ومعطول ومن المعطول ما هو بين فدادين الحراثة ومنه ما هو بإزائها وقريب منها تصلها مواشيهم بالرعي وينتفع أهلها بجميع ذلك.... " [3]، وفي الموضوع نفسه يخبرنا الشماخي أن أبا بكر الغفسوقي* "كان يربط حماره قرب الزرع، فيحوّل وجهه إلى الجهة التي ليس فيها زرع. فإذا

---

[1]- المصدر نفسه ، ص310/ ابن الحاج، المصدر السابق، ورقة 128.

[2]- ابن سحنون، المصدر السابق، صص311- 312/ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص338.

[3]- المازوني، المصدر السابق، ج4، ص21.

*- أبو بكر الغفسوفي، من الشيوخ البيض في جبل نفوسة في النصف الأول من ق3هـ/ 9م، الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص505.

قيل: حمارك يضر بالزرع، يقول: حوّلت وجهه إلى غير الزّرع، وذلك مبلغ علمه، ولا يلتفت بقدرة الله إلى الزّرع" [1].

كما يفيدنا الونشريسي أن أصبغ سئل عن "الزرع إذا كان محيطا بالقرية متصلا بها لا يسلم من الماشية إذا أخرجها صاحبها وتركها من غير راع يحرسها. فأجاب: يؤمر أن يخرج معها راعيا أو رعاة يحرسونه ويمنعونه أن تؤذي أحدا، ويمرّ به على الطريق الذي يتحفظ أهله من أداء الزرع الذي يليها، فإذا أخرجوه من مزارع القرية إلى فحوصها ولا زرع فيه تركت الماشية هنالك بغير راع فإن نزع منها شيء إلى الزرع أثناء ذلك كانت مثل الضواري في الماشية تقرب إلى أرض لا زرع فيها، وقال وأما لو فتح رجل بابه وسرح دابته بلا حارس فالضمان على مثل هذا والغرم له لازم ولو أُدِّب لكان لذلك أهلا" [2]، غير أنّ ابن الحاج فيرى أن ما أفسدته الماشية من زرع رجل فلا ينجى صاحبها من المغرم دفعها إليه [3].

أما إذا نام الراعي فأفسدت ماشيته الزرع، فإنه ضامن لما أفسدته الماشية حسب ما أجاب به عامر بن ربيعة** [4]، ويؤكد ابن الحاج (529هـ/ 1135م) على تضمين صاحب الماشية إن كان هو الراعي، وإن كان اكترى لها راعيا تعلق به الضمان دون صاحب الماشية [5]، وعن المؤلف نفسه أن مالك سئل عن الزرع الذي أفسد كيف يقوم؟ فأجاب: "ينظر إلى قيمته يوم أفسدته على قدر ما يرجى منه ويخاف فإن بعض الزرع يخلف وبعضها إذا فسد لم ينتفع به لسنته فعلى قدر هذا يقوم" [6]، وهو نفس ما ذهب إليه أبو عمران الفاسي (365هـ/ 976م)، حيث يرى أن أهل المواشي لهم من المشقة في النهار وعلى الزارع حفظ زرعه في الليل، والمشهور فيما أفسدته المواشي

[1]- المصدر نفسه، ج2، ص505.

[2]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص339/ ينظر ابن الرامي البناء، المصدر السابق، ص244.

[3]- الونشريسي، المصدر نفسه، ج8، ص338.

**- لم نعثر له على ترجمة.

[4]- الشعبي، المصدر السابق، ص307.

[5]- نوازل ابن الحاج، ورقة 128.

[6]- المصدر نفسه، ورقة 129.

بالليـل أن أربابهـا ضـامنون، واختلـف فيمـا أفسـدته بالنهـار، ويشـير المؤلـف نفسـه إلى أن مالـك والشـافعي ينفيـان الضـمانية وأصـبغ يثبتـه [1]، والحكـم لا يختلـف بـين قلـة الغـنم أو كثرتها والاشتراك وعدمه، قليلا كان الأذى أو كثيرا [2].

ويضيف صاحب "المعيار" ما ورد في كتاب معين الحكام من جواب قائلا: "إنما يسقط عن رب الماشية ضمان ما أفسـدته نهـارا مـن الـزرع والحـوائط إذا أخـرج ماشـيته مـن جملـة الـزرع والحوائط بقائد يقودها إلى راعيها وأمـا إن أهملوهـا بـين الـزرع والحـوائط دون راع أو مـع راع يضيع أو يفرط فربها ضامن لما أفسدته ويضمن الراعي المفرط إلاّ أن يشد منها شيء دون تفـريط فلا ضمان" [3].

وهناك حالة أخرى ليس على رب الماشية فيها ضمان، وهي "الغنم المؤلفة تجمـع في شـبكة التزبيل يمسكها كل واحد في أرضه على قدر غنمه، فتفتق الشبكة بالليل وترعى مـا حولهـا، قـال ابن أبي زمنيين: إن الضمان في ذلك على صاحب الزرع الـذي زالـت الغـنم مـن شـبكته، لأنـه استأجرها وبيتها في أرضه" [4].

وفي الطرر (ابن عات 609هـ/ 1213م) "لو رعى الرعاة بالدولة لكـل ليلـة راع فطرقـت البقرة فأفسدت الزرع، في هذه الحالة إن غفل الراعي أو فرّط فـالغرم عليـه، وإن سـبقته وقهرتـه وعلم الناس بذلك فعلى أرباب البقر" [5]، كما تعرض الفقهاء لمسألة الرجل الذي كان مـع غـنم غنم بين زرع وخاف فوات الصلاة، فالحكم هنا يصلي ويغرم قيمـة الـزرع إن أفسـدته الغـنم [6]، وفي ذلك يفيدنا الشماخي برواية قائلا: "واشتغل* بنوبة مائه ففاتته صـلاة المغـرب مـع الإمـام،

---

[1]- أبو عمران الفاسي، مختصر مسائل الأحكام، مكتبة آل السعود، الدار البيضاء، تحت رقم D1444، ورقة 26.
[2]- البرزلي، المصدر السابق، ج4، ص311- 312.
[3]- الونشريشي، المصدر السابق، ج8، ص338/ ينظر ابن الرامي البناء، المصدر السابق، ص244.
[4]- ابن بشتغير، نوازل أحمد بن سعيد بن بشتغير، تحقيق د.قطب الريسوني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2008م، ص314.
[5]- البرزلي، المصدر السابق، ج4، ص312/ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص339.
[6]- البرزلي، المصدر نفسه، ص313.
*- الشخص المقصود هو أبو صالح جنون بن يمريان السّدراتي، فقه إباضي من ورغلة عاش في أواخر القـرن3هــ/ 9م- بدايـة القرن4هـ/ 10م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص951.

فشق عليه، وكانت ليلة الجمعة. فأخذ في الصلاة. فأتوه بفطوره، فلم يشتغل به، ثم تمادى في صلاته، فأتوه بسحوره، فلم يشتغل به، فلما أصبح تصدق بالطعام على المساكين. فقال: هذا جزاء راع ضيع من يرعاه" [1]، كما يخبرنا الوسياني أ"ن ظعائن من مزاتة تخالطت في فحص تلماجرت، فلما كان صلاة المغرب امتلأ المسجد بالناس، وقد صلى بهم الشيخ عليّ بن ترمور المزاتي**، فلما سلّم قال لهم: تجوز لكم الصلاة في مواضعكم إلاّ أنا، وفي صلاتي في موضعي قولان" [2].

إذن القضية المطروحة تخص "**ما أفسدته الماشية من الزرع**"، ويتضح من خلال استقراء مضامين المصادر الفقهية مدى اهتمام وتفصيل الفقهاء في المسألة، لتعدد الأطراف المتعلقة بها وما يحدث من نزاع بينها وهم: الراعي، صاحب الماشية، وصاحب الأرض؛ فالمسألة أتعبت القضاة خاصة في البادية أين يسود العرف أكثر من غيره، ويراعى في معالجتها معايير معينة، كالوقت الذي وقع فيه التعدي، أكان في الليل أم النهار؟، وهذا من أجل تحديد الضامن لما أُفْسِدَ، لأن الحكم في ذلك يختلف فالنهار يعود على رب الماشية أو الراعي لها، أما الليل فيعود على صاحب الزرع، ونظرا لأهمية المسألة، كما يجب مراعاة فترة القائلة التي تخص الراعي، والتي لا تتعدى مدة معينة، وفي حالة إذا ما أفسدت المواشي الزرع والراعي نائم نومته العميقة يضمن.

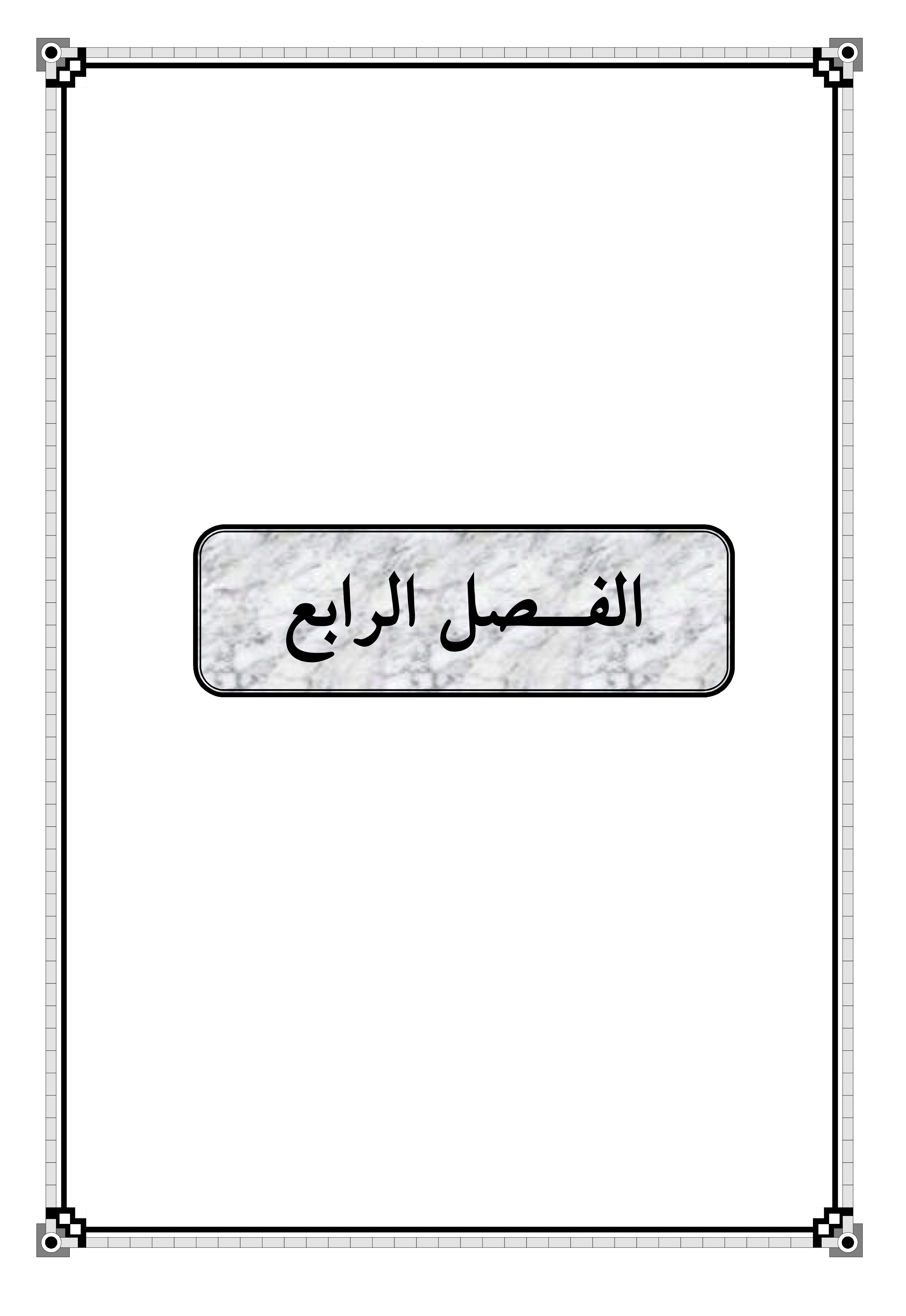
وكان اعتمادنا على هذا الكم من النصوص النوازلية بهدف إثبات بعض الخصائص التي تميز بها نظام الرعي ببلاد المغرب الأوسط، في ظل غياب نصوص مصدرية خلال فترة بحثنا، خاصة وأن الفقهاء عملوا على التوفيق بين الأعراف المحلية والأصول الفقهية، وقارنا بين هذه النصوص وقاربنا بينها للوصول إلى خصائص تتماشى مع واقع المغرب الأوسط، بعد أن حاولنا توظيف نصوص تاريخية ومناقبية لها علاقة بالإطار الزمني والمكاني لموضوعنا.

[1]- السير، ج2، صص 544- 545.

**- لم نعثر له على ترجمة.

[2]- سير الوسياني، ج1، صص 492- 493.

خلاصة القول، إنّ المصنفات المعتمدة لدى مُؤَلِّفينَا في إصدار الأحكـام مصـدرها واحـدة، وهو مذهب مالك الذي لم يخرج عما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأغلـب النصـوص الفقهية المعتمدِ عليها لإبراز خصائص النظام الرعـوي في المغـرب الأوسـط، نجـد أصـحابها قـد جمعوا بين النصوص المتأخرة والمتقدمة، على رأسهم "المعيار المعـرب" للونشريسـي الـذي قـارن بين هذه النصوص، مع ذكره لكل الاحتمالات التي قد يقع فيها التضمين، والمسؤول عنه، وفقـا لمذهب مالك الشائع في بلاد المغرب الإسلامي، وبالتالي لم يختلف الفقهاء في مصادر أحكامهم.



الفـــصل الرابع

أولا- المجال الاقتصادي

1- الزراعة

2- الصناعة

3- التجارة

ثانيا- المجالان السياسي والعسكري

1- المجال السياسي

2- المجال العسكري

ثالثا- مجال التغذية

1- اللحوم

2- اللبن والسمن

رابعا- استخدامات أخرى

أولا-المجال الاقتصادي

لا سبيل لإنكار ما يتعرض الباحث في نظام الرعي بالمغرب الأوسط خلال المراحل الأولى من العصر الوسيط من صعوبات، يهم الجانب الأساسي منها قلة المادة العلمية، وضعف المتوفر منها، يتعلق الأمر ب "أزمة الرقم" التي تتخبط فيها مصادر الفترة المدروسة (4-5هـ/ 10-11م)، وتكاد تخلو من أي مستند إحصائي يرتكز عليه الباحث من أجل وضع منحيات أو جداول إحصائية بأهم الثروات الحيوانية ومنتجاتها، أو تحديد أسعار المواد المصنعة منها، إنه لا أمر مهم بالنسبة لمجالات استخدام الثروة الحيوانية، ويضاف إلى ذلك غياب النصوص النوازلية الخاصة بموضوع البحث مكانيا وزمنيا، الأمر الذي دفعنا إلى الاعتماد على مصادر فقهية استند أصحابها على أهم النصوص الموجودة ضمن أمهات المصادر المالكية المتقدمة، ولها صلة مباشرة بموضوعنا، والتي أكدت في نفس الوقت أهمية المواشي (البقر- الغنم) والدواب (الخيل- البغال- الإبل) في العديد من المجالات.

1- الزراعة

تجمع بعض المصادر على أنّ الزراعة "أصل معاش الناس، والبهائم" [1]، وتبرز هذه الأهمية من خلال تعهد الأفراد لخدمة الأرض وتطيبها بالحرث والزبل قبل زرعها أو معه [2]، من أجل توفير الضروري من غذائهم، وتعد الفلاحة جزءا منها، والتي ارتكزت حسب صاحب "المقدمة" على "القيام على إثارة الأرض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثمّ حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه وإحكام الأعمال لذلك وتحصيل أسبابه ودواعيه" [3]، ويؤكد ابن الأزرق أنها ا"ستخراج فضول الحيوان الداجن كاللبن والحرير والعسل، وثمرة النبات من الزرع والشجرة" [4]، وفي كل الأحوال يعد الحيوان أهم عنصر في

---

[1]- الطغنري، المصدر السابق، ص63/ الماوردي، آداب الدين والدنيا، صص 312- 314.

[2]- ابن ليون التجيبي، اختصارات من كتاب الفلاحة ، نص أندلسي من العصر المرابطي، تحقيق د.أحمد الطاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2001م، ص85.

[3]- ابن خلدون، ص450.

[4]- بدائع السلك في طبائع الملك، ج2، ص718.

مثل هذه الأنشطة، لاستخدامه في أعمال عدة متعلقة بالحرث والدرس ونقل المحاصيل إلى البيوت، وسقي النبات، وأشياء أخرى كثيرة.

كما يرى أحد الباحثين [1] أن ملكية الماشية له أهمية بالنسبة للأرض، حيث يشمل المفهوم الأول للماشية الآلة أو المحراث والحيوان المعد للإنتاج من زوج بقر أو جملين إذا كانت الأرض صلبة، وحيوان واحد بالنسبة للتربة اللينة في المناطق الساحلية، أما المفهوم الثاني فهو يخص مساحة الفدّان التي تَقْدر هذه الطاقة الحيوانية على حرثها مدة فصل كامل، وهكذا تعد الزراعة دعامة اقتصادية إلى جانب الرعي [2]؛ فلا حاجة إذن إلى كبير عناء لإثبات أهمية العلاقة بين الزراعة والثروة الحيوانية.

أ- الحرث

الحرث هو قلب الأرض للزرع، ويتم ذلك بأخذ "ما كان على وجه الأرض من ترابها الذي أثرت فيه الشمس والهواء، فيجعل أسفل الأرض المحفورة، ليظهر أثره الجميل مما اكتسب من الشمس والهواء في أصول الأشجار المغروسة، وعروقها، فيربي حملها وينميه بحرارته ورطوبته" [3]، وهي عملية تتم بواسطة محراث خشبي تجره بقرتان أو ثوران، تختلف عدد سككه حسب طبيعة الأرض ونوع الزرع، كما استعين بالجاروف لتعديل الأرض وتسويتها، وتحتاج هذه الأداة لزوج من الدواب لجرها وسط الحرث وغالبا ما يجذبها البقر، ولم تشذ بلاد المغرب الأوسط عن هذه التقنية [4]، خاصة وأن هذه العملية كانت معروفة لدى سكان بلاد المغرب منذ القدم [5].

[1]- محمد حسن، القبائل والأرياف، صص45- 46.

[2]- محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص26.

[3]- النقشبندي، علم الملاحة في علم الفلاحة، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2،1981م، ص13.

[4]- المازوني، المصدر السابق، ج3، ص135/ ابن مرزوق الحفيد، نوازل إبن مرزوق، مخطوط المكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر، ج2، تحت رقم 1342، ورقة9/ أحمد الطاهري، الفلاحة والعمران القروي، ص215.

[5]- محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203- 46ق.م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص101-102.

إذن، من الطبيعي أن يكون البقر أكثر الحيوانات استعمالا، ذكورها وإناثها، لكن مع الرفق بها والتخفيف عنها، خاصة إذا كانت الأرض صلبة أو جبلية صعبة؛ إذ ينبغي على الفلاحين حمل "كيزان فيها ماء بارد ليمسحوا وجوه البقر وإعتاقها بالماء ويرشون منه على رؤوسها" [1]، كما عُدّ الحرص على كثرتها من الحرص على ازدهار الزراعة، لذا شدد المحتسبون الرقابة على الجزارين في الأسواق حتى لا يذبحوها [2]، وهو ما يؤكده ابن الحاج (529هـ/ 1135م) من خلال فتواه التي "تمنع الجزار من ابتياع البقر القوية على الحرث لما فيه من منفعة العامة" [3].

أما الشخص الذي لا يملك ثورا لخدمة أرضه كان يقوم باكترائه، وربما وجده غير قادر على ذلك، بالرغم من أنه مدرب على الأعمال الزراعية، الأمر الذي دفع بالأفراد إلى الاستفسار في مثل هذه القضايا، كتلك التي طرحت على ابن أبي زيد (ت386هـ/ 996م) عن "الرجل يبيع من الرجل الثور، ويشترط أنه حراث، فوجده المشتري يرفض في أول ما يعقده المشتري في عمله. قال: إن كان مثل ذلك يحرث، ووجده المشتري في أول مرة، فله ردّه، وإن كان أقام عند المشتري مدة يعلم أنه يحرث في مثلها فهو من المشتري، وعلى البائع اليمين إن ادعى عليه المشتري في العلم" [4].

نفس المسألة أجاب عنها ابن لبابة (ت314هـ/ 926م) بقوله: "إذا اشترى بقرا في غير إبان الحرث لم يرجع على البائع بأنها لا تحرث، إلا أن يشترط ذلك عند الشراء أنه حراث، فإن كان غير حراث رجع به إلى البائع، وإن كان اشتراه في إبان الحرث ولم يجده حراثا فله الرجوع، إلا أن يشترط البائع أنه غير حراث" [5]، ونفس الحكم ورد لدى أبي عمران الفاسي (365هـ/ 976م) [6]، إذن، الفقهاء اتفقوا على نفس الحكم بالاستناد على مذهب مالك، أي

---

[1]-ابن العوام، المصدر السابق، ج1، ص66.

[2]-ابن الصغير، المصدر السابق، ص 100/ أحمد الطاهري، المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البرغواطية خلال القرون الأربعة الهجرية الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2005م، ص206/ عادل أبو نصر، المرجع السابق، ص 102.

[3]-الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص340.

[4]-الشعبي، المصدر السابق، ص274، ص292.

[5]- الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص190.

[6]- مختصر مسائل الأحكام، ورقة 9.

الرجل الذي اشترى بقرا في غير إبان الحرث ووجده لا تحرث في وقته لا يحق له إرجاع البهيمة لصاحبها، إلاّ إذا كان ذلك عن شرط مسبق بين الطرفين.

من جانب آخر، كان بعض الفلاحين يحصلون على البقر للحرث عن طريق الشراكة، كأن "يكون البذر بينهما على الجزء الذي يتراضيان عليه، ويتفقان عليه، فيما بعد على ذلك الجزء، فإن كانت الأرض من أحدهما، والبقر والعمل من الآخر، وكان كراء الأرض مثل كراء البقر، وقيمة العمل والبذر بينهما: جازت الشركة" [1]، وسئل القاضي عياض (ت544هـ/ 1150م) عن رجل دفع لرجل ثورا يحرث به بلده على وجه الشركة، فيضم له الرجل ثورا آخر، وجميع آلات الحرث، ويزرع جميع الزريعة ويده مع يد صاحب الثور، فلما فرغا من الحرث قال الزارع لشريكه: ردّ عليّ نصف ما زرعت من بذر، فامتنع ولم يعطه شيئا. فأجاب عياض: "الزرع كله لصاحب الزريعة، وعليه لصاحب الثور والعمل معه أجرته" [2]، وهو نفس ما ذكر في المعيار [3].

كما سئل السيوري (460هـ/ 1067م) عمن قلب أرضا ببقره ثم اشترك هو وآخر على أن يزرعا هذه الأرض وغيرها، فلما حان وقت الحصاد أراد الذي قلب الأرض أن يستبد بالزرع، لأجل القليب السابق خاصة، وما سوى ذلك فهو شركة بينهما فيها وفي غيرها، وأنكر أن يكون وهبه نصف القليب، فهل له ما قال أو لا؟ فأجاب: زرع القليب بينهما كغيره ويرجع صاحب القليب على شريكه بنصف أجرته بعد يمينه أنه ما وهبه إياه [4].

ومن الأمثلة أيضا، سئل أبو محمد سيدي عبد النور الشريف العمراني (685هـ/ 1286م) * عن اشتراك رجلين في الحرث على أن يتساويا في البقر والآلة والأرض والزريعة، ثم شرعا في العمل، وعقد الشركة على ذلك، ثم بعد عقد الشركة غاب أحد الشريكين، وتولى

[1]-ابن زرب، المصدر السابق، ص281.

[2]-القاضي عياض وولده، المصدر السابق، ص234.

[3]-الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص164- 165.

[4]-البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص411.

*-عبد النور بن محمد بن أحمد الشريف العمراني الفاسي، كان ذا معرفة تامة بالفقه ومشاركة في أصوله، أخذ عن المحدث العلم أبي الحسن علي بن سليمان القرطبي وأبي عبد الله محمد بن يحيى الحسني، مولده سنة 685هـ/ 1286م، له تقييد على المدونة=

الآخر العمل بحكم النيابة عن نفسه وعن شريكه، وعند القسمة حضر الشريكان فحاز أحد الشريكين وهو المتولي للعمل شيئا من ذلك الزرع لنفسه، وقال: هذا حرثي لنفسي بزريعتي لم تعطني شيئا فهو خاص بي، فقال شريكه: إنما جميع ذلك بيني وبينك كما وقع في العقد، وكانت الأرض والبقر والآلة مشتركة بيننا، إلا أن هذا الذي أردت أن تختص به دوني لكون الزريعة كانت من عندك إنما كانت سلفا لكونك لم تطلبها مني حين الزرع.

وكان حكم الفقهاء: "أما كل ما ذكر المتولي للعمل أنه حرثه لنفسه بزريعته فهو له، لا يدخل معه الشريك الآخر، وعليه لشريكه الذي لم يدخله في الزرع قيمة نصف كراء الأرض التي حرث فيها، فإن الحارث بالبقر ليس أجيرا لهما كان له نصف كراء الأرض ونصف كراء البقر في حرثهما، وإن كان المتولي منهما للحراثة ما تولى القيام على ذلك إلا لمكان ما اختص به فله عليه نصف أجره في الذي تولى من العمل في ذلك إذا دعاه" [1].

كما يفيدنا صاحب المعيار بقوله "سئل القاضي أبو الفضل عياض (ت544هـ/ 1150م) عن رجل دفع لرجل ثورا ليحرث به في بلده على وجه الشركة، فضم له الرجل ثورا آخر وجميع آلة الحرث وزرع جميع الزريعة، ويده مع يد صاحب الثور، فلما فرغا من الحرث قال الزارع لشريكه: رد علي نصف ما زرعت من بذر، فامتنع ولم يعطه شيئا. فأجاب: الزرع كله لصاحب الزريعة وعليه لصاحب الثور والعمل معه أجرته" [2]، والواضح أن الفلاحين الصغار في حاجة ماسة إلى تملك الأرض والزريعة والماشية، وليس لديهم ما يقدمونه في هذه الشركات الفلاحية سوى سواعدهم للعمل.

بالمقابل، حاول البعض تعويض البقر بالحمير، مثلما فعل أبو سليمان التبرستي* حين "طلع بحماره ليحرث فوق منزله، ورفع من الزريعة مقدار ما يحرث بحماره، فلحقه أهل المنزل

=وفتاوى نقل عنه بعضها في المعيار. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص286.

[1]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص148.

[2]- المصدر نفسه، ج8، صص164- 165.

*- أبو سليمان داود بن أبي يوسف التبرستي، عاش في نهاية القرن 3هـ/ 9م وبداية القرن 4هـ/ 10م، بتبرست، شمال يفرن، شرق جبل نفوسة. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص837- ص945.

هناك بعشرة من الدواب فحرثوا يومهم" [1]، غير أن استعمال الدواب في عملية الحرث كان له تأثير سلبي على المردودية، إذ أن الأبقار أصلح للحرث من غيرها لقوتها وسهولة التحكم فيها [2]، ارتأينا لذكر هذا المثال باعتبار أن المذهب الإباضي كان من المذاهب المعروفة بالمغرب الأوسط خلال فترة حكم الرستميين (160- 296هـ/ 777- 909م)، وشكل جبل نفوسة الملجأ الحصين بالنسبة للعناصر المتبقية من الدولة الاباضية بتاهرت بعد سقوطها على يد الفاطميين، ومن جهة أخرى لا يزال ليومنا هذا بعض الأفراد يعتمدون على الدواب في عملية قلب الأرض خاصة في المناطق الجبلية.

نافلة القول، النصوص الفقهية المذكورة فيما يخص الحرث واعتماد البقر كعنصر هام للقيام بهذه العملية، صدرت عن أهم فقهاء المذهب المالكي في الغرب الإسلامي عبر فترات زمنية مختلفة، وكانت مصدرا للفتاوى بالنسبة للمتأخرين عنهم كالأحكام للشعبي، المعيار للونشريسي، وهذا دليل قاطع على استمرارية العمل بهذه النوازل، ومن ثم أمكن تعميم هذه الأحكام على المغرب الأوسط، باعتباره جزءا من بلاد المغرب التي عرفت انتشارا واسعا للمذهب المالكي، ناهيك عن الرحلات العلمية المتبادلة بين مختلف الأقطار الإسلامية، وما حملته من فوائد في مجال الفتوى، خاصة وأن المجال المغاربي لم تكن له حدود جغرافية بالشكل الذي هي عليه اليوم.

ب- التسميد والسقي

تثبت النصوص الفلاحية المؤرخة للمرحلة الوسطى أن عملية التسميد تتم بإضافة الفضلات الحيوانية قبل الحرث وبعده ليجود نبات الأرض، ويستعمل على "ضربين أحدهما زبل على جهته والأخر زبل يستعمله الناس ويركبونه بخلط شيء على شيء وبجمع زبل إلى غيره" [3]، ويؤكد النقشبندي (ت1133هـ/ 1721م) أهمية هذه المادة العضوية بقوله: "يفتح

[1]- البغطوري، المصدر السابق، ص62.

[2]- سميرة المزكلدي، المرجع السابق، ص50/ محمود فؤاد بدر، المرجع السابق، ص471.

[3]- ابن وحشية، المصدر السابق، ص366/ الطغنري، المصدر السابق، ص94.

مسام الأرض ويجودها، وينفِّشها لولوج العروق" [1]، غير أن هذه الزبول أو السرقين كما تسميها كتب الفلاحة [2] تنقسم إلى سبعة أنواع: "فزبل الخيل والبغال والحمير نوع واحد، ثم زبل الآدمي ثم الزبل المضاف وهو المؤلف من الكناسات وغيرها، ثم زبل الغنم، ثم زبل الحمام، ثم رماد الحمامات، ثم المولد وهو زبل يتخذ عند عدم هذه الزبول من الحشيش والتراب"، وإذا خلطت كل هذه الأنواع كان أحسن [3].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأنواع كلها تحتاج "إلى تدبير يصلحها، وقوانين تعدلها حتى تصلح فتقابل كل أرض بما يصلحه منها، وكل غلة بما يوافقها وينميها" [4]؛ حيث يكشف لنا ابن بصال أهمية زبل الضأن بقوله: "حار ورطب ...يكثر فيه العشب إذا استعمل قبل التعفين من أجل أن الضأن تأكل الحشيش وتستكثر منه، فلا ينضج في بطونها فتبقى زريعته لم تتغير فتلقيه في بعرها كما أكلته، فإذا استعمل قام مع النبات وغلب عليه فإن هو ترك قليلا حتى يعفن ويطيب وتموت تلك الزريعة التي فيها كان حسنا" [5].

ومن الواضح أن زبل الحمام يبقى "غياث النبات الذي قد ضعف وتحير من شدة البرد، فتجعل منه يسيرا فإنه يقوم من يومه ويحيا من حينه، وينبغى أن يستعمل منه... إلا اليسير، لأنه بمنزلة النار إذا غلب، ولا يستطاع إصلاح ما أفسد" [6]؛ فهو أجود ما يصلح التربة "لشدة حرّه وأنفعه وأذهبه لكل آفة تصيب الشجر وغيره فيما يسمدون به" [7].

إذن، فضلات الحيوانات لا تستعمل مباشرة، إنما تحتاج إلى تعديل وكذا خفض درجة حرارتها، وعلى جميع الفلاحين "مَيْزَ كُل نوع من الزبول ومعرفة تأثيره، وأن يعلم أي النبات

[1]- النقشبندي، المصدر السابق، ص18.

[2]- الزهراوي، كتاب الفلاحة، مخطوطة خاصة بخزانة أسرة الفقون، قسنطينة، ورقة 4-5/ ابن بصال، المصدر السابق، ص94/ أبو الخير، المصدر السابق، ص10/ ابن ليون التجيبي، المصدر السابق، ص83.

[3]-ابن حجاج الإشبيلي، المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار، جاسر أبو صفية، منشورات اللغة العربية الأردني، الأردن، دون طبعة، 1986م، ص10/ أبو الخير، المصدر السابق، ص11.

[4]- الطغنري، المصدر السابق، ص99.

[5]- الفلاحة، ص50.

[6]- المصدر نفسه، ص51.

[7]- قسطوس بن اسكولستيكه، المصدر السابق، ص70، ص84.

يستحق الزبل العفن وأيها يستحق غير العفن" [1]، ولا ينبغي أن تزبل الأرض بفضلات حيوانية لم يأت عليها أقل من عام واحد. فإنها لا تنفع كثير نفع، "ولكنه يضر ويتولد منه دواب كثيرة. فأما زبل ثلاث سنين أو أربع سنين فإنه كثير الصلاح والمنفعة" [2].

غير أن الحصول على الفضلات الحيوانية لم يكن بالأمر السهل حسب ما تكشف عنه النصوص النوازلية، ففي الطرر عن مؤلفه ابن لبابة (314هـ/ 926م) ذكر قائلا: "إن أعطى أرضه يزبلها على أن يزرع معه ثلاث سنين، جاز إذا وصفت الأحمال وعلم عددها، فإن لم توصف لم يجز وله قيمة زبله. وكذا إن باعها وبها زبل في هذه المعاملة، فله ذلك وأعطاه قيمة زبله ويلزمه عملها معه إذا وضعها إلاّ أن تكون غير مأمونة فله قيمته أو قلعه إن قدر عليه ولم يخلطه بالأرض" [3]. فالظاهر أن قيمة الزبل كانت تحسب في المعاملات بين المزارعين من شراكة ومزارعة وغيرها، لذلك استعملت طرق كثيرة للحصول عليه.

كما سئل ابن أبي زمنين عن الغنم المؤلفة تجتمع في شبكة التزبيل يمسكها كل واحد في أرضه على قدر غنمه، فتفتق الشبكة ليلة من الليالي وترعى ما حولها من الزرع. على من يجب الضمان؟ أعلى صاحب الغنم أو على الذي زالت الغنم من شبكته في أرضه؟ [4]. النص يشير إلى جَمْع الفلاحين لقطيع الغنم كل حسب عدد الرؤوس التي يملكها، وكان يتم الاستفادة من فضلاتها لتسميد الأرض بالتناوب بينهم، والظاهر أن هذه التقنية بقي العمل بها حتى بعد القرن 5هـ/ 11م، لأن الونشريسي في معياره يعتمد نفس الحكم ونفس النازلة [5]، وبالتالي لا يستثنى المغرب الأوسط من هذه التقنيات الفلاحية في تخصيب الأرض، وتحسين مردودها.

---

[1]- الطغنري، المصدر السابق، ص95.

[2]- ابن حجاج الإشبلي، المصدر السابق، ص10/ ابن بصال المصدر السابق، ص49/ البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص436.

[3]- البرزلي، المصدر نفسه، ج3، ص422.

[4]- الشعبي، المصدر السابق، ص354.

[5]- المصدر السابق، ج8، ص337.

وهناك طريقة أخرى للاستفادة من فضلات الحيوانات، والتي تستنتج من خلال جواب عبد الرحيم* (ت413هـ/ 1022م) حول أرض ذات الشجر حرثت وزبلت. فأجاب: "والذي أقول به من ذلك أنه يضمن قيمة ما زاد المشتري في الأرض بعمله الذي عمل فيها لأن نفع ذلك للمستحق باق فيشبه ذلك الصبغ في الثوب، وإن كان عَين الصبغ قائما في الثوب فإن نفع الزبل في الأرض قائم" [1].

وبعد تسميد الأرض لابد من الاهتمام بعملية سقيها، خاصة خلال فترات الجفاف، ولا مجال للشك في أن أصحاب الأراضي الزراعية قد اعتمدوا عدة طرق في عملية السقي، مستغلين مياه الأنهار والآبار، ومنهم ما كان ينتظر ما تجود به السماء من غيث، أي منها "ما يسقى سيحا أو تسقيه السماء، وما كان يسقى بالدلو [2]، وكان الدلو المخصص لاستخراج الماء من البئر مصنوعا من الجلد، وكان يتم رفعه بحبل ملفوف على بكرة من طرف حيوان يبتعد عن البئر على مستوى منحن، أو بواسطة قواديس ناعورة ذات مدورة يحركها حيوان [3]، واستعمال البهائم في عملية السقي يؤكده الونشريسي من خلال السؤال الذي طرح على اللخمي حول من اشترى بقرا من العرب يستعمله في السقي والحرث وغير ذلك من الأعمال الفلاحية ويستعين بذلك على ضرورياته وأداء مغرم السلطان وعادته أن يتحرى عن التباعات فهل يخرج قيمته يتصدق بها وتطيب له أم لا؟ [4].

فالحيوان يحرك قواديس الناعورة في مدار بواسطة دواليب**، والتي اختلفت تسميتها بين الدولاب أو الناعورة*** أو السانية [5]، وهذه التقنية استعملت بالمغرب

*- أبو عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن أحمد بن العجوز، ولد سنة 340هـ/ 951م، أخذ عن ابن أبي زيد وغيره، توفي سنة 413هـ/ 1022م. ابن فرحون، الديباج، ج2، ص3-4

[1]- الشعبي، الأحكام، ص167.

[2]- يحي بن آدم القرشي، المصدر السابق، ص103.

[3]- الهادي روجي ادريس، المرجع السابق، ج2، 238/ سميرة المزكلدي، المرجع السابق، ص55.

[4]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص560.

**- الدُّولاب، شكله كالناعورة يستقى به الماء. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص84.

***- الناعورة، الدولاب، ودلو يسقى بها. المصدر نفسه، ص484.

[5]- محمد بن عميرة، الموارد المائية، ص226/ أحمد الطاهري، الفلاحة والعمران، ص191.

الأوسط، منها ببني واريفن الواقعة بالقرب من تنس، كان لها "كروم وسوان كثيرة وهي على نهر شلف" [1]، وهو ما يؤكده الإدريسي قائلا: "قرية كبيرة لها كروم وجنات ذوات سوان يزرعون عليها البصل والحناء والكمون" [2]، ومنها إلى الخضراء "مدينة على نهر ولها فواكه وسوان" [3]، ولسوق كران بالقرب من مليانة "مزارع وسوان، وهو على نهر شلف" [4]، وفي أرشقول "مياه ومواجن* كثيرة للمراكب وأهلها والمحتاجين إليها في سقي سوائمهم" [5]، ويؤكد ابن العوام إلى أن هذه التقنيات التقنيات تعد إحدى الأساليب المعتمدة في عملية السقي، ويقول عنها "القسم الثاني شاق متعب وهو السقي بالآلات من النواعير والسواقي والدلاء التي تدور بها الإبل والحمير والبغال" [6].

ج- الدّراس

سخرت الحيوانات للحرث والدرس ونقل الإنتاج، والدراس آخر المراحل التي تنتهي بها العملية الزِّراعية، تهدف لاستخراج حب السُّنبل من غلافه بعد الحصاد [7]، وهو ما يوضحه الوسياني من خلال قول أبي زكريا** ما مفاده: "من حرث زرعا وحصده ودرسه وذرّاه، وطحنه وطبخه وأطعمه المسودة اتقاء لشرهم خير ممن فعل ذلك وأطعمه المسلمين" [8]، وعملية وعملية الدرس تتم باستخدام الحيوان خاصة البقر، وهو ما يشير إليه "صاحب البيان المغرب"

---

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص89.

[2]- نزهة المشتاق، م1، ص253.

[3]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص89.

[4]- المصدر نفسه، ص89.

*- يذكر الفيروزآبادي كلمة المَنْجَنونُ ويعرفها على أنها، الدولاب يستقى منه، المصدر السابق، ص1233. وهو المعنى القريب من كلمة مواجن المشار إليها في النص أعلاه.

[5]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص79.

[6]- الفلاحة، ج1، ص5.

[7]- ابن خلدون، المقدمة، ص450.

**- أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور، فقيه إباضي مشهور من جربة، أخذ من والده ثم انتقل إلى أريغ حيث أخذ عن مؤسس نظام العزابة: أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي، عمر طويلا وتوفي سنة 508هت/ 1114م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص930.

[8]- سير الوسياني، ج1، ص 299. والمسودة يقصد بهم العباسيين.

عندما اتجه أبو عبد الله الصنعاني* إلى منزل شيخ قبيلة كتامة، قائلا: "ومرّ في الطريق بأندر، والبقر فيه تدرس الزرع" [1].

غير أن الأفراد كانوا يستعيرون هذا النوع من الحيوان في حالة عدم توفره لديهم، لكن الإعارة كانت تحدث المشاكل، من ذلك ما يفيدنا به ابن كنانة (ت186هـ/ 802م) بقوله: "سألت مالكا عن الرجل استعار بقرا ليدرس عليها زرعه، فدرس بها زرعه يوما، فلما أمسى حلها وسرحها، ولم يدخلها دار سيدها، فهلك بعضها أو أكلها السبع أو سرقت. فقال: إن كان حال أهل بلدكم إذا استعاروا الماشية للدرس إذا فرغوا سيبوها في المراعي فلا ضمان عليه، وإن كان أمرهم أن يردها إلى دار أهلها أو يحفظوها في دورهم أو يعلموا سادتها بفراغهم من حاجتهم إليها فلم يفعل ذلك المستعير، فأرى عليه غرم ما ذهب منها" [2]، وبما أن حكم النازلة صادر عن مالك مباشرة، فهو حكم عام على المناطق التي عرفت انتشار مذهبه بما فيها بلاد المغرب الأوسط.

كما سئل الفقيه أبو مروان** عن رجلين اشتركا في زرع، فلما حان حصاده غاب أحدهما فعمد إليه صاحبه فحصده ودرسه وصفاه، ثم أراد أن يقسمه ويعزل نصيبه، دون أن يرفع نصيب الشريك الغائب [3]، وربما كلف الخمّاس بحرث الأرض وحصدها؛ إذ يشير الونشريسي أن بعض الشيوخ قال "وظيفة الخماس يحرث وينقي ويرفع الأغمار*** ويحصد وينقل السنبل إلى الأندر، وإن شرط عليه غير ذلك فلا

*- أبو عبد الله الصنعاني، من دعاة الفاطميين أرسل إلى المغرب يدعو الناس إلى التدين بحب أهل البيت. ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص124 وما بعدها.

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص125.

[2]- الشعبي، المصدر السابق، ص133.

**- أبو مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله، العالم الجليل الحافظ إمام الأندلس في وقته وإليه كانت الرحلة من الجهات، مولده سنة 400هـ/ 1010م، توفي سنة 489هـ/ 1095م. مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص181.

[3]- المازوني، المصدر السابق، ج4، ص69، ص130- 131.

***- الأغمار: غمر إبله سقاها قليلا من الماء فتغمرت، وفلان إذا شرب تغمّر: من الغمر وهو القدح الصغير. الزمخشري، المصدر السابق، ص455.

يجـوز" [1]، وفي الواقـع هـذه الأعمـال لا يمكـن أن يقـوم بهـا الخمـاس في غيـاب القـوة الحيوانية.

ما من شك أن الحيوانات رافقت الفلاح من البداية إلى النهاية، لأهميتها في العمليات الزراعية وخدمة الأرض، لكن كثيرا ما تقع مشاكل بين صاحب الحيوان ومالك الأرض، وهو ما تثبته العديد من المصادر الفقهية؛ فمن أوجه الخلاف تمكن الماشية من الزروع والأشجار وإفسادها، فالزرع إذا ظهر سنبله يجب ألا "يدخل عليه الغنم، ولا يدخل البهائم لرعيه، فإنها تضره. لاسيما إذا كانت السنة ممطرة، فإنها تفسده بجوافرها، ولا يراعى القمح بوجه إلا إن خيف عليه الفساد" [2]، وإن حدث وأفسدت الغنم زرعا بالليل، فإن كانت تبيت الغنم عند أهلها، فعلى أهلها الضمان، وإن كان الرعاء بها في القفار فلا ضمان على الرعاة [3]، وتجنبا لما قد تحدثه الماشية من ضرر بالزرع، تغرس الأرض بأغصان الأشجار، ويوصل ما بينها بحبال كبيرة أو خيوط لئلا تفسد الماشية الزرع [4].

وما يثبت تعدي الحيوانات على الأراضي الزراعية، إشارة الدرجيني إلى حديث رجل ينتمي إلى لمتونة يعرف بابن القابلة*، ورد توزر** سنة (633هـ/ 1236م)، قائلا: وكنت في خيل يحي بن اسحاق الميورقي*** متوجها بعسكره من أريغ إلى وارجلان، أو قال من وارجلان إلى أريغ، فنزل "تلا عيسى"**** وأراد الأجناد يطلقوا خيلهم في الزرع، فأنذرهم بعض من

---

[1]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص151.

[2]- الطغنري، المصدر السابق، ص404.

[3]- الشعبي، المصدر السابق، ص292/ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص338.

[4]- أبو زكريا، السير، ص152.

*- لم نعثر له على تعريف.

**- توزر، مدينة كبيرة وهي من مدن قسطيلية، وأكثر بلاد افريقية تمرا. البكري، المصدر السابق، ج2، ص225.

***- يحي بن اسحاق الميورقي، ولي على غرب الأندلس خلال فترة حكم علي بن يوسف بن تاشفين. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2513.

****- يفيدنا د.بوعصبانة في الهامش 10، صفحة428، ضمن تحقيقه سير الوسياني، ج1، أن تالا بالبربرية هي عين الماء، واشتهرت باسم "تالا عيسى" نسبة إلى الشيخ عيسى بن يرصوكسن، ويبدو أنّ الموقع قريب من وارجلان حسب نفس المحقق.

معهم ممن عرف قديما حال الموضع وأهله، وحذرهم، فقال: هذا موضع منسوب إلى رجال عزابة، صلحاء مساكين، يتقى عقوقهم، فإياكم وإياهم. فمن الجند من تنحى ومنهم من توقف" [1].

بغض النظر عن الإطار الزمني للنص، فهو يشير إلى منطقة هامة من المناطق الصحراوية الشرقية من المغرب الأوسط، وأحد أهم المراكز التي احتضنت ما تبقى من أفراد البيت الحاكم وأصحاب المذهب الإباضي بالعاصمة تاهرت، وتعد أريغ ووارجلان من المناطق الهامة التي يقصدها أفراد المذهب الإباضي للفتوى، وهو ما يؤكده الوسياني من خلال سيره، أما حالة التعدي المشار إليها من خلال النص أعلاه، تؤكد على ما كانت تحدثه الحيوانات من ضرر بزرع الناس، وحالات التعدي هذه طرحت حتى من خلال مصادر الفقه المالكي، منها ما يفيدنا به الونشريسي بقوله "سئل بعض الفقهاء عن أجراء القرية يرعون بقرها على الدولة بالليل كل واحد منهم ليلة فطرقت البقر زرع إنسان فأفسدته على من الغرم؟ فأجاب: إذا فرط الراعي وغفل فالغرم عليه وإن سبقته وقهرته وعلم ذلك فالغرم على أربابها" [2]، ويرى ابن الحاج أن ما أفسدته الماشية من زرع رجل فلا ينجى صاحبها من المغرم دفعها إليه" [3]، وهي أمور سبق وأن ذكرناها.

وتفيدنا أحد المصادر المناقبية الوسيطية عن أبي إسحاق الجبنياني (ت399هـ/ 1009م) أنه سئل يوما عن الزروع التي في الطرقات، فربما غلبت الدواب على أكلها. فقال: أرأيتم لو قيل لكم: إنها أكلت هلكت، ما كنتم تصنعون بها؟ فقالوا: نتحفظ منها، ولو لم نجد إلا أرديتنا لربطناها على أفواهها. قال: كذلك فاصنعوا إذا مررتم بها [4].

كما سجل المازوني نازلة وقعة بتلمسان وسئل عنها أبو الفضل العقباني (ت 854هـ/ 1450م)، حول أرض معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا ينتفعون بها بالحراثة وغيرها

---

[1]- الطبقات، ج2، ص454.

[2]- المعيار، ج8، ص339.

[3]- المصدر نفسه، ج8، ص338.

[4]- اللبيدي، المصدر السابق، ص18.

ويؤدون خراجها للإمام الخليفة ثم إن الإمام ملكها لرجل من شيوخ العرب لما رأى فيه من المصلحة تمليكا مطلقا عاما والأرض المذكورة مشتملة على محروث ومعطول ومن المعطول ما هو بين فدادين الحراثة ومنه ما هو بإزائها وقريب منها تصلها مواشيهم بالرعي وينتفع أهلها بجميع ذلك، غير أن أحد أفراد الميت من أبناء عمه قام لبعض المعطول القريب من أرض له وقام بإحيائه، فتنازعوا في ذلك [1].

وحصيلة القول، تعد الثروة الحيوانية من الدعائم الأساسية بالنسبة للزراعة، لأن أساس خدمتها، وبفضلها يتجنب الفلاح بذل الجهد العضلي في جر المحراث أو القيام بعملية الحصاد، كما أن فضلاتها من المواد العضوية المغذية للتربة، وغيرها من الأمور سالفة الذكر، غير أن ثمت مسائل فقهية تناولت ما قد تحدثه الحيوانات من ضرر بالنسبة للزرع، والكيفية التي يتم بها تعويض الخسائر؛ فمثلما كان الراعي مجبرا على التضمين في كثير من المواقع، نجد صاحب الماشية أو المكتري ملزما بضمان ما أفسدته من زرع.

2- الصناعة

قال تعالى: ﴿**والله جَعَلَ لَكُمْ مِن جُلُود الأنْعَام بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَومَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**﴾ [2]؛ فالحيوان لم يكن مجرد وسيلة يستخدمها الفرد لخدمة الأرض فقط، إنما شكل- الحيوان-موردا هاما بالنسبة للصنائع بما وفره من مادة أولية، وتعد الصناعة تحصيل رزق على عدة أوجه حسب ما يفيدنا به صاحب المقدمة بقوله: "أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله... " [3]، وبهذا يكون الحيوان ثروة مسخرة للانتفاع بها من أجل تلبية حاجات الأفراد من ضروري وكمالي، بطريقة تتماشى والتطور الحضاري الذي بلغه المجتمع.

---

[1]- الدرر المكنونة، ج4، ص21.

[2]- سورة النحل، الآية 80.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص424.

أ- الصناعة النسيجية

تصنف صناعة النسيج والغزل في خانة الصناعات القومية المتكاملة في المغرب الأوسط، مارسها النساء وحتى الرجال، وعن ذلك يخبرنا ابن مريم أن أحمد بن محمد بن زكري* بعد وفاة والده أدخلته أمه يتعلم صنعة الحياكة، وبقي عند صاحب الدكان حتى تعلم النسج [1]؛ فهي أحد الحرف التي ساعدت العديد من الأفراد في التغلب على كثير من الظروف الاجتماعية الصعبة التي واجهتهم، وليس أدل على أهمية هذه الصنعة، مما ذكره ابن خلدون من معلومات فيما يخص صناعة الحياكة والخياطة باعتبارهما جزءا هاما من الصناعة النسيجية، وخصهما بفصل ضمن مقدمته مشيرا من خلاله إلى أنهما "قديمتان في الخليقة لما أنّ الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل" [2]، كما تتعلق إحدى هذه الشهادات بإشارة ابن الأزرق إلى قلة الصنائع بالمغرب إلاّ ما كان من "صناعة الصوف في نسجه والجلد في خرزه ودبغه، فإنهم لما استحضروا، بالغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها، وكون هذين أغلب السلع في قطرهم" [3]، ويرى أحد الباحثين [4] هذه المادة على أنها "شعار المتقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، وأخيار الزهاد والعارفين".

والواضح أن الثروة الحيوانية على رأسها المواشي كانت أساس قيام الصناعة النسيجية، وكانت الصوف أول مادة يعول عليها في ذلك، وربما أجودها ما كان لينا من رقبة الشاة وفخذيها [5]، وعُمِل منها الأغطية والملابس والمفروشات [6]، ونسجت منها نساء البادية الأكسية والحنابل، والحنابل نوع من الأغطية التي تتخذ أيضا فرشا، عرفت انتشارا واسعا بالجهة الغربية لبلاد المغرب الأوسط، وتعرف أيضا بالبورابح،

*- أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري التلمساني، عالمها ومفتيها، وله فتاوى كثيرة منقولة في المعيار، توفي سنة 899هـ/ 1493م. الونشريسي، وفيات، ص111/ مخلوف، المرجع السابق، ج1، ص386.

[1]- البستان، ص99.

[2]- المقدمة، ص456.

[3]- بدائع السلك في طبائع الملك، ص738.

[4]- حسام خلف الصفيحي، أحكام الحيوان في الفقه الإسلامي، ص15.

[5]- ابن البيطار، المصدر السابق، ج3، ص120.

[6]- مصطفى كمال، إنتاج الضأن والصوف، ص356/ C. Vanacker, Op.cit, p674

لكن بعد فترة الاستقلال اندثرت الصنعة، وعن ممارستها سئل أبو الفضل العقباني عن امرأة توفي زوجها وبقيت بعد مدة طويلة تخدم ما تخدم نساء البادية من الكسي والحنابل ثم توفيت ووجد في بيتها مال اختلف حوله الورثة [1].

ومن أشهر مدن المغرب الأوسط في هذا النوع من الصناعات مدينة تاهرت الواقعة بالهضاب العليا، وأكبر منتج للصوف فائق الجودة [2]، خاصة وأن المدينة حسب وصف ابن حوقل لها كانت "أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية" [3]، غير أن النصوص المتوفرة لدينا، وعلى رأسها المصنفات الإباضية، لم تقدم تفاصيل كثيرة حول الصناعة النسيجية بها بالقدر الذي احتله جبل نفوسة، لكن هذا الجبل كان تابعا للدولة الرستمية (160-296هـ/ 777-909م)، وبما أن تاهرت عرفت بثرواتها الحيوانية فما من شك أن الغزل والنسج كان منتشرا في جميع ربوع الدولة، ومارسته المرأة على وجه الخصوص [4].

وربما وظفت الجواري لهذا العمل، مثلما فعلت أم الخطاب*، التي كانت ثلاث عشرة جارية ينسجن لها [5]، ويفيدنا الشماخي من خلال سيره [6] بإشارات متفرقة حول حول اهتمام المرأة الإباضية- الرستمية- بصناعة الصوف، لكن دون التطرق إلى تفاصيل حول الكيفية التي كانت تتم بها عملية النسج، غير أن ابن الصغير المالكي يخبرنا عن توفر المنسوجات بتاهرت، حين يشير إلى شراء عبد الرحمن (ت171هـ/ 787م) لأكسية صوفية وجباب صوفية وفراء من مال الصدقة [7]، ليوزعها ليوزعها على الفقراء والمحتاجين.

---

[1]- المازوني، المصدر السابق، ج3، ص81، ص271.

[2]- إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية، ص208

[3]- صورة الأرض، ص86.

[4]- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص303.

*- أم الخطاب، زوجة أبي يحيى الأزدالي، إباضية من جبل نفوسة، معاصرة لأبي ميمون الذي توفي في معركة مانوا (283هـ/ 896م). الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص916.

[5]- المصدر نفسه، ج2، ص395.

[6]- نفسه، ج2، ص386، ص435.

[7]- أخبار الأئمة الرستميين، ص41.

والملاحظ، هو كون المنسوجات الرستمية لم تكن بلون واحد، حيث يشير صاحب "أخبار الأئمة الرستميين" إلى اللونين الأحمر والأصفر بقصور مدينة تاهرت [1]، وربما استخدمت الفوة للحصول على اللون الأحمر بالتدريج من اللون الوردي الفاتح إلى اللون الرمّاني [2]، وكان اليهود هم الذين يتولون صناعة الأصباغ، لا سيما بجبل نفوسة؛ إذ وردت الإشارة لدى الوسياني عندما ترجم لأبي ذر إبان بن وسيم*، الذي رخص للنساء لمس أصباغ اليهود بقوله: "أيما امرأة مسّت صباغ اليهود ليس عليها إلاّ غسل يديها وكفيها، وليس عليها إعادة الوضوء" [3]، ومما يؤكد شهرة النسيج الرستمي والنفوسي منه بوجه خاص إشارة صاحب "صورة الأرض" ما مفاده: "وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة" [4].

ومازالت المرأة الإباضية وغيرها من النسوة بمنطقة الهضاب العليا يمارسن صناعة الغزل؛ فنجد في المنطقة الغربية من الجزائر- المغرب الأوسط- نوعين رئيسيين من الزرابي المشهورة "زربية جبل عمور" و"زربية جبل بني راشد" حسب ما توضحه الصورة، أما مراكز الجهة الشرقية نجدها منتسبة إلى بابار وهي قرية بمنطقة خنشلة الشاوية بالجزائر، وهي معروفة بحياكة السجاد التقليدي المشهور عالميا [5]، وبالاتجاه إلى جنوب الحدود الصحراوية نجد زربية النمامشة، النمامشة، المعاضيد وزربية وادي سوف، والدليل على عراقة هذه الصنعة داخل المجتمع ذلك الاحتفال الربيعي المنظم كل سنة بغرداية بمنطقة ميزاب، يعرف بعيد الزربية [6]، ويوضح احدى الباحثين أنّ المناطق المشهورة بصناعتها النسيجية تعود لرواج تربية الضأن بها [7].

---

[1]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص62.

[2]- عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت، ط2، 1974م، ص107.

*- أبو ذر أبان بن وسيم، أحد عمال الدولة الرستمية بجبل نفوسة سنة 260هـ/ 873م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص922.

[3]- سير الوسياني، ج1، ص248/ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص303.

[4]- ابن حوقل، المصدر السابق، صص71- 72.

[5] - http://www.france24.com/ar/20130524- 10/10/2013 l'heur 14:54

[6]- http:// www.numidianews.com/en/ article-18293.html. 26/09/2013 l'heur 19 :00.

[7]- Mathéa Gaudry, les tapis et tissages du djebel amour, revue africaine, volume74, année1933, pp163- 165.

صورة تمثل سوق الزرابي بجبل عمور
المرجع: Harmony in Algérian weaving, p39.



صورة تمثل يةعجوز تنسج زرب ببني راشد
المرجع: Harmony in Algérian weaving, p39.



كما وصفت مدينة تلمسان على أنها "دار مملكة يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحرّرات والأبدان* وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكلكلة وغير ذلك. وقد يوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواق ونحوها" [1]، واتخذ نساؤها من الصوف أنواعا من الكنابيش**، لا يوجد في غيرها [2]، ومنها حملت "الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب" [3]، حتى أن شهرة منسوجات تلمسان بلغت ملوك افريقية والمغرب، وكانوا يلبسون ما كان يعمل بها من رفيع الصوف، لاختصاصها بذلك [4]، خاصة وأنها اشتهرت بقماش يعرف بالتلمساني، بالتلمساني، وهو نوعان: "مختّم وغير مختّم، منها صوفٌ خالص، ومنها صوفٌ وحريرٌ" [5]، وهذه وهذه الشهرة تؤكدها بعض الدراسات الحديثة [6] من خلال الإشارة إلى أن النسيج بتلمسان أهم أهم فرع في الصناعة، كان يتم تصنيعه بكميات كبيرة، بالاعتماد على التمشيط، وغزله بألوان طبيعية.

*- الأبدان، نوع من الدرع القصير. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص1179.

**- الكنابيش نوع من الأكسية ومنها الكنش بمعنى فتل الأكسية. ابن منظور، المصدر السابق، مادة كنش، ج5، ص411.

[1]- الزهري، المصدر السابق، ص113.

[2]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، دون طبعة، 1984م، ج3، ص44.

[3]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص140

[4]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص129/ ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص189.

[5]- ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، السفر الرابع، ص159.

[6]- Richard L.awless, Tlemcen, capitale du Maghreb central. analyse des fonctions d'une islamique médiévale, Persée N20, 1975, pp55-58/ Jean Gaoby, le travail de la laine à Tlemcen, la revue africaine, volume57, année1913, pp359-360.

إن وفرة المادة الأولية بمدينة تلمسان ساعد على بروز أسر مختصة بالحرفة، منهم ابن النجار* الذي احترف "بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع، التي كانت تلمسان تختص به، واختص هو بذلك، فكانت له تربيعات بموضعه من درب شاكر، وكان أكثر هذا الدرب له، ولعماله وخدامه" [1]، وهذه الميزة يؤكدها يحي بن خلدون حين يشير إلى أن أغلب تكسب أهل تلمسان كان "الفلاحة وحوك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق، فتلفي الكساء أو البرنس عندهم من ثماني أواق، والأحاريم من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحديث ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا" [2].

غيرُ بعيدٍ عن تلمسان مدينة هنين، التي عرف سكانها منذ القديم بنبلهم وشرفهم، يعملون كلهم في القطن والمنسوجات [3]، أما وجدة التي وصفها البكري بقوله: "مراعيها أنجع المراعي وأصلحها للظلف والحافر، ينتهي شحم شاة من شياههم مائتى أوقية" [4] صنع من صوف شياهها "أكسية ليس لها نظير في الجودة مثل العبيدي، يساوي الكساء الجيد منها 50 دينارا وأزيد" [5]، وتمتعت منسوجات القلعة بشهرة خاصة في المغرب والمشرق، ويشيد بها ياقوت ياقوت الحموي قائلا: "وبها الأكسية القلعية الصفيقة** النسيج الحسنة المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص... " [6]، وخصص للصناعة الصوفية سوقا ببجاية [7]، وممن تاجر فيه أبو عبد

*- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، ابن النجار، والد جدة ابن مرزوق الخطيب من أبيه، كان وجيها سريا موسعا عليه، كثير الصدقات وأعمال البر، له جرايات على الطلبة وأهل الدين والخير. ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، صص188- 189.

[1]- المصدر نفسه، صص188- 189.

[2]- بغية الرواد، ص92.

[3]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص15.

[4]- المسالك والممالك، ج2، ص264.

[5]- مجهول، الاستبصار، ص177.

**- ثوب صفيق، ضد سخيف. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص901.

[6]- معجم البلدان، ج4، ص 390.

[7]- الغبريني، المصدر السابق، ص161.

الله الشريف*؛ إذ يخبرنا الغبريني أنه "كان يأكل من كد يده من الخياطة، وبعض التجارة وكان يسوق الصوافين من بجاية" [1]، خاصة وأن الإدريسي أشار إلى أن "بها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد" [2]، وبهذا تعد الصناعة النسيجية أحد الحرف المشهورة بها.

وربما طرحت مسائل فيما يخص بيع الصوف، كتلك التي سئل عنها ابن دحون (431هـ/ 1040م)** عن رجل باع إلى آخر صوفا بنسيئة***، وقيل في الوثيقة: إن لفلان ابن فلان قِبَل فلان كذا وكذا ثمن صوف باعه منه فاختلط القابض للصوف في عقله، وثبت الدين لبائع الصوف، وكان له عنده دين آخر فباع منه هذا الصوف عند حلول أجل الدين، ففسد بيعه للصوف لأجل سبب التهمة في أن يكون بيعه للصوف ليقضي منه دينه [3].

لم تتوقف شهرة مدن المغرب الأوسط عند ممارسة الصناعة النسيجية، بل اشتهرت بأنواع معينة من الألبسة على غرار باقي مناطق بلاد المغرب، ويقصد بذلك صناعة "البرنس"، وهو العلامة المميزة لسكان هذا المجال الجغرافي حسب ما يكشفه لنا صاحب "أحسن التقاسيم" بقوله: "كثيرا ما يجعلون الرداء بطاقين ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباءة، ...والبربر ببرانس سود" [4]، ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: "ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون يشتملون الصمّاء بالأكسية المعلَّمة، ويفرغون عليها البرانس الكحل ورؤوسهم في الغالب حاسرة" [5]؛ فالكساء لباس موغل في القدم، لبسه الرجل والمرأة، اتخذه سكان البادية من نسيج الصوف الخشن، أما الأعيان فاتخذوه من نسيج الصوف الرفيع، واشتمال الصماء معناه رد

*- أبو عبد الله الشريف، فقيه متعبد، له معرفة بأصول الدين، وكان يحضر له خواص من الطلبة يلتمسون بركته. الغبريني، المصدر السابق، ص177.

[1]- المصدر نفسه، ص177.

[2]- نزهة المشتاق، ج2، ص260.

**- عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموي، المعروف بابن دحّون، من أهل قرطبة، كان من جلة الفقهاء وكبارهم، عارفا بالفتوى، حافظا للرأي على مذهب مالك وأصحابه، أخذ عن ابن المكوي، توفي سنة 431هـ/ 1040م. ابن بشكوال، المصدر السابق، ص226/ مخلوف، المرجع السابق، ج1، ص168.

***- نسأ الأمر: أ خّره، وبعته بنسيئة أي بمبلغ مؤخر. الزمخشري، المصدر السابق، ص628.

[3]- الشعبي، المصدر السابق، ص248.

[4]- المقدسي، المصدر السابق، ص239/ عمار غرايسة، المرجع السابق، ص144.

[5]- تاريخ ابن خلدون، ج2، ص2387.

الكساء من قبل اليمين على اليد اليسرى والعاتق الأيسر، ثم رده ثانية من الخلف على اليد اليمنى والعاتق الأيمن [1].

إذن، البرنس استعمل لدى أهل المغرب كثوب خارجي، لبسه سكان البلاد من البربر وكانوا جميعا يرتدون الأبيض والأسود منه على حد سواء [2]، ويتدلى منه قلمون استعمل في فصل الشتاء للوقاية من البرد والمطر [3]، ولا يزال يشكل زيا شعبيا توارثته الأجيال وتواصل لبسه حتى الوقت الحاضر.

من جانب آخر عرف سكان المنطقة لبس الجبة الصوفية، التي لا تزال مشهورة بها ليومنا هذا، وتعرف بالجلابة أو القشابية، وفي الواقع هي من الأزياء المعروفة بين مختلف فئات المجتمع لبسها الزهاد، وبعض الأمراء، حتى أن عبد الرحمن بن رستم (ت171هـ/ 787م) كان يكثر من شراء أكسية وجباب الصوف والفراء [4]، كما لبس أبو يزيد مخلد بن كيداد حين فجر ثورته في وجه الفاطميين (332هـ/ 944م) "جبّة صوف قصيرة الأكمام مفتوحة العوائق وكان يخرج يديه من تلك الفتوح" [5]، وكان لبس يوسف بن تاشفين اللمتوني (500هـ/ 1107م) من الصوف ولم يلبس قط غيره [6]، لكن يبقى اللباس مرتبطا بالعادات والتقاليد، وحسب الطبقة التي التي ينتمي إليها الفرد؛ فالمقدسي يتحدث عن الرساتيق- الأقاليم- ويشير إلى أن أفرادها كانوا يرتدون أكسية، أما عامة سكان المغرب من البربر الذين أطلق عليهم السوقة، كانوا يرتدون المناديل [7]، وفي الغالب تكون من الصوف، تغطي الرأس وتتدلى على الكتفين والظهر، وليس

---

[1]- محمد مقر، اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الإسلامية، المملكة المغربية، دون طلعة، 2006م، ص149.

[2]- المقدسي، المصدر السابق، ص239.

[3]- ابن مريم، المصدر السابق، ص96، ص207.

[4]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص41.

[5]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص273.

[6]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص388/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص136.

[7]- أحسن التقاسيم، ص239.

ببعيد أن يكون هذا المنديل بمثابة عمامة أو زنارا يتمنطقون به [1].

هذا بالإضافة إلى شهرة المنطقة في صناعة الخيام، وهي صناعة متوارثة، وكان المصنوع منها من الصوف يعرف يدعى "الخباء"، والمصنوعة من الشعر تدعى "الفسطاط"، والمصنوعة من الوبر تدعى "البجاد"، وهناك خيام تدعى "الطراف" مصنوعة من جلد خاص [2].

ما من شك أن هذا النوع من النشاط الحرفي قد اعتمد على أدوات خاصة مثل المناسج* والمغازل** والأنوال*** وغيرها من آلات الغزل، وعن المناسج المستخدمة في النسج والتي كانت تكترى في بعض الأحيان يفيدنا المازوني بمسألة طرحت حول" أهل صنعة الحياكة، وذلك أنهم كانوا يكترون المناسج من النيارين على عمل معلوم وأجرة معلومة من غير أجل، فمنعوا من ذلك وقالوا لا يجوز ولا يكون الكراء إلاّ لأجل معلوم وأجرة معلومة وكراء معلوم [3].

ويعرض الونشريسي مسألة طرحت على عيسى بن علال**** من مكناسة الزيتون "عن مسألة كراء الحاكة النير***** الذين ينسجون به مع الغرس الذي فيه من النيارين فإذا فرغوا من النسج أخذوا غرسه وأتوا بغرس آخر في منسجه، وكانت هذه المسألة حيّرت الصناع منهم عن صناعة الحياكة والحرارة مع ضرورتها. فأجاب إذا كان المنسج مثلا يكرى بدرهمين فيكون كراؤه بدرهم واحد وغرسٍ مثل الغرس الذي في المنسج يؤديه له عند انقضاء أربعة أيام أو خمسة أو ما هو معروف من المدة التي يتم فيها نسجه، ثم إذا ردّ المنسج الغرس الذي وقع به الكراء رد للنيار الغرس الذي قطع الذي كان في المنسج بعد أن يكون طبع عليه بطابع أو يعلم عليه علامة

---

[1]- صالح بن قربة، مقدمة لدراسة الملابس المغربية- الأندلسية في العصر الوسيط من خلال المصادر التاريخية والأثرية، مجلة التاريخ العربي، العدد14، ص43 www.attarikh-alarabi.ma

[2]- جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ص93/ أبو ريه عطا، اليهود في المغرب الأقصى، ص288.

*- المناسج، جمع منسج، وهو أداة يمد عليها الثوب لينسج، الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص207.

**- المغازل، جمع المغزل، وهي ما يغزل به. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص1038.

***- الأنوال، جمع النول، وهي خشبة الحائك. الفيروزآبادي، نفسه، ص1066.

[3]- المازوني، المصدر السابق، ج3، ص132/ والمسألة أجاب عنها أبو القاسم بن سراج الأندلسي (ت848هـ/ 1444م)، وفصل فيها، فتاوى علماء قرطبة، تحقيق محمد أبو الأجفان، المجمع الثقافي، أبو ظبي، دون طبعة، 2000م، صص201-206.

****- أبو مهدي عيسى بن علال الكتامي، مفتى فاس وخطيب جامعها الأعظم، توفي سنة 820هـ/ 1417م. الونشريسي، وفيات، ص85.

*****- النير، من أدوات الغزل. الزمخشري، المصدر السابق، ص662.

لغيبته عليه، فإن كان الحائك ينسج لنفسه فما أخذ لأحد شيئا وما أعطى متاعه غيره وإن كان ينسج للناس فالعادة عند الناس اليوم أن الحائك يأخذ الغرس لنفسه والعادة كالشرط" [1]؛ فالنص يشير إلى ما قد يقع فيه النساج عند كرائه لبعض الأدوات النسيجية.

كما لا يمكننا التحدث عن صناعة نسيجية دون أن نعرج إلى صبغها، باعتبار الصباغة آخر مرحلة في صناعة النسيج، وغالبا ما تكون دورها بالقرب من الأنهار، للقيام بعمليتي التجفيف والتنظيف [2]، أما الألوان فلم تختلف عن تلك المستعملة في باقي مدن العالم الإسلامي، والتي غلب عليها الأصل النباتي كالزعفران الذي استعمل من أجل الحصول على اللون الأصفر، ودخل من المشرق إلى شمال إفريقيا [3]، كما استعمل الرمّان للحصول على نفس اللون، وهذا لرواج أشجاره بالمغرب الأوسط.

أما اللون الأحمر فكان يتم الحصول عليه بالفوة، بالتدريج من اللون الوردي الفاتح إلى اللون الرمّاني [4]، كما استعملت النيلة من أجل الحصول على اللون الأزرق، وربما استعمل القرمز المتساقط من أشجار البلوط لصباغة المنسوجات من الأصل النباتي [5]، واستعملت مادة الشب قصد تثبيت الألوان، وهذا بوضعه مع المادة الملونة في الماء الساخن في آنية، وينزل فيها الثوب العديد من المرات [6].

نافلة القول، ساهمت وفرة الإنتاج الحيواني ببلاد المغرب الأوسط في شهرة الصناعة الصوفية، خاصة بمنطقة الهضاب العليا، وكذا بعض المناطق الصحراوية، الأمر الذي شجع في ظهور صناعات نسيجية مختلفة وتعد صناعة الزربية احدها، وهي من بين التراث الثري الذي تزخر به حضارة المنطقة منذ القدم، مارسها السكان وتفننوا في إتقانها وزخرفتها.

---

[1]- المعيار، ج8، ص295.

[2]- يحي أبو المعاطي، المرجع السابق، ص492.

[3]- أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500- 1100م) ترجمه أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دون طبعة، 1960م، ص254.

[4]- عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص107.

[5]- يحي أبو المعاطي، المرجع السابق، ص491.

[6]- محمد حسن، المدينة والبادية، ج1، صص480- 481.

ب- الدباغة

ترتبط هذه الصناعة بالقطاع الرعوي الذي اتسع نطاقه في المجتمع الريفي والبدوي، وتقوم على تنظيف الجلود وتلينها قبل استغلالها، وهي أولى الخطوات بعد استلامه حتى لا يفسد أو يتعفن، باستخدام مواد تعينه على إزالة الصوف والشعر من الجلد بسهولة، وبدون أذى له مثل زبل الحمام إلى جانب نبات شجر التاكوت المستخدم في الدبغ، كما استخدمت بعض الأصناف مثل الملح والرمان للمحافظة على طراوة الجلد [1].

والظاهر أن عملية التمليح هي أولى عمليات صيانة الجلد وحفظه [2]، ومثل الصبّاغ كان الدبّاغ يمارس عمله في الغالب قرب الأنهار أو بعيدا عن الأحياء السكنية، لما تحدثه الجلود من روائح كريهة، وحاجتها الكبيرة للمياه، وربما هذا ما دفع إلى تخصيص باب الدباغين بمدينة بجاية [3]، كما استعملت الألوان لصبغ الجلود، فمنها اللون الزيتي، والبنفسجي والأصفر والأسود [4]، ولا يباح للدبّاغ بيع الجلد إلاّ أن يكون قد خرج ماؤه وتحققت النهاية في دباغه [5].

دباغه [5].

أما عن أهم الصناعات الجلدية نذكر المزاود والأنطاع والقرب [6] لحفظ الماء؛ حيث يذكر عماد الدين إدريس أن المنصور الفاطمي (ت339هـ/ 951م) أمر "بالروايا والقرب فمُلئت ماء وحملت على البغال إلى المقاتلين في عسكره" [7]، ولا تكون هذه الأشياء إلا من جلود المعز [8]، وكانت أخفها تلك المصنوعة من جلد الأنثى- النعجة أو العنزة-، وأثقلها تصنع من جلد الذكر- الكبش أو التيس- [9]، واستعملت لحمل الزيت أيضا وأشياء أخرى مثل

---

[1]- أبو ريه عطا، اليهود في ليبا وتونس والجزائر، ص124/ C. Vanacker, Op.cit., p674

[2]- مصطفى كمال، المرجع السابق، ص457.

[3]- الغبريني، المصدر السابق، ص81.

[4]- أبو ريه عطا، اليهود في ليبيا، ص125.

[5]- السقطي، المصدر السابق، ص63.

[6]- المقدسي، المصدر السابق، ص239.

[7]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص434.

[8]- الجاحظ، الحيوان، تحقيق يحيى الشامي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ج2، ط3، 1990م ، ص321.

[9]- الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج2، ص241.

الدقيق [1]، كما تحمي جلود المعز الرعاة والصناع من البرد القارص [2]، وصنع من الجلد دلاء كبيرة، استعملت لاستخراج الماء من البئر عن طريق حيوان ليصب في الجابية [3].

ناهيك عن النعال الجلدية التي لبسها الأعيان والعامة داخل المجتمع المغربي نساء ورجالا، وهي عبارة عن فراش من الجلد أو نحوه توضع فوق القدم يشد إليها بواسطة شريطين من الجلد يمر أحدهما وسط الرجل، والآخر بين الأصبع الأكبر والثاني الذي يليه [4]، ويستعمل صاحب الحرفة قوالب الخشب أو الحديد، الذي يأخذ شكل الحذاء بمقاسات مختلفة، حسب طلب الزبون، ويستخدم إبرة غليظة لخياطة الجلد وتثبيته على قاعدة من الخشب تشبه قدم الرجل [5]، وفي الغالب تعتمد على جلود المعز والبقر [6]، وعادة ما يتجول صاحب هذه الحرفة في الأسواق، الأسواق، ومنهم من يملك دكانا يمارس فيه مهنته [7].

كما صنعت منها الطبول التي كانت تضرب عند خروج الجيوش تنظيما لسيرها [8]، وكذا وكذا إرهابا للعدو قبل بداية المعارك [9]، مثلما فعل المنصور الفاطمي لما خرج من القيروان نحو ميلة بانيا على "استلام أهلها واستباحتهم، فخرج إليه النساء والعجائز والأطفال بعد أن عبّأ جيوشه لمحاربتها ونشر البنود، وضرب الطبول" [10].

واعتمد ببلاد المغرب عامة على الجلود في صنعة تجليد الكتب وتسفيرها، خاصة خلال العهد المرابطي، حيث كانت تجلد الكتب ويُكتب على جلدها وتطلى

---

[1]- أبو ريه عطا، المرجع السابق، ص125

[2]- كزال ستيفان، المرجع السابق، ص119.

[3]- محمد حسن، المرجع السابق، ص398.

[4]- اللبيدي، المصدر السابق، ص29/ جمال طه، الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي عصري المرابطين والموحدين، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2004م، ص249.

[5]- كمال صادقي، الصناعة الحرفية بالمغرب الأوسط في عهد بني حماد (398هـ- 547هـ/ 1007- 1252م)، شهادة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، قسنطينة، 2006- 2007م، ص46، غير منشورة.

[6]- الجاحظ، المصدر السابق، ص319.

[7]- كمال صادقي، المرجع السابق، ص46.

[8]- النويري، المصدر السابق، ص307.

[9]- إبراهيم القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص91.

[10]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص245.

بالذهب [1]، واستعمل أهل القلعة الجلد المنمق بالذهب، خصوصا في صناعة السروج السروج وتجليد الكتب [2]، كما استغلت الجلود في مجال الكتابة، فالمقدسي يذكر أن كلّ كلّ مصاحف أهل المغرب ودفاترها مكتوبة في رقوق [3].

ومن الصناعات الجلدية التي عرفت شهرة بالمنطقة محل الدراسة، صناعة السروج والألجمة التي جمعت بين الضروري والكمالي، خاصة وأن وسائل النقل في الحرب والسلم هي الدواب، وراكبها يحتاج إلى شيء يضعه على ظهر الدابة، لراحتها وراحته؛ فاستعمل السرج للغرض، وهو يتألف من دفتين تقعان على ظهر الفرس، ومن الذئبة وهي فرجة ما بين دفتي السرج [4]، وهذه الصناعة لقيت اهتماما كبيرا ببعض مناطق المغرب الأوسط، على رأسها مدينة تاهرت التي اكتسبت القبائل المنتشرة حولها "الأموال واتخذت العبيد والخيول" [5]، واشتهرت ضياعها الكثيرة بالبراذين والخيول [6]، وهذا يؤكد اهتمام أفراد المجتمع التاهرتي بصناعة السروج والألجم، مع تزينها بالذهب [7].

أما تلمسان فكان يحمل منها "ألجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك" [8]، إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس [9]، علما أن أكثر قبائلها زناتة من "الفرسان يركبون الخيل ولهم عادية لا تؤمن" [10].

---

[1]- الهرفي سلامة، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين دراسة سياسية حضارية، دار الندوة الجديدة، بيروت، دون طبعة، 1985، صص279- 280.

[2]- إسماعيل العربي، العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر في عصر بني حماد، مجلة الأصالة، قسنطينة، العدد19، السنة 1394هـ/ 1974م، ص341.

[3]- أحسن التقاسيم، ص239.

[4]- عبد السلام الجعماطي، المرجع السابق، ص147.

[5]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص63

[6]- الإدريسي، المصدر السابق، ص256.

[7]- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص525.

[8]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص140.

[9]- الزهري، المصدر السابق، ص114.

[10]- الإدريسي، المصدر السابق، ص257

والظاهر أن نسوة تلمسان عملنّ على طرز السروج داخل بيوتهن [1]، وكان بمدينة بجاية "من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد... وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة" [2]، ولطيفة" [2]، وهذا دليل على تنوع الصناعات المعتمدة على الثروة الحيوانية بالمنطقة، بما فيها الصناعة الجلدية، وبالقرب منها قبيلة كتامة كانوا "غارمة يمتطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الإبل والبقر" [3]، وهذا يعني أنهم كانوا مهتمين بتوفير الأدوات أو الوسائل المساعدة على ركوب الخيل، أي السروج، وحتى إن لم يقوموا بصناعتها باعتبارهم ظواعن فهذا يدل على أنهم حصلوا عليها من المدن المجاورة لهم.

صفوة القول، أن الصناعات المعتمدة على الثروة الحيوانية كمصدر للمادة الأولية قد تنوعت بين الضروري للاستهلاك اليومي، وبين الكمالي كمظهر من مظاهر التمدن والتقدم الحضاري، لكن حسب طبيعة المجتمع من الحضري إلى البدوي، وحسب المستوى المعيشي من الغني إلى الفقير، كما أن تطورها يعود إلى جملة من العوامل المساعدة.

3- التجارة

تميز المغرب الأوسط جغرافيا بموقع ممتاز، جعل منه ممرا حيويا بالنسبة للمبادلات التجارية مع العالم الإسلامي، وأهَلَه إلى أن يقوم بدور الوساطة التجارية من حيث الإنتاج والحاجيات، ومن المدن التي اتصفت بهذه الخاصية مدينة تلمسان "قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منها لا بد منها والاجتياز بها على كل حالة" [4]، وبجاية لا تختلف عنها من حيث إقلاع السفن إليها "وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة" [5]، خاصة وأن التجارة في حد ذاتها تعتمد على" إعداد البضائع لطلب أحواضها بالتقلب بها في البلاد، أو

[1]- Richard L. Lawless, Op.cit, p57.

[2]- الإدريسي، المصدر السابق، ص260.

[3]- تاريخ ابن خلدون، ص2434.

[4]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص250.

[5]- المصدر نفسه، ص260.

احتكارها لترصد بها حوالة الأسواق" [1]، وفي نفس الوقت هي "محاولة على التكسب لتنمية المال في الشراء بالرخص والبيع بالغلاء" [2].

وما من شك في كون التجارة أحد الدعائم الاقتصادية بالنسبة لمختلف المجتمعات، كان محترفوها يتنقلون بين بلدان العالم الإسلامي، وقبل الشروع في الرحلة يعملون على تحديد طريق رحلتهم؛ فيختارون الطريق الأقصر والأكثر أمنا، والذي تتخلله المدن التجارية الهامة، عكس القوافل المتوجهة نحو بلاد السودان، إذ يحرص أصحابها على تحديد الطريق الذي سيتبعونه لمدة شهرين تقريبا، وهي المدة التي قد تستغرقها القافلة التجارية [3]، ويختارون حتى المسلك الذي تتخلله بعض المراعي، وتنتشر على طوله الآبار، وهو ما يؤكده الاصطخري بقوله: "وبين المغرب وبلد السودان مفاوز منقطعة لا تسلك إلاّ من مواضع معروفة" [4]، لأن الوسيلة المعتمد عليها خلال هذه الرحلة هي الجمال، وهذا الحيوان يتحمل العطش ولكن لمدة لا تصل شهرين، كما أنها تحتاج إلى الغذاء [5]، وبهذا يكون الجمل أقدر الحيوانات على قطع الفلاة، بالإضافة إلى إلى كونه يسد كل حاجيات الإنسان، لأنه يتغذى على لحمه، ويروي عطشه من لبن نوقه، ويصنع من وبره الخيام والألبسة.

والواضح أن رجال القافلة يهتمون باختيار الجمل المناسب للرحلة أي الجمل السمين، لأن التجربة بينت أن الجمل عندما يحمل أثقالا لمدة خمسة أيام دون أكل، فإنه يستهلك شحم سنمه، وبعد خمسة أيام أخرى يستهلك شحم بطنه، وبعد خمسة أيام أخرى يستهلك شحم أفخاده، وبعد ذلك لن يقوى على حمل مائة رطل- 34كغ- [6]، وهو ما استندت عليه الباحثة بشرى

[1]- ابن الأزرق، المصدر السابق، ص718.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، ص729.

[3]- Lessard Jean Michel, Sijilmassa, la ville et ses relations commerciales au XI siècle, D'après el-Bakri, hesperis tamuda, Volume X, Fascicule1-2, 1969, p14.

[4]- المالك والممالك، ص45.

[5]- Godinho V.Magalhaes, l'Economie de l'empire portugais aux XV et XVI siècles, Paris, 1969, PP113- 114. / جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون طبعة، 1984م، ص154.

[6]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص259.

لطيفة في دراستها "التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزناتية" [1]، وقبل المسير تحمّل الجمال بالأثقال، وقد تستغرق العملية ساعتين أو ثلاثا لأنها عملية صعبة بسبب مقاومة هذا الحيوان، وغالبا ما يلقي بالحمولة أرضا، ومع مرور الوقت تصبح العملية أسهل وتتم في وقت أقصر [2]، والملاحظ أن السلع المنقولة تكون محددة، لأن بعد البلد ومخاوف الطريق والعطش، وشدة ضرر نقلها، يقلل من حاملها، ويعز وجودها، فيحصل ناقلها على ربح عظيم بسبب ذلك، وهذا ما ينطبق على تجارة بلد السودان [3].

وتجدر الإشارة إلى استفادة القبائل الظاعنة في الصحاري من النشاط التجاري، وذلك بتأجير جمالها للتجار أو تبيعهم إياها، كما أنها كانت تقوم بخفر* القافلة، ويتكلف أفراد منها بالسهر على تغذية الجمال وتعبئتها وإزالة الأحمال عن ظهورها [4]، ظهورها [4]، ومن ذلك قبائل مدينة وارجلان التي خص فيها الجمل بأهمية كبيرة، باعتباره وسيلة للمواصلات يعتمد عليه في التجارة، علما أن قبائلها مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان [5]، ويؤكد ابن سعيد المغربي (ق7هـ/ 13م) أن "السفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير" [6]، لذلك اهتم سكان المنطقة إلى جانب أهالي سدراتة بتربية هذا الحيوان، وبلغ سعر الجمل بأسواقها أربعة وعشرين دينارا [7]، كما كانت القوافل تسير بين تاهرت وسجلماسة نحو 50مرحلة، أي ما يعادل

---

[1]- التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزناتية، من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13-16م)، شهادة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، 1986- 1987م، صص89- 90، غير منشورة.

[2]- Godinho, op, cit, p114

[3]- ابن الأزرق، المصدر السابق، ص732.

*- خفر، خفرت فلانا وخفرت به خفّرته: أجرته، وخفرت على بني فلان فأدوا خَفارتي إذا حميت رجلا فلم ينقضوا حمايتك ولم يتعرضوا له. الزمخشري، المصدر السابق، ص170.

[4]- محمد زنبير، المرجع السابق، ص414.

[5]- الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص296.

[6]- كتاب الجغرافيا، ص126.

[7]- مسعود مزهودي، الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (296هـ-446هـ/ 909م- 1058م)، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، قسم التاريخ، 1988م، ص163، غير منشورة.

يعادل مسافة 2100كم، مرورا بتلمسان عبر مدن وقرى عديدة [1]، والقافلة هنا ستعتمد على الجمل لاختراق مختلف التضاريس الرابطة بين المنطقتين.

ويتجلى من خلال استقراء مضامين عدد من المصنفات الجغرافية مدى أهمية باقي الثروات الحيوانية إلى جانب الجمل، في إنعاش اقتصاد المغرب الأوسط داخليا وخارجيا، وهذه الأهمية يؤكدها ابن حوقل عند وصفه للسلع ذات الأصل الحيواني والمصدرة من بلاد المغرب- بما فيها المغرب الأوسط- نحو المشرق قائلا: "الأكسية الصوفية الرفيعة والدنيّة إلى جباب الصوف وما يعمل منه، والأنطاع... ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفره والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص. فأما أسعارهم على تنائي مدنهم وديارهم فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللحمان والأدهان" [2]؛ فالتجارة "فرع لمادتي الزرع والنتاج" [3] حسب تعبير الماوردي، لذا تنوعت الصناعات ورخصت الأسعار الأسعار بالمنطقة خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م، والمرجح أن ملاءمة المناخ وتنوع الغطاء النباتي، ساهما وبقدر كبير في تنوع الثروة الحيوانية ورخص منتجاتها وكثرتها بالعديد من المناطق، خاصة بالبادية، أين كانت عادتهم بيع اللحم جزافا [4].

ومن الأمثلة، ما تميزت به مدينة المسيلة من كثرة لحومها، ورخص سعرها، وبمدينة الغدير الطعام رخيص واللحم وجميع الثمار [5]، أما بمدينة تنس فرطل اللحم بسبع وستين أوقية [6]، وتميزت مرسى الدجاج برخص سعر ألبانها ومواشيها [7]، وكثرة اللحوم بها وحتى أنها بيعت بالثمن اليسير، وبتدلس الغنم والبقر موجودة كثيرا وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة ويخرج من

[1]- الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص249.
[2]- صورة الأرض، ص95.
[3]- الماوردي، آداب الدين والدنيا، ص315.
[4]- المازوني، المصدر السابق، ج3، ص100.
[5]- البكري، المصدر السابق، ج2، صص239-240.
[6]- المصدر نفسه، ص243.
[7]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص77.

أرضها إلى كثير من الآفاق [1]، والظاهر أن هذه الميزات خصت بها البلاد الساحلية للمغرب الأوسط، وما يثبت ذلك، نص صاحب الاستبصار الذي يشير من خلاله إلى أنها "طيبة المراعي ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحمها" [2].

ويجدر بنا أن نشير إلى دور المحتسب وتدخله من أجل مراقبة جودة اللحوم المعروضة داخل الأسواق، وكذا نوعيتها، لأن بعض الجزارين يخلطون اللحم، فيبعون البائت مع الطري، والمهزول مع السمين، والمصران والكرش مع اللحم، ولحم المعز مع لحم الضأن [3].

وبهذا شكلت مدن المغرب الأوسط أسواقا هامة للقبائل البربرية، ولا تعوزنا الدلائل لكشف ذلك، فمدينة فكّان يصفها صاحب "المسالك والممالك" بقوله: "كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة" [4]، و كانت للسوق القائمة بالقرب من مدينة أشير يوم معلوم ويباع به كل طريفة [5]، مع العلم أن المعاملات التجارية بتلك المنطقة بعد تأسيسها لم تكن تعتمد على النقود، بل بالمقايضة [6]، أي لم يكن تعاملهم بالذهب والفضة وإنما بالبعير والبقر والشاة [7]، أما سوق مازونة فكان له "يوم معلوم يجتمع إليه إليه أصناف من البربر بضروب الفواكه والألبان والسمن" [8]، واعتمد على الدواب في في حمل هذه السلع إلى الأسواق، وفي هذه الحالة قد يقع التعدي في نوع الحمولة، كأن يستأجر الشخص الدابة لحمل اللفت فيزيد عليه كمية من الحلفاء، وربما يلحقها الضرر من ذلك [9].

[1]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص259.
[2]- مجهول، المصدر السابق، ص179.
[3]- السقطي، المصدر السابق، ص33.
[4]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص262.
[5]- المصدر نفسه، ج2، ص254.
[6]- الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص44.
[7]- النويري، المصدر السابق، ص305.
[8]- الإدريسي، المصدر السابق، م1، ص272.
[9]- المازوني، المصدر السابق، ج3، ص353.

ومن الواضح أن هذه الحركية وما تبعها من نشاط تجاري ساهم مساهمة فعالة في تطوير صناعة النسيج والزربية والجلود [1]، وشكلت المدن الرئيسية المكان المناسب لمثل هذه الأنشطة، كتاهرت التي وصفت على أنها ملتقى تجاري مهم بين القبائل الرحل، التي تأتي لبيع ماشيتها وشراء ما تحتاجه من حبوب وتمور وبضاعة مستوردة من المشرق، ولهذا لا يمكن الفصل بين شهرة هذه المدينة في تربية الماشية وتصدير اللحوم أو منتجات أخرى إلى المغرب والأندلس [2].

علاوة على ذلك شهد المغرب الأوسط تسويق الدواب، ومن الطبيعي أن تبرز مدينة تاهرت وتحتل مكانة هامة في هذا المجال، باعتبارها "إحدى معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية" [3]، وسبق أن أشرنا إلى انتشار ظاهرة تداول الدواب المسروقة والمعيبة وما قد يحدث بين البائع والمشتري، ومن ثمة حذر الفقهاء من بيع أي دابة لا يعلم صاحبها، تفاديا للتحايل والتدليس، إلاّ أن يضمنه شخص معلوم يحظى بالثقة، ويضمنه الناس إن كان مجهولا [4].

وفي باب جودة الدواب المعروضة للبيع أو الكراء خاصة بالنسبة للخيل والبغال، كان يتم النص في العقد على العيوب التي لا يمكن رصدها بسهولة، وأن لا يكتموا عيبا ولا سرا مثل "الرطوبة التي تنزل من الدماغ في الدابة من نزلة تعرض لها من برد يصيبها" [5]، وضيق نفس الدابة، أو ينبت للدابة أنياب رقاق زائدة الطول تمنعها من الكل [6]، مع العلم أن العيوب نوعان: نوعان: دائمة ومؤقتة [7]، وتفاديا لمثل هذه الأمور وتجنبا لما قد يحدث بين الأشخاص من نزاع كانت السلطة تتدخل لمحاولة ردع ما يمكن أن يلحق من غش وتدليس وتلاعب، وهذا ما أقره الفقهاء من خلال كتب الحسبة والنوازل الفقهية، بالكشف عن تفاصيل بالغة الدقة والأهمية

[1]- محمد الطمار، تلمسان عبر العصور، تقديم عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، 2007م، ص34.
[2]- الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مطابع السياسة، الكويت، دون طبعة، 2005م، ص136.
[3]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص86.
[4]- السقطي، المصدر السابق، ص65.
[5]- الشعبي، المصدر السابق، ص201.
[6]- السقطي، المصدر السابق، ص66.
[7]- الشيرزي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق د.السيد الباز العريني، بيروت، ط2، 1981م، صص81- 82.

تهم أصحاب الدواب والمستفيدين منها، ويفيدنا الوسياني بقضية من واقع مجتمع المغرب الأوسط حول مسألة عيوب الحيوانات (دواب أو مواشي) قائلا: "وذكروا أن نفوسة أرادوا أن يستقضوا رجلا، فأرادوا تجربته، فأرسلوا إليه رجلين، فاختصما عنده، فقال أحدهما: إنّ هذا باع لي ثورا فوجدته لم تكن له الأسنان الفوقانية، فقلت ردّه عليّ، فأبى لأنّه عيب، فقال القاضي: سأسأل أصحاب الثيران إن كان عيبا أم لا؟" [1].

صفوة القول، ان الأسواق الريفية العديدة المحيطة بالمدينة وفرت المواد الخام ذات الأصل النباتي والحيواني اللازمة للحرف والصنائع المختلفة، ولم تكن المدينة قادرة على غلق أبوابها في وجه البضائع والمواد الأساسية الوافدة عليها من الريف، يضاف إلى ذلك أهمية الدواب كوسيلة نقل ضرورية للمسافات القريبة والبعيدة.

ثانيا- المجال السياسي والعسكري

ينص القرآن على تكريم الحيوان، وبيان مكانته، وتحديد موقعه إلى جانب الإنسان، فبعد أن بين الله في سورة النحل قدرته في خلق السموات والأرض، وقدرته في خلق الإنسان، أردف ذلك بقوله ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [2]، إذن الأنعام لها جمال وزينة في أعين الناس، وعظمة ووجاهة، وخلقت الخيل والبغال والحمير للركوب مثلما خلقت الأنعام للأكل وتوفير الدفء.

1- المجال السياسي

ويعد المجال السياسي والعسكري من المجالات المهمة التي عرفت بدورها حضورا متميزا للحيوانات، ونعني بالمجال السياسي كل الصداقات والتحالفات التي ربطت بين الحكام والولاة، أو بينهم وبين رؤساء القبائل، وتميزت هذه العلاقات بتقديم هدايا قيِّمة ضمت أنواعا مختلفة من

---

[1]- سير الوسياني، ج1، ص278.

[2]- سورة النحل، الآيات 5- 6- 7- 8.

الحيوانات، خاصة الإبل، بهدف الحفاظ على تلك العلاقات الودية بين مختلف الأطراف، وما يثبت ما نذهب إليه ما أقدم عليه جعفر بن علي بن حمدون عامل المسيلة حين وافى منصور الفاطمي (334هـ/ 945م) بمدينة قسطيلية حاملا معه "هدايا من الخيل والإبل وغيرها" [1]، ويفصل ابن حماد في الهدية قائلا: "بهدية منها خمسة وعشرون فرسا ومثلها نجباء*" [2].

من جانب آخر، لم يتردد الحاكم في القيام بنفس العمل مع ولاة الأقاليم، من ذلك ما أقدم عليه القائم الفاطمي (322-334هـ/ 934- 946م) مع زيري بن مناد (343-366/ 948- 955م)، كعربون شكر لموقف هذا الأخير مع الخليفة لمّا حاصر أبو يزيد مخلد "صاحب الحمار" السابق ذكره مدينة المهدية ومنع عنها الميرة، فبعث له القائم هدية لم يسمع بمثلها "من كسا جليلة وخيل موسومة بسروج محلاة" [3]، ولما وجه محمد بن خزر ابنه يعقوب إلى منصور الفاطمي (344هـ/ 945م) بالمسيلة أكرمه، "وحمله على فرس من مراكبه بسرج من سروجه ولجام من لجمه" [4]، "ونزل إسماعيل- منصور- في طرف صنهاجة في خباء لطارق الفتى، ثم توجه إلى حائط حمزة (البويرة)، فنزل هناك وفرق الأرزاق، وأجزل العطاء، ووصل إليه زيري ابن مناد في عساكر صنهاجة، فوصله وفضله، وخلع عليه ثيابا كثيرة من لباسه وأعطاه من الطيب والطرائف الملوكية ما لا يحيط به الوصف ولا يعمه الحصر، وحمله وحمل أولاده وبني عمه ووجوه أصحابه على الخيل بالسروج واللجم المحلاة بالذهب والفضة" [5].

ومن الأمثلة الدالة على التهادي ما أمر به المعز سنة 361هـ/ 972م لأبي الفتوح يوسف بلكين (ت373هـ/ 984م) لما قدم إليه من مدينة أشير، فكان من بين الهدايا التي قدمها إليه الخليفة الفاطمي أربعين فرسا بالسروج المحلاة المثقلة، ليقدّم بعدها بلكين هدية تضم ألفي جمل

---

[1]- عماد الدين إدريس، المصدر السابق، ص391.

*- نجباء، من النجيب وهو الكريم الحسيب. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص136.

[2]- أخبار ملوك بني عبيد، ص37.

[3]- النويري، المصدر السابق، ص306.

[4]- ابن حماد، المصدر السابق، ص38.

[5]- المصدر نفسه، ص39.

من إبل زناتة للمعز لما عزم الرحيل إلى مصر لحمل أمواله [1]، وفي سنة 387هـ/ 997م "عقد أبو مناد ولاية أشير لحمّاد بن أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد (ت419هـ/ 1028م)، فخرج عاملا عليها وأعطاه خيلا كثيرة وكسي جليلة" [2].

وبالمقابل، تؤكد نصوص أخرى أن هدايا المغرب الأوسط توجهت خارجا صوب الأندلس؛ حيث استقبلت هذه الأخيرة أعدادا متزايدة من دواب الركوب والحمل من المنطقة، وتعدت بعض الأجناس المهداة قدر الدواب المتعارفة إلى حد الانتخاب في الجنس والاحتفال في الحلية، إذ يكشف لنا ابن حيان أن منصور بن سنان بعث كتابا إلى الناصر بدين الله (ت350هـ/ 961م) بالأندلس سنة 316هـ/ 928م "يمُتّ بالولاية ويخطب القبول، وازدَلَف بهدية حسنة من خيل وإبل وأنعام وغزلان" [3]، وفي نفس السنة كاتب أمير أرشقول إدريس بن إبراهيم السليماني الحسنيّ* نفس الخليفة "يخطب ولايته منه ويمُتّ بنسبه إليه ....وأهدى مع كتابه هديّة حسنة من خيل وإبل وحيوان غريب" [4].

كما بعث أمير زناتة محمد بن خزر في آخر سنة 318هـ/ 930م بكتاب يعلن فيه بيعة عبد الرحمان الناصر لدين الله، وأرفقه بهدية ضمت "عشرة نُجُب مخصيّة عجيبة الخلق متَخيّرة في جنسها، بسروجها وأرسانها** وأزمّتها وأجلالها وأُرْجُواناتها وقرابيسها***، مُعلَّقا عليها عشر درقات من نفائس درق اللمط، وعشرين ناقة، حوامل عشارا وغيرها، معها فحل لها جليل الخلقة البِنْية، معها راعيها عبد أسود ماهر برعي الإبل بصير بأدواتها، وثمانية عشر فرسا من جياد الخيل العربية، منها فرس

---

[1]- النويري، المصدر السابق، ص310/ المقريزي، المصدر السابق، ص144.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص248/ النويري، المصدر نفسه، ص324.

[3]- المقتبس، ج5، ص261.

*- إدريس بن إبراهيم السليماني الحسنيّ، ابن إبراهيم صاحب أرشقول، آلت إليه بعد أخيه يحيى، سجنه القائد الشيعي ميسور الفتى سنة 323هـ/ 935م، بسبب ولائه لعبد الرحمان الناصر الأموي، ثم أخلي سبيله. بن معمر محمد، المرجع السابق، ص78.

[4]- ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص263.

**- أرسنة، جمع الرسن، وهي ما كان من زمام على الأنف. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص1200.

***- قرابيس، جمع قربوس، وهي حنو السرج. المصدر نفسه، ص565.

أصفر أسود العرف والذيل مهضوم، وفرس أشقر خماسي أغر مخضب الأربع، وفرس أشهب خماسي بأذنيه وطرف ذنبه وردة، وأربعة من عتاق الخيل، قيود للعيون ....؛ فلم يكن لها في جميع خيل ركابه على كثرتها أشباه لها، آثرها على جميع الهدية" [1]، والواضح من كل هذه الفصائل الحيوانية أنها تميزت بالنوعية الجيدة، واختيرت أفضل الفصائل للحصول على نتاج متميز، والواضح من النص أنه تفوق على دواب الركاب السلطاني نفسها، وتبقى الإبل أفضل الهدايا [2]، وكانت تقرن أحيانا بالرعاة الخبراء في تدريبها [3]، وتضاف إلى المجموعة السابقة مائة وثلاثون جملا، بعث بها بنو خزر، ومنها ما وصل مدينة الزهراء [4].

واستمرت سياسة التهادي حتى مع الفترة العامرية؛ حيث أهديت دواب الركوب والحمل إلى الحاجب المنصور*، كالهدية العظيمة التي بعث بها زيري بن عطية سنة 381هـ/ 991م عقب تنصيبه على فاس، احتوت من الدواب "مائتا فرس من عتاق الخيل وخمسون جملا مهرية سوابق" [5]، ويحدثنا صاحب "روض القرطاس" في رواية له أن عبد الملك المظفر (393/ 1003م) كتب غداة تنصيبه إلى المعز بن زيري بن عطية** "على مدينة فاس وسائر أعمال المغرب ومدنه وبواديه، وشرط له المعز أن يعطيه في كل سنة خيلا ودرقا ومالا معلوما يوصله إلى قرطبة" [6].

---

[1]- ابن حيان، المصدر السابق، ج5، صص267، 278.

[2]- ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة الفقهية، ص184/ ابن رشد، المقدمات والممهدات، ج2، ص332.

[3]- عبد السلام الجعماطي، المرجع السابق، ص156.

[4]- ابن حيان، المصدر السابق، ص150.

*- المنصور بن أبي عامر، من أهل الأدب والفضل، ومن أبناء البيت العامري أمراء الأندلس في دولة هشام المؤيد. الحميدي، جدوة المقتبس، ص66/ الضبي، المصدر السابق، ص78/ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، صص62-79.

[5]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص103.

**- المعز بن عطية، ابن زيري بن عطية استقل بملك ابيه، وبادر بصلح المظفر بن أبي عامر، ورجع إلى طاعته، توفي سنة 422هـ/ 1031م. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص362.

[6]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص108/ ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص362.

2- المجال العسكري

أ- الفروسية

كانت الفروسية والشجاعة من أهم الفضائل السامية والمبجلة لدى فئات واسعة من مجتمع بلاد المغرب، وعدها ابن هذيل "أم الخصال الشريفة، ومن فقدها لم تكتمل فيه خصاله" [1]، والشجاعة هي "أحد العناصر الأربعة للفضائل الإنسانية، وهي في المرتبة العليا منها، لما تدل عليه من كمال الذكورية، وما تقتضيه من الهيبة" [2]؛ فهذه الخاصية حرصت عليها القبائل ببلاد المغرب الأوسط لذا كان من عوائد قبيل سوق "بني زندوي"*، صغيرهم وكبيرهم لا يمشي من موضعه إلى آخر إلا وهو "شاكي السلاح بالسيف والرمح والدرقة اللمطية" [3]، وكان زيري بن مناد (366-343/ 948-955م) في صغره يجمع الصبيان من حوله "ويدعونه بالسلطان ويركبون العيدان يتشبهون بالعساكر ويأمرهم بالقتال بين يديه" [4].

ومن الواضح أن المجتمع البدوي كان على وعي دائم ومستمر بهذه الفضيلة وأهميتها في ظل الحرب المستمرة بين القبائل، والتي لم تستغن فيها عن الدواب- البغال والخيول-، لذا نجد أكثر زناتة "فرسان يركبون الخيل ولهم عادية لا تؤمن" [5]، وهي الصفة التي يؤكدها ابن عذاري (ق7هـ/ 13م) بقوله "أكثرهم فرسان يركبون الخيل" [6]، وكان هذا حال القبائل المنتشرة حول تاهرت؛ إذ "اكتسبت الأموال واتخذت واتخذت العبيد والخيول" [7]، وكتامة كانوا "غارمة يمتطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الإبل والبقر" [8]، وارتباطا بهذا الوعي ميز ابن خلدون في تقسيمه

---

[1]- ابن هذيل، تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، تحت رقم 904 د، ورقة 62.

[2]- المصدر نفسه، ورقة 65.

*- سوق بني زندي، حصن في بسيط بين مدينتي قسنطينة وبجاية. الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص268.

[3]- الإدريسي، المصدر السابق، ص268.

[4]- النويري، المصدر السابق، ص303.

[5]- الإدريسي، المصدر السابق، ص257

[6]- البيان المغرب، ج1، ص200.

[7]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص63

[8]- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص2434.

الاجتماعي للقبائل بين مجتمع المدينة أهل الحضر الذين "تنزلوا منزلة النساء والولدان" [1]، وافتقدوا ميزة أهل البادية الذين صار "لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ" [2].

ولتأكيد أهمية الفروسية يكفي أن نذكّر بالأوصاف التي وردت من خلال بعض المصادر عن شجاعة الحكام وبأسهم؛ فقد وصف عبد الوهاب بن رستم (171-208هـ/ 787-823هـ) بالباسل الشجاع [3]، ومثل هذه الأوصاف كثير، وكلها تجمع على أن إتقان فن الحكم واستمرار الحاكم في منصبه مرتبط بمدى تشبعه بقيم الشجاعة والفروسية والعمل بها [4]، وما يثبت ذلك ما يعرضه ابن الصغير حول الإمام سابق الذكر لما أراد الخروج إلى إحدى القبائل المتمردة، حيث "عد في عسكره ألف فرس أبلق، ...وخرج عبد الوهاب بعساكره من المدينة في جموع لا يعلمها إلاّ الله" [5]، ومن صور الفروسية رواية الوسياني التي ذكر من خلالها قول المعز المعز بن باديس (ت454هـ/ 1062م) لحفيد أبي باديس اليكشني "أنتم زناتة تذكر عنكم الفروسية" [6]، وعن شجاعة هذا الحفيد يخبرنا المؤلف نفسه ما حكاه الفتى لجده قائلا: "فأمر- المعز- بأن أدخل خان السباع، وأُطلق عليّ السبع الضاري العادي، وطلعوا هم على العلالي،... وجلت مع السبع في الدار مليا حتى ارتاضه المهر ومرن عليه،... وظهر إليهم حذقي وفراهتي" [7].

وأُثر عن حماد بن بلكين أنه كان "فحل قومه، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا" [8]، خرج في أحدى حروبه أخر سنة (405هـ/ 1015م) على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف فارس [9]،

[1]- المقدمة، ص138.

[2]- المصدر نفسه، ص138.

[3]- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص274.

[4]- حميد تيتاو، المرجع السابق، صص427، 428.

[5]- أخبار الأئمة الرستميين، ص54.

[6]- سير الوسياني، ج2، ص590.

[7]- المصدر نفسه، ص591.

[8]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص328.

[9]- المصدر نفسه، ص329.

لينهزم بعدها وبقي معه خمسمائة فارس [1]، وكان باديس بن المنصور* "شديد البأس، عظيم السطو" [2].

خلاصة القول، أنّ الفروسية من العادات التي راعى مجتمع المغرب الأوسط استمراريتها بين أفراده، وذلك بتربية الأبناء عليها منذ النشأة وتحبيبها لهم، خاصة وأن البيئة وطبيعة المجتمع تفرض إتقان فن الفروسية.

ب- المجال الحربي

رفع الإسلام منذ البداية من شأن الخيل باعتبارها وسيلة حربية قوية، بدليل أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أوصيا بإعداد الخيل لمواجهة العدو كما يتبين من قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم وَأَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُم لاَ تُظْلَمُون**﴾ [3]، وفي الصحاح عن الرسول ﷺأنه قال: ﴿الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [4]، وبناء على ما ورد في الكتاب والسنة أجمعت المذاهب الفقهية على تخصيص سهمين للفارس وسهم للراجل في الغنائم [5]، أي أن الفرس يتساوى مع صاحبه في المعارك، حتى البغال كان لها من الأهمية ما لا يمكن تجاهله، لا سيما ببلاد المغرب؛ إذ يقول عنها صاحب كتاب في الفروسية إن "خيار ما يحتاج إليه من البغال للسرايا والمراكب والركض مع الخيل، بغال الجزيرة وإفريقية" [6].

[1]- نهاية الأرب- الجزء الخاص بتاريخ المغرب الإسلامي-، ص332.

*- باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس، يكنى معد ت498هـ/ 1105م. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص334.

[2]- ابن الخطيب، نفسه، ص 334

[3]- سورة الأنفال، الآية 60.

[4]-ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، حديث رقم 2850، ج6، ص67.

[5]- الداودي، المصدر السابق، ص31.

[6]- مجهول، كتاب في الفروسية والمعرفة بالدواب وأحوالها، مخطوط الخزانة الحسينية، الرباط تحت رقم 6101.

وفي كل الأحوال استخدمت الدواب في الحروب والتوسعات بمناطق المغرب الأوسط، كما لم تقل مساعدتها للإنسان عما وفرته الأسلحة المختلفة، وقد أسندت لها أدوارا مختلفة، فكانت تستعمل للركوب والمناورة، أو للحمل والجر، كالخيول التي برزت سنة 312هـ/ 925م بقيادة مصالة بن حبوس* لما خرج من تاهرت إلى زناتة، "فأذاخ بلدهم وقتل وسبى، وأخرج خيلا إلى بعض نواحي ابن خزر" [1]، وكذا سنة 347هـ/ 958م بلغ الخليفة المنصور الفاطمي أن قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا في بيعة بني أمية في الأندلس، فعظم عليه الأمر وبعث بقائده جوهر الرومي "في جيش عظيم يزيد على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم، وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذللها ويستنزل من بها من الثوار ويشد وطأتهم عليهم" [2].

كما اعتمد حماد (ت419هـ/ 1028م) عم باديس (ت406هـ/ 1016م)على الفرسان، وهذا ما يخبرنا به ابن الخطيب بقوله: "وصلت- حماد- إلى إفريقية في ثلاثين ألف فارس، ليس منهم إلاّ من بالغت لهم في الإحسان والأنعام وعدت إلى القلعة وليس معي منهم إلاّ أقل من ستمائة" [3]، والحقيقة أن حماد بن بلكين خرج آخر سنة 405هـ/ 1015م من القلعة لملاقاة ابن أخيه باديس في ثلاثين ألف فارس، غير أنّ قسما كبيرا من الفرسان لم يعد معه، وبقي منهم أقل من ستمائة، وما من شك أن الدواب التي رافقت هذا العدد سيتقلص عددها لا محالة، بسبب عقرها وإبادتها أثناء الحرب، إذن نَقُصَ العدد بأكثر من النصف، ويفيدنا المؤلف نفسه أن القلعة كان يسكنها اثنا عشر ألف فارس من فرسان صنهاجة [4]، علما أن الفروسية من أحد اهتمامات سكان المغرب الأوسط.

---

*- مصالة بن حبوس بن منزل بن بهلول المكناسي، قائد عبيد الله الشيعي ولاه مدينة تاهرت سنة 299هـ/ 912م. ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص166.

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص189.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص89.

[3]- أعمال الأعلام، ص324.

[4]- ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص332.

ومن الشواهد الدالة على أهمية الدواب، ما قدمته لنا المصادر الإباضية، حيث يشير الشماخي [1] إلى امتلاك أبي نوح سعيد بن يخلف المزاتي لأربعين فرسا، وكان "يصطفي منها فرسا عتيقا، كان تبذل فيه الأثمان الجليلة، والأموال الجزيلة، فيضن به، ولا يسمح بخروجه عن ملكه، ويعدّه للشّدائد لما اختبر من صبره...، قال أبو العباس: لعله أكثر إقتناء من الخيل، لما يأمله من الخير في نصرة الدين ومرافعة المعتدين".

كما يشير ابن الخطيب إلى استخدام الدواب في الاستعراضات الملكية حين ذكر وفاة باديس بن المنصور المكنى أبا مناد (406هـ/ 1016م)، إذ رفع في تابوت "تقدمه البنود، وتحف به الجنود، وتهتز خلفه الطبول، وتتزاحم بسيقته الخيول على أكمل هيئة وأجمل تعبئة" [2].

والظاهر من النصوص المشار إليها أنّ الحاجة للدواب كانت متزايدة، ويكمن ذلك في تضخم مقدار الحمولات التي غدا الجيش يستصحبها في تنقلاته؛ إذ فرض بُعْدُ المسافة وكثرة الجيش توافر مختلف المستلزمات التي يتطلبها العسكر، من عدة وطعام وأعلاف، بالإضافة إلى الآلات المتخذة للمطبخ والوضوء، وأخبية الضيافة والنوم، حتى الرعاة برزوا كعنصر فعال في الحروب، إذ كانوا يسيرون وراء الجيوش ويقودون قطعان الماشية لتوفير اللحوم اللازمة للجند [3].

رابعا- مجال التغذية

ملك الله الأنعام والدواب وذللها وأباح تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه بنا، فأحل منها للضحايا" الغنم ثم البقر ثم الإبل وهو الصواب لأن المراعاة في الضحايا طيب اللحم ورطوبته... والدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ضحى بالغنم ولو كانت الإبل في الضحايا أفضل لضحى بها ومما يدل أيضا على أنها أفضل من الإبل في الضحايا أن الله

[1]- السير، ج2، صص556- 557.

[2]- أعمال الأعلام، ص323.

[3]- عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص172.

تبارك وتعالى إنما فدى ابن إبراهيم على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام من الذبح بكبش" [1].

ولا سبيل إلى الشك، في أن الإنتاج الحيواني له من الأهمية بمكان في غذاء الإنسان، إذ يشمل على البروتينات الحيوانية التي تحفظ الجسم وتساعد على نموه وتزيد من نشاطه خاصة اللحوم والألبان والبيض، لهذا تم تربية الأغنام من اجل لحومها أو من اجل أصوافها وشعرها، وهي أسهل في تربيتها من الأبقار لأنه يكفيها القليل من الغذاء في الأقاليم الفقيرة في عشبها، أي المناطق الجافة أو الشبه جافة، كما أنها تستطيع الرعي والحركة بسهولة على المنحدرات وفي التضاريس الوعرة بخلاف الأبقار.

تدخل هذه الأنواع المختلفة من المواشي في توفير المستلزمات الغذائية، لكن تبقى أنواع المأكولات المحضرة منها لدى سكان المغرب الأوسط كغيرهم من سكان المغرب الإسلامي، تخضع إلى المستوى الاجتماعي والمادي لكل أسرة؛ فإذا كان أكل وشرب الطبقة العامة من الناس يتميز بالبساطة، فإن الطبقة الخاصة كانت تتأنق في الأكل والمشرب، وتتفنن في ضروبه وأصنافه، كما أن غذاء سكان الأمصار الكبرى ليس كغذاء سكان القرى والبوادي، وهو ما يقره صاحب "المقدمة" عندما يذكر أن أهل الحضر والأمصار في المغرب عموما كانوا لا يأكلون الغذاء إلا بعد علاجه بالطبخ والتلطيف بمختلف المواد التي تصلح لذلك، وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج، أما أهل البوادي قد ألفوا تناول الغذاء على سجيته [2].

1- اللحوم

تأتي اللحوم والأغذية الحيوانية كالإدام والألبان من حيث الأهمية في الدرجة الثانية بعد الحبوب، كون المغرب الأوسط اشتهر بوفرة ثرواته الحيوانية، وكون هذا المجال الجغرافي يندرج في مصاف المجتمعات الرعوية، لذا شهدت-المواشي- استهلاكا واسعا لرخص أسعارها، وهو ما يشير إليه صاحب الاستبصار بقوله: "طيبة المراعي ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد

[1]- ابن رشد، المقدمات والممهدات، ج2، ص332.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص98.

الأندلس لرخصها وطيب لحومها" [1]؛ فكانت المسيلة "كثيرة اللحم، رخيصة السعر" [2]، ومدينة الغدير "رخيصة الطعام واللحم" [3].

وما من شك أن الأفراد وجدوا تقنيات أو طرقا مناسبة لحفظ اللحوم، والتي ارتكزت أساسا على عملية تجفيف اللحم وتيبيسه بعد تمليحه وهو المعروف بالقديد [4]، ويفيدنا صاحب "المناقب المرزوقية" أن الكثير من أهالي تلمسان كانوا يعدون اللحم المدخر، المعروف بالمسلي، وبالخليع، وكان هذا النوع من المدخرات يحفظ لفصل الشتاء حسب المؤلف نفسه [5]، بالإضافة إلى مسليات الشحوم، وكانت تخزن لمدة طويلة دون أن يغير طعمها [6]، أما طعام القبائل الصحراوية خاصة المرابطين فقد اعتمد على "صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم أو السمن وشرابهم اللبن" [7]، وهذا ما لا نستبعده عن باقي مناطق بلاد المغرب الأوسط المتوغلة في الصحراء، خاصة خلال حكم المرابطين لها.

وهناك أطباق عديدة مشهورة بالمغرب الأوسط، ارتكز تحضيرها على أنواع مختلفة من اللحوم، لكن مصادر الفترة لا تمدنا عنها إلاّ بمعلومات شحيحة ومبتورة في كثير من الأحيان، عكس المؤلفات الخاصة مثلا بالقرن (8هـ/ 14م)؛ فابن مرزوق يشير إلى طبق معروف بالمنطقة لحد الآن، ولا يمكنه الاستغناء عن اللحم، إنه "البركوكش"، المعروف عند المشارقة بالمفتلة [8]، ولدى الأندلسيين بالزبزين [9]، كما شكلت "الفداوش" المسماة ببجاية وأحوازها بجميص [10]،

---

[1]- مجهول، المصدر السابق، ص179.

[2]- البكري، المسالك والممالك، ج2، ص239.

[3]- المصدر نفسه، ص240.

[4]- يفيدنا ابن رزين التجيبي صاحب كتاب "فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان" بكيفية تحضير القديد، ص273.

[5]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص190.

[6]- ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص205.

[7]- البكري، المصدر السابق، ج2، 357.

[8]- المناقب المرزوقية، ص159.

[9]- ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، ص60.

[10]- مجهول، أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة- الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين-، تحقيق عبد الغني أبو العزم، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، دون طبعة، دون تاريخ، ص161.

والمعروفة عند أهل إفريقية بالدوداذ، أهم ما يحمل من طعام للسفر [1]، ويحضر إما من لحم الغنمي أو الدجاج إلى جانب الخضار [2]، وكان هذا الطبق يحضر أيام عاشوراء خاصة [3]، كما كما تشير كتب الطبيخ المعتمدة في موضوعنا إلى عدة كيفيات من أجل تحضير أنواع مختلفة من الثرائد، منها ما ورد لدى صاحب كتاب "أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة" [4]، الذي يصف مؤلفه كيفية تحضير أهل بجاية للثريد المعروف عندهم باسم "شاشية ابن الوضيع".

أما اللحم المدخر لأجل الأسفار أو الحصار أو ما شاكل ذلك فيجب أن يشّرح وينقّى من العروق والعظام ويجعل عليه ملح قليل ثم يجفف، وكذلك الشحم يجفف في الظل بعد أن ينقى من العروق والغدد حتى لا يبقى فيه نداوة ويرفع من غير أن يملح [5].

والمشهور عن القبائل الرحل أنها واسعة الاستهلاك للحوم، لأن أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن، خاصة وأنها تجوب الصحاري أين لا يوجد الزرع، وتتلخص طريقة تحضيرهم للحوم في "تشريح اللحم وتجفيفه وبعد طحنه وطبخه يصبون عليه الشحم المذاب أو السمن ثم يأكلونه" [6]، لكن لا يجب أن يكون هناك إفراط في أكل هذه المادة البروتينية، كما يجب يجب أن يختار منها "ما لا يفرط على مزاجه الحرارة ولا البرودة ولا الرطوبة ولا اليبوسة مثل لحم الضأن من لحوم ذوات الأربع فإنه على هذه الصفة ولذلك صار المختار عند الأكثر من الناس... وينبغي أن يقصد من الضأن الفتيّ السن كالحملان والحوليات دون المسن الهرم... والفتي في كل حيوان أطيب وأرخص لحما لمكان فضل الرطوبة فيه فإن لحم المسن يكون غير

[1]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص197.

[2]- مجهول، أنواع الصيدلة، ص162/ ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، ص90.

[3]- روبير برونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، بيروت، دون طبعة، 1988م، ج2، ص284.

[4]- مجهول، المصدر السابق، صص 160- 161.

[5]- الدمشقي، المصدر السابق، ص46/ سعود رشيد العاني، هيلان حمادي التكريتي، أساليب الإنتاج الصناعي والزراعي في الحضارة العربية والإسلامية- صناعة الأغذية والألبان-، ضمن أعمال المؤتمر الثالث حول أساليب الإنتاج الصناعي والزراعي في الحضارة العربية الإسلامية، الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم، عمان، الأردن، دون تاريخ، ص69.

[6]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص58.

طيب الطعم ولا كثير الغذاء" [1]، وأمام هذه الخواص يبقى أفضل اللحوم لحم الغنم ثم البقر ثم الإبل وهذا لمراعاة طيب اللحم ورطوبته [2].

أما عن استهلاك الأجزاء الحيوانية فتفيدنا إحدى النصوص النوازلية أن أكل المواشي لم يقتصر على لحومها فقط، بل حتى الرؤوس كانت تؤكل، خاصة رؤوس الضأن؛ فبعد ذبحها كانت تحرق لتزال عنها صوفها قبل غسل الدم من المذبح، وبعد عملية الحرق يهشم الرأس ويقطع ثم يغسل [3]، ومن حيث التفاضل يرى ابن زهر أن رؤوس المعز خير من رؤوس الضأن، ومع ذلك فلا خير فيها، لأنها تصلح لأهل الجهد والتعب الكثير [4]، وربما هذا لكثرة شحومها المسببة للتخمة وبعض الأمراض الهضمية.

كما تكشف لنا إحدى النصوص المتأخرة عن أكل لحم الخيول، ومن ذلك وصف الحسن الوزان لحالة السلطان العبد الوادي (عثمان بن يغمراسن الزناتي) أثناء الحصار المريني لتلمسان (698هـ/ 1299م)؛ حيث وصل به ضيق الحال لدرجة اقتصاره على غذاء يشمل مزيجا من لحم حصان وحبوب شعير كاملة، وورق ليمون وأشجار أخرى ليزداد حجمه [5]، ولا مناص للشك في ذلك، حيث يؤكد ابن الأحمر الحالة المزرية التي حلت بسكان تلمسان قائلا: "... حتى أكلوا الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفئران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك، حتى أكل بعضهم بعضا... " [6]، فهنا اضطرارية أكل المحظور في غياب المشروع منه، خاصة خلال فترات الجفاف الطويلة المتبوعة بمجاعة أو حالات الحصار المفروض على مدينة ما، وأكل لحم الخيول لا نستبعده عن الفترات القريبة من بحثنا، أين اضطر الأفراد إلى أكل بعضهم بعضا،

[1]- ابن سهل البلخي، المصدر السابق، صص73- 74.

[2]- ابن رشد، المقدمات والممهدات، ج2، ص332/ ابن زهر، كتاب الأغذية، ص21 وما بعدها.

[3]- المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة،- من مسائل الطهارة إلى مسألة النزاع بين طلبة غرناطة-، تحقيق بركات إسماعيل، شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية 2009- 2010م، ص281، غير منشورة.

[4]- كتاب التغذية، ص131.

[5]- وصف إفريقيا، ج2، ص18.

[6]- ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، دون طبعة، 2003م، ص61.

مثلما حدث سنة (285هـ/ 898م) ببلاد الأندلس وبلاد العدوة [1]، ويبقى لحم الخيول ذو قيمة غذائية حسب ما يفيدنا به ابن الأزرق قائلا: "إن لحمه- الفرس- ينفع القولنج، وينفع الأبدان كثيرا" [2].

2- اللبن والسمن

تعد الألبان ومشتقاتها من أهم الصناعات الغذائية لقول الله تعالى:﴿**وَإِنَّ لَكُم فِـي الأَنْعَـامِ لَعِبْرَةً، نُسْقِيكُم ممَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ [3].
فالألبان يعمها "لطف التركيب وسرعة الاستحالة، فللطف تركيبها صارت غذاء للأطفال والصغار من الحيوان في الوقت الذي تضعف فيه القوة الهاضمة...، ولاستحالته صار يهيأ منه أصناف كثيرة من الأغذية مختلفة الطبّايع مثل الزبد والسمن والمصل وغيرها" [4]، ويكشف لنا ابن زهر أجود أنواعها بقوله: "أفضل الألبان لبن المعز حين يحلب إذا شرب على الصوم وهو دفئ... أما لبن الضأن فكثير اللذة جدا وهو كثير المضار وافر الترطيب غليظ الجوهر مذموم... أما لبن البقر فهو أقل رداءة من لبن الغنم... أما لبن النوق فإنه يقوي المعدة والكبد وهو بعيد عن التجبين، والألبان عموما تطلق البطن" [5].

وعن الخاصية العلاجية للبن الناقة يخبر الوسياني [6] أنّ أبا محمد عبد الله الخير* مرض ذات ذات

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، 97.
[2]- ابن الأزرق إبراهيم، تسهيل المنافع في الطب والحكمة، مطبعة منير، القاهرة، دون طبعة، 1977م، ص16.
[3]- سورة النحل، الآية 66.
[4]- ابن سهل البلخي، مصالح الأبدان والأنفس، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، يصدرها فؤاد سزكين، 1984م، ص80.
[5]- كتاب الأغذية، ص30.
[6]- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص255.
*- أبو محمد عبد الله الخير، فقيه وعالم إباضي من تيونزيف (جبل نفوسة)، تولى حكم الجبل إثر معركة مانوا، بين سنتي 285-290هـ/ 898- 902م، توفي بعد سنة 310هـ/ 922م. الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص1011.
**- أفلح بن العباس، عامل الإمام أبي حاتم يوسف بن محمد (282-294هـ) على جبل نفوسة، قبل معركة مانوا وبعدها=

مـرة بالسـعال، فـذكر لـه أن لـبن الناقـة التريـق بـه علـى الريـق دواء لـه وشـفاء، فكـان كـل غداة يأتي أفلـح بـن العبـاس** وكانـت عنـده ناقـة، فـإذا جـاء الشـيخ حلبهـا أفلـح، فشـرب لبنها.

كمـا صـنعت الأجبـان مـن ألبـان الأبقـار والضـأن والمعـز، وقـد يشـتري الرجـل جبنـا يابسـا فيجـده فاسـدا عنـد شـقه، وفي هـذه الحالـة لـه رده لأنـه مما عملتـه الأيـدي [1]، خاصـة وأن الجبن اليابس يطلى بعكـر الزيـت لـيحفظ مـن التلـف [2]، وهنـا قـد يقـع التـدليس، وربمـا اشـترك بعـض الفلاحـين في اللـبن لاسـتخلاص جبنـه، ويـدّعون في ذلـك ضـرورة في استبداد كل واحد مـنهم بلبنـه لمـا يحتـاج إليـه مـن المؤونـة والمشـقة، فيجتمـع جماعـة أصـحاب غـنم ويسـتأجرون راعيـا أو أكثـر ويخلطـون اللـبن، ثـم يقتسـمون ذلـك أو يأكلونـه جميعـا ولا مشاحة بينهم [3].

وبما أن اللبن والسمن من المواد الأكثر استهلاكا بالنسبة للأفراد، نجد أن تحصيلها كـان مـن الضروريات بالمغرب الأوسط، منها بمدينة مرسى الدجاج وهذا لوفرة مواشـيهم [4]، كمـا يحـدثنا الحميري (ق8هـ/ 14م) عن وفرة الألبـان والسـمن بمازونـة [5]، ومـن المعلـوم أن السـمن ثلاثـة أنواع: بقري وهو أطيبه ولونه أصفر، "وإذا شرب مع العسل نفع من شرب السّـم القاتـل ومـن لسع الحيات" [6]، أما الغنمي فلونه أبيض [7]، وكان أكثـر أكـل أبـي العبـاس أحمـد ابـن مـرزوق*

=(283هـ/ 806م). الشماخي، المصدر السابق، ج3، ص892.

[1]- الشعبي، المصدر السابق، ص289.

[2]- سعود رشيد العاني، هيلان حمادي التكريتي، المرجع السابق، ص69.

[3]- الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص215.

[4]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص77.

[5]- الروض المعطار، ص521.

[6]- الطغنري، المصدر السابق، ص151.

[7]- ابن الحاج، المدخل، م2، ص307.

*- أبو العباس أحمد ابن مرزوق (681-741هـ/ 1282-1340م)، والد ابن مرزوق الخطيب. المناقب المرزوقية، ص188.

"ثريدا من الخبز، بإدام خفيف من السمن، أو شحما، ويتأدم باللحم أحيانا" [1]، وكان والـد ابـن مرزوق الخطيب يؤثر أكل الثريد من الخبز المختمر [2].

أما تحضير السمن فيفيدنا عنه صاحب كتاب "زهرة البستان" قائلا: "يؤخذ الزبد ويطـبخ، ويصفى في الأواني التي يراد رفعها فيها، ويستوثق من أفواهها فإذا كان الزبد طريا، أتـى السـمن حسن القوام، جيد الطعم" [3]، لم تقف أهمية المشتقات الحيوانية عنـد هـذا البـاب، إنمـا اعتمـدها سكان البادية أحيانا أجرة لمعلمي أبنائهم، حيث سئل أبو الفضل العقباني "عما يأخذه المعلم من الزبدة في البادية في فصل الربيع يجعلون له مخضة زبدة عن كل من بيوت المخضة ... " [4].

رابعا- استخدامات أخرى

أول ما نشير إليه هنا "الأضحية"، التي يتقدم بها المسلم إلى الله سبحانه وتعـالى، شـكرا لـه وإحياء لسنة إبراهيم، ومواساة للفقير، الذي كان له حق في أضحية المياسير، حتى الضيف يصـنع له طعام من هذه الأضحية ويأكله [5]، وأفضل الضـحايا فحـول الضـأن، وخصـيانها أفضـل مـن إناثها، وإناثها أفضل من ذكور المعز ومن إناثها، وفحول المعـز أفضـل مـن إناثهـا، وإنـاث المعـز أفضل من الإبل والبقر في الضحايا [6].

ومن الأمور المعهودة والمتفق عليها بين أفراد مجتمع المغرب الأوسط هو ذبح شـاة في اليـوم السابع (العقيقة) من وضع المولود شكرا لله على نعمة الولـد، ووسـيلة لله عـز وجـل في حفـظ المولود ورعايته [7]، والظاهر أن مالكا كره الدعوة إلى العقيقـة، حيـث يفيـدنا المـازوني في المسـالة قائلا: "سئل سيدي علي بن محسود* عن طعام العقيقة الذي كره مالك الدعوة إليه، هل يحل لمن دعي إليه أكله إذا أجاب أم لا؟. فأجاب: أما ما ذكـرت مـن كراهـة مالـك لـذلك، فإنمـا كرهـه

[1]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص222.
[2]- المصدر نفسه، ص236.
[3]- الطغنري، المصدر السابق، ص150.
[4]- المازوني، المصدر السابق، ج3، ص382.
[5]- المصدر نفسه، ج1، صص366- 367.
[6]- ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة الفقهية، ص184/ ابن رشد، المقدمات والممهدات، ج2، ص332.
[7]- حسام خلف الصفيحي، المرجع السابق، ص105.
*- لم نعثر له على ترجمة.

للصانع لا للمصنوع إليه، وأكله حلال، وإنما كره لصانعه من أجل السمعة والفخر. وأما ما كان منه قبل السابق أو بعده فلا كراهة فيه" [1]، لكن الوليمة، وهي طعام العرس يدعى إليها الناس [2].

ويبقى الذبح للضيوف من صفات الكرم بالمغرب الأوسط، حيث كان أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي (4هـ/ 10م) يكرم ضيوفه، بذبح الشياه، وهذا ما يعبر عنه الشماخي بقوله: "فإذا نظرت لكل خيمة، رأيت كثرة جلود الشياه منشورة، وعليها لفائف القطن، من كثرة ما يذبح للأضياف" [3]، ومثل ذلك فعل قوم كتامة لما نزل أبو أبو عبد الله الشيعي (ت 298هـ/ 911م) بينهم [4]، والملاحظ من خلال أحد المصادر المصادر الجغرافية أن الكرم وبذل الطعام لمن قصدهم من بين الصفات التي خصت بها قبيلة كتامة [5]، وما من شك في أن الكرم من ميزات سكان البادية على وجه الخصوص [6]، كما حظيت المرأة الزائرة بشاة مذبوحة، وربما كان القصد بها الذبح مدارات على عرضه، وتارة خوف عقوبة زوج الزائرة [7].

ومن الأمور التي تشير إلى حضور الحيوان وأهميته بالنسبة لمجتمع المغرب الأوسط هي ظاهرة "التويزة"، إذ كان الأفراد يقومون بشراء بهيمة للذبح ويوزعون لحمها على أسهم بينهم [8]، وهذا التصرف يعود إلى محدودية الدخل لدى بعض الأفراد، وهو نوع

---

[1]- المازوني، المصدر السابق، ج1، ص381.

[2]- حسام خلف الصفيحي، المرجع السابق، ص111.

[3]- السير، ج2، ص557.

[4]- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص35.

[5]- الإدريسي، المصدر السابق، ص269.

[6]- المازوني، الجزء الرابع من ديوان الدرر المكنونة في نوازل مازونة، دراسة وتحقيق نور الدين غرداوي ، شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائرII، السنة الجامعية 2010- 2011م، ج2، ص276، غير منشورة.

[7]- المازوني، المصدر نفسه، تحقيق نور الدين غرداوي، ص 376.

[8]- المصدر نفسه، تحقيق حساني مختار،ج3 ، ص101.

نوع من التعاون الاجتماعي بين الأفراد، ولا تزال هذه العادة مستمرة في مناطق عديدة من مدن الجزائر الحالية كمنطقة القبائل.

كما استغلت القوى الحيوانية في طحن الغلال [1]، خاصة في المناطق البعيدة عن الأنهار، إذ لا يتصور خُلو مدينة أو قرية من مطاحن تعتمد على قوة دفع مائية أو حيوانية، لارتباطها بغذاء الإنسان، وبالتالي لا نستبعد تواجد المطاحن المصنوعة من الخشب أو الحجارة بالمنطقة، والتي اعتمدت في نفس الوقت على الحيوانات كالحمير، والبغال، والأحصنة [2]، واستخرج الزيت من من الزيتون بواسطة معصرة ذات لوالب، بعد سحق حبّات الزيتون في طاحونة تحركها الحيوانات [3]، واستخدمت هذه المادة في مجالات حياة الإنسان المختلفة مثل: الأطعمة، وإضاءة البيوت، والمساجد، والحمامات، وسائر المرافق.

ومما لاشك فيه هو اعتماد الإنسان منذ فجر التاريخ البشري على الحيوانات في حل مشاكل تنقله على اليابسة، وحمل أثقاله التي يعجز عن نقلها بمفرده؛ فاقتضت الضرورة تدجين دواب الحمل والنقلان والعناية بها، كالخيول والبغال والحمير التي ساهمت في حمل السلع من وإلى بلاد المغرب الأوسط، لكن تبقى الإبل أو الراحلة أكثر استعمالا، خاصة في المناطق الصحراوية والجافة، لأنها تكتفي في الصيف بالشرب مرة كل أسبوعين، وأطول من ذلك في الشتاء، ولها القدرة على تخزين الماء مدة ثلاثين يوما أو أكثر [4]، ويشير العبدري إلى نقل الإبل للبضائع خارج باب تلمسان وهي عادة كريمة قائلا: " قافلة تخرج وهي كبيرة تزيد على الألف" [5]، قد يكون هناك نوع من المبالغة من طرف المؤلف في تقدير عدد أفراد القافلة وإبلها،

[1]- ابن الرامي البناء، المصدر السابق، ص63، ص240.

[2]- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص234.

[3]- الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج2، ص241.

[4]- خالد زنيد، الإبل وأهميتها الحضارية في شبه الجزيرة العربية خلال القرن الأول الهجري/ السابع ميلادي، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، العدد 18، ديسمبر2002م، ص181.

[5]- العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق أ.أحمد بن جدّو، مطبعة البعث، قسنطينة، دون طبعة، دون تاريخ، ص132/ عن أهمية الدواب في الحمل والسفر ينظر ابن أبي فراس القروي، المصدر السابق، صص 48- 49.

وإبلها، لكن النص يدل على أهمية الدواب في نقل البضائع، وكذا أهميتها كوسيلة للنقل من مكان لآخر بالنسبة للمغرب الأوسط.

فضلا عن استعمال القبائل البدوية لها للإنتاج والترحال والغذاء من لحمها ولبنها [1]، كما استعمل الحمار لحمل الأثقال منذ فجر التاريخ [2]، وبقي أفضل وسيلة للتنقل بالنسبة للجبال، وتحمل الأعمال الشاقة في البوادي والجبال جعلت منه حيوانا نافعا للإنسان في الحمل والجر [3]، ولا يزال لحد الآن يستعمل ببعض المناطق الجبلية والوعرة.

غير أن أفضل دابة للركوب كانت البغل، لأنه "تواضع عن خيلاء الخيل، وارتفع عن ذلة العير، فهو وسط، وخير الأمور أوساطها" [4]، خاصة أثناء الحرب؛ فسادت عادة ركوبه من قبل قائد الجيش إذا رغب "أن يعلم أصحابه أنه لا يفر حتى يفتح الله عليه أو يقتل" [5]، وانتفع بهذا بهذا النوع من الدواب في البريد أيضا [6]، أما الفرس فاستعماله في المجال الحربي كان أوسع [7]، أوسع [7]، وهذه الأهمية جعلت أحد الباحثين يصنف هذه الأنواع الحيوانية قائلا: "الخيل للرغبة للرغبة والرهبة، والبراذين للدعة، والبغال للسفر البعيد والأثقال، والإبل للتحمل، والحمير للزينة وخفة المؤونة" [8].

لكن تستوقفنا المصادر الفقهية، بما تناوله من مسائل حول نزاع الأشخاص فيما يخص الدواب المستأجرة للسفر أو الحمل، والهدف هو فض النزاع، ومن ذلك جواب مالك فيمن "استعار دابة إلى مكان مسمى فيتعدى ذلك المكان فتلفت الدابة فإن صاحبها مخير بين أن تكون

---

[1]- محمد حسن، المدينة والبادية، ج2، ص457.

[2]-عادل أبو نصر، المرجع السابق، ص104.

[3]- عبد السلام الجعماطي، المرجع السابق، ص161.

[4]- ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ج2، 71.

[5]- الجاحظ، رسائل الجاحظ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، ج2، ص377.

[6]- الجاحظ، البغال، تحقيق علي بو ملحم، دار ومكتلة الهلال، بيروت، ط3، 2008م، ص56.

[7]- C. Vanacker, Op.cit., p674.

[8]- عبد السلام الجعماطي، المرجع السابق، ص149.

له القيمة يوم تعدى عليها وبين أن يكون له كراؤها في ذلك التعـدي" [1]، أمـا مـن اسـتعار دابـة ليحمل عليها الحنطة فحمل عليها حجارة فعطبت الدابة فهو ضامن، ولـو حمـل عليهـا مـا يشـبه الذي استعارها له أي أن يحمل عليها عدسا بدلا من الحنطة، أو قطنـا عوضـا مـن البـز، لم يكـن عليه ضمان [2]، لهذا يجب مراعاة الكثير من الأمور منها عدم إرهاق الفرس وهي حامل، أو يصعد بها عقبة جبل فيتعبها [3].

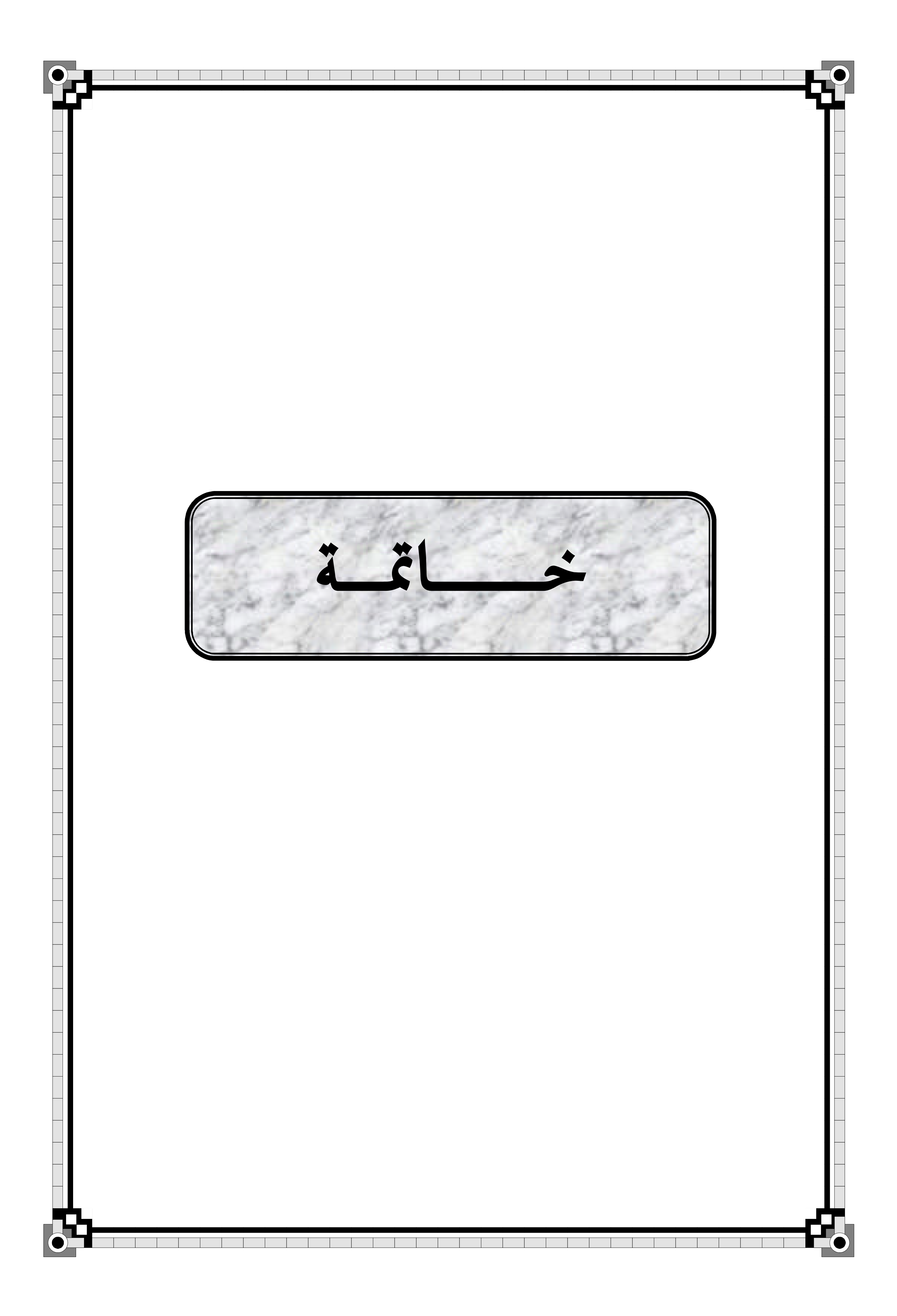
كمل سئل أبو صالح عن رجل اكترى دواب بغرائـر لنقـل الطعـام، فلمـا جـاء في بعـض الطريق ضلت دابة بحملها في السحر، فوكل بسائر الـدواب، وخـرج يطلـب الدابـة الـتي ضـلت بحملها فهل يضمن الحمال؟ فأمّا الدواب المكتراة فلا ضمان عليه فيها إذا كان مع قوم شهدوا له أنها ضلت منه، وإن كان وحده حلف. أما الدابة التي ضاعت فإن تركهـا عنـد ثقـة فـلا ضـمان عليه، وإن تركها عند غير ثقة فهو ضامن، وعلى مكتري الدواب لحمل الزرع ألا يتعـدى المكـان الذي اتفق عليه مع صاحبها، وإذا تعدى غرم ما تعداه [4].

وسئل أيضا عن مكتري دابة يزيد في الحمولة، فعطبـت الدابـة نظـرا إلى الزيـادة الـتي هـل تعطب في مثلها؟ فكان الجواب إن كان يعطب من مثلـها ضـمن قيمـة الدابـة، يـوم حمـل عليهـا الزيادة [5]، ونفس المسألة يشير إليها الونشريسي، قائلا: "سئل ابـن أبـي زيـد (386هـ/ 996م) المتعدي يجوز بالدابة نحو الميل أنه يضمنها بخلاف إذا زاد عليهـا مـا لا تعطـب بمثلـه. فأجـاب إن كان متعديا إلى شبهة فليس كالمتعدي إلى غير شبهة فالزائد على حمل الدابة جاز على ظهر الدابـة والمتعدي فعله لا شبهة له فيه" [6].

نافلة القول، ساهمت المواشي والـدواب في إنعـاش الكـثير مـن المجـالات الحيويـة داخـل المجتمع بتوفيرها للمادة الأولية التي يحتاج إليها الأفراد، كما أنها شكلت الرفيـق الـدائم للأهـالي

[1]- ابن أبي زمنين، منتخب الأحكام، ج2، ص306.
[2]- المصدر نفسه، ص306.
[3]- ابن مريم، المصدر السابق، ص179.
[4]- الشعبي، المصدر السابق، صص306- 307.
[5]- المصدر نفسه، ص309.
[6]- المعيار، ج8، ص279.

في أراضيهم وأسفارهم، ومن خلال ما تم عرضه من عناصر يتضح أن تربية الحيوانات ورعايتها عاد بالفائدة العامة على كل الفئات؛ فمن لم يمارس حرفة الرعي بنفسه نجده قد استفاد منها بطريقة غير مباشرة، من خلال المادة الأولية التي قدمها أصحاب الماشية، وكانت عاملا هاما في ظهور حرف عدة منها الضروري ومنها الكمالي، كالصناعات المعدنية (الحافر، المسامير...)، حرفة الجزارة، صناعة الرحى، النخاسة.



خـــــاتمــة

أسفرت الدراسة عن إبراز أهمية النشاط الرعوي بالنسبة لمجتمع المغرب الأوسط، وأثبتت أن الرعي لم يكن حرفة تربط الراعي بالقطيع فقط، وإنما تعدى الأمر ذلك؛ بحيث شكلت الحرفة أحد الدعائم الاقتصادية الهامة، التي لا يمكن تجاهل أهميتها خاصة وأنها مصدر المادة الأولية بالنسبة لمختلف الأنشطة الفعالة داخل المجتمع.

وبالمثل كشفت الدراسة عن أهمية الحرفة في تحديد النمط الرعوي للفئات البدوية داخل المجتمع، بين المستقرين والرحل، مع وجود تفاوت بين النمطين في المستوى المعيشي؛ حيث نجد من المستقرين من سكن القرى ومارس الزراعة، لكن معيشته وسكنه وأحواله الاجتماعية بسيطة، ونجد إلى جانبهم من جمع بين الزراعة وتربية الماشية، أما الرحل المعتمدين على تربية الغنم فكانت لهم رحلتان منتظمتان حسب فصول السنة، ونضيف إليهم الرحل الذين يجوبون القفار الواسعة ويعيشون أساسا من تربية الإبل.

أما فيما يخص تفسير أسباب لجوء هذه القبائل إلى الرعي المتنقل أمر في غاية الصعوبة، إلاّ أنني توصلت إلى مجموعة فرضيات محتملة، قد يعود السبب إلى طبيعة الحيوانات التي تتلاءم مع بعض المناطق، مما حتم على أصحابها التنقل إلى مناطق أخرى أكثر ملاءمة لها، أو الهروب من الخضوع للسلطة الحاكمة، الذي تبعه ذل الاستقرار، أو يعود السبب إلى ندرة الأمطار وقلة الغطاء النباتي كعامل رئيسي لازدياد النشاط الرعوي.

أما القبائل التي استقرت فيعود ذلك لممارستها للزراعة وتربية الماشية، بينما استمرت بعض البطون والعشائر على نفس نمط معيشتها القديم المتمركز على الرعي والنجعة، لتعود إلى مواطنها في فصل الشتاء عندما تكثر الأمطار والثلوج التي تؤثر سلبا في الحيوان، وهو الوضع السائد في الغالب بالنسبة لزناتة.

وقـد أبانـت الدراسـة أن نظـام الرعـي وممارسـيه علـى وجـه العمـوم كـانوا تحـت وطـأة الطبيعـة، ونـدرة المـوارد، وعـدم تكـافؤ توزيعهـا في المجـال، وإكراهـات المنـاخ، ودوريـة الجوائح الطبيعية، وكلها عوامـل تفاعلـت لتجـبر الرعـاة علـى التنقـل مـن أجـل تـوفير الكـلأ ومصادر المياه لمواشيهم ودوابهم.

إلى جانـب هـذه العوامـل لا يمكـن أن نتجاهـل الاضـطرابات السياسـية وغيـاب الوضـع الأمـني بسـبب كثـرة الحـروب الهادفـة لتحقيـق غايـة سياسـية أو أبعـاد اقتصـادية، الأمر الذي دفـع محرضـيها لتـدبير الاخـتلاف بـين القبائـل، واتضـح أن دوريـة هـذه الحـروب طيلة الفـترة الممتـدة مـا بـين القـرنين (4-5هـ/ 10-11م) أفضـى عـن بـروز تحـولات علـى مسـتوى المجـال وأنظمـة الاسـتغلال والإنتـاج، بتحـول السـهول الخصـبة إلى مجـالات ممتـدة للرعـي والانتجـاع، كمـا شـجعت علـى الرعـي الـذي يـتلاءم مـع التوغـل في الجبـال، لأن الاقتصاد الرعوي يصبح أكثر ضمانا لأمن القبائل من الاقتصاد الزراعي.

وأوضـح البحـث أهميـة النشـاط الرعـوي بمـا يـوفره مـن حيوانـات نفعيـة، والـتي عمـت فوائـده مختلـف فئـات المجتمـع بطـرق مباشـرة وغـير مباشـرة، كاسـتغلال أصـوافها وأوبارهـا وأشـعارها أو اعتمادهـا للركـوب والحمـل والحراثـة بهـا وشـكلت في الوقـت نفسه أساسا لقيـام حـرف أخـرى داخـل المجتمـع، غـير أن هـذه الفوائـد لا يمكـن تحقيقهـا إلاّ مـن خـلال العنايـة بهـذه الحيوانـات وتخصيصـها برعايـة تليـق بحـال ضـعفها، وتتناسـب والدور الحيوي الموسوم لها، ولذلك عدّت الرعاية سعيا مشكورا وعملا مأجورا.

وفيمـا يتعلـق بـأمور تنظـيم الرعـي يمكـن القـول إنّ المصـادر الفقهيـة بأنواعهـا كانـت كفيلة بتوضـيح مـا للراعـي ومـا عليـه، سـواء أكـان هـو صـاحب الماشـية أو راعيـا مسـتأجرا، وكـل أمـر كـان فيـه تعـدي أو تفـريط المسـؤول عنـه ملـزم بالتضـمين، والملاحـظ مـن خـلال هـذا النـوع مـن المصـادر تلـك القضـايا الفقهيـة الـتي تجـاوزت علاقـة الراعـي بصـاحب الماشـية إلى أصـحاب الملكيـات الزراعيـة، خاصـة إذا تعـدت قطعـان الماشـية الأراضـي

الزراعية وأتلفتها؛ فيصبح كل طرف مسؤولا أمام الشرع الإسلامي عما صدر منه من تفريط.

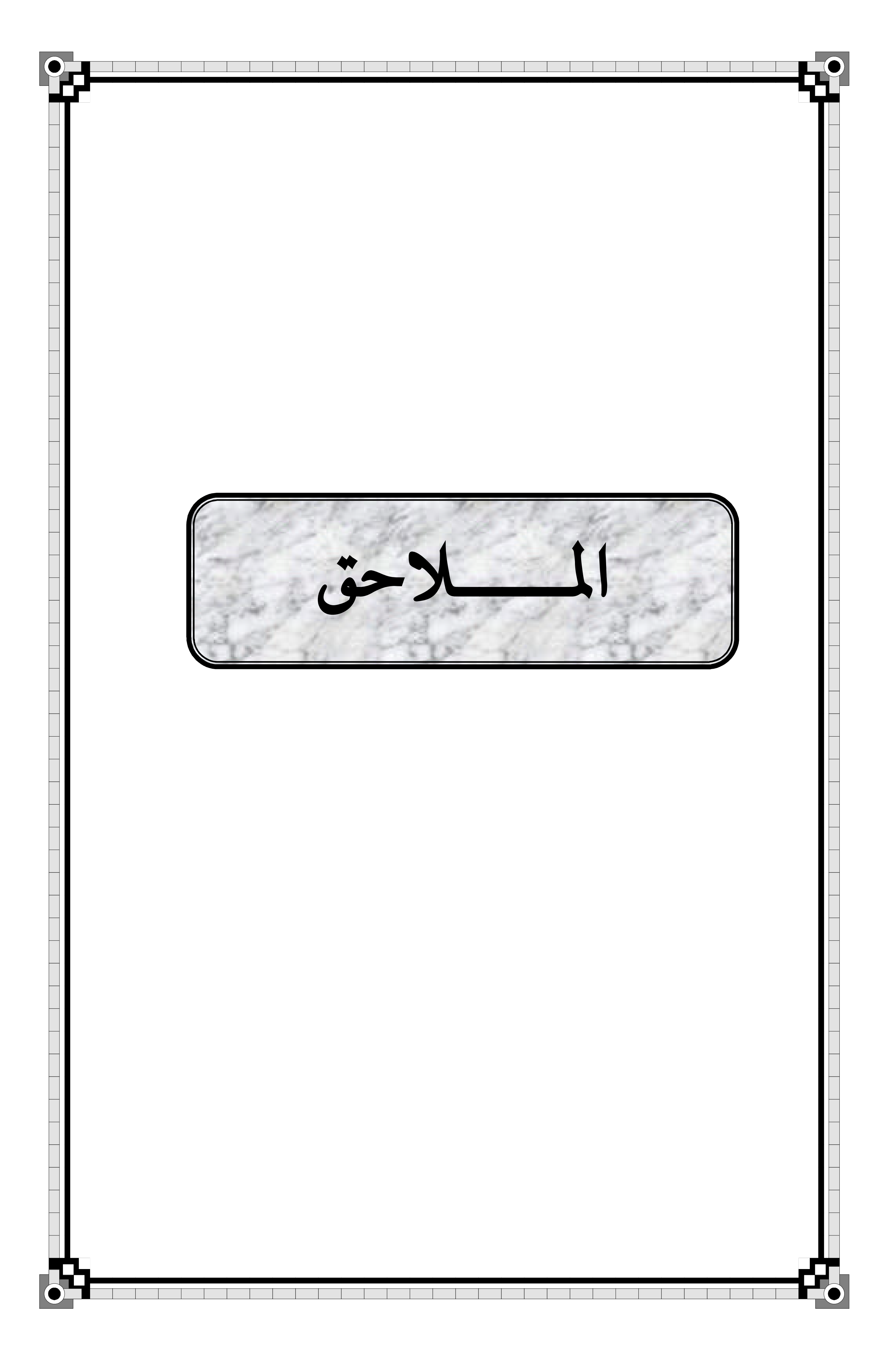
كما أبرزت الدراسة أن الصناعات المعتمدة على الثروة الحيوانية كمصدر للمادة الأولية قد تنوعت بين الضروري للاستهلاك اليومي، وبين الكمالي كمظهر من مظاهر التمدن والتقدم الحضاري، لكن حسب طبيعة المجتمع من الحضري إلى البدوي، وحسب المستوى المعيشي من الغني إلى الفقير، كما أن تطورها يعود إلى جملة من العوامل المساعدة.

إلى جانب ذلك، ساهمت الأسواق الريفية المحيطة بالمدينة في توفير المواد الخام ذات الأصل النباتي والحيواني اللازمة للحرف والصنائع المختلفة، ولم تكن المدينة قادرة على غلق أبوابها في وجه البضائع والمواد الأساسية الوافدة عليها من الريف، هذه العلاقة التي لم تستغن عن الدواب كوسيلة نقل ضرورية للمسافات القريبة والبعيدة.

والملاحظة العامة، أنّ المغرب الأوسط لم يختلف عن غيره من مناطق المغرب الإسلامي في مسائل تنظيم الرعي، ولا في الضوابط الشرعية التي تحكمت في ممارسته، لأنّ المنطقة ككل عرفت انتشارا للمذهب المالكي، وكان استناد الفقهاء واستشهادهم يرتكز على أقوال وآراء عدد هام من العلماء المتقدمين والمحدثين، لكن لا نعلم مدى تطبيق هذه الأحكام داخل مجتمع العصر الوسيط، هل كان ما ورد ضمن المصنفات الفقهية مجرد نصوص نظرية أم كانت أحكاما يعمل بها الأفراد في مجتمع يغلب عليه العرف؟، وهذا ما استشعرناه عند تحليل بعض النوازل الفقهية، والتي ندرت عند مرحلة موضوع هذه الدراسة.

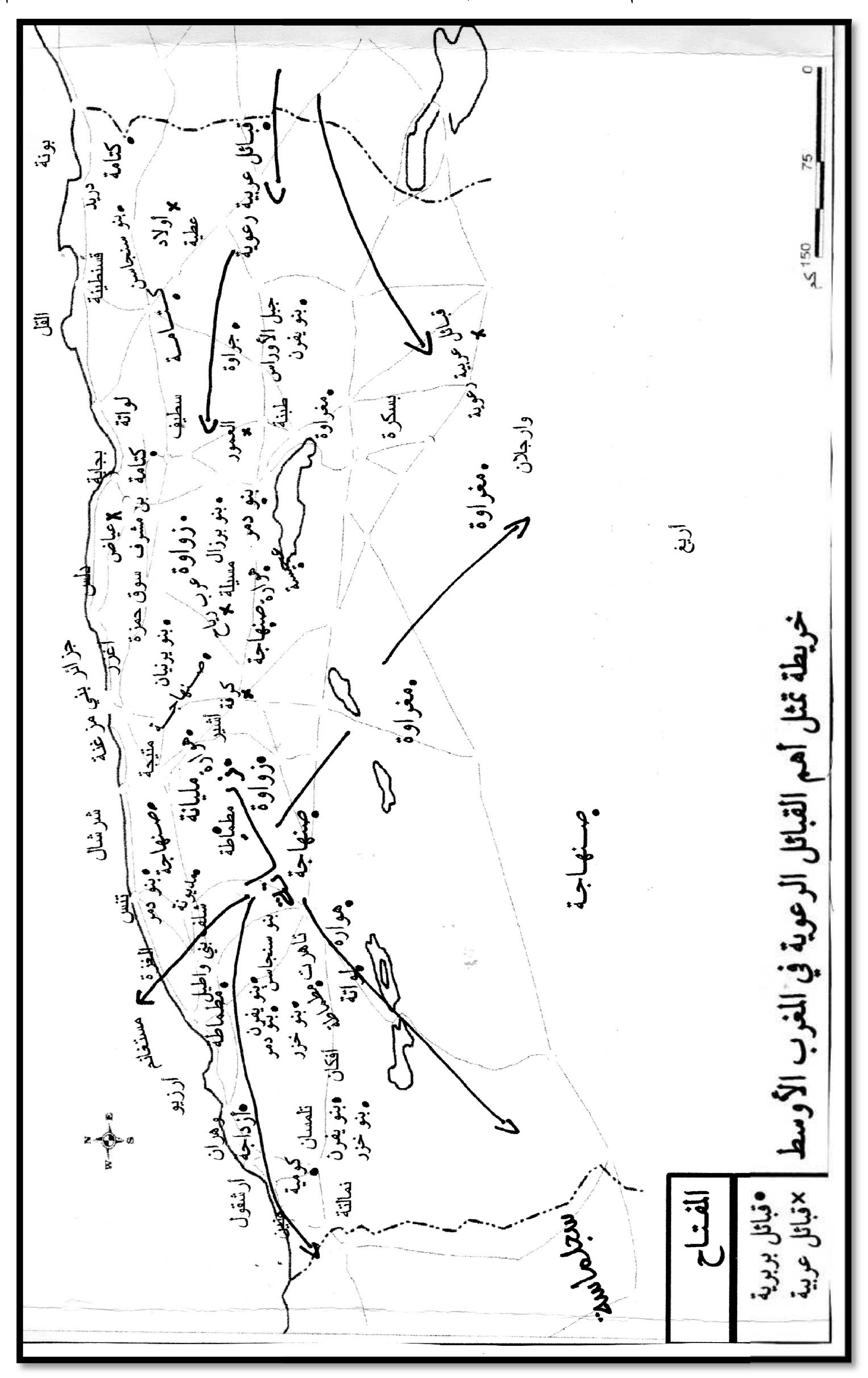
كما تبقى ظاهرة البداوة وممارسة حرفة الرعي لدى بعض القبائل الرعوية إلى يومنا هذا تحتاج إلى مزيد من البحث، خاصة وأن بعض الأفراد المعروفين باسم حميان

أو الكسـابة أو القْبَالَـة يعرفـون انتشـارا واسـعا عـبر العديـد مـن منـاطق الـوطن؛ إذ لابـد مـن البحــث في الأعــراف الــتي تــربطهم بــالثروة الحيوانيــة والمنــاطق الرعويــة، والنظــر في مــدى تطبيقـيهم للقــوانين المتعلقـة بنظـام الرعـي، وهــل أصــول هــذه العناصـر الممارسـة للحرفـة بربرية أم عربية من بني هلال؟.



المـــــلاحق

الملحق 1([1]): خريطة تمثل أهم القبائل الرعوية في المغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/ 10-11م



[1]- من خلال المصادر الجغرافية (اليعقوبي، ابن حوقل، البكري)

ملحق 2: قضايا فقهية حول مواطن تضمين الرعاة. البويعقوبي، تحفة القضاة ببض مسائل الرعاة، ورقة، 8.

ملحق 3: تخير زبول الحيوانات لتطيب الأرض. الزهراوي، كتاب الفلاحة، ورقة4، 5.

71 129

بقوله ... أوجب ان يسود القول فيه عن الكلب العقور وانظر المسألة
موضعها ان شاء الله تعالى **مسألة** فيما مر على شفة القارة فيا ... او افسد
بعضها انه يلزمه ضمان ما افسد لان الصبي يلزمه ما افسد **مسألة** [illegible]
[illegible] جائزة [illegible] أنه يجوز لان السايق والقايد والراكب
يضمنون **مسألة** اخبرنا غير واحد من شيوخي قال اخبرنا ابو علي الحسين بن محمد قال
اخبرنا ابو شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب قال اخبرنا ابو محمد عبد الله بن ابراهيم
ابن جعفر الاصيلي قال نا ابو بكر احمد بن عبد الله بن عبد المومن قال اخبرنا [illegible]
محمد ابو سعيد قال انا ابن زياد قال نا ابو قرة موسى بن طارق قال وسالت مالكا عن
الماشية تفسد الزرع كيف يقوم قال ينظر الى قيمته يوم افسدته على قدر ما يرجا
منه ويخاف فان بعض الزرع يخاف وبعضه لا [illegible]
يقوم قال ابو قرة قلت لمالك ان وجد الماشية في زرعه فقال ربها من يعلم انها هي
افسدت هذا قال مالك اذا وجدها فيه فحبسه [illegible] قلت لمالك
فان وجدها بالليل في زرعه فاخرجها فحبسها فجاء صاحبها فقال من يعلم انها
افسدت لك فقال مالك [illegible] لا يتهم باعتراض اموال الناس ولكن
لذلك سبب [illegible] ان يحلف صاحب الزرع ويغرم له ما افسدت قال ولو
لم يقر الا ببينة لتلفت زروع المسلمين **مسألة** وسئل عن [illegible]
لا [illegible] فيقع فيها البقرة او الشاة هل يلزمه ضمان ما هلك فيه فاجاب ان [illegible]
في موضع يعلم ان الماشية تصل اليها وتقع فيها [illegible]
[illegible] الا في موضع لا يخشى وصول الماشية اليه [illegible] او الموضع
المنيع [illegible] لم يلزمه ضمان ما سقط فيها وبالله التوفيق
مسألة وكان [illegible] في المراة او الرجل يعطي الثياب لتغسلها [illegible]
[illegible]
[illegible]

ملحق 4: مسألة حول ما أفسدته الماشية من الزرع. ابن الحاج، نوازل ابن الحاج، ورقة 129.

ملحق 5: مفهوم الموتان عند ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، ورقة 4.

يستقر عندها في أفعاله الطبيعية وهو ضد الصحة التي هي حالة
طبيعية تكون عنها استقامة أفعاله وكلاهما يعتني به الطب أما
فلإزالته ودفع آفته وأما في الصحة فلحفظها وتثبيتها إذ الطب صناعة
حاصلة عن العلم والتجربة تحفظ المزاج الطبيعي على حاله وترد المزاج
الحائر عن الاعتدال إلى الحال الطبيعية **وقولنا** عام يحترز من
المرض الخاص بشخص أو أشخاص مما لا يعد عاما في العرف وهو
وما بعده من القيود ينزل من هذا الرسم منزلة الخواص إن لم نقل إنها فصول
وهو إلى الحد أقرب منه إلى الرسم **وقولنا** للناس يحترز من الموتان
الذي يكون عاما للماشية وغيرها من الحيوان **وقولنا** قتال
غالبا يحترز مما يعم من الأمراض لكن تصحبه السلامة ويتم صحة
البرء ولا يعد من هذا النوع **وقولنا** عن سبب مشترك يحترز
مما عسى أن يتفق من عموم أمراض مختلفة الأسباب في موضع ما
وظاهر كلام الأطباء أنها وإن كان عنها موت فإنها لا تعد وباء
لأن أسبابها مفترقة والأمراض الكائنة عنها مختلفة بالنوع وكونها
في موضع واحد مما هو بالاتفاق وإن أطلق عليها وباء فبحكم الشبه
الظاهر وعلى جهة التوسع والمجاز **وهذا النوع**
من المرض هو أحد نوعي الأمراض التي سماها أبقراط بالأمراض
الوافدة فأحد النوعين هي الأمراض التي تعم كثيرا من الناس في وقت
واحد فمتى كانت متطاحة سميت موتانا ومتى كانت سليمة خصت
باسم المرض الوافد ومتى كانت خاصة ببلد دون بلد سميت الأمراض
البلدية وقد قلنا إن الموتان في أصل وضعه خاص بالبهائم لكن على ذلك
4

الفـــهارس العامة

الحديث	الإحالة	الصفحة
*إِنَّ الْلَه كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَبْحَةَ، وَلِيُحِدَّ أَحَدكُم شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِح ذَبيحَتَهُ	النووي، المصدر السابق، ج13، ص90	191
*إِيَّاكَ وَالحَلُوب	المصدر نفسه، ج13، ص177	190
*الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة	ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج6، ص67	268
*فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ	نفسه، ج14، ص202	195
*لَعَنَ اللَهُ الَّذِي وَسَمَهُ	نفسه، ج14، ص81	196
*مَنْ احتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ الله، إِيمَانًا بالله وتَصْدِيقًا بِوَعْدِه، *فإِنَّ شِبعَهُ وريَّهُ وَرَوَثَّهُ وَبَوْلَهُ فِي ميزَانِهِ يَوْمَ القِيَامة	ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج6، ص71	197
*مَنِ اقْتَنَى كَلْباً لاَ يُغْنِي عَنْهُ زَرْعاً وَ لاَ ضَرْعاً، نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ، كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ	النووي، المصدر السابق، ج10، ص202	202

﴾حرف الألف﴿

﴾حرف الباء﴿

﴾حرف التاء﴿

ﮪحرف الألفﮫ

ﮪحرف الباءﮫ

ﮪحرف التاءﮫ

ﮪحرف الجيمﮫ

ﮪحرف الحاءﮫ

ﮪحرف الدالﮫ

ﮪحرف الراءﮫ

ﮪحرف الزايﮫ

﴿حرف السين﴾

﴿حرف الصاد﴾

﴿حرف العين﴾

﴿حرف الغين﴾

﴿حرف الكاف﴾

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

ﮋحرف الألفﮊ

ﮋحرف الباءﮊ

ﮋحرف التاءﮊ

ﮋحرف الجيمﮊ

☙حرف السين❧

☙حرف الشين❧

☙حرف الصاد❧

☙حرف العين❧

ꕤحرف الفاءꕤ

ꕤحرف القافꕤ

ꕤحرف الكافꕤ

ꕤحرف اللامꕤ

ꕤحرف الميمꕤ

حرف النون

حرف الياء

فهرس الموضوعات

ملخص

عرف الرعي وتربية الحيوانات انتشارا واسعا عبر العديد من مناطق المغرب الأوسط، وارتبط ارتباطا وثيقا بالظروف الطبيعية والعوامل البشرية، وكلها عوامل أثرت على النمط المعيشي لدى القبائل الرعوية خاصة الرحل منهم، اللذين اتخذوا من الترحال والتنقل عبر الفيافي وسيلة لتوفير حاجة مواشيهم من الماء والكلأ، داخل مجتمع أثبتت الدراسة المعنونة ب **"نظام الرعي في المغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/10-11م"** أنه رعوي بالدرجة الأولى، خاصة وأن أهم القبائل المستقرة به زناتية، مشهورة بطابعها الرعوي بنوعيه المستقر والمتنقل. إنّ اهتمام الأفراد داخل المجتمع البدوي في المغرب الأوسط بالثروة الحيوانية من مواشي ودواب، شجع على ازدهار الأنشطة الاقتصادية المختلفة، إلى جانب ذلك شكلت هذه الثروة مصدرا هاما للمواد الأولية لتلبية حاجيات الأفراد، لذلك يعد الحفاظ عليها وتحسين أنواعها من الضروريات.

الكلمات المفتاحية:

الرعي؛ تربية الحيوانات؛ المغرب الأوسط؛ القبائل؛ زناتة؛ الرحل؛ المناخ؛ المستقرون؛ السلطة؛ الرعاة.